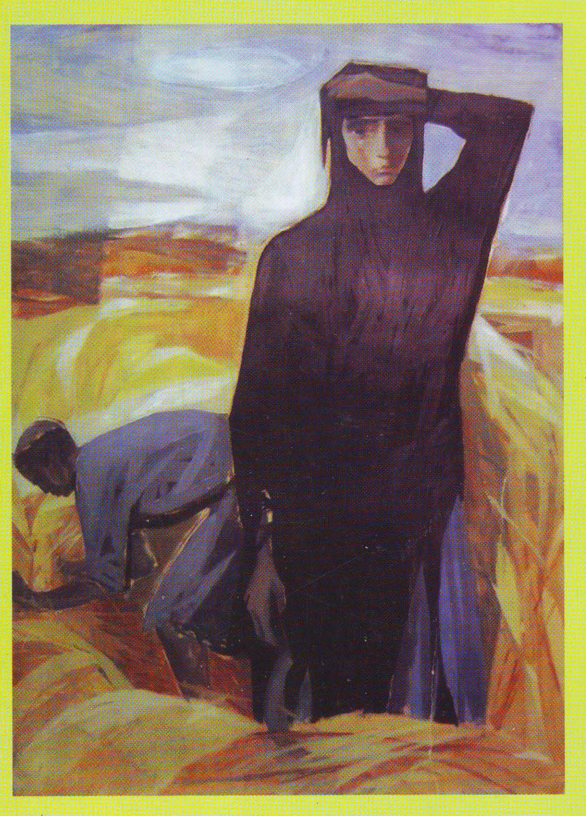
شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية الزنـاد

الكتاب : الزناد

المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد



نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط – قضاء الحـــي – ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القـــرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحـــداره من اســـرة علوية (من الســـادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحـــيط الذي يعيش فيه ومنحهُ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياســـري المدارس الحـــكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهُ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حـــفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القـــراءة والكتابـــة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقـــائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ــــــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ــــــــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحـــيان للأختفاء ، منعته من تحقـــيق هذا المشروع.

ــــ أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبـــح لديه عمود يومي يكتبـــه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحـــية ومشـــكلات الريف ، اما بـــرنامجه الاذاعي (احجيها بصراحه يبو گاطع) فقد كان خطاً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

*عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البـــلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين ســـجن بـــغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربـــا ليعمل مندوبـــاً لوكالة الانبـــاء الفلسطينيه في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأســـرته ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل الســـلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

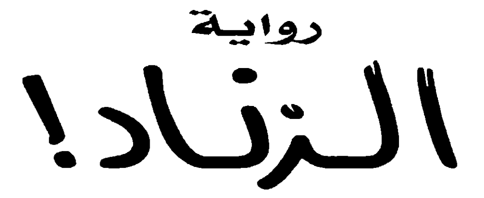
* ومع انغماس (ابو گاطع) في العمل الصحفي ، الاأنه كان يردد بأستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي ..وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

الزناد

شمـــران اليــاســـري

رواية



الـزنـاد!

الجزء الاول من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت براعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-.

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوگاطع) اديبا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجه الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة والاعلام (سابقاً) لتعضيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو گاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ١٩٦٣.

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها.

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحود على (ديمته) مقابل هذا الزناد..

ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغيّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة.

لقد عاش (ابو گاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي.

إن ما تعلّمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفّرد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة.

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها، وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محض حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزاءها، وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كَاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والربح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخاف جنبا" الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القاريء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس ُأحمّيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه إبن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ..٢٠٠٣ فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعادت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري ـ ابو كاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وِأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخّلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسري
شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

تـوالت الاكـف تزيـح الرمـاد عن وجه النـار. أوقف مـداعبـاته للمـسبـحة. شغلت اصـابعه بـ (السبيل) ليحـشوه تبغا. سـاد صمت لا يقطعه الا عزف الريح على حبال الربعة. تسلل الهواء باردا، عبر نسيج الستار المهلهل، مثل شتيمة ماكر غلفها بموعظة. اقترب الرجال من بقايا النار. تحركت المسبحة فوق كف حسين. لابد انه عـاود الانشـاد ثـانية- يسـتعذب ترديد الشعر، لا فـرق ان كان لـنفسه أو للاخـرين. بعد بـيت شعري مـؤثر تتداعى ذكـريات مـطمـورة ولـربمـا حفـزته الـذكرى للـبحث عن قـائل الـبيت، يـود لـو يعـرف الشـاعر. مرارا تمنى لو يناقشهم وجها لوجه، يستوضـح او يصـحح انه الان يتذكـر (ابو الغمـسي) : لو ادركت زمـانه وعايـشته لسـألته: اخبرنـي يابطل عصرك وشاعـر زمانك، لماذا تـحمس بعضـهم لرواية شعرك، واصر آخرون علـى انه منسوب اليك؟. أتـراهم يظنون الـشعر لايناسـب بطلا من امثالك!؟ تـرى ما هـي الـحكمـة في أن يتخلـى شاعـر عن مثل هـذا الشـعر الـرائع، ويتطوع في وضـع اسمك عليه!

خفق الـستار من ناحية الـشمال، كأن الريـح تستـأذن بالدخول، فامتلات ربعة سعدون ببـرد كانون. أدركوا من حركة المـسبحة أنه اختتم بيت الشعر بهوسة. ثمة نجـوم تضـيء، تتسلل خـيوطها الى مـواقع اجسـادهم من خلال نسيج الربعة ومستـطيل الباب. بكى الرضيع خلف سـتار القاطع بين الربعة وبيت العائلـة، ثم سكت بعد ان تنـاوشت شفاهه الرقـيقة حلمة ثـدي. عندها ترنم حـسين بابيـات من الـشعر ، فـارهف الرجـال السمع، لـم يتبينـوا غير الـهوسـة: (ذبـوله ارغيف وهـز ذيلـه!)، ثم غلفهـم الصـمت. كف حـسين عن مـداعبـة المـسبحـة. شغله حـوار مع نفسه: كـأن البُـرد يعـوض عن المـآتم

والمواعظ، فلا تلوح عمائمهم الا حيث يشتد ريح السموم. وزاد الصمت في برودة الجو، وكثافة الظلمة: لو بعث يزيد ثانية لسار خلفه الباكون على الحسين. وفي جميع الا حوال لابد من حسين شهيد يبكونه.

يئس (غافل) من مبادرة سعدون بن مهلهل، وتأكد له انصراف خلف لنفسه، فطلب ان يبدد حسين الوحشة بشئ من الشعر، تاركا له حرية الاختيار. تنبه خلف في اللحظة المناسبة، ود لو يسمع الهوسة الجديدة مستدركا باعجاب ظاهر:

– حسين.. بروح مهلهل. ياهو اليجيب لك الهوسات والاشعار من الفرات.. لهناه؟.

ضحك حسين بانتشاء.. واجاب:

– الشاعر عنده ملايچه اتسولف له!

ارتعب غافل وعيناه تتسعان، تنتقلان في الظلمة بخوف:

– بسم الله الرحمن الرحيم.. يا الله دخيلك من الملايچه!

رد حسين بتهكم..

– لو اتحط لك مخيط بعكالك عن الملايچه.. احسن لك.. وروح والدك!

– ياخويه جوز من هلسالفه.. گول.. گول البيت الراده خلف..

تراقصت حبات المسبحة على كفه، ثم طواها حول معصمه وراح يفتل شاربيه. لم يتبينوا تعابير وجهه في الظلمة. كان صوته رخيما وهو يقرأ:

اكلن لچ يجامعة الحسن عيناچ

فن كوكز وديلي بعسكره يدناچ

كون اهلچ جفوچ احنا بطرب جيناچ

خل يمن كلبچ يرعيعه

إهتز رأس خلف اعجابا ، ورددت شفاهه مقطعا مبتورا..

(عسكره يدناچ. بلا بوش دنيا!)

هم غافل أن يستزيد من الشعر. الا آن هاجسا ما جعله يصمت، اراد التأكد اولا، ان كان سعدون بن مهلهل يستمتع بما يقال! ألفاه منشغلا عنه مع نفسه حيم السكون مرة اخرى. غرز خلف (خاشوكة النار) في حوض الموقد ، ليستخرج بقايا الجمر المدخر. احس الخيبة اذ وجد الذخيرة بضع جمرات مبعثرة بين الرماد. فتساءل متوهما:

- يمكن الليلة تعللنا اهواي؟

ثم لوى رقبته ، وتطلع من باب الربعة، ليرصد الوقت من مواقع النجوم فأجابه حسين:

- لا ، ولا لك لوا، ماسهرنا اكثر من كل ليلة، لكن النار طفت چي لنها نوبة غافل.. ومعلومك بين غافل وبين النصوحه عداوه.. بگلبه عشرين محلة يهود!..

رفع خلف ذراعيه، وقرب وجهه من وجه حسين ليستجلي ملامحه.. على اشعة باهته تصدر من نار تنطفئ:

- عفيه! لا عاب حلكك.. غافل صدگك ايزاغل.. بلابوش دنيا!

لم تقف التهمة حائلا بين غافل وبين ان يضحك، واقسم بـ (العباس ابو فاضل) أنه جمع حطبا اكثر مما يجمعون كل ليلة. ثم ختم دفاعه يندب حظه:

- شغل غافل ما يعجبكم. دوم.. دوم.. حتى من يجيب له كرشه تطلعون

بيها عظم!

لم يفلح ضجيجهم في اخراج سعدون من صمته فقد استحوذ عليه النبأ الذي تداولوه في البداية ، تملك أحاسيسه ، وصرفه عما حوله. استبدت به رغبة ان يسمعه مرة اخرى. طلب أن يحكيه (خلف) دون زيادة او نقصان..

رواه للمرة الثالثة: عندما التقيت به عصرا، قال لي أن ابن طرفه عاد من بغداد يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وقال ان شيخ آل صگب نال هو الاخر ألف روبية.. وثمة شيوخ من مناطق اخرى لم يكن حظهم من العطاء اقل.. تذكر حسين ليلة نصب كمينا للصوص بعيدا عن بيته. كانت كلاب القرية تتعارك حول جيفة حمار نافق.. مرق الضبع أمامه قيد خطوات، مستهينا بالكلاب . انقض على الجيفة وحملها بين فكيه عنوة. ثم ساءل نفسه:

أحقا ما يقال أن رائحة الفطيسة تجتذب الضبع من مسافة عشرين ألف ذراع!؟

ألح سعدون مستزيدا

- ياجماعة.. هالانگريزي، شنهو مگصده يطي هاكثر افلوس؟

قال غافل:

- يشتري بيها زلم وروح مهلهل، چاشنهي هيه مضمومه!

وقال خلف:

- ما يخسر بيها شي.. النوط ابو ميه خط.. يطبعونه بديهم.. وبلابوش دنيا!

هيأ حسين اجابة على هذا النحو (تموت گحيله من بخت چلب!)

وسرعان ما استبدلها بقوله:

- هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله!!

ضاق سعدون بهذه المزحة، تمنى لو يناكده بهذه العبارة او بمثلها: أتى على الدنيا حين من الدهر حكمتها حتى الحريم، ولم يحكمها الشعراء أو رواة الشعر ليوم واحد واهمل اجابته على نحو واضح وعبر عن ذلك بموافقته لخلف: على ما عديت الانواط اخطوط ويسوونها بديهم . إشخسرانين بيها.؟

حين ادرك غافل ان سعدونا يطرب لهذه النغمة، اخذ يكررها على نحو اسرع: اراهن على ان بينك وبين الالف روبية اياما معدودات، ومسافة لا تتجاوز رمية عصا. فانبرى خلف مقاطعا، يذكره بحقيقة ما كان لها ان تغيب! أن الانكليز حين يكرمون ابن طرفة فليس ذلك حبا بنقراش الجدري الذي يشوه وجهه، انما من اجل عشيرته. واذا كان ذلك كذلك، فعشيرة سعدون بن مهلهل اكثر عددا. وعند المفاخرة، أرفع شأنا. والانكليز قبل هذا وبعده، شياطين لا تنقصهم معرفة الاحساب والانساب. وكان حسين يترنم بـ (هوسة) من شعر ثورة العشرين، ولما تزل احداثها طرية في الا ذهان، لا تفصلهم عنها سوى ثلا ثة اعوام:

واوي الكوت اجا متعني ومتمور
يكول اشها لربيعه اشكثر بيها اكسور
واوي العارضيه ايگله من ياخور
شيّم اهلك بلچي ايشبعونك!

اهتم سعدون بتنظيف سبيله، مستكينا الى أمل اساسه استنتاجات خلف

وبشرى من غافل ليس لها ثقل في الميزان مرددا في سره:

- خير الاستنتاجات ما تقوله أنت ياحسين. تتحدث وكأن حجب الغيب قد رفعت عن ناظريك، لو أقلعت عن الركض وراء الشعراء!

- ألم تسمع احدهم يقول: (اشلون ابن الله اتطگونه؟) ويرد عليه آخر: (من كونه ابن الله ابن اخته آنه). تناول كمية من التبغ وراح يملأ سبيله، ولما قارب الحافة، دس ابهامه اليسرى في فم السبيل، وضغطه بعصبية: ربما لعب الخبيث ابن طرفة لعبة، وقال عني ما لا يسر امام الحاكم الانگليزي وجعله يستبعدني من قائمة الشيوخ. لن ينسى ذلك اليوم المشهود وقد مرغنا وجوههم بالوحل. عقل حسين ركبته فاقتدى به الاخرون. وضع راحته اليمنى على السبيل وقد امتلأ تماما. حركها ذات اليمين وذات الشمال، حتى طحن التبغ: اراد لها ابن طرفة ان تكون الحاسمة. لن تشب بعدها لعشيرتنا نار- وسوس كالشيطان لصلال، وكان صبيا. واغرى آل بدر بوعود خلابة- وعليه دارت الدوائر.. بك بدأ- ياحسين - مجد الانتصار، وبك ختم، هكذا أسر لي المرحوم. رفع صوته في محاولة لاستدارج حسين، وبالتالي معرفة توقعاته:

- ابن طرفة خبيث. اعرفه واعرف ادروبه . وچاد سولف عني- بالموزين جدام الحاكم الا نگريزي. ابن طرفة ما ينسى ذيج العملة.. السويناها بيهم.

كف عن معابثة المسبحة. رمق خلفا بنظرة احترام أججتها الذكرى. تخيل وقفته يوم المعركة حين خرج من النهر، ووقف على المترب ليزرع شيئا من الشجاعة، في قلوب الذين انخلعت قلوبهم هلعا.. و(غافل) واحد منهم- ردد خلف هوسته يومذاك بصوت يتدفق حرارة واصرارا ممسكا بندقيته

من وسطها ملوحا بها عاليا،. (كل حي بالدنيا اعليه موته) وكأن لعلة الرصاص زغاريد عرس، وشظاياه من حوله (ملبس واهليه) آه يا خلف لولا قلبك الطفولي- بيدر حنطة بلا حراس- حتى لكأنك تهوى أن تكون المخدوع ابدا، المكذوب عليه دائما. تماسك الرجال. استمدوا العزم من (هوستك) طوبى لمن ملك زمام نفسه عند زخة الرصاص الاولى- بعدها تعتاد اذناه ازير الرصاص، ويتباطئ نبض القلوب. أن تعقل ركبتيك في الخندق، فذلك شئ رهيب، لكنه شرط الانتصار. لو فرض الثوار على رؤسائهم أن يعقلوا الأرجل في الخنادق الامامية، لما فشلت الثورة، ولما سيطر الانكليز. لكنهم كما وصفهم المهوال (بلّشها ونام ابسردابه).

من الانصاف ان يذكر مهلهل بخير. لقد استعاض بشيخوخته عن عقل ركبته كما فعلنا نحن الشباب- حرص على سعدون فجنبه الخطرين: خطر الموت وخطر الهزيمة- وكلاهما أمر من الحنظل. قال بحكمة ودهاء: ابق في القرية فلا يصح تركها خاوية، ولا ينبغي أن تشعر النساء بالوحدة. فلتحسد ياسعدون حظك- اصيل على مربطه، لم تغربله ساحة السباق. فلا أنت قتيل مع صگر، ولا انت هارب مع (احميد ابو البينه).

التقط سعدون جمرة من الموقد. تحركت فوق راحته مثل (هولة) تتقاذفها عصي اللاعبين. أمال كفه فاستقرت فوق التبغ بضربة محكمة اصابت الهدف. سحب نفسا عميقا ، ليحرق التبغ، وبه شوق لسماع نبوءة حسين..

قال غافل:

- هاي قسمة ونصيب. وروح مهلهل موش بيد ابن طرفه لو الرزج بيد ابن آدم چان باع الهوا بيع.. وقال خلف: الانگريز ما يمشون براي واحد..

الهم رايهم. وعرض حسين رأيه على صورة تساؤل: هل تتعفف انت ياسعدون عن سلقه بلسانك لو سئلت عنه ذات يوم؟ وهل تتردد في جلد ابن طرفه (لو عرض علباه للراشدي!) واذا سمحت لنفسك أن تفعل بالخصم ما أنت قادر عليه، فلا تستغرب، ولا تستنكر أن يكيل لك الصاع الذي تمنيت أن تكيل به!.

ضجوا بضحكة قصيرة، وأماتها صمت مفاجيء. تشاغل كل منهم بتهيئة سبيله، نفخ غافل حزمة دخان رطبة في وجه سعدون وسأله بلهجة تجمع بين الجد والهزل:

- سعدون بروح مهلهل لو اطوك الف ربية.. شتسوي بيهن؟

أجاب سعدون بلهجة الواثق:

- بسيطه! آخذ الخمس.. والبگايا للعشيره.

لم يأت بجديد. فقد تعارفوا منذ زمن ضاع تأريخه، على أن تكون حصة مهلهل ومن بعده سعدون، الخمس من الغنيمة والسرقة وغلة الارض. وما كان ذلك دون مقابل، فهو الذي يواجه الجابي ويدفع الضريبة بعد أن تجمعها العشيرة. وفي بيته ينزل الجباة، يحصون المواشي ويأخذون (الكوده) كل عام. واليه أوكلوا قضاء العشيرة، وهو سفيرها لدى العشائر الا خرى. في ربعته يشربون القهوة ويبددون الوقت الزائد، فالربعة ناديهم ومسجدهم ودار ضيافتهم.

قال خلف بثقة:

- اسمع. حصتي من الالف ربية، زبون شال ترمه.. وبلابوش دنيا!

فردد حسين هوسة (ومن يعرض لك جاون جيبه!).

ولم يدركوا مغزى الهوسة. عرفوه هكذا، يردد المأثور او بيت الشعر في أي وقت شاء، ولا يجيب عن اسئلتهم.. لماذا! ولمن! وكيف! ومع ذلك لا يجرؤون حتى على التفكير بان حسين يلقي الكلام على عواهنه، ولطالما أسموه في الحضور والغياب وتبعا للمناسبة: (الداهية.. أو الحكيم.. أو الجنّى).

انبرى غافل بحذر وتردد، مدركا آن ما يدعو له غير مألوف، وانه يخطو في طريق لم يدشن من قبل تسوقه رغبة لكسب ود سعدون والتقرب اليه، ولعل حلاوة الاتيان بالجديد والمثير، سبب من اسباب اقتراحه: ينبغي أن لا تبدد اكرامية الا نگليزي وتضيع بين مئات الا يدي. لا تنفع هذا ولا ذاك ولا تترك أثرا ملموسا بيننا. الذي اراه ان تخصص لشيء مهم يعنى الجميع امره.

رفع رأسه نحو سقف الربعة، واشار باصبعه الى ثقوب يتسع الواحد منها لمرور عصفور، واردف: هذا ما يلوگك لبيت مهلهل، حظ العشيره وبختها. اريده وكل العشيره تريده جديد وكاشخ گاعه وسماه، كل الفليان شغل الحي والسجاجيد حياچة بني لام) وعدة الگهوة (شطراوية تتلامع مثل النجوم).

توقف حسين عن العبث بسبحته. تذكر راعي الابل، في الطرف الغربي من هورة البترا.. انطلق كلب صيده وراء أرنب مذعور. ركض.. ركض بعيدا.. غاب عن مدى البصر. رجع السلوقي مجهدا يحمل الارنب بين فكيه.. استل البدوي خنجره، وحز رأس الارنب، ثم رماه للسلوقي... تلقفه بنهم . ضحكت . وقلت: بلابوش ياسليت.. اكل صيدك وحدك!.. رد البدوي

لا يا عم لوحده يكتله اليوع!.

حاول غافل أن يتبين أثر اقتراحه على وجوه أصحابه. ما كان ذلك سهلا ، وقد انطفأت النار وخيم الظلام. تعجل خلف في اعلان موافقته، وقد اذكى حماسته، واستثار نخوته، اقتراح غافل، الذي انصب على تجديد ربعة مهلهل ووجد حسين نفسه يؤيد الاقتراح.

امتدت يد سعدون الى (خاشوگة النار) شطر كومة الرماد، فتلألأ الجمر المطمور: فكرة جيدة ورائعة، والامر يختلف تماما عما تعارفنا عليه.. هم يستخرجون الخمس من الغلة والغنيمة والمسروق، ولم يحدث أن جئت بغنيمة. انه لامر يستحق التفكير، ولكن ما دام السمك في مائه، ولم يخرج الامر من الممكن الى الواقع، فلأتحدث بلغة اخرى. اتخذ من "الخاشوگة" متكئاً، وتنحنح توطئة للكلام. ثم توجه نحو غافل كالمعاتب: ما دام ابناء العشيرة يقاسمونني كل شيء ولم يجرؤ أحد منهم حتى الان، على منع الخمس.. خذ مثلا ولدك عبيد عندما سلب العطار قبل أسابيع. لم يخف حتى إبر الخياطة والحناء والبخور، وصغائر الاشياء التي حفل بها (خرج) العطار، بل حملها جميعا الى بيتي لاستخراج الخمس- واذا كان الحال على هذا المنوال ، لماذا تقترح عليّ حرمان العشيرة من حصتها؟ أتريد أن أكون مثل (أبو بيوضي)؟

الكل يعرف حكاية الرجل الضعيف الذي يتفضل عليه الصيادون بين يوم وآخر، مما يصطادون. فلما رمى القدر ذات يوم بين يديه طائر البيوضي، وهو صيد هزيل لايكبر الحمامة ولايدانيها في طعم لحمها، وقف بين اكواخ الصيادين مجاهرا:

- ياربعنا.. اسمعوا واعلموا.. الحاضر يخبر الغايب ، بطلت الطعمه بين الجيران من عين هاليوم!

دافع غافل بحماس عن اقتراحه : ما ردتها اتصير بدون شور العشيرة.. وآنه اعرف الزلم واحد واحد.. واعرفهم يتونسون على هالراي.

وكان حسين يعبث بحبات مسبحته على نحو موصول.. سمعوه اخيرا يردد: (يزليخا ليوسف تاليها!).


الفصل الثاني

أشرق وجه خلف بابتسامة، حين اقبل احميد ابو البينه ، يتبعه ولداه، وقال لحسين، مع غمزة بالحاجب:

- شلعتها من أبو البينه، عين تضحك وعين تبچي، ذبيحة بيها سبع احظوظ.. بلابوش دنيا!

سأل حسين نفسه: هل يعود خضوع ابو البينه. الى ذلك الحادث التأريخي؟، يوم وقف خلف على مترب النهر ليمد المقاتلين بالعزيمة فرءآه يحبو متخفيا بين الاشواك موليا الادبار للمعركة؟ وهمس لي يومها : لقد رآني الوح بالبندقية وعرف انني لمحته فحاول ان يتماسك لكن حياته كانت عزيزة عليه. وخجلت.. خجلت ياحسين.. أكره ان أطّلع على عورة.. والهزيمة عورة

(فدوه اغدي لك يا ابو ناصر لاتفضحه.. لاتسويها) وجاءت الفضيحة من شخص آخر.. فقد رأته (سعده) وعيّرته: (ها.. يمصّخم شارد؟!!) وكان جوابه وقحا- وقاحة الجبناء: (اسكتي اسكتي. هذا ضرب رصاص ما هو شيل ازرور!!).

التفت حسين الى سعدون وعاتبه ثانية.

- عاداتنا اليصير عنده ولد ما يحمّس گهوة بربعته ثلث تيام.. انت ليش سويتها سبع تيام؟.

اجاب سعدون وفي صوته غنة المغلوب على امره:

- موش بيدي ياحسين.. رادوها هيچ!

ضحك حسين وقال:

- لو ما وادم جاعده چنت اگول عليك خوش بيت شعر.

تكلف سعدون ضحكة وقال:

- اعرفه..

وهمهم خلف:

- هم عرفته . . بلابوش دنيا!

وتطوع غافل فرمى كلمته من وراء الوجاق:

- يمكن آنه هم عرفته وروح مهلهل.. چاهيه شنهي مضمومه!

بارك ابو البينة لسعدون:

- امبارك بها الخيال..

وتوالت التهاني من ابناء العشيرة، في ليلة العشاء:

- امبارك بها لحاصود.. امبارك بها لچادود.. امبارك بها لحاشوش..

ويعيد حسين ترنيمة مع كل تهنئة:

ابني المضغته البارود مفطوم اعلى سرگيها

غم راي التجيب اهدان وتكمطه اعلى رجليها

وبارك سويلم الصگر لسعدون:

- امبارك بها لغزّاي

فاغتنمها حسين فرصة وأعرب عما يدور في خلده:

- اللي باركوا لسعدون، وسموا الولد حاشوش، اكيد محتازين حواشيش، عدهم دبش جثير! واللي سموه حاصود، لازم زرعهم زين وتذكروا الحصاد.

لكن اليسميه غزاي شنهو مگصده؟

الغزو ينراد له زلم من صدگ.. والوادم هليام تتلبد حدر العاگول!

چنا مثل الگرعا اللي تتباهى بشعر اختها.. چنا انزامط بثورة اهل الفرات. لكن من فشلت وحكموا الانگريز، استحلينا هوسة ذاك المهوال: (اخذيني ابسدچ يا خاله!) واظن يجي يوم يفرضون علينا الانگريز كل جريه لازم سلاحها كطوة مسحاه!!

تأفف سعدون متضايقا، ورمى حسينا بنظرة حادة.. يذكره بوصية مكررة، مفادها تجنب الخوض في احاديث من هذا النوع. وقال في سره: يا له من رجل متعب.. غريب الاطوار.. مفتون بالشعر وبثورة الفرات، حتى بعد فشلها.

أطلّ فالح بن سعدون، يحمل هاون القهوة، يتبعه حمزة بن خلف، وقد وضع المحماس على كتفه، كما يفعل الفلاح بالمسحاة.. وما ان اقتربا من باب الربعة حتى انزل المحماس عن كتفه، امسكه بيد واحدة.. اداره بسرعة.. رفعه الى اعلى.. رماه في الهواء مستديرا.. تلقفه قبل ان يسقط على الارض.

صاح خلف، بلهجة انكار تخفي شيئا من الاعجاب، ببراعة ولده:

- ياجماعه هذا موش فرخ.. هذا جني.. بلابوش دنيا!

تطلع عبيد بن غافل في جانب الافق الغربي، وراح يتطاول ويحدد البصر، كما لو كانت الرؤيا صعبة، ولما يزل بين الشمس ومغربها حوالي ساعة. يئس من استثارة الحاضرين، واستفسارهم، فأعلن بلهجة ترهيب:

- شرطه!

حدق الحاضرون في وجوه بعضهم، بعيون زائغة، كل يستجير صامتا. ساد الاضطراب، واختل ترتيب المجلس.. ثم انضم كثيرون الى عبيد في

وقفته. صحح الخبر بعضهم:

- واحد شرطي وواحد قولچي..

امر سعدون بدخول الجميع، واستعاد نظام الديوان. فشرع حسين يردد بجرس معين:

يامرحبا بذوله المجبلين وعلى ظهورهن چنهم شياطين

حرك سعدون كفيه.. مباعدا ما بين اصابعهما وقال معاتبا:

- ياحسين: مية نوبه كتلك.. اكفنا شر هالحچي.. يا معود هاي حكومه.. لاتجيب النا سهبه!

قال خلف همساً:

- گلبي مستراح من جيتهم..

وقال غافل مقاطعا، كأنه يصل ما انقطع من حديث البارحة:

- اجا الخير وروح مهلهل، چاهية شنهي مضمومه!

رمقه سعدون بنظرة تأنيب. فما حديث البارحة الا سر، وما ينبغي كشفه للجميع.

إرتسم الخوف على وجه (احميد ابو البينه). وراح يندب حظه في السر: ضاعت الفرصة. وتحلل خلف من عهده.. قال لي أملأ كفيك من أطايب اللحم أما الآن فسوف يستأثر به هذان اللصان الجديدان. اكره لو دعاني شرطي الى بيته فكيف وهو ينتزع قطعة اللحم من يدي؟! ومن يدري فقد يخفيان مصيبة.. ضريبة جديدة.. ربما خطر للحكومة ان تفرض (الكوده) على الحمير والكلاب.

ثم همس احميد لجاره:

- تف ياول نصيب.. هم حضروها الشرطه!!

فرد صاحبه:

- لا عاب حلگك.. صار العشا زغنبوت بجيتهم.

تطلع حسين في وجه الرجل الذي يصاحب الشرطي، وساءل نفسه مترددا: اظنني رأيته من قبل؟ وسرعان ما تذكر: لقد رأيته بالتأكيد.. كان مع الجندرمة قبيل حصار الكوت.. ايام الجهاد.. لماذا كان الجهاد؟ اعترف انني لا افهم شيئا من اسرار الدين.. الجهاد لحماية حكم العثمانيين.. اللّه ينصر الدين والدولة.. اللّه يطول عمر السلطان. وترجل الجندرمة وادمى ظهر (ابو البينه) وهو يعربد (يريد لوبيا للهصان!) الجهاد مقدس، ماذا يصنع بنا الانكليز؟ لن يفعلوا عشر معشار ما صنعه الجندرمة، اخرس القضية ذات صلة بالدين... ولكن يامولاي. إخرس. اسمح لي بكلمة واحدة. لم لا تصدر فتوى بالجهاد ضد كل الظالمين؟ فتوى بالخلاص. وصرخ احميد ابو البينه (منين اجيب لوبيا.. نازل بالجزيره) ثم عربد الجندرمة (يريد ماي سافي للهصان) (يا بعد چبدي هذا ماينا اللي نشربه) گلب عرب! ولكن يا مولاي هل الدين صخله يحرس ضرعها السلطان العثماني؟ اخرس!. وهز صلال ذيله. لا باشا من عرب ولا ماشه من خشب. (صبري بک ما النا حياة من بعدكم) اخذ الكاولية من ابن طرفه. دفع لها خمس ربيات وتنقلت بين الاحضان. ولافتوى للجهاد ضد كل الظالمين. فتوى بالخلاص.. طفح البشر على محيا سعدون، وهو يستعرض الحال مع نفسه: عشاء (يبيض الوجه) رب صدفة خير من ميعاد. وتبليغ بالحضور الى سراي الحكومة.. لابد انها الدعوة المنتظرة من الحاكم الانگليزي.

تذكر سوآل غافل (لو اطوك الف ربيه شتسوي بيهن؟): وكأنها حمل ثقيل ينبغي التخلص منه بأي ثمن.. يالك من سفيه.. التفت الى الشرطي والساعي وقال بلهجة حازمة:

- تعشوا وامشوا.

فأعتذر الشرطي بضيق الوقت.

وكان احميد ابو البينه يحاور سعدونا في سره (صار حاتم طي بذبيحتي.. خلهم يولون).

أقسم سعدون بشرف الحكومة لن يدعهما يذهبان قبل تناول العشاء.

(احميد ابو البينه): عزت حياتك . . شنهي هالزحمه. يحلف بشرف الحكومة!! لوما خيافة اللّه چنت اگول على شرفك وشرف الحكومة.. خلهم يولون). عاند الساعي ورفض الدعوة بإصرار فرد عليه سعدون:

- المثل ايگول لو تلگاك الخير لا تزل عن دربه.

(احميد ابو البينه): ما گالوا المثل على هيچ حسبه يا حاتم طي- آخر زمان -. بين الخير وبين الشرطي عداوه مثل عداوة ابليس وي بسم اللّه الرحمن الرحيم!!!).

لم ينثن الساعي عن عزمه ، مسببا إصراره بضرورة تبليغ صلال، لأنه مطلوب للحضور في سراي الحكومة صبيحة بعد غد.

فخاطبه احميد ابو البينه في سره: (بس انته ابن اوادم وتعرف الاصول وگايم بواجبك، أصير ممنون لليعرف واجبه.. اشلع الشرطي اشلعه..) ثم رفع صوته حال مغادرتهما الربعة.

- أُفّيش.. هسه استراحيت.. روحه بلا رده!

* * *

استراح سعدون الى جانب (الصيرة) الشرقي، مضيقا عينيه لاقصى حد، يرامق شمس الصباح، مستمتعا بالدفء، وقد نشر التبغ على طرف عباءته لتجففه اشعة الشمس. كان اول القادمين اليه غافل. شرع يتحدث، قبل ان يجلس، عن سفرة الغد.. والحلم الذي اضحى حقيقة. وربما يكون العطاء اكثر من الف ربية. استعذب سعدون هذا اللون من الحديث. ولكنه استدرك، وأعلن تذمره من صحبة صلال:

– ما تنراد السفره وي هذا المگلسن، شايف روحه يفتهم، عود حافظ له اشجم جلمه: يعني.. والى حيث!

وراح غافل يمط الشتيمة لتصير مضاعفة. ادركهما خلف وهما يشتمان صلالا، فأضاف الى صنوف الشتائم مجموعة جديدة:

(ابو المعيديات.. ابو الكاوليات.. ابو الدنبك) وتناهى طرف من شتائمهم لمسامع حسين، قبل ان يصل، فصاح من مكانه:

– غيبة الصبح الواحد بسبعين.! دوركم اياه هالمنعول والدين..

وكانت اول ضحكات يومهم، التي يسميها خلف (غموس الخبز) ويبالغ حسين فيقول:

(الضحچ زادنا).

ملأ سعدون (سبيله) بالتبغ تبعه حسين وراح يملأ (سبيله) من تبغ سعدون المجفف ، ثم غمز لخلف وغافل قائلا:

– خايبين هذا خوش تتن يابس!

واتبع ذلك بترديدة شائعة: عنده اعلوچ دورولـه.. (عنده اعلوچ

طيحوله...). قال سعدون وهو يراهم ينهبون تبغه:

- شنهي هيه.. فرهود؟ بيت محترچ؟!

اجابه حسين:

- ضلعك سمين.. باچر اتحط الالف ربيه على گلبك واتگوم تطفر نهران!

تنهد سعدون وقال:

- اويلاخ ياحسين.. كون صدگك.. اشتكره منها؟ شعره من جلد خنزير!

أخرج كل منهم كيس زناده. امسك الحلقة المعدنية بيمناه والحصاة بيسراه، وعلى حافتها نتفة (الوذيح) وراحوا يقدحون. اشتعل وذيح حسين ثم سعدون وبعدهما غافل- وظل خلف يقدح بلا جدوى، فقال سعدون يسخر من زناد خلف.

- لايامال الگوم ولا يچاچي!

واضاف غافل:

- امكبسن وروح مهلهل ! چاهيه شنهي مضمومه؟

وشارك حسين بقوله:

- مثل زناد الجصاني.. ايدگ عليه من گبر الچلبه للكوت، تالي من ورث گال له : هجم بيتك أبو طگه!

التفت خلف الى سعدون وقال معاتبا:

- عندك صلبوخ زايد.. ليش ما تطيني اياه؟

- اشتدفع بداله؟

وقاطعهما حسين منغما:

عمك خالك لاتنطي حط امتيعك بالينطي!

أطلّت، من وراء الصيرة، حسنه بنت سعدون، وطالبته بخلع الثوب واليشماغ لتغسلهما، استعدادا لسفرة الغد.

لوى خلف رقبته، وتطلع في وجهها المستدير المشرق، وعينيها السوداوين الواسعتين وقال بلهجة حنونة:

- اللهم صلي على محمد.. صرتي مره من صدگك، اتخوفين الجندرمه!

ثم كرر دعابة مألوفة لها منذ الطفولة:

- بعدچ تاخذيني.. يو بطلتي؟

توردت وجنتاها، كتمت ابتسامتها، ولم تجب. سألها ابوها ان كانوا يدخرون شيئا من (الشنان) لغسل الملابس فأجابت: نستعيض عنه بالنخالة.

استأذنهم سعدون لدخول الربعة.. وبعد قليل عاد يستر جسمه بالزبون، مكفكفا اطرافه بحذر. نظر اليه حسين وانشد ساخرا:

خلي الحجل ينشاف كصري زبونچ

گولي جليل الخام من ينشدونچ

امسك خلف طرف الزبون وتفحصه مليا، ثم اعلن:

- ياولد.. هذا زبونك طايح حظه.. موش مال هيچ طرشه.. ومواجهة انگريز..

قال حسين وهو يدقق النظر في الزبون:

- مثل ما گال خلف. اخذ زبوني..

اشار سعدون الى لحيته ورأسه وقال لحسين:

- ينراد لي زيان يا ابو ناصر..

ثم اردف مازحا:

- ترضى امشي للانگريزي بهالحيه المكوشه؟!

- لا ما ايصير. الانگريزي ما ينرادله لحيه امسرحه!

احنى رأسه بين يدي حسين، مخلدا للسكون. وكان حسين يدندن مع خشخشة الموسى (شلك بطول الراس سولك مجيدي ..) فأذا ما استغاث سعدون متألما ، رفع حسين موسه وقال:

- هاه.. تسكت يو اخلي زيانك نص ونص.. اوديك خروعه للانگريزي؟!

- زيان الاسود.. موتتني..

- اليريد المدري شنهو.. يصبر على الأحّوه!

وانشد حسين وهو يسكب الماء على لحية سعدون:

لاتكضي ايام عمرك بلها- واعتلي خيل الصبايا بلها

دني الماي اللحيتك بلها- لو شفت جارك لحيته امزّينه

ضحك خلف وقال:

- صدگك. أبلل لحيتي.. حتى اتزيني بعد سعدون؟

أجابه حسين:

- خايب مالك بغير گلب! هذا رايح للانگريزي ويتزين حتى يصير حلو بعين الصاحب.. انته على يا مال متعب روحك؟!

ولما انجز تحديد لحية سعدون بالموسى، امسك المقص مرددا: (يحلوين الشوارب ما نسنكم..) ثم سأله:

- اتريد اسوي شواربك على طرز العصملي يو طرز الانگريزي؟!

- طرز العصملي اشلون والانگريزي اشلون؟

- العصملي مثل شوارب غافل مفتولات لفوك والانكريزي (ولو لهسه ما شايف واحد منهم) لكن اكيد امدندلات لتحت!

اقترح غافل ان يلبس سعدون ثيابه كاملة، ويتهيأ كأنه في حضرة الحاكم. واكمل الاقتراح خلف، بأن يجري التمارين على مقابلة الحاكم.. فيتصور حسيناً هو الحاكم: يدخل عليه.. ويسلم.. ولما نهض سعدون لتنفيذ الاقتراح، استوقفه حسين، واشار بأصبعه الى الحذاء الذي استحال لونه الى لون الطين وقال:

- سعدون. هذا كلاشك ما يلوگك... انت ما سامع كون واحد يمدح له سلعه ايگل لصاحبه اتلوگك لهالوجه.. فعاد هذا كلاشك ما يلوگك لوجه الحاكم الانكريزي!

فتر حماس سعدون.. وتساءل:

- ياهو منكم عنده اكلاش زين؟

حسين: اكلاشي يعضه الجلب ويعوص، هالتشوفه بعينك..

خلف: احترگت فرده من كلاشي.. وصار مده أمشي حافي.. بلابوش كلشان!

غافل: آنه بالجافله عريان ممن ولا خاف.. صارلي سنتين وروح مهلهل امشي حافي..

التفت حسين الى سعدون وغمزه قبل ان يعلن:

- خوش كلاش عند ابو البينه..

واتبع ذلك بنظرة وابتسامة لخلف.

قهقه سعدون وصاح:

- صادت.. وروح مهلهل . . صادت!

ادرك خلف ماذا يعني كل هذا، فقال بحزم:

- لا. لا. كلشي ولا هاي. هم اتريدون اتذبونها بركبتي.

ضحك حسين وقال ملغزا:

- لا وروح ابوك، مامنها چاره، حسبة الكلاش بركبتك!

رد خلف، بلهجة المشفق على (ابو البينه):

- طاحت عليه طركاعه، من گال عليكم السلام؟

امس اخذت منه طلي ذبيحه لابن سعدون الجديد، وخمس ربيات گرضه، مصرف لسعدون واليوم اتريدوني آخذ كلاشه!

مد سعدون يده الى جيب (الزبون). اخرج كيس الزناد- وناوله حصاة بيضاء، وقال:

- موش هاي الطلبتها؟ هسه شتگول.. تسوا الروحه لبو البينه يولاء؟

تناولها خلف. قلبها بين اصابعه. ابتسم ثم قال وهو يتهيأ للنهوض:

- اروح، وامري للّه.

استوقفه حسين ليملي عليه وصية:

- گل له: انريد كلاشك للبركه! حتى اتصير سفرة سعدون راشده!

- لا اتخاف علي، تعلمت على هالشچولات هم عندي ابو البينه آخر..

ادركوا مغزى قوله، الذي ينصرف الى اخيه جودة، صاحب اكبر قطيع غنم في القرية، وابخل الجميع بأستثناء (ابو البينه).

رجع خلف يحمل كلاش ابو البينه، فأستقبله حسين مهوسا:

(غط جاب الدّره أضوت بيده!)

أعاد غافل اقتراحه: بأن يجري سعدون التمارين على مقابلة الحاكم. وان يتهيأ حسين لتقمص شخصية الحاكم. فأستجاب حسين اولا وشرع يخطب، كما لو ان شيوخ العشائر بين يديه:

– حكومة مال آنه كلش ممنون من شيوخ عشاير الكوت. كلش صديق . كلش زين . ماكو تلايب.. ماكو هرايب.. مو مثل اهل فرات مشاغبين.. خسوساً مخسوس شيخ سعدون بن مهلهل كلش ممنون من هضرتك.. ما يرضى واهد مثل هسين مشاغب يتكلم بديوان مال انته.. ولازم يدير بالك على خلف ابو همزه يسويه صديق مال احنا!

صاح خلف كأنه يدفع تهمة:

– لا عمي. لا. العويذه واللويذه. لا اريد الانگريز ولا اريد صداگتهم.. لا اعرفهم ولا يعرفوني.. نعلة والديهم!

تنبه سعدون الى ان زوجته كانت تراقب حركاته وتصغي الى خطبة حسين وتبتسم فقال لاصدقائه:

– هاي الردتوها، حتى النسوان گامت تضحك علينا..

واشار اليها وهي تحتضن المولود الجديد منزوية في ركن البيت. فخطر لغافل سوآل مباغت:

– سعدون، وروح مهلهل، ما نشدناك ، اشسميتوا الولد الجديد؟

ولم يترك لسعدون فرصة الاجابة، بل سارع يقترح:

– آنه اشوف، وروح مهلهل، سموه صالح، مادام اخوه الچبير اسمه فالح.

فرد عليه حسين ساخرا:

- خايب، اشماله حچيك اتخطري.. چاهو ترهيم شعر فالح وصالح ومالح وچابح!

واقترح خلف ان يحمل المولود اسم جده (مهلهل).

فأجاب سعدون:

- اسميه ورا جيتي من بغداد.. اشوف نتيجة هالسفره واطلع الاسم من النتيجة..

وبدأ حسين ينغم بيتاً معروفا:

يلما خذيتي اهواچ   شسمه ابنچ إيصير؟!



بدأ حسين يخالس ولده النظر، من خلال السنة اللهب المتراقصة.. ثم كف عن مداعبة مسبحته. فخمن ناصر ان اباه يقرأ افكاره، وقال لنفسه : هاهي نظراته تنفذ الى اعماقي المتفجرة شوقا الى لقائها . فتحاشى نظراته، متخفيا وراء خلف حتى يخبو اللهب..

حوم خاطر مزعج استبد بحسين كلية، حمله على الانصراف لمحاورة نفسه: عاشق في عنفوان شبابه- وخطيبته بنت سعدون تتفجر حيوية.. يسيل لها لعاب الزاهد في محرابه- حتى خلف لم يكتم اعجابه وافلتت منه العبارة

(اللهم صلي على محمد.. صرتي اتخوفين الجندرمة)

وحكمة تقول ما اختلى رجل بأمرأة الا وكان الشيطان ثالثهما.. واذا ما سبق السيف العذل ما قيمة الندم؟ كان علي ان آخذ مهمة حراسة بيت سعدون واكلفه بحراسة بيتنا.. لست ادري لماذا اصغيت لوصية سعدون (ابن اخوي.. ابن اخوي.. النشمي ناصر ما اوصيك أكثر صير رجال زين لاتنام وتنغلب أريد انطارتك وگفه) ولم أعرض مبيتي بدلا منه ولكن.. ولكن ياكهلا نسي شبابه ألا تتذكر ساعة حللت السرج عن ظهر الفرس؟ ناولتها السرج، ثم سكرنا بعناق.. ولا يسترنا سوى السرج. العشاق لايعدمون وسيلة اللقاء.. فلوبتّ هنا حارسا وبات ناصر في بيتنا ما الذي يحول بينه وبين التسلل اليها ؟ وعلى مبعدة اذرع من لحيتي يتمددان في فراش واحد.. هل احرسها ام أحرس الفرس؟ انسيت يا ولدا يا كهلا نسي شبابه يا من يخادع نفسه يوم كانت أمه بين سبعة اخوة واخوات وتمددت معها تحت الغطاء؟ وليس بينك وبينهم سوى جسمها ؟ ان سحر العالم كله في

خدمة العشاق ولكل عاشق وعاشقة (كلاو خناس) وليس عبثا قولهم...

فاجأه غافل بسوآل، بعد ان سئم الصمت:

- ابو ناصر شنهي هالسكته؟ هاي موش من عاداتك

فأجاب حسين، دون سابق تدبير:

- المايسوگه مرضعه سوگك العصا ما ينفعه.

رد غافل، لمجرد كسر حدة الصمت.

- لا والله. العصا من الجنه. العصا تنفع المااينفعه مرضعه.

بدأ فالح بن سعدون على غير عادته، قليل الحركة، لايغادر الربعة. ليشعرهم ان مكان ابيه يشغله رجل. حاول مرارا اقحام نفسه بين الكهول، لكن ملاحظاته كانت تتلاشى على التو.

توجه خلف برجائه الى حسين ان يعوضهم الليلة عن وحشة غياب سعدون بأنشاد أحب الشعر الى نفسه.

اوجس ناصر بن حسين خيفة وساءل نفسه بقلق: لئن جاء مزاج ابي الليله وبدأ بشعر ثورة العشرين فيالحظي السيء.. ربما لاينتهي قبل انبلاج الفجر (تصخمنا وتعزينا!) وتضيع ليلة تعادل العمر كله.. ادركت ان ما قدمته في الخفاء هدية ولكنها لم تعرف ما كنهها.. لابد انها عرفتها الآن... واقطع انها تتشوف في ظلمة الليل. كم تحب المرآة.. فلطالما صرفت جل الوقت المخصص لتعليمها الحياكة في بيتنا تتشوف بالمرآة.. وعلمتها الحب قبل ان تتعلم حياكة السجاد- ما اروع وجهها في المرآة حين خالستها النظر من قاطع الربعة.. أجزم انها الآن تتشوف ما احلى التشوف في الظلمة- هل امسكت مرآة في ظلمة الليل؟ كيف عرفت حلاوة التشوف في

الظلمة؟ دعك من هذا الهراء..

انطلقت اسارير ناصر وهمس لنفسه مطمئنا : هانت الشدة!! لم يقع اختياره على شعر ثورة العشرين بل اختار شعر صديقه ابو الغمسي .

آنه دوم اعلى المحاسن شاربي

شارب اسموم الحيايا شاربي

ما يطوبس للهضايم شاربي

وخابت امك يلتعيش بمسكنه

أكتفى خلف بالقول:

- يابعد شاربي شاربه..

وحرك غافل رأسه اعجابا.

وأسرّ ناصر لنفسه معابثا:

(اي واللّه خابت امك يلّي اتضيع الليله).

ثم واصل حسين انشاده:

ياحمد خيل الصبايا بالرهن

ما يعرفن هورهن من برهن

ام العلا بالسيف ما هي بالرهن

غصب علباشا يودي كركنا

استثار البيت حمية خلف، واعتبر دعوة سعدون من لدن الحاكم الانكليزي منطبقة تماما على قول ابي الغمسي فقال بحماس:

- غصب على شيبه وشيب ابوه ودا على ابن مهلهل.

(ناصر: احسن تواده. بيها سبع احظوظ. والاحسن منها لو تروحون

تنامون.. الدنيا بارده واخاف عليكم من البرد! ولو خليتوني وحدي غصب علباشا انوم فالح.. اطمره بفراشه. واشوفه شغلي وياها الليله.. ليله..)

لم يتوقف حسين عند ملاحظة خلف. انشد للشاعر بيتا آخر:

بركعوهن بالمطارج والبطن

بديرة العدوان خاطن والبطن

لا تكولش خيل ابو فدعم بطن

لحكن المديون واستافن منه

(ناصر: الليله استافي القضى والمضى. الف حبه ما بين الخدود والنهود . اكثر من هالوفا اتريدون؟!)

توقف حسين، ريثما يملأ سبيله بالتبغ. عاود الانشاد بجرس معطر، ورق صوت المسبحة على كفه:

لابسه الشاكر وجالبته گلب

يابعد جوز الچلاوي والكلب

الماتشوفه العين يسلاه الگلب

ولو سلاه الگلب جيف اسلاه انا؟

(ناصر: يابويه هذا الحچي الزين..

هسه تمام- يا بعد جوز الچلاوي والگلب- ولو ما شـايف الشاكر.. لكن اكيد شي حلو لو تلبسين.. گطعة فلي هم تطلعين حلوه..)

وخفض حسين صوته، ثم تابع ينشد لابي الغمسي:

لابسه العسجد وخصر الخل خل

وفوكك مجرى الماي شدت خل خل

جيت اكض الزلف گالت خله خل

اشلون اخلي الزلف وحياتي منه

(ناصر: اكض الزلف لو بيدها كچك جابلي والويها لوي واسوي الحچي چويمتين- ابكيفها؟ خله خل!! حسبالها لعب طم أخريزه..)

قدم حسين للبيت التالي: بأنه منسوب الى زوجة ابي الغمسي، لكنه يشك في صحة الرواية ويميل الى انه من نظم ابي الغمسي نفسه، او ربما وضعه شاعر مجهول، بعد ان صنع حكايته، لقصد ما، وسبب الشك في نسبة البيت كما يراه حسين يعود الى ان المرأة في الريف لاتجرؤ على مصارحة زوجها، بأن غيره تغزل بها، وهي في عصمته. والرواية تقول ان ابا الغمسي اعجب بزوجة احد رعاة الجاموس- وهو كما يعرف عنه ولوع بالحسان- فطوى بيته وجاور ذلك الراعي، وفيما كان ابو الغمسي منهمكا بملاحقة تلك المراة، كانت زوجته تتعرض لنفس الشيء من الراعي.. فصاغت التحذير لزوجها في هذا البيت:

ريت ربك يا اغميس بيدرك

ليش مشيك كل زمانك بيدرك

يلتحوف الناس حافوا بيدرك

لا يعطرونه ويفلسونك منه

هتف خلف:

- ايابه.. ايابه.. ذهب.. بلابوش دنيا.. هذا ذهب موش حچي!

وضم غافل رأيه الى رأي حسين، بعدم امكانية المرأة على مصارحة زوجها بهذا الشكل، ولايفصلهم عن الحادث المزعوم اكثر من جيل، ولما تزل

العادات والقيم كما هي- لكن خلفا تجاهل اقوال غافل وكرر أعجابه:

- اصير خادم وممنون لليحچي الصدگك، ما حبيت شي بالدنيا من كثر ما حبيت الصدگك، بلابوش صدگك! وتسارعت حركة المسبحة فوق كف حسين بأيقاع بديع. قرأ لنفس الشاعر:

لاتلوم اشهاب لا ونش وجن

ويحسب الساعات لو راحن وجن

بين نهدچ والخواصر والوجن

ضيعت كارة اكرنفل مثمنه

(ناصر:يا يابه! بين نهدج والخواصر.. اعوينة ابو يومي- وصلت لطين الحري.. وصلت لطين السبلان- خايب يناصر كارة اگرنفل. هو الگرنفل كواير؟ خله ايصير بيادر ياهي مالتك؟ بين نهدچ والخواصر اعوينة ابو يومي..)

وقرأ حسين للشاعر نفسه:

يا خشيف الوارده بشاطي الحلال

وشاده الرأس چفيه حلال

آه واويلاه من شافچ حلال

مصة ارياكج لعيش ابها سنه

(ناصر: يابه.. يامصة ارياكج.. نشفتوا ارياكي واللّه حچي جواهر- ما احسن منه غير روحتكم يابويه.. حتى اشوف شنهي هاي مصة الارياگك- گبل ما شايفها.. اگصى حد واصل ليه حبة الوجنات والركبه).

ياخشيف الوارده من شيب أبوه

وچاسره المشعل بشيبه وشيب ابوه

واليحبچن حيل زين شيب ابوه

والتحبنا الحية ابوها امزينه

(ناصر: الحية ابوها امزينة بموس بايچ.. يو بمنجل اعمى.. الليله انزين شيب ابوها لا ابو الانگريزي الراح ايواجهه لا. لا. الانگريزي احسن دكه سواها بعمره..)

استخفه شيء من الطرب. فراح يهتز منتشيا وقرأ للشاعر

جهجريتي تگرص الممش گرص

وما تهاب الشالخ زناده وگرص

افرث الباگه وغمس بالگرص

اكل واشبع والمدابچ لي انا

(احوه.. احوه.. اعوينة ابو يومي.. اعوينة ابو ساعتي افرث الباگه واغمس وآكل مية گرص.. والطم لطم بالباگه!)

حالما فرغ حسين من انشاد البيت استشعر لذعة ندم وخاطب نفسه: لقد أفرطت.. لقد كنت أهذي.. انظر ايها المتصابي ماذا حل بخلف كيف استخفه الطرب.. وهذا غافل كذلك فما ظنك بشاب مثل ناصر لا يفصله عن خطيبته سوى نسيج مهلهل يدعى ستارا.. ولولا جعجعة الرحى بين يديها لسمعت هذا الشعر الذي القيته دون روية ولا تفكير. ربي حسن العاقبة.

سكت حسين، كأنه يكفر عما بدر بالسكوت. لم يستجب لتوسلات خلف بألقاء المزيد من الشعر. تطلع من باب الربعة، ثم أشعرهم برغبته في الانصراف:

- فات وكت اهواي.. الاحسن نمشي.

اتفق خلف وغافل قبل مغادرتهما الربعة على الذهاب، قبل طلوع الشمس، لتفقد زرع البترا والاطمئنان على زرع الديم.

قطع غافل حواره مع خلف والتفت الى حسين يسأله دون مناسبة:

- ليش بطلت من زرع الديم..؟

همهم حسين بكلمات غير مفهومة ثم رفع صوته قائلا:

- من جنت ازرع ديم، شبهت روحي باليضيف بيت ويظل جاعد بكوسره ما يدري اشوكت يطلع له احد من اهل البيت ويطيه رغيف زقنبوت. وچانت عيني بأيام زرعي للديم مشبوحه للسما اودع الغيمه الماشيه واتلگي المجبلة. تالي گلت: هالرغيف الاسود المشدود بجناح بومه ما اريده!

التفت خلف الى غافل وسأله:

- افتهمت شي من حجي حسين؟

- حرام.. وروح مهلهل.. كلشي ما افتهمت!

أوشك ناصر على فقدان صبره، والخروج عن اتزانه، لعناد فالح بن سعدون، واصراره على مشاركته الحراسة. وقال في سره:

(ما خلصنا من ابو الغمسي الا بالشافعات. انوب فالح صار لي ابو زيد الهلالي!) اقنعه اخيرا بأن اقتسام الليل بين الحارسين هو الاسلوب الافضل، وعليه ان يأوى الى فراشه لمدة معينة يوقظه بعدها لتسلم الحراسة الصباحية، موحيا اليه بأن (المصبحچي) له الدور الاعظم وعليه المعول في صيانة البيت.

كفت عن تحريك الرحى، فشمل الهدوء ارجاء البيت. خرج ناصر

ليحرض الكلاب على النباح، صفر لها و (وشت)، دار حول البيت دورة كاملة. كان الجو منعشا رغم برودته. دخل الربعة ليحمى اطراف اصابعه في رماد الوجاق. خرج ثانية ، متنكباً بندقيته. سمعت وقع خطواته. كانت امها تغط في نوم عميق. قدر ان وقتا كافيا مضى على تمدد فالح تحت الغطاء. دخل الربعة ثانية وراح يعبث برماد الوجاق كأنه يبحث عن الجمر المطمور. فاجأه فالح من تحت الـ (يزار) يسأل:

- هاه.. بردت؟

- لا ما بردان. نام (لا يامال النعويم گلب حافرك . الليله ذار بعيونك ملح!)

سمعتهما يتحاوران، فأنكرت على خطيبها تصرفه، وعاتبته في سرها: غشيم! لا تكفيك احاديث النهار ولم يشبعك كلام خلف ولا الشعر الذي قاله ابوك.. تريد مواصلة الحديث مع فالح لتضيع بقية الليل في ثرثرة لاتغني ولاتسمن. الوقت ليس طوع أمرنا ألا تفهم ياغشيم دعه ينام. لا تضيع ساعات لن تعوض ابدا..

آه من الوقت تقول أمك بعد، قسمة الحاصل مباشرة وأزف عروسا (گلش) حينذاك نمتلك الوقت. واصنع لك بيتا لايدانيه بيتكم- على نظافته وترتيبه- أحوك السجاد والوسائد بيدي واملأ وسادتك بالريش.. وكل خيط في فراشنا وغطائنا يفوح منه البخور دائما.

تناهي اليها شخير فالح. سمعت وقع اقدام ناصر حول البيت فخاطبته مؤنبة:

أخذ أمر الحراسة مأخذ الجد وكأن اللصوص يترصدون غفلته لينقضوا

على الكنز! غشيم.. لقد أدرك أخيرا، ها هو يقترب لابد أنه دخل الربعة.

ارتجفت قليلا ثم ساءلت نفسها: ولكن يابنت يا مستورة. كيف؟ هل تصورتي اللقاء؟ هذا اللقاء في مثل هذا الوقت؟ كلما قاله وهو يدس (المشوفة) في يدي (الليله. الليله) هل ينسف الستار القاطع ويتمدد بجانبي؟ (اشّاه!).

التصقت بأختها الصغرى النائمة. احست دنوه من الستار.. سحبت رأسها عن الوسادة. لامست قدماها ستار القاطع. طرح بندقيته جانبا. سحب فراشه جوار القاطع. دقق النظر: الستار يتحرك. مد يده مؤملا تشابك الكفين اولا. صرخ الطفل الرضيع بصوت يشبه زمارة قصب صنعها غشيم.

فأجفل ناصر. وسمع حفيف ثوبها وهي تبتعد عن الستار رددت الام، وهي تتثاوب، بضع كلمات غير مفهومة، والقمت الطفل ثديه فكف عن البكاء.

غادر الربعة- صفر مرتين، ليشعر الام انه قائم بواجب الحراسة- ساد السكون ثانية. فتساءل وهو يرهف السمع: هل عاودت نومها العميق؟ لو كان الامر كذلك لشعرت حسنة ونبهتني بأشارة. ربما ذعرت وحاذرت اكثر مما ينبغي وعليّ أن آخذ المبادرة.. من هنا أرفع الستار وأزحف وأعرف أين هي الآن.

دس رأسه تحت الستار معتمدا مرفقيه على الارض صرخ الطفل ثانية.

(ناصر: يامشلوع. اشمالك مگروص عگرب!)

نادت الام:

- حسنه. حسنه. اكعدي يمه. وجي لي نار-

(ناصر: نار تشعل ابيج يا منعولة الأهل)

سمع ديكا يصيح في طرف القرية، فركبه الغم. خرج من الربعة فتنسم ريح الصباح البارد. تناوبت الديكة صياحها مؤذنة بانبلاج الفجر. فتضاعف غمه وبدأ يلوم نفسه بعنف: دعك من هذه الثرثرة السخيفة والتبريرات الباردة، ولا تلومن الا نفسك، وعليك ان تعترف بأنك لاتصلح لتدبير شيء وينطبق عليك المأثور:

(ما يحل رجل دجاجة).

استيقظت القرية على ثغاء الغنم وخوار البقر المختلط بنهيق الحمير، فيما اخلدت الكلاب الى السكينة.

سمع خلفاً يصوت:

- غافل.. ياغافل. تريگت يو بعدك؟

(ناصر: بطران! امغبش ايشوف ديمته..)

ثم رأى خلفاً يتبعه غافل، ووراءهما خيط من دخان التبغ المتصاعد من (السبيلين) وسمع غافلا يقول لصاحبه:

- اشدعوه امغبشين. ابو ثور ما أكل ثوره.

(ناصر: تحچي على ابو ثور الما اكل ثوره- ينراد له ذبح وصلخ وطبخ- ما تحچي على ابو (مريس) اللي ما اكل مريسه.. وبينه وبين المريس بس الستار.. وهو چاتله الجوع ومنتعل سلفا سلفاه!).

أجابه خلف مازحا:

- بخيل وما أكل ثوره!

(ناصر: گول جبان وما أكل مريسه..)

ورمقته حسنه بنظرة ملتهبة وهي تقدم له خبز (الريوك).

* * *

جلس خلف على الرابية، التي تفصل هورة البترا عن الديمات، فتراءى له غافل أطول مما هو بكثير. إعتزم أن يمازحه بهذه العبارة:

(غافل وروح ابوك گبل اشويه من چنت تفتر بديمتك زمگك السراب وصرت أطول من الطنطل) ثم ساءل نفسه وهو يمد البصر ناحية البترا: ولكن كل الاشياء تبدو في مثل هذا الوقت اكبر من حجمها الطبيعي ومن هنا جاء قولهم (الجزيره واويها سبع!) وحتى الاصوات تبدو اليوم اعلى مما هي وتسمع بوضوح أكثر.. أرهف السمع بتدقيق فتناهى اليه، من طرف البترا الغربي، مزمار الراعي شجيا. ملأ سبيله. أخرج الزناد. أشتعل (الوذيح) بضربة واحدة. لا يشتعل الوذيح بهذه السرعة ايام الشتاء. ولهذا جُلب انتباهه (الصلبوخ) الذي اهداه له سعدون. تخيله يقول: (هاه! شفت الصلبوخ الاطيتك اياه.. ولا يچاچي من صدگك).

نفخ الدخان متلذذا- فتحرك ببطء- ليس ثمة هواء يبدده. تابع حزمة الدخان بنظره وهي في طريقها الى ديمته. حاور نفسه : ما أوسعها، ولكن ما أقل المحروث منها كأنه- على حد تعبير حسين (شامه بوجه مزيونة) ما كنت اتوقع سخاء السماء بمثل هذا المطر- او كما يقول حسين..غريبة افكاره بعض الشيء، لكنه حكيم ما في ذلك شك.

خلع عباءته تمدد فوقها. وسرح بصره حتى ذاب في خضرة زرع الديمة. ساءل نفسه: ألا تبدو اكثر انخفاضا من هورة البترا؟ لو قدر لجدول البترا

ان يخترق هذه الرابية لامكن إرواؤها سيحا لكن المسألة تتطلب عملا.
والصعوبة تكمن في الحصول على المال. رمق السماء بصعوبة، ودعا
بخشوع: وانت القادر على كل شيء.. هل يصعب عليك تحقيق امنيتي؟.
حوادث لاتعد ولا تحصى. ضرب الحطاب فأسه فأرتد وظهرت حافة
(الكوز) المليء بالذهب فأذا هو مربوط بسلسلة.. وما هو أقرب من ذلك
ورواه لي بنفسه. تبعت الغنم صبيحة يوم ممطر ورأيت شيئا يلمع اخذت
منه القليل ورجعت فوجدت الكنز قد اختفى.. ياله من أثول. أثول غنم. لم
يملأ عباءته. املأ عباءتي. واذا كانت الكنوز تقترن دائما بوجود الثعبان
الضخم للحراسة- ياربي إكفني شره اكمل عطاءك. وسوف اخفي كومة
الذهب. أطوي بيتي على عجل وأرحل. أبنى البيت فوق الكنز ويتساءلون
(اشعنده خلف؟ گول ابو حمزه اشسامع؟ اكو واحد معتدي عليك..
إمسمعك حچايه موزينه؟ بساع.. بساع اتشيل.. لاخبر لاعلم؟ وأجيبهم:
(زهگت من الجريه وخيسة الدمن اريد أشم الهوا..) ويرد حسين ساخرا:
(اشدعوه اشدعوه يا خلف هاي من اشوكت صرت نازوكي شايل بنص
الشتا حتى اتشم هوا.. بلابوش دنيا. على گولتك!).

وينتصب بيتي (ابو سبع طرايج) وعلى بابه ثلاث من اصائل الخيل:
(نجيمه ووذنه وعبيا). ولاتنقطع القوافل بين بيتي وبين المدينة (أذبح
وأصلخ) ولحم وطبيخ وتمر ودبس (واي واي حلو بحلو) وإن هي إلا
أسابيع حتى يلتف حولي الناس ويتكاثرون تكاثر الذباب على الدبس.
واعلن رغبتي في تمديد جدول البترا. من يرفض بعد هذا اللحم والطبيخ؟
وتتكاثر البيوت.. أولها بيت حسين. بعد أن أهمس له: سأجعلك ياحسين في

حيرة من أمر الليرات، لا تعرف كيف تنفقها. ولكن ألا يعني هذا تجاوزا على حقوق ابن مهلهل، بأعتباره شيخ العشيرة؟ أبدا. أما شيخة ابن مهلهل فلا انازعه عليها ابدا ابدا. كل ما في الامر استمتع بغناي وإلا لماذا يعتز الناس بثرواتهم؟ وسوف أجزل العطاء لسعدون ولتكتمل حياتي الجديدة بأمرأة شابة. ولكن ماذا عن ام حمزه؟ وهل في ذلك بأس؟ أثمة غني في الدنيا يكتفي بأمرأة واحدة؟

وبعد هذا الثراء والجاه من يرفض لي طلبا اذا تقدمت لخطبة ابنته- الذهب مفاتيح سحرية.. بلابوش ذهب!. حتى سعدون بن مهلهل لو اقدمت على خطبة ابنته حسنة لا. لا. هذا لايصح. كنت ولازلت اعاملها وكأنها ابنتي. اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الأجدى ان اخطب صالحه بنت احميد ابو البينه. فأجاه صوت غافل:

- ما بيها حظ! چاهيه شنهي مضمومة..

للحظة خيل اليه ان غافلا يذم (صالحه)، ثم صحا من حلم اليقظة، فأدرك ان صاحبه يذم الديمة.

* * *

بكر خلف بمفرده في اليوم الثاني. اتخذ من الرابية المشرفة على ديمته مجلسا. وتابع حلم الامس: .. زفة عظيمة للعروس يفرد لها بيتا بداخله (حوفه) كالتي يصفها حسين في بيوت آل السعدون. ويرقص حتى حسين وسعدون نفسه ويرددون (بعرس خلف ما نرگص؟!) وافرض على جوده ان لا يسرح بشيداهه. اودعهن مع احد رعاة اغنامي.

نهض من مجلسه. قام بتخطيط موضعي لاماكن البيوت وتذكر فجأة:

البنادق.. لقد نسيت البنادق. اشترى.. كم بندقية اشتري؟ خمسين بندقية.. تعلم الرماية ياحمزة (ولك ما سامع تفگك من برا وفشك من برا واللي ما يرمي...) واسأل حسين: هل بقيت لك امنية تريد تحقيقها؟ اما انت ياغافل فينطبق عليك المأثور (نذرك بسيسه) ومطامحك في حدود (ستر العوره وترس الفوره)

وخصص اليوم الثالث لتحديد مجرى (كرمة خلف) كان النهارمشمسا. خلع (زبونه) وراح يجمع الطابوق وكسر الفخار التي كشفتها السيول. شيد علامة على قمة التل. ثم وضع علامات صغيرة الى الشرق منها، حتى الطرف الغربي من ديمته. وقال لنفسه وهو يرتقى قمة التل! هنا عند هذا المكان ينبغي ان يكون عرض (الكرمه) ثلاثة اضعاف عرضها في الاراضي المنبسطة. والصعوبة هنا عند هذا المرتفع. ثم ساءل نفسه بسخرية: عن اي صعوبة تتحدث يارجل؟ لاصعوبة مع اللحم والطبيخ لا صعوبة مع الذهب- بلابوش ذهب! عاد الى العلامة الكبيرة، أضاف اليها بضعة احجار، فبدت شكلا هندسيا يلفت النظر.

وصار خلف يسترسل في احلامه، وهو بين اصدقائه، في ربعة سعدون، يؤثر الصمت على الكلام، فخيل للكثيرين انه قلق بسبب غياب سعدون الذي طال اكثر مما قدر له، حتى غدا حديث القرية كلها. لم ينج من ذلك القلق الا حسنة بنت سعدون وناصر بن حسين، اللذان فتح لهما غيابه الطويل، ابوابا الى الحب لم يحلما بها من قبل. وعبر (احميد ابو البينه) عن قلقه لطول غياب سعدون، وهو يهمس لزوجته ذات ليلة:

- تدرين.. اكلاشي تگطع. وچاد تگطع. اهل بغداد كل مشيهم على

صخر. والصخر ياكل كاعية الكلاش بساع بساع!

*　　　　*

الفصل الرابع

كان يوما دافئا يذكر بآذار، تراءت شمسه اكبر مما هي، واقرب الى الارض من اي يوم آخر، والجو يعبق برائحة العشب الذي نبت في كل مكان حول القرية وبين البيوت. أرخيت حبال الربعة وانتصب عمود الكوسر، فدخل ضوء الشمس جميع زوايا ربعة سعدون. لم يعد للشكوى موضع في احاديث الفلاحين والرعاة*، فالزرع لايعوزه الماء، ونموه السريع يلفت النظر ويبعث المسرة في القلوب. والعشب في متناول كل ضرس.

غادر خلف الربعة للمرة الثالثة: لاشيء يثير القلق سوى غياب سعدون بن مهلهل، الذي طال اكثر مما ينبغي، والحكومة مثل آذار لايركن الى صحوه ولا دوام لأمطاره. ومن يدري، فربما دبرت مكيدة لابن مهلهل- وجرائم الانكليز في الفرات لما تزل ندية في اذهان الناس حتى هنا عند أهل دجلة.

تطاول خلف على اطراف قدميه، واضعا كفه فوق حاجبيه، ليتقي اشعة الشمس. ضيق عينيه لاقصى حد ورفع صوته بالسوآل:

- يا جماعة مدري عيوني اتسورب، مدري اشوف خياله؟

هرع الحاضرون، عدا حسين، وانضموا اليه يتطلعون. بدأوا يخمنون.. انهم ثلاثة.. قال احدهم ان الفرس الثالث بدون خيال.. قطع عبيد بن غافل الشك باليقين، حين أعلن:

- سعدون راجب حصان ووياه واحد، والحصان الثالث محمل أغراض.

أحس الخيبه ناصر بن حسين: كان عليه ان يتأخر الليله (ياسته سوية الستين) ما اروع الطريقة التي ابتكرناها اخيرا.. وتمددنا على الفراش سوية، كل منا يتوسد ذراع حبيبه.

أستقبل سعدون بفرحة، تحولت بعد قليل الى دهشه: حاجيات لاتعد ولا تحصى... موزعة على ظهور (الكدش) تركزت الأنظار شيئا فشيئا على ملابس سعدون اللماعة. عجب (احميد ابو البينه) حين رأى سعدونا ينتعل شيئا أسود، يلمع تحت ضوء الشمس، فحاور نفسه متشائما: لقد صدق حدسي.. وأكل صخر بغداد كلاشي.. وسوف يضيف وعدا الى سابق وعوده بالتعويض عن الكلاش (قيّد يا اسعيد.. وان جان ما عندك سند اقبض حسابك من دبش).

تعانق سعدون مع الكبار.. وقبل الاطفال المحومين حوله، ثم تناول كيسا من الورق وراح يوزع على الاطفال (اصابع الملبّس). فناداه خلف من وسط الربعة: (حصتي من الملبّس.. لا تنسى حصتي من الملبّس) لكن دعابته ضاعت وسط ضجيج الاطفال وصياح (المچاري) الذي كان يتعجل انزال الحاجيات والعودة الى المدينة.

كرر سعدون الوصية على الشباب ان ينزلوا الحاجيات برفق، ويحملونها بعناية، فبينها ما هو قابل للكسر.. وكان زبونه (البّته) محط أنظار الجميع، وهو يتموج تحت اشعة الشمس مثل طوق الحمام.. شرع سعدون بخلع حذائه قبل الجلوس، فلم يكن ذلك سهلا، صار يراوح بين رجليه.. مرة كاد أن يسقط وهو يقف على رجل واحدة، ويرفع الاخرى لحل ازرار الحذاء.. فصاح خلف مستغربا.

- شنهي الطركاعه!! امخيّط على رجلك؟

ثم تساءل وهو يشير بأصبعه الى الحذاء:

- هو هذا شنهو؟

اجابه غافل لما تأخر جواب سعدون:

- مثل مالات الجندرمه.. لكن على غير جنس..

قال سعدون بعد نزعه الحذاء:

- هذا بوتين.

- توتين؟

- بوتين؟

- ب و ت ي ن.. بلابوش بوتين..

كان (احميد ابو البينه) أعلاهم صوتا وهم يرددون الاسم، اجابه سعدون وكأنه قرأ افكاره:

- ابشرك يا احميد.. كلاشك على حطة ايدك.. بس وصلت بغداد اشتريت هذا البوتين.. اللّه يبلى صلال..

ابتسم ابو البينه.. ودارى فرحته بالقول:

- فدوه الك الكلاش.. چاقابل ينعز عليك؟

غرقت عيون خلف في لجة زبون سعدون والوانه الزاهية، التي بدت في الظل اجمل وازهى مما هي تحت الشمس. ففكر متفائلا:

- من المؤكد ان الزبون الذي طلبته مثل هذا.. فلا يعقل ان يشتري لنفسه من صنف ويشتري لي من صنف آخر.. (إخذ فالها من اطفالها) من المؤكد ان المبلغ كبير.. حتى صار يشتري هذا القماش الفاخر وهذا الحذاء العجيب.. وحمولة الخيل التي لا يعلمها الا اللّه.. أتراه عثر على كنز مثل كنزي الذي أحلم به؟. شغل حسين لبعض الوقت بمراجعة العبارة التي قالها سعدون (.. اللّه يبلى صلال) وكانت لهجته توحي بالأعجاب ولا تنم

عن الانكار وساءل نفسه:

ترى هل آخى بينهم الانكليزي وراحت دماء العشيرة هدرا.. هل نسي مقتل صكر؟.

اخرج سعدون حزمة اصابع ورقية، كان يخفيها بين ثوبه وزبونه، وراح يفرق محتوياتها على الحاضرين.. ثم وضع اصبعا بين شفتيه.. فحاكاه خلف.. وقضم الاصبع بأسنانه ليتبين طعمه فنهره سعدون ضاحكا:

- لا خلف. لا لاتاكلها- هاي غليون!

تفحص الجالسون ما بأيديهم. أخرج سعدون من جيبه قطعة معدنية لماعة، يتدلى منها خيط اصفر.. ضرب القطعة المعدنية بكفه، فتطاير منها شرر. صاح معظمهم:

- يا ستار!

وتصاعد الدخان من رأس الخيط، فوضع طرف الاصبع الابيض، الذي اسماه غليونا، فوق رأس الخيط سحب نفسا، مثلما يفعل بالسبيل. ثم رفع رأسه ونفخ الدخان بوجه خلف معابثا.

استعصى عليهم اشعال (الاصبع) من نتفة الوذيح.. ولكن حسين اهتدى اخيرا فرمى نتفة الوذيح على الارض وانحنى فوقها يشعل (المدعو غليونا).

اكتشف اكثرهم خطأه في طريقة اشعاله، اذ وضع (الزبانة) على النار.. وتلقفوا الاسم من سعدون:

- جگاره..

- جوگاره..

- گجاره.. بلابوش دنيا!

كرر سعدون اسمها (جگاره) فحرك حسين رأسه. تذكر بيتا من الشعر قيل عن السيد گاطع:

(يسد بأروافها ويشرب جگاره!)

جاهر به حسين فردده الحاضرون، مما سهل عليهم استظهار الاسم.

اجاب سعدون على تساؤلاتهم عن الزناد الجديد:

- هيچ ينجدح وتورث الفتيله.. ويطفي بس تجر الفتيله..هيچ.. وبنص الزناد حجره من كبر حباية الحنطه.. هاي بدال الصلبوخ اللي (چنا) نورث بيه..

طوى الفتيلة، ودس الزناد في جيب زبونه، ثم غادر الربعة حافيا، تاركا على الوجوه اكثر من علامة استفهام. رجع يحمل صرة تحوي مسابح حسينية. قال وهو يفرقها على الحاضرين:

- سويتها على گولة ابو المثل : هيه تجاره وهيه زياره.. رحت لكربلا.. زرت واندعيت الكم.

قبل كل منهم مسبحته ووضعها على جبينه تبركا بـ (طين) ارض الحسين.

حركها حسين فوق كفه وانشد: تنشدني العربان هالبويمه امنين.

جابوها الى الزوار صوغه من الحسين.

وأمر سعدون ولده ان يستدعي بنات القرية على عجل لهبش التمن.. ثم التفت الى احميد ابو البينة وناوله عشر ربيات (على الحساب) ليحضر ذبيحة جيدة لعشاء الليلة.

استبد بهم الفضول لمعرفة نتائج السفرة المثيرة- كانوا يتوقعون السوآل

من حسين.. في كل لحظة يتوقف فيها سعدون عن استفساراته حول الزرع.

حين غربت الشمس، غادر الربعة سعدون، مكث في بيت العائلة بضع دقائق، ثم عاد يحمل نارا مشتعلة، داخل وعاء لماع تحيطه زجاجة مستديرة، حولها انبوبان، وفوقها غطاء مثقوب من جوانبه. وقد امسك وعاء النار من حبالة معدنية.

- ؟

- ؟

- فانوس

- فنوص؟

- فانوس

- فانوص- بلابوش دنيا!

- عفيه حكومه

- هجم بيت الانگريزي.

- ايباه!! اشلون شغل..

- لا يا مناعيل يا هالحكومة..

وعاجله خلف بالسوآل:

- سعدون. چنها سفرتك زينه؟!

- ابشرك زينه.. زينه كلّش!

ثم أجال سعدون النظر في الديوان حتى استقر على غافل، فزم شفتيه.. ورفع حاجبه وقال:

- لكن صارت موش على رايك..

وحول نظره صوب حسين.. ثم رمق خلفا وكان يريد بذلك تذكيرهم بالاقتراح الذي طرح عشية سفره بأن تكون اكرامية الحاكم الانگليزي مكرسة لتجديد البيت، بدلا من توزيعها على ابناء العشيرة. وادرك اخيرا ان اصحابه قد نسوا تفاصيل ما دار تلك الليلة- او هكذا خيل اليه- فكشف طرفا من اسرار السفرة موضحا. ان الحاكم اقترح عليّ شراء مضخة واشترط صرف الاكرامية لهذا الغرض...

توجه الحاضرون بأذهانهم الى صورة المضخة التي قال عنها سعدون.

- تمص الماي من الشط وتبزه بالنهر..

تطوع غافل ليخفف من حدة الاندهاش الذي سيطر على الحاضرين وقال:

- شفناها- ذبح السنه من رحنا لكربلا.. حصان امعصبين عيونه ويفتر على بير بيه دولاب والدولاب بيه مواعين.... فقاطعه سعدون بأستخفاف: - خايب انته اتغني بالكوز! هذا التگول عليه ناعور.. ثم مضى شارحا:

- المضخة تعمل بنفسها ولنفسها.. دون حصان ولا بغل.. كلها حديد.. لها موقد في بطنها.. يصب فيه النفط، من خزان فيحترق النفط.. وتدور دواليب المكينة من تلقاء نفسها.. فتمتص الماء من الشط وتقذفه في الساقية.. وتظل تعمل طيلة ايام السنة بلا توقف.

ضحك خلف وقال بجرس تهكمي:

- وصدگت بها لحچي؟ واجيت اتسولفه!

رده سعدون بنفس قصير:

- بعد اللي شفته بعيني.. ما اجذب شي.. شفت عجبه.. ازود من المكينه.

ثم روى قصة ركوبه الزورق البخاري من الكوت الى بغداد:

- ايدرولها انگريزي، لا بس كبوس.. ايسمونها فليكه..

- ؟!

- فليكه.

- فليكه. بلابوش دنيا!

- فلك يفلكهم انشاء اللّه

- ياللّه دخيلك من الفليكه..

تحركت الفليكه چك چك چك بغير شراع ولا ملاح.. وملاجيه الماي ملاگاه وچان اتشگ الشط نصين.. حسبالك شبوط بساجيه زغيره.. وهذا ابو كبوس لازم له حديده جنها مطوى ووين ما يريد يوجهها.. ولو رادها توكف ايدك جرس رن رن ن... يسمعه الدريول الآخر الجاعد تحت.. يعرف يلن الغبطان يريد الفليكه توكف.. ايطگ الها الصروع!. قاطعه خلف متسائلا:

- ابو كبوس اسمه غبطان؟

- لا شغلته غبطان

- غبطان؟ عيش وشوف بلابوش دنيا!

وانشد حسين: (طياره طارت فوگك بيها انگريزي..) ثم التفت الى خلف وقال:

- اليسمع بالطياره ما يتعجب بالفليكه. بعد لا تچذب شيء. كلشي

ايصير. ما دام ابن آدم تعلم على شغل الحديد وكام يملچه مثل الطين.. كلشي ايسوي..

قطع حديثهم حضور العشاء الدسم.. وبعد تناوله.. مسح غالبية الحاضرين اكفهم بثيابهم وعبيهم.. دون ان يتكلفوا غسلها بالماء، وعادوا الى اماكنهم بشهية متفتحة لسماع احاديث سعدون ورواياته العجيبة الغريبة.

حاصروه بأسئلة لا نهاية لها. فضل ان لا يجيب الليلة على كل الاسئلة.. فبعضها يحتاج بدايات لبقة وحسن تخلص، مثل السوآل عن مقدار الاكرامية التي منحها له الحاكم الانگليزي.. وما يترتب على نصب المضخة من تغييرات للواقع الراهن في القرية.. وهو الليلة في عجلة للقاء زوجته بعد طول غياب بيد ان اسئلتهم كانت من الكثافة بحيث لا يمكن اختراقها بسهولة، الا بعد فتح ثغرة.. قدر ان لا مناص من اشباع بعض فضولهم، فأوجز قصة سفره على النحو التالي:

وصلنا بغداد. وبعد ثلاثة ايام استدعينا للسراي.. ادخلونا على شخص سمين (يتفصل خمس ازلام مثل خلف!) وجدنا هناك بعض شيوخ (الغربية) يلبسون (الغتر) وبعض شيوخ الاكراد (مچرغدين) وكل واحد منهم يلف على بطنه قماشاً ملونا يكفي لثوبين او ثلاثة. وبعد انتظار قال الرجل السمين: تعالوا غدا.. ولم يتيسر لنا لقاؤه في الغد وما بعده.. وفي اليوم الرابع وفقنا لمقابلة الـ (مشير.. المستشير..) نسيت اسمه لكنه، على كل حال، لا يسمى الحاكم.

ثم التفت سعدون ضاحكا ناحية حسين واكمل حديثه: كنت أغالب

الضحك، رغم حراجة الموقف ورهبة اللقاء.. حين بدأ المشير يتكلم والسمين يترجم.. تذكرت خطبتك، يوم تقمصت شخصية الانكليزي.. فقد اعاد الكثير مما قلته.

واستدرك بلهجة حنونة، يذكر صلالا بالخير: من الانصاف ان اعترف بذكائه وسرعة بديهته.. انه داهية يصلح لمواجهة الحكام.. وانه يهتدي الى كل مكان في بغداد.. الچايخانه.. اللوقنطة.. والمسافر خانه..

واضاف خلف بلهجة ساخرة:

- والتياترو..!

وبادر حسين على الفور بلهجة حاقدة:

- والمنزول..!

فأستاء سعدون من تلك الملاحظات، وأنبرى يدفع بحماس كل التهم عن صلال: اعترف انني كنت على خطأ في تكوين الصورة عن الرجل.. لقد استوثقت من صحة المأثور (الرجال مخابر ما هي مناظر) وان من يسبر غور صلال يوقن ان هذا الانسان شهم وغيور.

فحدق خلف بوجه حسين مندهشا من هذا التحول المفاجئ في علاقات سعدون مع صلال. ولما يئس من مبادرة حسين قال بنبرة حادة:

- صلال مثل ذيل الچلب.. اعوج ما يستعدل طول عمره!

انتفض سعدون انتصارا لصديقه وكرر المثل (الرجال مخابر ما هي مناظر) واكتفى حسين بترديد هوسة:

بس لا يصفر لك وترومه!

فتوتر الجو، وتأكد الحاضرون بأن هذا الجدل قد حول الحديث عن

الوجهة التي ارادوها له، وهي ان يبلغ نقطة الكشف عن مقدار اكرامية المشير.. وما معنى نصب المضخة..؟

وراح بعضهم يطلق لخياله العنان، فيتصور مقدار المبلغ: •

اذا كانت بعض اطرافه هذا الفانوس وزبون البته والزناد والبوتين وحمولة ثلاثة كدش....

تظاهر سعدون بالتعب والنعاس، فأنفض الحاضرون من حوله، عدا حسين وخلف وغافل. تركهم بضع دقائق، ورجع يحمل هداياهم:

لكل واحد (عرقچين) ملونه. امسك حسين هديته·وراح يداعبها فوق كفه منغما:

- فدوه عيني ام عرقچين..

تكلف سعدون ضحكة وقال:

- لو ما حسبة المكينه چا اشتريت الكم صوغات زينه.

اجاب غافل:

- جيتك اكبر صوغه!

تجاهل حسين قوله، وانشغل خلف بتقليب الزناد الجديد، فألتفت سعدون ناحيته وقال بأريحية:

- خلف اخذه.

استكبر خلف شأن الزناد وفكر:

انه ثمين ولا شك.... وابن مهلهل اولى به.. فهو شيخ العشيرة ووجهها الظاهر امام الحكومة وشيوخ العشائر الاخرى.

ثم رفع صوته:

- لا. لا. ما اخذ زنادك.

تناوله سعدون ورماه في حجر خلف وقال بحزم:

- وروح مهلهل لازم تاخذه. آنه جبت اثنين حتى اطيك واحد منهن.

امسكه خلف بفرحة ظاهرة. وحاور نفسه: غدا اجلس في الديوان متميزا عن الآخرين بشيء لم تعرفه المنطقة كلها. انك ذهب تيزاب يا سعدون لن تصدأ ولن تسوء. وغمغم بعبارات شكر غير مفهومة، اذ وجد نفسه عاجزا عن التعبير.

ضحك حسين وقال:

- بس انت مرصعت!

وقال غافل:

- توداة الانكريزي طلعت من بختك.

شاع في البيت عرف بخور يرطب الانفاس. فأمتلأت الربعة بأريجه.. وفغم انوف الحاضرين بتحد.. قال سعدون بصوت واهن:

- اليوم تعبت كلش، من رچب الكديش.. سارع غافل يؤيد:

- صدك رچبة الكديش موش راحه.. وقال خلف ضاحكا:

- الكديش يتعب. بلابوش كدش!

واكتفى حسين بالقول وهو يلف كوفيته حول رقبته ويهم بالنهوض

- **صار معلوم. لا اتذب الخرج بالعجد!!**

* * *

استنتج اهل القرية ان ضيفا كبيرا قد حل في بيت ابن مهلهل، مستدلين بأيقاع الهاون على نحو معلوم لا يجيده غير سعدون، عودهم ان يدق

القهوة بنفسه ويوقع انغاما على الهاون في حالتين: فجر يوم العيد ، ووجود ضيف عزيز له مكانته الخاصة. ولما تقاطروا على الربعة استكبروا ان يحظى صلال بمثل هذه العناية من رئيسهم ابن مهلهل: فحتى الامس القريب كانا يتشاتمان جهارا، وبين عشيرتيهما ود مفقود، وثارات لم تمح اثارها (الفصول).

ولما أغرق سعدون في الضحك لنكتة رواها صلال، أعاد حسين هوسة كان يغمغم بها في مستهل الجلسة:

- سم لا يتلبس بأبدانك!

وهمس خلف بأذن حسين:

- صاحبنا من اهل اللّه، وهذاك شيطان يضحك عليه!

شرع صلال يعدد فوائد التعجيل بنصب المضخة، واهمها الاستفادة من زراعة المخضرات.

فقال خلف بصوت خفيض:

- صار الحچي اتخروت! ايريدنا نزرع فجل وشلغم.

اجابه حسين همسا:

- حتى لو متت اتگول عليك الشاعرة: (يزراع الفجل والشلغم ابراگه - عليك الطم واسوى الگاع رگراگه).

استدرك صلال موضحا: ثمة فلاحون يمتهنون زراعة المخضرات سوف يرحبون بدعوتكم، لان الارض الواقعة بين هورة البترا ونهر الغراف بكر لم يعبث بها المحراث منذ زمن نجهله، والى هذا فالمضخة وحدها ضمان اكيد لنجاح المخضرات.

*　　　*　　　*

أسر (احميد ابو البينه) بأذن جاره، بعد الغداء الدسم:

- اشقبضنا من عداوتهم، غير الطلايب وشلعة الكلب.

الواه على صداگتهم، كركدنا وراها اشچم عظم!

وعاود صلال حديثه، بعد الغداء مباشرة،

فأقترح على سعدون العجلة في الرحيل الى الدار الجديدة. كان سعدون ينوي البقاء في هذه الدار حتى الخريف. بيد ان فكرة الرحيل العاجل راقت له بغتة وقال لصديقه:

- شورك والهدا. إنشيل انشيل!

امسك صلال سلسلة الساعة الفضية. سحبها من جيبه ايذانا بأختتام الزيارة. فتح غطاء الساعة. حدق في عقاربها بخيلاء. سمعوا قبلا عن ساعة صلال، ولكن ليس الخبر كالعيان. سأله سعدون:

- صلال. عرفت الها ابساع ابساع ؟

اجاب بمباهاة:

- اهم.. چا يعني نمونه!

- لو اعرف الها چا اشتريت وحدة..

دنا منه صلال وراح يشير بأصبعه:

- هذا الزغير ابو الساعات وهذا ابو الدغايغ هذا لو صار اهناه وهذا اهناه معنا بالثمانية، يعني الساعة ثمانيه.

واصل شرحه دون ملل. استبدت الرغبة بسعدون لتعلم قراءتها،

اصغى للمرة الثالثة، ثم اعلن:

– صلال. يمكن عرفتها.. اقترح عليه صديقه ان يحتفظ بالساعة عنده لبضعة ايام، راقت لسعدون الفكرة وتناول الساعة شاكرا، ثم استمع لآخر درس عن كيفية ملئها وتقديمها او تأخيرها بالمفتاح.

*　　*　　*

لحظة غادرهم صلال، انبرى سعدون يمتدحه ، دون مناسبة، وعيناه لا تفارقان عقارب الساعة . فكرر حسين هوسته:

– بس لا يصفر لك وترومه!

ضحك خلف، حتى جلب انتباه سعدون، فدارى الموقف بزعمه، ذكرتني الساعه بحكاية شيخ ادخيل الذي يؤذن للفطور في قرية آل طرفه، ذات يوم غائم أذنّ الشيخ ادخيل، وتناول الصائمون فطورهم، وبعد ربع ساعة، او تزيد بانت الشمس من وراء السحب وبينها وبين المغيب بضع دقائق. فهرع الشيخ ادخيل مذعورا الى المكان الذي يرتقيه عادة للآذان ورفع صوته عاليا، حتى يبلغ اطراف القرية، بقصد ابراء ذمته، وردد بلهوجة:

– ولكم اچذب. اچذب، لحد يفطر على اوذاني.. واللي افطر خطيته برگبته!

واستدرك خلف مؤكدا: ان ما حدث لشيخ ادخيل قد يتكرر في كل مكان دون وجود الساعة. ولهذا فهي نافعة في شهر رمضان خصوصا.

أسر حسين لخلف، في اليوم التالي: اذا كانت المضخة من الانگليزي هدية خاصة بسعدون، فلقاء اي شيء يروي أرضنا؟ واختتم السوآل بالقول:

– گلبي لا سبني من هالملعوبيات!

اجابه خلف: ان المضخة تنصب للارض البور التي لم نزرعها منذ عشرات السنين، وهذا امر لا يعنينا ولا يؤثر في واقعنا الراهن ضمن حدود هورة البترا. فحرك حسين رأسه وقال:

- انته مثل السمچ.. بغير گلب. ولك هاي شغلة ذاك من گالها بس اطريفه!

* * *

اختلطت تساؤلات ابناء العشيرة عن نصب المضخة، وما يترتب عليه مع انكارهم للصداقة المفاجئة بين رئيسهم ابن مهلهل وبين صلال الخبيث. وكان اعلان سعدون، في ديوان العصر عن ان صلالا هو الذي اختار (فيصل) اسما للوليد الجديد، بداية لشجار حاد، سببه شتم الحاضرين لصلال وعلى نحو لم يألفوه، اشتعل سعدون غضبا واعتبر كل تعريض بصلال إهانة موجهة له شخصيا.

* * *

وقف خلف على الرابية جنب العلامة التي صنعها لتشير الى مجرى النهر المقترح: أمدد الجدول. اشق فرعا يروى بزايز اراضى الخبيث صلال للسيطرة عليها، واذا ما تفوه بكلمة أمرغ وجهه بالتراب. البنادق في كل يد. يعرف وقفاتنا المشهودة. اشارة واحدة ينقض عليه ابناء العشيرة . وان تدخل سعدون . (اسكت سعدون هذا موش شغلك) احذره من صداقة هذا الخبيث. آمره بحزم. ابتعد عن هذا الحقير. قولوا لصلال اذا جاء ثانية الى بيت مهلهل الويل له. امنعه حتى من المشي فوق تراب ارض العشيرة . ما اروعها ويالها من حكمة:

ابو انخيله اعلى المتن منثوره   احنا الما نهاب البندكي من ثوره

انوچل العايل لحم من ثوره   والطلابه ايدامها التوثيه

رفع صوته، هز ساعده: الطلابه ايدامها التوثيه.. بلابوش.. بلابوش توثية. الم يخطر لك يوماً ياحسين مثل هذا الحلم! لا اظن، لابد ان الشعر يستولى عليه كلية. وفي منامه يحلم بالشعر. ولو لم يكن الامر كذلك كيف يتسنى له استظهار هذا الشعر؟ أعجبته العلامة، بعد ان وضع عليها حجارة كبيرة، غدت شكلا هندسيا بديعا. نضحت ابتسامة من شفتيه، حين تخيل حسين يراقبه ويقرأ ما يدور في خلده، تذكر فجأة سبب مجيئه، اوشك الوقت المناسب على الضياع. جئت لارى زرع الديمة انه لا يحتمل يوم الاربعاء القادم. عاد الى بيته مسرعا. اشار على زوجته بمصاحبته موضحا: اليوم هو الاربعاء ألم تسمعي (يمحمد ربعه وسمينا) غالبية الفلاحين باشروا الحصاد اليوم. اكتفى بعضهم بجز شتلات معدودات ليكون في حل من امر الحصاد في اي يوم شاء. ومن تأخر اليوم تحتم عليه الانتظار الى يوم الاربعاء القادم. حمل كل منهما منجله، تبعهما حمزة بلا دعوة. كانت تبسمل وتصلي طيلة الدرب الذي يخترق هورة البترا:

- اللهم صلي على محمد وآلي محمد. عين الحاسود بيها عود.. طول عمري ما شفت هيج زرع نبت بالبترا...

وكان حمزة يقاطعها معابثا: اللهم صلع.. اللهم صلع.. لاحت لحمزه تلك العلامة التي صنعها ابوه فوق الرابية. تراءت وسط لجة السراب كأنها قبة. اشار ناحيتها وسأل:

- بويه.. بويه هذاك شنهو؟

- هذاك سراب

- لا. موش على السراب أنشدك. على هذاك چنة گبة ايمام؟

- هذاك؟! هذاك.. ايه مگام سيد سراب!! فضني.

وعاد خلف يشتبك مع زوجته في شجار نشب بسبب اصرارها على ان تأخذ اليوم (عباه) من زرع الديمة مقررة:

- ما يصلح على اهل البيت ياكلون طعام حايل لو بدوا بحصاد الجديد.. مدراه مدراه.. انت ما تعرف المدراه؟

- هذا بيا كتاب قريتيه ثواب للمرحوم والشافته عيني؟!

- عيب لايسمعك الفرخ!

* * *

كان الحصاد محور ضجيج الفلاحين، وهم يشربون قهوة العصر

- اليوم حصدت..

- زرعي بعده. اليوم سميت حصدت لي چديس..

- زرعاتي يتحملن يومين ثلاثة . يا هو اليريدني عوان، گرضه يوم بيوم.

- انه اگرض يومين بيوم!

فاجأهم سعدون بالحديث عن المضخة، بلا مقدمات، عدد فوائدها، اهميتها، ضرورة الاسراع بنصبها وانعطف بالحديث بغتة يطلب مساعدة ابناء العشيرة: تساءل بعضهم عن الكيفية التي تمكنهم من المساهمة في تكاليفها، وقد استثار نخوتهم؟ فاوجز المسألة بعبارة واحدة: ان تحفظوا الزرع من العبث. تمتنعون هذا الموسم عن اخراج الدوسات (والمعين). بدا

طلبه غريبا، بعض الشيء، ومع ذلك، تطوع احدهم ثم تبعه آخرون:

- غالي وطلب ارخيص.

* * *

شوهد فالح بن سعْدون، في اليوم التالي، يتجول في البترا، لمنع الارامل والايتام من جمع السنبل المتساقط وما اخطأه المنجل. وتجرأ في اليوم التالي، فاستوقف ارملة، ونفض عباءتها ليتبعثر السنبل القليل الذي جمعته بجهد مضن.

عقب حسين لدى سماعه الخبر:

- معلوم! معلوم! هاي دروس الخبيث صلال (اليوم اهون باچر ضوگه)

* * *

كانت خطوة سعدون التالية، احراج اهل الديمات، في ديوان العصر، ليجعلوا له حصة، وما كانت له من قبل علاقة بزرع الديم، قال وكلامه موجه لخلف.

- السنه اريد اهل الديمات ايساعدوني بالخمس..

سارع غافل يجيب بحمية:

- الديمات واهل الديمات جدامك، الواه عدنا زايد وانحطه ابيت مهلهل، ثم تبعه خلف واولاد صگر. وسكت احميد ابو البينه مستشعرا للوقوع بالمصيدة، فليس من السهل انفراده بالرفض وسط هذا الديوان المزدحم.

* * *

فوجئ خلف بقعود زوجته عن الحصاد، كانت حساباته طبقا لاقوالها، ان الولادة بعد الحصاد، لكنها وضعت طفلها دون سابق انذار. اضطر

لاعطاء حصة في زرع الديمة. واستأجر ارملة لتكديس ما يحصده في هورة البترا وقال لحسين مداعبا:

- تذكر يوم نشدنا سعدون اشسميت ابنك؟ گال ارجع من بغداد واشوف نتيجة السفره واسميه، هسه عاد ولا حسبتي، لازم اسمي ابني على نتيجة زرعي: أسميه فرهود. ضاع نص زرعي.. تفرهدت حسين يا خوي فرهود، بلابوش دنيا!

تلقفها حسين وصار يرددها (السنه سنة الفرهود) تعريضا بسعدون الذي فرض حصة على زرع الديم وحرم على اهل البترا (المعين) واستخراج الدوسات. وكان يتبع القول (السنه سنة الفرهود) بهوسة لا يمل ترديدها: فن غير المنا ايگص بينا!

الفصل الخامس

..سته سبعه ثمانيه. اشار الى عبيد بن غافل:

- دگك ثايه اهناه..

خطا بموازاة نهر الغراف، مائة خطوة. اشار ثانية الى عبيد:

- ودگك ثايه اهناه..

قاس المسافة بين العلامة الثانية وبين جرف الغراف:

- اربعه خمسه سته سبعه ثمانيه.. مضبوطه، كل ضلع ميه.

لم يبق الا الحبل والاوتاد. المرحلة النهائية لتأشير الاسس، أخرج ساعته. تملى في عقاربها. قال للبناء:

- ننتذر صلال هسه يجي.

وصل صلال. تطلع من على ظهر فرسه في جميع الاتجاهات. ترجل لتحية سعدون، وتحدثا طويلا، ومعهما البناء. ويكرر صلال على البناء:

- انريده مثل حجرة المكينه.. يعني اعجبنا شغلك بحجرة المكينه انريد بنيان الحوش منتاز.

اقترح صلال نقل العلامات الى الجنوب مائة متر تقريبا، تراءت حجرة المضخة لسعدون بعيدة، أصر صلال على رأيه، كان ميالا لابعاد الحوش عن المضخه اكثر فأكثر.

باشر الشباب والصبيان وبعض الكهول، من افراد عشيرة سعدون، عملهم بحماس، لم يخالفوا توجيهات (الاسطة) وملاحظاته عن تخمير الطين ومزجه جيدا بالتبن، بدأت جدران الحوش والحجرات ترتفع بسرعة. ويوم عاود صلال زيارته لموقع العمل، حدد النظر، على نحو ما يفعل المعمار، في كل ضلع من اضلاع الحوش والحجرات. تفحص الطين المعد لعمل الغد، و

(الزهاميل) الجاهزة بين يدي البناء فألتفت الى سعدون يمتدح العمل جملة وتفصيلا: ٠

- بنيان منتاز. يعني كل الشغل منتاز

سمع عبارة المديح عبيد بن غافل، رواها لزملائه بنبرة تمثيلية، محركا ارنبه انفه، كما يفعل صلال فأثار موجة من الضحك، والصخب تردد صداه في شاطئ الغراف: منتاز.. منتاز! واستلطف عبيد تسميتهم له (عبيد المنتاز).

* * *

حلق بيت الشعر فوق اعمدته الطويلة، ونشر جناحي نسر، بدا وكأنه يشغل المكان الخالي بين الحوش والمضخة على سعته. كانت الربعة من قبل تشغل نصفه، فيما تشغل العائلة نصفه الآخر، اما وقد صار مضيفا كله، فأنه يبدو كبيرا جدا ومهيبا لدرجة تبعث الاعتزاز في نفوس ابناء العشيرة، ومدعاة لفخر ومباهاة سعدون.

اصطفت بيوت الفلاحين واكواخهم بمحاذاة نهر الغراف جنوبي الحوش. فوصف احميد ابو البينه قرية سعدون الجديدة بقوله:

- چنها خزلة اصخول واطليات وجدامها خروف ابيض جبير.

وكان يشير بذلك الى حوش الطين الكبير.

اتسعت القرية الى الضعف، حين نزلها (الخضارة) ولم ينتبه احد من قبل الى فراغ الا حين امتلأ، فقد نزل القرية سيد محمد ابو شرارة،

ووجود السيد في قرية كهذه يكاد يكون لازما، فأن لم تطلبه بحث عنها وحل فيها مكرما، وبنزوله صار للقرية ديوان قهوة آخر يرتادونه عصرا، وقد تحولت قهوة مضيف سعدون الى (صبحية).

تتابع الحرفيون لسكنى القرية، وكأن صوت المضخة دعوة مفتوحة للرائح والغادي، نزل حائك وتبعه بقال وبعد ايام جاء ملا محسن واتفق مع سعدون وعدد من اهل القرية على فتح (كتّاب) لتعليم اولادهم القراءة. فكان اكبر تلميذ في الكتّاب فالح بن سعدون واصغرهم سنا نعمة بن حسين.

قال خلف يبرر رفضه لتعليم حمزة

- كون الغرايه اتوچل خبز، ما أشبعت الملا الچبير؟ چنه صراط حيايا وچاتله الجوع، بلابوش ملالي!

* * *

أمر سعدون ابنته ان تنقطع عن زيارة بيت حسين وتكف عن تعلم الحياكة على يد (ام ناصر):

- بت الشيوخ ما عدها وكت زايد على مضيف اهلها حتى تشتغل حواكه. كل حسبه ما وراها نفع، التعب بيها حرام. وللحطب هم لا اتروحين كلفت الفلاليح يخلون نسوانهم تنگل حطب للحوش.

لم يبق من عمل لحسنه غير نقل الماء وغسل الاواني في نهر الغراف، وكان ذلك بمثابة النافذة الوحيدة التي تطل منها على العالم، ومن خلالها تلمح ناصرا يترصدها على البعد، مكتفيا بأشارة لا تبل ظمأ ولا تشبع من

جوع ويحاور نفسه: عملت كالحمار بلا كلل متعجلا ان يشمخ الحوش عاليا دونما تفكير بالنتائج وها قد عرفت انني كنت متحمسا لتشييد سجن يحول بيني وبينها، أطلّي يا ذكريات بيت الشعر، من اي جهة اردت وصلت (ما تخاف يوعى ابوي.. توعي امي.. يوعى فالح؟ الليلة هم انسف الستار واتمدد وياج على الفراش) آه يا بيت الشعر يا جنة بلا خفير. تف على الطين الحقير وحوش الطين وعلى من اشار ببناء الطين (ابني ناصر دير بالك على الخمره ملچو الطين زين. تأمر عمي) حمار بلا تفكير. والآن اكتشفت ان التفكير ضروري. وامي لا تعرف شيئا (يايمه شو الحسبه سكته. سكته يا ام حسن سكته. مدري اشوراها) عليها ان تكلمه اليوم. تستحثه لمفاتحة سعدون. ماهي اسباب تأجيل الزواج. كان مقدرا له قسمة الحاصلات. هرع الى امه: لا تدخري جهدا. اقنعي والدي فليكلم سعدونا بالامر.

افزعه حديث ابيه الذي اختلسه من وراء الستار واستعاده مع نفسه: لم يعد ذاك (السعدون) صار شخصا آخر. يتجنب محادثتي بتبسط.. يسخر من كلام خلف.. يود لو يطمر الماضي تحت التراب ليقطع صلته بالحاضر الجديد وكأنه انبثق من فراغ.

وتذكر سوآل امه لابيه؟

- اخاف انشغل بالمكينة والبنيان ونسى حسبة الخطبة؟

- گلبي ايگلي هالزله تبدل فرد نوب، وعيوني هم اتگلي.

ومع ذلك استجاب حسين لرجاء زوجته ونظرات التعطف في عينيها، فوعدها بمفاتحة سعدون حالما تحين الفرصة، ثم استدرك يبدد آمالها

ويطفئ شمعة الحلم على طريق (ناصر)، لكنني على شبه يقين بأن سعدونا سيرجع في كلامه، ومما يسهل عليه النكوص كون الخطوبة سرا بيننا لا يعلمها احد غير اهل البيتين.

* * *

مر اسبوع على اشتغال المضخة، وما زالوا مدهوشين بأدواتها وحركاتها، لا يملون الاصغاء الى صوتها، مستمتعين بمنظر الماء المتدفق الى الحوض:

- حسبالك كنبار مبروم. بلابوش مكاين!
- اليعيش ايشوف.
- قدره الهيه.
- حيل ابن آدم.
- استغفر اللّه. اشحده ابن ادم بغير ارادة ربك.
- لا اتصير مثل غافل، كل حجايه ونفض زيجه!
- حسين شتگول، إشكثر يا خذون حصه من الزرع بدال ماي المكينه؟
- تالي الليل تسمع حس العياط!

فاجأهما ملا محسن. جلس على حافة الحوض، خلع حذاءه وأدلى قدميه في الماء، كما يفعلان.

وقال لخلف مداعبا:

- تدري. آنه افتهم حچي المكينه مثل ما افتهم الكتابه على الخط؟!

-؟

- اسمع شتگول؟ (جيب افلوس ياديوس.. جيب افلوس يا ديوس) لكن بالسنه المجبله اتبدل حچيها.. اتصير دگتها اسرع. وتگول (اخذ افلوس. اخذ افلوس اخذ افلوس).

لم يتركها حسين تمر، دون الاستفادة منها، اغتنم فرصة مطالبة سعدون لحميد ابو البينه بأن يقترضه مبلغا من المال، لشراء النفط والدهن، فهمس بأذن خلف:

- تبين المكينه اتصايح ابو البينه: جيب افلوس يا ديوس!

* * *

نضج الزرع واقترب موعد حصاده، فأعلن سعدون، في ديوان الصبح، تعيين عبيد المنتاز (شحنه) لمراقبة الفلاحين.

تبادل الحاضرون نظرات انكار لهذا الاعلان الوقح، وفكر حسين: تعرت الشكوك وكشف عدم الثقة عن وجهه البشع. كان كل واحد من ابناء العشيرة رقيب نفسه، حريصا على صيانة خمس بن مهلهل، حرصه على خالص حلاله. ثم غادر المضيف مرددا:

- من صار شحنه المنتاز ماظل بالجريه محتاز!

وفي اليوم التالي تناهى خبر اجج غيض خلف، وجعله يصيح بلا تحفظ:

- اطوه الكراع وتناوش الذراع؟ بلابوش طمع دنيا!

ثم قصد احميد ابو البينه، على الفور، يعلمه ان سعدونا عين شحنه على الديمات: ويحرضه بأن جملة امور تترتب على هذا الاجراء، اهمها تثبيت حقوق لسعدون لا اصل لها.

فأدهشه جواب احميد ابو البينه:

- تمام يا ابو حمزه، الخبر صحيح. شنسوي؟ العام اطيناه خمس الوارد، والسنه هم ايريد الخمس، وما ايصير انبطل جدام الوادم، عيب. ثانيه وبعد، صار حيله من حيل الحكومه، شوفة عينك، البليصية راچبة ومحولة بمضيفه. بعد ما نگدر نتلاوى وياه!

تذكر خلف قطعة الارض التي سقيت بماء المضخة وخصصت (سفحه) لشياه ابو البينه فحاور ابو البينه في سره: صار خوش آدمي ويعرف المستحى؟ هلبت استحيت من شردت بالعركه؟ لكن هذا حجي سفحه ياديوس. اعرفك اشلون ديوس.

نفض عباءته وقام مغضبا، ثم ردد بصوت عال وهو يغادر بيت ابو البينه:

- بلابوش سفحه!

وحين قصد غافلا لنفس الغرض وكلمه بالامر.

رد عليه ببرود مثير للاعصاب:

- حالي من حالكم يا خلف تطون اطي، ما تطون اسكت!

ولم يعضده في مسعاه سوى اولاد صگر، الذين صحبوه الى بيت حسين، يأخذون مشورته ويهتدون برأيه وكانت اجابة حسين:

قضيتكم في غاية الوضوح ولستم بحاجة الى من يلقنكم عبارات مطولة رنانة، كل ما في الامر قولوا: لا نعطي خبز اطفالنا الجياع لمن يريد مبادلته بغموس لاطفاله.

فبكر خلف واولاد صگر الى مضيف سعدون، وقد نمت في اذهانهم

الكلمة الشجاعة -لا نعطي خبز اطفالنا.. -انتظروا حتى تدور القهوة على الديوان، راح خلف يلف سيجارة وكان حديث العهد بلف السيجاير، يخطئ احيانا في ثني الورقة، فيعيد عملية اللف. ويفكر ببداية تصلح مطلعا لحديث جاد مع سعدون. يستبدل عبارة باخرى. يزن الكلمة فيجدها غير مناسبة. يعاود البحث عن المكان المناسب لتلك العبارة التي تجمل كل شيء (خبز اطفالنا..).

كان سعدون على بينة من مسعى خلف، فقد اخذ غافل على نفسه مهمة تبليغه بثورة خلف عصر امس، وبالغ بعض الشيء فيما رواه. وضع خلف سيجارته بعناية في مشربه الخشبي. قدح زناده مرتين.. عاجله سعدون قبل القدحة الثالثة، متصنعا المرح، وقال:

هاه خلف. چن ازنادك هم صار مثل ذاك ابو صلبوخ!

اتبع ملاحظته بضحكه، ثم رمى زناده الجديد بين يدي خلف وقال:

- ورّث بيه واخذه فردنوب.

تجلى البشر على محيا خلف وانطلقت اساريره. قلب الزناد بين اصابعه. نضحت ابتسامة من شفتيه المطبقتين وهو يفكر: انه يختلف عن زنادي لابد انه اشتراه في سفرته الاخيرة قبل اسبوع، لما تزل فتيلته على طية البائع. هذه الشدة تشبه العقدة التي تربط عقال الفرس. بوسعي ان عقدها. حل الشدة. حاول جاهدا ان يعيدها الى سيرتها الاولى. لم يفلح: حسن من الافضل ان تقسم الفتيلة نصفين. ليحتفظ النصف الآخر برونقه وهذا النصف يكفي لشهرين.

منذ متى اشتريت ذراعا؟ هذا يبدو اكثر من ذراع. والنصف الآخر اكثر

من ذراع. كم يبقى الذراع؟، نبهه ابن صكر، الذي يليه في المجلس الى طول سكوته. غمزه خلف باشارة (تريث قليلا). اراد قدح الزناد ثانية ثم استدرك مع نفسه ولكن (عيب..) لا يصح العبث به في الديوان، وفي هذه الساعة بالذات، وقد يعلق احدهم مازحا او أية عبارة تستدعي الرد ويتشعب الحديث. الافضل ان الف سيجارة ثانية وان لم تكن بي حاجة للتدخين ولأرى قدحته. اشتعل الفتيل بقدحة واحدة: كم انا سريع التأثر!. اوشكت ان اسيء الى علاقتي الاخوية بسعدون من اجل خمس حاصل الديمة. تف على وسخ الدنيا. بصق ورقة تبغ علقت بلسانه: اي قياس بين خمس حاصل الديمة وبين القيمة المعنوية لالتفاتة سعدون (تفضل يا خلف هاك زنادي) وسط هذا الديوان المزدحم. لو جمعت كل اساءاته ووضعتها في كفة لرجحت عليها نفحته هذه. ابن مهلهل ذهب تيزاب لن يصدأ ابدا (الگصب لو طال طوله يرجع لأصوله) انها لن تقدر بثمن مادي. صداقة عمر طويل (والماله اول ماله تالي). كما ان شك حسين زائد عن الحد ولا لزوم له. عاود سويلم الصگر اشارته. رفع خلف حاجبه وحرك رأسه بعصبية. فهم سويلم الصگر ان صاحبه قد عدل عن رأيه. غادر المضيف حانقا، وشكاه الى حسين، واصفا اياه بأنه من نوع الرجال الذين ينطبق عليهم المأثور (حط بيده خثى واخذ خبزته) ضحك حسين وردد:

- بالوزا يا حيف ما هيه رجال كوّم النمشا واخذ بيضاتها.

* * *

ولما اقترب موعد القسمة، سرى همس بين الفلاحين، وارتسمت علامات استفهام عن مقدار حصة المضخة.

باغتهم سعدون في ديوان الصبح، بحديث محكم، بدأه بنبذة تاريخية، ذكرهم بحصته التقليدية ٢٠٪ خالية من كل التزام ونفقات. وحصة المضخة كما تقول الناس، في كل مكان ٥٠٪ وعلى هذا الاساس يستحق من الحاصل ٧٠٪ لكنه يكتفي بـ ٦٠٪. وان القسمة ستجري (خمسين والثلاث) واشار الى اتفاقه معهم عشية المباشرة بأعمال الموسم، الذي نص على ان تكون القسمة مثل قسمة اصحاب المضخات الاخرى. وان صلالاً باشر القسمة مع فلاحيه على اساس الخمسين والثلاث.

انفجرت الازمة، وهبت العاصفة، لكنها لم تصل مضيف سعدون، امضى الفلاحون ليلتهم يتحلقون جماعات، يتشاورون لوضع خطط تنسف هذه القسمة الجائرة.

كان المتطرفون يقترحون جعلها ٦٠٪ للفلاح و ٤٠٪ لسعدون فيما يرى المعتدلون ان المناصفة حل مقبول. تسلل اكثر من وفد الى بيت حسين لاستطلاع رأيه، وهو معقد الآمال في مثل هذا المشكل العويص، وهو المؤهل حقا للمجاهرة برفض هذه القسمة.

لكن احدا لا يدري ما هي الاسباب التي جعلته يؤثر الصمت ويكتفي بترديد اشعار ومأثورات غامضة مثل قوله (التجمعه النمله بسنه ايشيله البعير بساعه) او هوسته المعروفة: (اليوم اهون باجر ضوگه!).

عاودوا التشاور فيما بينهم. كان كل واحد يستمد العزم من حماس صاحبه: غدا موعد القسمة، ويكفي صوت واحد يرتفع بالرفض لتتناغم معه كل الاصوات. ويستقطب كل النقمة فتتحول الى عاصفة تجتاح القسمة الجائرة ومن فرضها. وتوسد كل أمله: ما اكثر المتحمسين وسأطلق صوتي

بعد الصوت الاول.

*　　*　　*

اقبل سعدون ضحى، يتبعه ملا محسن، وعدد من المقربين. توتر الجو. ساد الوجوم. عود ثقاب واحد يكفي لاشعال حريق لا ينطفئ، توقف سعدون عند اول حاصل جاهز للقسمة. أمر الكيّال ان يباشر عمله. تلفت صاحب الحاصل الى الفلاحين المتحلقين. لمح في عيونهم شيئا من الاصرار. كانوا ينتظرون صوته. فمن أجدر بالصيحة من صاحب الحاصل. انتظر ان يرتفع الصوت من بين الفلاحين: اتريدونني جسرا تعبرون فوقه؟ لن اكون الجسر يا جبناء، ارتفع صوت الكيال: واحد.. اللّه واحد. اثنين.. اسم الحسن والحسين.. اربعه.. تربح يامن تصلي علنبي. ولم يرتفع الصوت المرجئ من بين الفلاحين.

لم يتوقف حسين لحظة عن (الذراوه)، متجاهلا سعدون وبطانته الذين كانوا يقسمون حاصلا مجاورا لبيدره. تسلل اليه خلف، متمتما بعبارات شكوى ممزوجة بشتائم للفلاحين الذين ارتضوا هذه القسمة الجائرة. لاحظ خلف ابتسامة حسين، عرف مغزاها، فأستدرك يوضح: لو لم تكن علاقتنا خاصة بسعدون لكنت البادئ بالمعارضة. لكن ذلك لا يصح من جانبي، ساعتها نصبح مضغة في الافواه، ويا لفرحة الخبيث صلال. عتبي على هؤلاء الذين لا تربطهم بسعدون اية رابطة لماذا لا يرفضون وممن ينتظرون العون، ومن ذا الذي يطالب بحقوقهم نيابة عنهم؟ اجابة حسين ساخرا:

- چا غير ينتظرون صاحب الزمان يطلع وياخذ حيفهم؟!

وشرع (ملا محسن) يسجل بدفتره حصة الشيوخ من كل بيدر..

واستمرت الابل بين المحلة والقرية مثل سرب النمل، فأرتفع تل من الشعير بلغت ذروته قمة المضيف، وكان عنبار الحنطة اقل شموخا. فوقف خلف قبالته، ذات يوم، يشير باصبعه ويذكر الكهل الذي قال عن المضخة أنها شغل ابليس (وزرعها ما بيه بركه) وقال له:

- هم بعدك اتگول المكينه شغل ابليس.. زرعها ما بيه بركه؟ چاهذا الطعام من شيب ابو خلف يومن شيب المرحوم والدك؟!

* * *

حوّم ناصر بن حسين ثلاثة ايام، حول الشاطيء، يرقب المكان الذي تنزله حسنه لملأ جرتها أو لغسل بعض الاواني، فلم يرها. أعياه التسكع في مواجهة باب الحوش. يئس من التقاط اية اشارة تنبئه عن سبب احتجابها. فأمر شقيقته بالذهاب الى بيت سعدون لتستجلي الامر. ظل يخطر في فناء البيت يتجرع مرارة الانتظار. ركبه خوف من المجهول، لم يعين مصدره، خمن ان تكون مريضة. ولكن ليس هذا مبعث القلق. عادت شقيقته بما لم يكن بالحسبان: انها (محصنة) والمحصنة لا تتخطى عتبة الدار: وماذا وراء هذا؟ ارتج عليه الامر. هرع الى امه. الح عليها ان لا تؤجل مخاطبة ابيه حول مسألة زواجه.

اصغى خلسة لما يدور بين والديه. كانت كلمات ابيه اشبه بالسياط تلهب ظهره: سعدون لم يعد منا، انفصل عنا نهائيا. اصدقاؤه من الشيوخ وكبار السراكيل. لا يستمرئ الا النعوت التي يطلقها عليه الخضّارة واصحاب الابل. صار اسمه الرسمي (الشيخ) وطويل العمر. يجاب اذا صوّت بكلمة (عونك) ولا يخاطب الا بلفظ (محفوظ) واحسب أنه يتقزز من مخاطبتنا إياه

بلا ألقاب ولا أدعية بطول العمر توطئة للكلام. يخيل الي ان ناصرا لا يتمتع بحس سليم اذا لم يلمح هذه التغييرات. او لعله يطبق المأثور الشائع (ابو حاجه اعمى ما يشوف غير گضيانها)، احسّ ناصر بأن والده يذر الملح على الجروح التي خلفها بسياط كلماته حين تساءل ساخرا:

- شنهو معنى تحصين بت سعدون؟ (يا بعد احصان ابوي) ومادام صارت البت محصنة، شنهي رفجتها وي ناس مثلنا؟ من كون مرة الفلاح امحصنه (يا بعد احصان ابوي!) لازم يشتري الها وصيفه تخدمها. ومن كون مرة الفلاح بگبعة وسرسوحة (يا بعد كبعة امي وسرسوحتها) يا هو اليحصد ويا هو اليحضّن؟، وانشد بلهوجة (المايشوف بمنخله عينه العمى)، ثم كف عن إتمام الشعر لعدم ملاءمته الموقف، اطلق زفرة من منخريه ونهض مهوّسا:

طرخانه وطاحت يخلاطي!

* * *

أجهد سعدون نفسه، بحثا عن (روزخون) من الدرجة الاولى، ليقيم تعزية في مضيفه ايام عاشوراء: فتعزية الحسين مجلبة للرزق والبركة. تدفع الشر وعثرات الزمان. والى هذا فهي من مستلزمات الشيخة واصبحت من متممات الأبهّة.

ولما اقترب موعد هلال شهر محرم قنع بالسيد علي الكربلائي، وهو روزخون من الدرجة الثانية.

طلب خلف من السيد (الروزخون) إقامة التعزية في بيته نظير أجر مساو لما يدفعه سيد محمد (ابو شرارة). رفض الروزخون طلبه، زاعما بأن الاجر

المتفق عليه مع ابو شرارة هو اجر رمزي، وانه يقيم التعزية في بيته كما لو انه يدفع الزكاة عن ايراده السنوي (وزكاة السيد للسيد حلال). سأله خلف، باخلاص، ان يقرأ له (على گد افلوسه) لكن الروزخون اعتبرها دعابة ولم يأخذها مأخذ الجد، ولما كرر خلف قوله:

- سوها گطف.. علّي وجيهچ يا ابزيزينه.

اغتاض السيد الروزخون ونصح خلفا بعدم التعرض لتعزية الحسين على هذا النحو الساخر. ولم تفلح توسلات خلف الا بعد رفع الاجر، ومع ذلك اعتبره حسين اجرا زهيدا وطلب هو الآخر اقامة التعزية في ربعته بمثل الاجر الذي اتفق عليه خلف. ورتبت المجالس على النحو التالي: مجلسان في مضيف سعدون، احدهما صباحي والآخر ليلي، واختير العصر لبقية المجالس اولها في بيت السيد ابو شرارة وآخرها في بيت خلف.

اسر خلف لحسين، في اليوم الثاني من عاشوراء:

- فطنت للسيد الروزخون، بربعتي وربعتك ايسوي اقرايته طفّيرك يا گمر.. وبمضيف سعدون وبربعة ابو شرارة ايسويها من طول سنة الجوعه، اشكثر حچي واشكثر نواعي..

- انت موش سامع بأمثالنا انگول: لحيه وإلحيًه ومره وامريًه هسه ضيف الهن اقرايه واقريّه!

وفي اليوم الخامس من عاشوراء داعبه حسين متصنعا الجد:

- شفت اشلون؟ بربعتي وربعتك يقرا على ربع الحسين جون الاسود وزهير وبرير وزعاطيط مسلم بن عقيل، وبمضيف سعدون يقرا على العباس

وعلي الاكبر وابطال بني هاشم، وين اليهدل الايد.

اجابه خلف بأستسلام:

- جده ينتقم منه. كام ايشرّب النا على گد افلوسنا!

*　　*　　*

همست له شقيقته، قبل طلوع الشمس، تنقل رسالة مقتضبة من حسنه، لم تتمكن من ابلاغها ليلة امس: تقول ان الحوش يخلو ساعة يقام المأتم الليلي في المضيف لان امي تذهب مع نساء القرية ويحطن المضيف لمشاركة الرجال بكاءهم ويتفرجن عليهم ساعة يلطمون وابقى وحيدة في الحوش طيلة ذلك الوقت.

ادرك ماذا تعني الرسالة، وفكر بالذي ينبغي عمله. حمل مسحاته وانضم الى الحشر. جاش صدره بالسر الخطير وشرع يحاور نفسه:

كيف السبيل يا شاطر!؟ تمنيت الفرصة وها هي سانحة. ومن يضمن. وماذا ستقول. واذا ما جد حادث. واذا ما ارتفع لسان الفضيحة مثل حريق بيدر واذا ما؟ اسمع يا شاطرا يخفي جبنه وراء حكمة كاذبة - ليست غبية الى هذا الحد فتبلغك دعوة بالحضور دون ترتيبات صيانة ولكن افترض وعلى حين غفلة طلب الشيخ - اللّه إيجثر الشيوخ! -شيئا ما؟ ما اكثر الاكواخ و(گباب المطال وكواير الشوك). افرض انهم اغلقوا الباب. اغلق فمك يا جبانا يتعقل وتسور الحوش. هل تسورته من قبل؟ وكيف يتسور اللصوص ما هو اكثر ارتفاعا؟ وماذا عن الحارس عبيد المنتاز؟!.

أطلّ عبيد من وراء السد الترابي يراقب عملية تطهير البترا بأمر من الشيخ سعدون. حياه وسأله عن سبب تأخره:

- اللّه ايساعدك.. اليوم متعطل عن جماعتك.

- هله بيك. ابن الحلال بذچره..

- انت ويامن ذكرتني؟

- بيني وبين روحي!

ضحك عبيد المنتاز، ثم سرعان ما انتابه القلق وفكر: أتراه لمحني البارحة مع صالحه؟ لقد رأيت شبحا يترصدنا. لكنها قالت: امرأة تقصد الخلاء. فلأستوثق الخبر:

- انته هم تلطم بالليل؟

- الليل؟ لطم الليل اخليه الك. آنه الطم با لنهار ما اتشوفني اشلون امهدل —الليل الك وحدك!

غادره عبيد مقلقا: لا شك في انه يعرف. ما كان ينبغي اتخاذ طرف الصيرة الشرقي مجلسا لنا. كل عباراته تؤكد ذلك.

تنبه ناصر الى تخلفه عن زملائه. وكان السبّاق لانجاز (طرحه) في كل يوم. نفض غبار الكسل. تحركت رجله اليمنى بسرعة تضغط دوسة المسحاة وترتفع يداه بخفة وحيوية. وكأنه يجهز على بقية النهار ممتلا بحصته من العمل. كانت مسحاته تستدير كالمروحة وهو يعيدها خالية من التراب، لسانها يلمع تحت ضوء الشمس وخلال ثوان يرفعها مملوءة بالتراب ليلقيه بعيدا عن (المترب). لم يمض طويل وقت حتى أنجز عمله، حمل مسحاته، دون ان يأخذ قسطا من الراحة.

قصد المكان الذي يعمل فيه حمزة بن خلف ليساعده على انجاز الطرح، كعادته كل يوم. رمى حمزه آخر شلة فأمسك مسحاته من وسطها، كما

يفعل الرجال بالبنادق اثناء الهوسة وقفز في الهواء معابثا وهو يردد احدى هوسات ثورة العشرين سمعها مرارا من حسين والد ناصر:

- يتوزع واطروح انشيله! يتوزع واطروح انشيله!

* * *

اكل ناصر رغيفيه على عجل، مبعدا رأس البصل الذي قدمته امه غموسا للغداء. ذهب ليستطلع. تفحص الطرقات والاكواخ المحيطة بالحوش، كأنه يراها اول مرة. سار بمحاذاة الغراف. سر لوجود بعض الاكواخ الملاصقة لضلع الحوش الجنوبي: لم ألحظها قريبة هكذا من قبل ما أنسب مكانك هنا يا (گبة) المطال. من (الصيرة الى گبة المطال). اذا لبدت في تلك الصيرة تبينت الداخل والخارج بوضوح. تطلع في السماء: حرنت الشمس هذا اليوم مثل ثور الزيادي. ترى هل يحملها ثور مثل ذاك الذي يحمل الارض. هل رأيته يا ثور. مالك وللثيران تفحص الحيطان. تذكر مجلس التعزية في بيتهم. رجع لتهيئة الربعة. لم تبق على الموعد الا ساعة. نصف ساعة تدوم التعزية، بعدها نصف ساعة في بيت خلف. تغرب الشمس. يؤذن السيد الروزخون يستعد للعشاء يأكل زقـ...، لا تتعرض يا ناصر وانت مقبل على شدة. كل شدة وراها فرج. أي فرج منهم؟ فرج الخشن، فرج الحداد. أم فرج الصياح الخضار. لا تهلوس يا ناصر انصت انصت للتعزية. كان آخر عهده حين قال ياليتنا كنا معكم سيدي: لازال يتحدث، جاء مزاجه اليوم وطالت الحكاية.. (سامعيهن الف مرة يا بعد چبدي)، اخرس، لا تكفر، لا تتعرض تعزية الحسين، لا اقصد التعزية بذاتها افديك، يا ابا عبد اللّه يا بطل. لكن هي نفس الحكاية رددها الف مرة، تستهويه

البطولة ومع ذلك لا يخرج في الليل يتبول، يخاف (الواوي) يستنجد بعبيد المنتاز. يقف قريبا منه. اللّه يبلي سنتك يا عبيد (حسبالك تيس أحصان، ابو التيوس) الف استغفر اللّه ياربي. فضني يا اغاتي.. سامعينهن يا بعد چبدي لا اتسويها سرمگه، إقرا الفاتحة وخلني اشوف شغلي. الف استغفر اللّه ياربي.

ولما خلت الربعة، انصرف يعد نفسه للقاء الليلة. حلق لحيته، سوى شاربيه الخفيفين بعناية، تفحص وجهه بالمرآة: كانت صغيرة تلك. استقطعت ثمنها من الغداء. اشتريتها بثمن الغداء كله. أتراها على ولعها الاول بالمرآة، ويقول ابن المسلوگك بنيان منتاز. تف على الطين وبنيانه. لا اتسويها بعد فالح نايم بالربعة وتطب وتنسف الستار من يم راسه وتتمدد وياي على الفراش. أسوّيها وأسوّيها وما يردني بس عزرايين. اسم اللّه عليك من (چبحايين).

تمشى على جرف الغراف، دونما قصد محدد، كان يتهرب من مواجهة ابيه: ما اسهل ان يقرأ خبايا الصدور من نظرات العيون، يحلو لخلف ساعة اعابثه: لا اتصير جنّي مثل ابوك!! سمع اولاداً يتحدثون عن اللطم في مضيف الشيوخ قال احدهم:

– دريول المكينه سوّا مشعل مال نفط اشكبراته. يشيلونه جدام التعزيه لو طلعت اللطّامه تفتر بالجريه.

– ليش ما نطلع الليله؟

– السيد الروزخون گال ليلة الاخرى يو اللي وراها!

ابتسم ناصر وكأنه يعبر عن الامتنان للسيد الروزخون: حسنا فعلت يا

مولاي حين أجلت طواف الموكب فما يدريني ويدريك بالذي يحدث لو طاف الموكب. وقد وضعنا خطتنا على اساس اللاموكب. من الافضل ان تمنعهم الليلة والليلة التي بعدها والبعدها والبعدها. لا تخطرف يا ناصر اي بعدها، لم يبق على ليلة عاشوراء سوى ليلتين. حدق في الشمس المصفرة: حرن ثور الزيادي! ماذا لو حرن الثور الذي يحمل الارض على قرنيه؟ كيف؟ من قال لك انه يسير، يا ثورا يحمل على رأسه (العگال)؟ الم تسمع بأن الهزات الارضية هي لمجرد انه يراوح الارض من قرن لآخر بحركة متزنة؟ ماذا لو أجفل الثور؟ سوف تتهدم.. يتهدم حوش سعدون ولا شيء سواه، ولن يضير اهل الخيام شيئا. مروتك يا ثور.. آه لو تسلطت عليه لنغزته بالخنجر تحت ذيله. (فيعنفص) وينهدم البنيان (المنتاز) وتنطبق حجرة المضخة عليها. (ما چنك زارع يا بده) وتعود حسنه الى بيت الشعر، ارفع الستار واتمدد بلا خطط وتدابير. مروتك ياثور حرچ جرنك ياثور ولو ترغى ياثور. تناهى اليه صوت السيد الروزخون يؤذن للمغرب: يتحتم على ان اعود وابدو كما كنت في كل امسية. رأى والده يستقبل القبلة محركا رأسه مهينما يداعب حبات المسبحة. وانهى التسبيح والصلاة بدعائه الاثير:

- اسألك حسن العاقبه، ياربي حسن العاقبه. ما نريد غير حسن العاقبه. كل شيء يسير على ما يرام. هكذا طمأن نفسه، وهو يتابع الرجال يدخلون المضيف ويتراصفون في المجلس (چدس التمر بالحلان)، كما يقول خلف. واخذت بعض النسوة اماكنهن خلف الستار: ولو لا هذا الهلال الوقح الذي شب عن الطوق لما كان ثمة ما يدعو لكل هذه الاحتياطات.

من هنا لا اميز الداخل والخارج. سيكون حالي كذلك لو دخلت وخرجت.

ما اسرع خروجك يا جبان هل انت خائف؟ دخلت وخرجت! دخلت ثم كيف ستقبلها بعد هذا الدهر الطويل؟ وماذا عن النهدين النافرين لابد أنهما اصلب وأشد مقاومة! يالفرط حساسيتها من لمس النهدين!. تجفل. اقبلهما، دعها تصرخ، الحوش خالي، ربي حسن العاقبة، فرك راحتيه ببعضهما: اقرا وخلّصني!. باغتته عجوز تخرج من بيتها مهرولة لتدرك التعزية (كش عرضة ارنب) لا تكن سخيفا. ابي يهزأ من غافل لانه يخشى ذكر الجن والطنطل في الظلمة ويرجع ادراجه اذا استقبلته الارنب صباحا فلا يعمل طيلة ذلك اليوم ويقول له ابي (انته سليت يا خويه. حتى جدتي ما جانت تعتقد مثلك بالخرافات) اين هي الارنب؟، اشويها وآكلها كما يفعل البدو. دع الارنب ولحم الارنب فكر بالغزال. (يا خشيف الوارد بشاطي الحلال) لمح امرأتين وطفلة تغادران الحوش.

فقال لنفسه: احداهن امها. والثانية (نعلة والديها) وتلك الصغيرة شقيقتها. ياثور اللّه (حرج گرونك). لم يبق في الحوش سواها. من ادراك؟ رفع الجبن رأسه. ضج المضيف والخلاء المجاور بالصلاة على محمد. ورددت جنبات الحوش صدى الاصوات المتعالية. الثالثة باعلى اصواتكم: اللهم صلي.. احس ارتعاش في ركبتيه: اتخسى.. خطا سريعا. ارتعشت مفاصله: اتخسى يا حيف واللّه. سار بموازاة الضلع الشرقي محتميا به عن ضوء القمر. تناهى اليه صوت الروزخون.. ياليتنا كنا معكم فنفوز واللّه فوزا عظيما.. يا بعد چبدي صدگك الليله فوزا عظيما.. دخيلك يا مولاي يا ابا عبد اللّه لا تحسبها علي ذنب. الدنيا تريد والآخره تريد. وعبدك وابن عبدك گلبه صاير عطّاب.

تلفت الى وراء. قفز ليتخذ من ظلال الاكواخ سترا. سار بأرتباك شعر بضعف ساقيه عاود زجر نفسه: اتخسى يا جبان الرجال اتفوت على الرصاص (ابوك عگل ركبته بالعركه). انا اخو راشده، ياحيف واللّه. وصل في سيره المتعثر قبالة الباب. ذعر لمرآى شبح يهم بمغادرة الحوش. التصق (بالصيرة). كوّر نفسه مثل قط يتوثب للعراك. سمع وجيب قلبه بوضوح. يا ربي حسن العاقبة لمح وجهها على ضوء القمر. رفعت ذراعها مشيرة اليه بالتقدم وكانت تتابع سيره مذ غادر ضلع الحوش الشرقي. قفز دون حذر. بلغها بثلاث خطوات حسبها مسيرة مضنية، نشرت عباءتها عليه حالا. اقتادته الى حيث لا يعلم. طوقها بذراعه. الفى اصابعه دون سابق تدبير في ذروة النهد، اجفلت فقال لنفسه: فكرت بالامر. اخشى ان تسمع وجيب هذا القلب الجبان، هانت الشدة. كل شدة وراها.. ادركت بحس مرهف انه سيشغل عن كل شيء ولا يفهم شيئا مما يقال له، اذا غرق في لجة العناق، وتخدر بالقبل. اشارت عليه ان يتبين طريق الطوارئ، اذا ما تعذر خروجه من الحوش اوصلته الى دكة التنور في ضلع الحوش الغربي واوضحت له: بوسعك ان ترقاها وتتسور الحوش فتجد نفسك في المكان الخالي لا يفصلك عن الغراف سوى اذرع. فكر وهو يهصر عودها بشغف: يالك من رائعة، لقد خمنت. ومثلما انت بارعة الجمال كذلك بارعة الذكاء وقد وضعت تحت تصرفي عوامة للنجاة اذا ما هبت العاصفة على السفينة وأغلق باب الحوش. آه يا ثور مروتك يا ثور هكذا تحرك يا ثور. حملها بين ذراعيه: لقد امتلأت عافية ونضجت مثل قمح آن حصاده ليس عبثا الغاز الشباب (حنطتنا طاحت) يا منجلي يا بو يدّه. مروتك يا ثور. دس وجهه في زيقها

شهق بكل ما في رئتيه من قدرة على استنشاق العبير من بين النهدين.
همست بصوت متهدج: ليس لهذا بعثت في طلبك. ثمة امر خطير لم تتوضح لي خطوطه كاملة. اجمله لك اعتمادا على حس لا يخطئ ولا يخون صاحبه وهو ان اهلي قد عدلوا عن تزويجي لك. خفت غلواؤه. فتر حماسه.
تساءل واذن؟ وما الذي نصنعه؟

بكت حسنه. اختلطت اصوات الرجال بصراخ النساء وضج الجميع بالبكاء. تخففت قليلا من النشيج. قالت انها تفضل الموت اذا لم يتيسر لها الاقتران به.. وانها على استعداد لما هو اسوأ في نتائجه البعيدة ولكن لابد منه. تفكر بالهرب معه الى اي مكان في الدنيا. تراخت اصابعه. حرر خصرها. كف عن العبث بجدائلها. ساد صمت ثقيل، فيما ضج المضيف بأصوات اللطامين ووقع اكفهم على الصدور. وعدها ان سيبذل المستحيل. وبعد ذلك يتخذ القرار الحاسم. ادركا ان المأتم يبلغ نهايته تواعدا على لقاء آخر. لفته بعباءتها وسارا الى باب الحوش. تطلعت يمنة ويسره، ثم حررته هامسة بأشفاق يشوبه القلق: دير بالك.. اللّه وياك.

شل تفكيره ووجد نفسه يدور في دوامة (الهرب): يا له من سلطان اهوج. ألم تسمع من قبل كلمة (ناهبه) مقرونة بكل الاحتقار نسيت انها ابنة رئيس العشيرة. وينعقد الديوان —الكل يحدق في الارض لا يجرؤ احد على النظر في وجه صاحبه. ويتهرب كل فرد من ابناء العشيرة عن ملاقاة ابناء العشائر الاخرى. (ابن حسين نهب بت سعدون). أهذا ما كان يريده (ربي حسن العاقبة) اية عاقبة سيئة. لا اظنها تعني ما تقول. واذا كنت تقصدين تحريضي فهل بوسعي عمل شيء؟ كيف يحدث هذا. لقد حدث

وتحدثوا عنه طويلا. هجرت زوجها رئيس القبيلة وهربت مع الخادم. وبنت الآخر مع سايس الخيل. يحدث هذا ويصير حكاية للعبرة. ولن اكون حكاية. ولن أخادعها. بصراحة لا اقر الفكرة وهذا قراري الحاسم.

ما بك؟ هل تشكو مرضا؟ العمل مرهق. لم تصدقه امه وخمنت اسباب الذبول وشرود الذهن. اقلع عن محاولاته الاولى: انه كما يقول خلف (شبوط يگيش الماي بذيله) ولقد گيش الماء وعرف الحقيقة قبل ان تتحول الى كلمات. سيرجع الرجل في كلامه وقد رجع وليس من امل الا في معجزة خارقة للعادة وقد يعنفص الثور وتتهدم اسس وجدران، وهذه المضخة الملعونة التي قلبته من حال الى حال. ولا ييأس من رحمته الا القوم الكافرون.

استعاد تفاصيل مغامرة الامس. اطمأن الى سلامة الطريق الذي سلكه واعجب بخطة الطوارئ. لم يتعجل التحويم حول الحوش. وجد نفسه يصغي بخشوع الى ابيه مرددا دعاءه الاثير بعد صلاتي المغرب والعشاء. حسن العاقبة ياربي. ما نريد غير العاقبة. سار على مهل. لمح امها تغادر الحوش. ارتفع صوت المستمعين بالصلاة على محمد. بلغ ركن الحوش الشرقي: لابد انه شيء آخر غير الخوف. لبد في (الصيرة) المواجهة لباب الحوش لمحها تملأ باب الحوش. اومض (العران) تحت ضوء القمر. لم ينتظر اشارتها. اندفع نحوها، التف معها بالعباءة، قادها الى مكان خلوتها البارحة بدلا من ان تقوده هي، قالت في سرها: يتحتم علي أن أزيل ما علق بذهنه ليبعد فكرة الهرب عن كل الاحتمالات الممكنة، انها فكرة طائشة ولن ارتضي لنفسي تلك السمعة القذرة فلأحصر تفكيري بأمرين لا ثالث

لهما: الزواج منه او الانتحار. ينبغي ان يفهم هذا جيدا. استنشق عبير المحلب والحناء. تفتحت كل الازهار. اشرق صدره بفرحة غامرة: لن اضيع دقيقة واحدة في ثرثرة لا تغنى ولا تسمن فلم تخلق الشفتان للثرثرة في مثل هذه الساعة نقل شفتيه على خدها ونحرها وبلغ بهما الوادي المقدس بين النهدين. اقلعت تماما عن التفكير بالكلام: ليس هذا وقت الموعظة. كان صوت الروزخون واضحا يروي قصة عرس القاسم على نحو درامي.. لعنت يزيدا واتباعه الذين تسببوا في ترميل عروس منذ اليوم الاول. لو كان الامر يتعلق بكم يا اهلي. فلتتمرغ وجوهكم في الوحل ولتنكس رؤسكم. سمعهم يضجون بالصلاة على محمد في نهاية المأتم: لم تبق الا فترة اللطم وما اقصرها: تعجل انهاء المجلس لعل كثرة الطبيخ تحول بينه وبين الاستمرار في القراءة (مال الاحدار يا اغاتي)، رحمة على ابوك يا خلف سواها گطف گام ايشرب النا على گد فلوسنا. ولكنه في مضيف سعدون هل بدأ يشرّب لسعدون؟ لا يا مال النويعم وآنه داخل على جدك. التصق بها مستمتعا. مدت رأسها من باب الحوش تتفحص الطريق، مد رأسه من تحت ابطها، رأى شبحا، شبحا آخر في الطرف الشرقي من صيرة احميد ابو البينه. همست له:

- هذا عبيد بن غافل وصالحه بت ابو البينه.

اشارت عليه ان يتسور الحوش زيادة في الحيطة، اضافت: ان علاقات عبيد وصالحه تمتد الى زمن. ربما تحابا في نفس الوقت الذي بدأت تغازلني فيه وكنت متوحشة بعض الشيء. ان صالحة صديقتي ولا تتحرج من رواية مغامراتها مع حبيبها كل مرة، وتعجب مني لماذا لم اعشق حتى

الآن. لام نفسه وهو يصعد دكة التنور: كان علي ان اجرب عملية تسور الحوش قبل الآن.

(هي اتچّبش، هي غربال) يا غشيم. وجد نفسه خارج الحوش. بينه وبين جرف الغراف بضع خطوات.

*　　*　　*

كان بيت حسين مثل خلية النحل، نهار التاسع من عاشوراء شغلت الام بظفر جدائل نصرة بالمحلب، وأوقد النار نعمة استعدادا لتحميص الحنطة المنقوعة، وسأل اباه:

- بويه.. انته هم تاكل جلي؟
- مال حنطه؟
- ايه حنطه.
- اخاف على ضروسي.
- امي عدها سمسم ضامّته لنصرة..
- من تجلون سمسم اطوني وياكم.

نشرت الثياب المغسولة على واجهة البيت. لبس ناصر دشداشته العتيقة، واعطى الجديدة لتغسلها امه. لاحظ اهتمام زوجة خلف بدجاجاتها. كان حمزة يطاردهن بلا كلل. سمعها تناديه:

- ولا اتخلي ولاوحده ترا الفروخ ايبوگونها.

سرقنا الدجاج اكثر من مرة في ليلة (الحيّه(١)) اللّه يبلي سنتك يا عبيد يتمتع بحاسة شم ثعلب. يعرف اين تخبئ العجائز البيض والدجاج تبدلت هوايتنا من قنص الدجاج الى قنص الفتيات ليلة (الحيّه)*.

تساءل نعمة:

- بويه صدگك الجداوه بليلة الحيّه ثواب؟

- اي بويه ثواب..

- وبوگك الدجاج؟

- كله ثواب. كله ثواب

ابتسم ناصر بلا تحفظ: ولعل ترصد الفتيات ومعابثتهن ثواب وليس اكثر ثوابا منه الا مضاجعة المتزوجات اللواتي اجبرن على الزواج من الهدلان والثولان!

عاد نعمه ثانية يسأل:

- لو بگنا الليله دجاجة تاكل ويانا للثواب؟

اجابه حسين:

- انشد والدتك..

- انشدك انته.

- لا. انشدها، منطرف الثواب، بليلة الحية!

ابتسم ناصر: لابد ان لهما مغامرات مثيرة في عهد الشباب. يوم كانا متحابين. شغل بحلاقة وجهه. تطلع في المرآة ثانية: هذا افضل ما في تقاليدهم..

---

*الحية: اصلها حجة، حيث يقلب حرف الجيم ياءً في معظم المناطق الجنوبية وحتى في بعض دول الخليج، و(الحية) هنا المقصود بها ليلة العاشر من شهر محرم حيث كان يسهر الناس ليلتها حتى الصباح.

قالت ان التحصين لا يحول بين الفتاة وبين احياء ليلة عاشوراء. ليس لاحد ان يتجرأ فيملي قرارا بالمنع. ومن اشاع فتوى لبس البياض للفتيات في ليلة الحيّه؟ البياض مستحب ولبس السواد مكروه. (ابو التيوس) كل ملابسه سوداء.

لم ارها من قبل في ثوب ابيض. هل تلبس ثوب رجل فوق ملابسها مثل البقية؟ هراء. لابد انها تقتني ثوبا نسائيا ابيض. من كان لها عشيق قالت احيي الليلة حتى مطلع الشمس واستوهب زوجي ثواب الليلة. فأن لم يكن في حياتها رجل آخر تذرعت بالقول ما دامت المرأة وما تملك ملكا لزوجها وما دام الثوب المتأتي من سهر الليلة يسجل رصيدا في حساب الزوج لينتفع به يوم الحساب فلم هذا السهر ووجع الراس؟ وهكذا فلكل فتاويه مثل السيد علي الروزخون ولا يقولها صريحة الا خلف بلابوش دنيا. ولعلها تقول لامها احيي الليلة داعية لابي بالخير وطول العمر وتقول لوالدها بنت ابو البينه ادعو لك بكثرة الغنم. وخلف وحده قالها بلا مداهنة. سألته امه:

- ليش ما تلطم وي الاولاد؟
- الليله الطم.
- ايه.. يبعد امك.. حتى يطيك امرادك.

استقبل حوش سعدون، بعيد غروب الشمس، شابات القرية، ضاقت بهن حجرة حسنة. حللن الظفائر ومشطنها، ولما أكملت حسنة تسريح شعرها، تناولت زجاجة عطر حاد وطيبت شعر رأسها الذي يداعب الوركين. بدت في ثوبها الابيض كالغرنوق -على حد تعبير صالحة - اقترحت احداهن

تعليق الجرس في عنقها لتقود الجوكه، شكرتها حسنة ورشحت صالحة لهذه المهمة.

انطلقن ناشرات الشعور، مرددات:

- الليله حيّه للصباح -ارياح يا من تستراح

عبق الجو بأريج الحناء والمحلب ورائحة نسوية متميزة. اهتزت الارض تحت اقدامهن، ولما يزلن في عنفوان القوة. اتخذن وسط القرية ميدانا للرواح والمجيء.

انطلق موكب الرجال من مضيف سعدون، بمحاذاة الغراف يتقدمه مشعل كبير، وردد شاطيء النهر صدى لطمية الرجال:

- درعم العباس واظلم كونها وصاحت الفرسان طب طاعونها.

جاب الاولاد والاطفال كل مكان في القرية، وقفوا عند كل بيت يستجدون الحبوب مرددين:

- الما تطيش لطّاها عميه وادگ بدواها.

وتقاطروا مجموعات، على بيت البقال، يبادلون حصيلة (جديتهم) بالتمر والخلال.

بلغ موكب الرجال بيت السيد محمد ابو شرارة فبدلوا (اللطميه) بأخرى، ثم استراحوا لشرب الدارسين، قفلوا بعد ذلك عائدين الى مضيف الشيوخ. تعجل بعض الشباب فض الموكب ليترصدوا الفتيات. مستمتعين بالتحويم حول (الجوكه).

ولما انتصف الليل خف الضجيج في القرية. تعبت الكلاب من مطاردة الاولاد. آوى الشيوخ والعجائز الى مراقدهم. استبد النعاس بالاطفال وكثير

من الاولاد.

حاول ناصر عبثا تمييز صوتها خلال فترة الاستراحة: يحلو له القول اذا ما ضج الديوان —خايبين شو سويتوها مثل ديوان النسوان! وانه لكذلك لابد أنها تعبة لا تتكلم. حتى وان تكلمت. ان لها صوت بلبل. هل سمعت بلبلا في حياتك؟ يا بلبل اخرس! اذا صار البلبل أخرس يصلح لاي شيء؟ يذبح ويؤكل. بدأت تخطرف يا ناصر. أنظر غادرت المكان اكثر من متزوجة.. وفي هذا فتوى كذلك. اللّه يبلى سنتك. مضاجعة الزوج في هذه الليلة ثواب (كلشي ثواب).

انقسمن الى مجموعات على نحو فوضوي. وفي احدى المجموعات تقمصت فتاة جريئة شخصية العانس وراحت تردد:

- حبيت واطوني مطيّه والرجل حسره عليه!

واخرى اخذت دور فتاة اجبرت على الزواج من شخص لا تهواه وثالثة تمثل دور الضرة المضطهدة..

بادرت احداهن تذكّر كل واحدة بواجبها لاعداد طعام السحور.. قاطعتها حسنه قبل ان تلفظ اسمها:

- ادري ادري.. عليًّ الدهن، هسه اروح واجيبه.

تسلل من مكمنه على عجل ليستقبلها، ان امكنه ذلك عند باب الحوش: عليها الدهن. ايدك بالدهن. لاتهذي. عليًّ الدهن. صرنا دهن ودبس. ايخر الدهن من اعچوسه، ادهن السير وهوه ايسير. دهن الورد! صلال يحط لشواربه دهن الورد منعول والدين بنيان منتاز. لا اتخطرف! علي الدهن. وصف له ابو التيوس دهن الخروع الف استغفر اللّه. اللّه يبلاك. الدهن.

دهن ونفط للمكينه انهجرت انشأ الله. انچب الدهن على الدبس. ادهن سدرك بجگاره. لا تهذي. لمحها تسير بسرعة كأنها تسبح في الفضاء. تراءت في ثوبها الابيض تحت ضوء القمر مثل شهاب يخترق الافق: لابسه الشاكر وجالبته گلب يا بعد جوز الچلاوي والگلب. ولكن ما هو الشاكر؟ مستحيل ان يكون اجمل من هذا. عيب الابيض ان اي شيء يؤثر فيه. الدهن مثلا. القى حجارة امامها. ذعرت. ثم اطمأنت. رفعت ذراعها بأشارة، ثم مرقت داخل الحوش. تبعها على عجل. هرولت تستقبله عند الباب، منكرة دخوله قبل ان تعطيه اشارة الدخول: من يدرينا انهم نيام؟ كانت في غاية القلق من هذا اللقاء المرتجل. لم تستجب لقبلاته ولمساته المثيرة. حثته على الانصراف، مفضلة تسوره الحوش: فما اكثر المتسكعين هذه الليلة. احدثت قفزته رجة اثارت انتباه الحارس، (عبيد المنتاز) دار حول ضلع الحوش الغربي، فرأى رجلا ينزل الشاطئ. اطلق رصاصتين متتاليتين. وصاح بصوت النجدة:

– حيهم.. حيهم..

تجمدت في مكانها وتسارعت دقات قلبها. اطلق رصاصة ثالثة حين بلغ جرف الغراف: آه يا مستورة (بلاش) ضعتي.. ان لم تقتله الرصاصة، فتحت باب القيل والقال. كان ناصر قد بلغ حجره المضخة، قفز بخفة المذعور، متخذا المحمولة ستارا، توجه راكضا ناحية المضيف. صاح السيد علي الروزخون من تحت الغطاء (هاي شكو؟) اجابه ناصر همسا: ابو التيوس هذا رصاص وچيلات. ابشرك آنه هم مثلك صرت ابو تيوس!. صاح ناصر ولما يتجاوز (رفة) المضيف:

- الزم روحك اجيتك.

لم يعد بمقدورها الوقوف. تهاوت في كوخ المطبخ.

عاود ناصر صيحته. بصوت متماسك:

- اجيتك الزم روحك.

سمعته بوضوح، تنفست الصعداء. انهمرت دموعها:

يا ابا عبد اللّه ما ايخيب الينخاك. الستر. اريد الستر. ما اريد غير الستر.

* * *

اصغى حسين، ببصيرة الناقد والمجرب، لرواية عبيد المنتاز عن الحرامية. كف عن مداعبة مسبحته وفكر: اعرف هذا الصنف من الحرامية. في الليلة العاشرة من الشهر والقمر لا يسمح بتلصص عصفور فكيف تجرأ اللص على حوش سعدون الذي يحرسه خفير؟ ان في الجو رائحة عبث وبعضه يورث متاعب تدق العنق ومشاكل تقصم الظهر ولات ساعة مندم (بعد اللطم شيفيد للمضى اصوابه). لم أره مع اللطامين طيلة ليالي عاشوراء وترصدته فلم المحه في التعزية الليلية. ربما دفعه اليأس لارتكاب حماقة يمتد أثرها الى أبد الابدين. ما اسهل ان تصدق الفتاة. وسرعان ما تنخدع وما اضعف مقاومتها في الليل. وسحر الشياطين كله ينطلق في الليل محوما. فتصاب العزائم بالخدر ويغشى العقل ضباب يحجب الروءيا (وتعال يا عمي شيلّني)، وانه لحمل لا ينهض به الف بعير. يا حسين (اليسمونك داهية) ويهرعون اليك في الملمات ((فنك تطلع هالمطي من ها لوحله)) لا حل الا الحل. اجمع كل سادات المنطقة ووجهائها. (مشّاية) عليه

لعله يحرج –وان لم يكن ذاك السعدون. لكنني على اية حال استريح الى نتيجة (اطك البيضه بهالحايط) لأبرئ ذمتي ولا صبح في حل من قول القائل. فعسى ولعل (اطفر النهر ما دامه ضيج). ولعل وعسى

(تندفع بگصبه گبل ما تحتاج مردي) فأن يئست (فالآياس اعدال شبعه)، من ثم افكر بالابتعاد عن حافة الهاوية (والباب اليجيك منه ريح سده واستريح) وان هو الا واحد من آمال أشعب (ولكن اطرد الخيال بلكي ايطيح منه ارچاب) والستر من اللّه. واسألك ياربي حسن العاقبة.

الفصل السادس

شاع خبر في القرية على نحو مفاجئ، كأن المصوت الذي يبحث عن مفقود مع غروب الشمس، يسير في القرية طولا وعرضا مصوتا:

- يا سامعين الصوت صلوا علنبي، اولكم محمد وتاليكم علي، على من شاف وسمع ولزم الحاجة الفلانية.

تماما كما لو ان هذا المصوت قد جاب القرية وهتف بصوت مرتفع:

يا اهل القرية اسمعوا واعلموا، الحاضر يبلغ الغائب ان حسنة بنت سعدون قد خطبت الى (شعيبث بن صلال)، وتمت اجراءات الخطوبة وقرئت الفاتحة.

تهامس اهل القرية يلوكون الخبر، وفي كل فم له طعم ومذاق. انكر الخطبة غالبية الكهول والشيوخ. وتمطق بعض الشباب ومضغ ريقه. وسال لعاب المحرومين، وهم يصغون لوصف، مبالغ فيه بعض الشيء، عن فتنة حسنة وجمالها الذي اكتمل خلال فترة التحصين. تهامست الفتيات بما سمعن عن قباحة ابن صلال ودمامة وجهه، اشفق بعضهن على حسنة الجميلة الفاتنة، وحسدنها اخريات لانها غدت مخطوبة ابن شيخ يملك مضخة ومقاطعة واسعة. وقال الحائك لصديقه بقال القرية مع (حسرة) حرمان:

- اويلاخ يا ابو عبد، بت سعدون شفتها من چانت تطلع للشط تملي ماي، حسبالك زابط، وهذاك ابن صلال هم شايفه، يچفيك شره، چنه سلوكي مال بدو، ما يستاهلها!

ضرب خلف كفا بكف وقال حانقا:

- هاه.. انا ابو حمزة! رحمه على ابوك يا حسين، چيف لنك زله

صدگك، وتبول من صرتك، وچنت عارفها وتهوس (بس لا يصفر لك وترومه!)

اضحى حسين نهبة لمشاعر مختلفة. احس ان كبرياءه قد جرحت، مع ان شخصا في القرية لا يعلم امر الخطوبة السابقة. اشفق على ولده من صدمة قد لا يحتملها، وازمة ربما استعصى عليه تجاوزها بسهولة: قلب الامر ساعات مع نفسه. استشعر في النهاية انه يتخفف من كابوس كان يجثم فوق صدره. ولم يعين ماهية الاحساس الذي غمره، اشبه بالعافية تزور المريض. انصرف الى ترديد بيت من الشعر، يبحث عن مواطن ضعفه، في المعنى او القافية. باغته خلف بزيارة غير متوقعة ثم عاجله بالسؤآل عن الخبر المثير. اجابه حسين:

- اي نعم سمعت. سمعت يا ابو حمزة. هاي الاصول الكحيله لازم تتشبى من اصيل.. ومعلومك عشيرة سعدون كلها كدش.. ولهالسبب دور الها فحل اصيل ايشبيها!

ثم انشد البيت قبل تنقيحه:

لا حجه الخير ابضناها اللي ضنت خلفة مهلهل لصلال اذعنت

علمهاين چن عشيرتنا ادمنت امطوبسه وصكعاتها ابهاماتها

وتلقت القرية بفتور نبأ خطوبة هلالة بنت صلال الى فالح بن سعدون، فقد تبددت شحنة المفاجأة، واستأثر النبأ الاول بكل الاهتمام، وفي النهاية امتزج الخبران وصار احدهما متمما للآخر.

وعقب خلف على النبأ الثاني بقوله:

- سواها الخبيث صلال.. ربطها سدر وچوتلاني!

* * *

كانت الارض رخوة هشة، بفعل (الطربيس). وكان اول ايام الحراثة الخريفية المبكرة. ولما تزل الفرس في عنفوان قوتها، ومع ذلك تراءى (لعبيد المنتاز) كأن الفرس تسحب الفدان وناصر معا، لتباطوءها في المشي واستدارتها الوئيدة عند نهاية الخط، حتى تطامنت الزرازير فراحت تلتقط الحب مبعدة اذرع عن الفدان، فهتف عبيد:

- مشي فرسك اليوم مشي الخنفسانه بالصوف!

لم يشعر ناصر بأية عاطفة نحوه، وفكر: يريد تمضية بعض الوقت في ثرثرة لا معنى لها وويل الشجي من الخلي. رد تحيته بصوت واهن يتناسب تماما مع سير الفرس وحركة الفدان. سأله عبيد ان يكف عن الحراثة ويصغي اليه. سحب (مجنب) الفرس ثم اتكأ على (رجال) الفدان، وتعابير وجهه تقول: اوجز وانصرف واتركني لهمومي. بيد ان عبيدا اردف طلبه بالقول:

- حط عليجتها براسها. سالفتنا طويله.

وشرع عبيد بحديثه المعد، انطلق من تعميمات لا تفصح عما يريد، بدت وكأنها لتمرين الحبال الصوتية. اقترب من غايته بحذر، شأن من يجرب قذيفة يدوية. فتح صمام النابض. وضع الفتيل. تمهل قليلا ليتفرس وجه ناصر. القى القذيفة:

لقد عرفت كل شيء عن علاقتك بحسنة. عتبي عليك لاخفاء السر عني.

الم اكن صديقك الحميم؟!. ما مضى فات. نحن اولاد اليوم، وانه ليحزنني اقدام سعدون على حرمانك منها. لا ازعم المقدرة على مساعدتك في الكثير. لكنني قادر على تيسير مقابلتك لحسنة. دهش ناصر لانكشاف السر. اوجس خيفة وساءل نفسه: اتراهم يعدون لي مصيدة. اوكلوا طرف الخيط لك يا عبيد؟ لم تكن بيننا عداوة من قبل. لاحظ عبيد تردد صاحبه وطغيان شكوكه فأوضح له: قد لا تعلم ان بيني وبين صالحة علاقة حب متينة، وان صالحة صديقة لحسنة، وهي التي اعترفت بما بينكما من ود وعهد، وطلبت لقياك للتحرر من ذلك العهد.. واعترف صراحة بأني اعرض قيامي بالمهمة وليس سوى مأمور من صالحة. فقد وضعت علاقتي بها على كف عفريت ان لم انفذ رغبتها، بقصد التخفيف من مصيبة صديقتها. فهل بعد هذا تراودك الشكوك فيما اقول؟

تساءل ناصر في سره: ما الذي دعاها لسلوك هذا السبيل الملتوي؟ لابد ان فكرة الهرب قد اختمرت في ذهنها. ولبئس ما تفكر به -. اعترف لصديقه بعظيم فضله وأجزل الشكر له. غالب شعورا بأحتقار عبيد لم يعين مبعثه. ساءل نفسه مرة اخرى: والا فأي شيء تبغي بعد ان وسعت الدائرة وسلمت اطراف السر لايد غريبة؟

حث فرسه على المشي. نثر بذور الشعير بكثافة لتحتل مساحة اقل، متعجلا الرجوع الى القرية: واتكلف الظهور بمزاج طيب امام والدتي لافلت من طوق اسئلتها وتعازيها (هسه اشوف لك مره لگطه. بنيه حلوه ومستوره) ولابد من تدبير جواب اذا ما سألتني حسنة (يا الله اشسويت سولك چاره) وهل سيطول الانتظار؟ اسمعي. لم توصد الابواب بعد.. هل

اوصدت حقا؟ اي شيء يدور في خلدك يا ابي. يا حلال المشاكل اين وصل بك التفكير؟، (يا بعد حصان ابوي.. مرة الفلاح محصنه) هل فرحت لانك تخلصت؟ ما الذي يحول بينك وبين الهبوب يا عاصفة ويطير الرماد ويتكشف جمر العداوات بين العشيرتين. اليس من اجل كلب ضرب بحجارة اقتتل المنازلة والفهود وبلغت الضحايا بين قتيل وجريح ثلاثين!؟ اليس من الممكن حدوث شيءما بين العشيرتين؟ اليس هو صلال الذي تحالف مع ابن طرفه، كيف نسيت يا سعدون يا سليت؟ يا عديم الوفاء؟ يقولون الايام حبلى. يا حبلى متى المخاض؟، ومتى يحدث ما لم يكن بالحسبان؟، ها هو عبيد المنتاز يسعى بقدميه يعرض دخولي الحوش الذي يحرسه. فمتى يسعى سعدون بقدمه طالبا التكفير عن خطيئته. يا حبلى متى المخاض؟. يا ثور متى تداعب قرنيك؟، هل لا لذعتك حشرة؟ لم توصد ابواب الامل كلية، وتحت الارض ثور قد يعنفص في اية لحظة!!.

*　　　*　　　*

اتخذ مكانه عصرا في ربعة السيد محمد ابو شرارة، فيما يلي الباب، حمل السيد دلة القهوة بنفسه، سقاه فنجانين. كان يخالس سعدونا النظر: سامرغ وجهك بالوحل. الليلة موعدي معها مبعدة اذرع من انفك الكسيف وحارس بيتك يحرسني لانام معها. نضحت من شفته ابتسامة حين خاطب احدهم سعدونا (يا طويل العمر): بوسعي ان اقصر عمرك. اجعلك تتمنى قصر العمر. انا الثور الذي يحمل ارضك لو شئت (لعنفصت) وأحدثت الزلزال وطبعت وجهك بالعار الابدي (بت سعدون نهبت. نهبت بت سعدون. سعدون بته نهبت)، يا عديم الوفاء ليس يعنيني امرك. لو كان الزلزال لا يهدم الا كرامتك لفعلتها. تحاشى نظرات عبيد المتسلطة. لم يستجب

لابتسامته. تفرق اهل القرية. كل الى بيته، يتناولون طعام العشاء، يصلون فريضتي المغرب والعشاء بلا فاصل. ويتقاطرون ثانية على مضيف الشيوخ لتبديد ساعة او ساعتين من الليل. لم يعد حسين يؤم المضيف ليلا، اكتفى بـ (تسيارة) الصبح، متحاشيا النظر الى سعدون، بله الحديث معه. وانقطع خلف هو الآخر عن تسيارة الليل، ففقد الديوان طابع السمر الذي كان يضيفه وجود حسين، منشدا الشعر حاكيا بعض الاساطير. مازحا بود مع خلف وغافل. احتل بعض النهازين مكان الصدارة في الديوان، يتسابقون الى التزلف وتملق سعدون مكثرين من المديح الذي يشبع غروره مرددين كل ما هو تافه وبذئ، وعلى كثرتهم، سرعان ما تثاءب سعدون وانفرط عقد الديوان. وتمدد فالح بن سعدون على فراشه في كوسر المضيف، فقام عبيد المنتاز بجولته حول المضيف والحوش، متنكبا بندقيته. التقى، حسب الموعد، عند ركن الحوش الغربي بناصر بن حسين. عاد ثانية الى المضيف وجد فالحا يشخر. قدر ان سعدونا يغط الآن في نوم عميق. جلس القرفصاء ودقق النظر في كل الاتجاهات ولما استوثق من خلو الطرقات والفراغ المحيط بالحوش والمضيف. اشار الى صاحبه وسارا بحذر. تنحنح بصوت جهوري قرب الباب. سمعا، بعد ثوان. مزلاج الباب يرحب بالزائر المنتظر. تلفت قبل ان يدفع الباب زيادة في الحيطة. انفتح الباب فمرق ناصر على عجل اغلقت الباب حسنة بهدوء، تاركة المزلاج على حاله. ظللته بعباءتها وسارا الى كوخ المطبخ كان يجاهد لاخفاء رعشة المت به إثر نسمة خريفية باردة. التصق بها وهو يرفع ذراعها فوق كتفه احس صلابة النهدين. لوى عنقها ليستقر رأسها فوق صدره. انحنى يرشف الرحيق من شفتيها: لم

اعرف هذا من قبل الا على يد الراحل العظيم. (ابو الغمسي) مصة ارياگج لعيش ابها سنه.. عاوده الدفء حررت شفتيها بصعوبة لتهمس:

- بعد ما ظل أمل سويلنا چاره.

اختزل كل العبارات والاحاديث التي اعد رؤوس اقلامها بلفظ واحد (انشوف) واطبق شفتيه على شفتيها، كما لو ان غرضه الحيلولة بينها وبين الكلام. تذكر عبيد المنتاز وقد طالت الخلوة: لاينبغي ان تطول اكثر.. اسمعي ان فكري لن يكف لحظة واحدة عن التفكير بمخرج.

* * *

خمن حسين ان النصف الاكثر من الليل، قد مضى -ساعة تسلل ناصر الى الربعه فساءل نفسه: اين تراه يمضي هذا الوقت؟ هذا امر غير ممكن. الثعلب لا يستطيع تسور الحوش. يا كهلا بدأ يخرف تدبر امرك. بعض الخطايا لا ينفع معها الاستغفار ولا تزيلها الكفاره. شرع بذكاء ينسج مشروعه. وقد استعان بخلف واولاد صگر، اعطى كلا منهم مغزلا، دون الافصاح عن ما هية النسيج. صيرهم على استعداد لتنفيذ الفكرة لحظة نضوجها.

* * *

بادر حسين يسأل سعدونا في ديوان الصبح: هل بوسع اهل البترا ان يستغنوا عن ماء المضخه ويعتمدوا السيح لري ارضهم؟

استشاط سعدون غضبا، ورد بعصبية، مبعثها الخوف من نمو هذه الفكرة في اذهان الفلاحين:

- شنهي هيه؟ لعب زعاطيط! لعبنا لعبنا بطّلنا، عيب عليكم

استحوا!

اجابه حسين بسخرية لاذعة:

- جنها اتريد ارنب اخذ ارنب، اتريد غزال اخذ ارنب.

ايقن سعدون ان صاحبه سيرد على كل كلمة قاسية بأقسى منها، غادر المضيف حانقا مرددا:

- موش عرب ناموس. عرب دنبوس.

بعد قليل نهض حسين يتمتم بهوسة (الماكدرها ايغص بيها) واتخذ طريقه مباشرة الى بيت خلف واولاد صكر.

تهامس اهل القرية: (حسين وخلف واولاد صكر طيحوا بيوتهم ايريدون ايشيلون)، وهرع الرجال والنساء وتجمعوا حول البيوت، ثم شرعوا يساعدون في ترتيب الامتعة ولف البيوت وتحميلها على الدواب، خيم على القرية جو عاطفي. بكت النساء، ثم الرجال. لم يحتمل حسين مشهد الوداع. نهر (خلف) بود:

- خايب انته اشمالك بغير كلب.. جا احنا رايحين لجزيرة الواق واق؟ كلها كطفة محچال.. نازلين بصفحة البترا من شرك.

استبشر سعدون برحيل حسين وخلف فقد كانا سببا في كثير من المنغصات. كلما طاب له ان يتحدث عن الماضي، بشيء من المبالغة، تصدى له واحد منهما يصحح الرواية ويكذب بعض الاحداث المزعومة، وكانا يصران على مخاطبته بالاسم المجرد دون دعوات بطول العمر ويتجنبان الفاظ (محفوظ وعونك. وطويل العمر) فكانا اشبه بنصب تذكاري يشده الى الماضي الذي يريد قطع الصلة به، او تصويره على نحو آخر، وفكر

سعدون: اما مسألة الخطوبة فلا اظنه يفكر بها. ان هي الا مزحة طاح بها لساني في ساعة من ساعات السمر ايام زمان وهو ليس غبيا الى هذا الحد فيتجاهل تحول الاحوال وعدم صلاحية ناصر لحسنة.

*   *   *

رجع ناصر الى القرية يسوق ثلاثة ثيران، بعد افراغ حمولتها في الدار الجديدة، كانت الشمس على وشك المغيب، لم يعترض ابوه على مبيته في القرية، مطمئنا نفسه: فليمض ليلته هناك. ولتكن الليلة الاخيرة يقضيها مع اصحابه عبيد المنتاز واولاد الخضارة يهونون عليه مصابه، ولعله يتنسم اخبارها ومن يدريني فقد يلمحها. فما زال ابليس في خدمة العشاق. لكنها لن تكون الليلة الخطرة. على كل حال. المهم انني ابعدت الزيت عن النار. وبدا رحيلي مقبولا عند الناس فقد شهد الديوان كله شجاري مع سعدون بسبب مياه المضخة (واليدري يدري والمايدري گضبة عدس).

اعترف ناصر لنفسه، انه يهلوس حين ضرب الثور وخاطبه بصوت مسموع:

– هم صرت مثل ثور الگاع ايحرچ راسه بالسنه مره. الحگ ربعك. انعل ابوك لابو كل ثور ما ايحرچ راسه.

ثم قال لنفسه:

– بدأت اخطرف. اي ثور هذا الذي أعقد الآمال على قرنه..؟

(حسبتك بجرن الثور)، قيلت عن الامر المستحيل وها ان قضيتي غدت في قرن الثور. تذكر قول ابيه: (اسمع يا خلف هاي الوادم مثل الثيران الثلاثة) احطن بالاسد فاستشعر الخطر. استعمل عقله. طلب التشاور مع

الثيـران على انفراد. اخذ الاحمـر فضربه، ضـربة اسـد. وعاد للادبس وقال لنختلي بعض الوقـت نبحث المشكل العويص.. وضربـة اسد.. وساعتها قال الابيض. لقـد مت مذ مـات زميلي الاحمـر. وكان علي ان ادرك لقـد مت مذ نصبت المضخة. بـدأت تهلوس ياثور، بدأت تهلوس يا ثور الارض. اي شيء كـان بمقدورك فعله؟ حتـى الآن بـوسعي ان افعل واحـدث الـزلـزال وامـرغ وجـوهـهـم بالـوحل ومـاذا عن وجـه ابيك وحتـى وجه خلف؟. هـذه مصيـبتي يـاثور يـا ثلاثة ثيران قضـى عليهم الاسـد حين فرقـهم. والى اي نقـطة بلغ تفكيرك الـذي وعدتهـا بأنه لـن يكف لـحظة. هل الرحـيل الى طـرف البـترا الشرقي آخر ما بلغه التفكير؟. لم يبق عند الثور فضلة قوة تدفعك الى ابعد من هورة البترا. (بت سعدون نهبت. سعدون بته نهبت. نهبت بت سعدون). لكن البئـر مـشتـرك ولن يـتسـمم سعـدون وحـده. لا تلقـى الـسم في بئـر العشـيرة. ما اعظم الاسد حـين جمـع القوة والتفكير وقـضـى على الثيران – اتحب الاسـد يـا ثـور! عن اي ثـور واي اسـد تتحـدث يـا مـشتـت الفكـر؟ والسفينة تحمل اهلك كذلك وخرقها لا يغرق سعدون وحده.

*　　*　　*

رفعـت اعمدة البيوت فـأنتصب عند نهـاية منحدر الـتل الذي يفصل هورة البتـرا عن ديمة خلف. كـان بيت حسـين الى الشمـال وبيت اولاد صـگر الى الجنوب وفي الوسط بيت خلف، الـذي اتخذوه مجمعا للـسمر. لاحظ حسين آثار الاغتـراب على وجـوه الجميـع. كان خلـف اكثرهم تـأثرا، احس وكأنه غـرس اقتلـع من منبته او كسمكـة ابعدت عن المـاء، وصـار يحـاور نفسه: يا قريتنا الحبيبه مـا احلى ضجيجك علـى الرغم من مسـاوئ سعدون وتحوله

من حال الى حال، وعلى الرغم من تكاثر المنافقين والمتاجرين بالاشاعات والفضائح، لم يسبق لي الابتعاد عن القرية، وعلى اية حال فليست سوى شيئا رمزيا لايحاط بتحديد. والا فالقرية بالنسبة لي: حسين واولاد صكر ومن قبل سعدون. اما غافل فلا يتذكره المرء الا حين يخاطبه.

اخذ حسين على نفسه تبديد الوحشة، فكان يتكلم بصوت عال ويوزع الضحكات بين البيوت. وراح يقرأ منتخبات من شعر ثورة العشرين، متصنعا الحماس ليخرج خلفا من شرنقة الخمول الذي بدا عليه. ادرك ان استجابته كانت محدودة لهذا اللون من الشعر. تذكر ولعه بشعر (اشجيل ومطعوج) فأختار مطلعا يتناوبه الشاعران ينظمان عليه التنابز والتفاخر بعشيرتيهما:

كومي هلهلي يا ام چف المحنا

واجدم لچ صبايا وين المچنّا

التفت خلف صوب امرأته، وكانت تجلس في كوسر البيت، ولم يوضع الستار القاطع بعد، وردد المقطع مبتسما: يا ام چف المحنا —وكأنه يدعوها للمشاركة —استبشر حسين بأنطلاقته وانشد لمطعوج:

اودي ست روايا امصخمات وسود لعند اجوادنا الغادي وابن هدهود

ينثر فوكك الازركك كام ابن عبود مامش يوم لنزوله يصبحنه

اهتز خلف حماسا، ثم ضحك وقرأ مقطعا من البيت على هذا النحو:

- لعند اجوادنا الغادي وابو البينه!

ثم قرأ حسين رد اشجيل على خصمه:

ننثر فوكك الازركك موش متعذرين وصابحكم تفگنا مثل ردي البين

طردنا كم على اضحيّه مكد يومين وظل مطروحكم نسوان شالنهٓ

واتى حسين على كل ما يحفظ للشاعرين، فرق مزاج خلف واستطاب الجلسة. قال وهو يسحب نفسا من لفيفة تبغه:

- كلها اتهون الا الشاوردي!

ثم اوضح: ان كل شيء في دارنا الجديدة سيكون على ما يرام، ولكن شرب القهوة ومجلسها لا يعوض. اجابه حسين على الفور:

- محسوبه. محسوبه. فكرت بالسالفه وعن جريب اشتري الكم دله وحب ونشرب ونسولف، وما دام گهوه وتتن كل الامور اتهون!

وحين استراح حسين الى وسادته تذكر ولده بأشفاق وفكر: سأجبر خاطره وافعل كل ما هو ممكن لتخفيف صدمته. صحيح انها صغيرة السن ولكن ما اكثر الفتيات في سنها بل اقل منها تزوجن وانجبن وانها جميلة ومؤدبة وكفاها فخرا انها بنت البطل صگر ولها اخوة طيبون. وفي ليلة زفاف حسنة بنت سعدون الى ابن صلال تزف نعنانة بنت صگر الى ناصر. ولا يخفى على سعدون ما في هذا الزواج من معنى.

ايقظ حسين زوجته واسر لها بما دار في خلده. كانت تفكر هي الاخرى بخطبة ورده بنت اخيها. لكن ما يعرضه زوجها يحمل في ثناياه كل اسباب الاقناع فحاورت نفسها بسرور: لقد بدأت تتعلم الحياكة على يدي وتتقدم

في هـذا الفن بسرعة ملـفتة للنظر وهي جـميلة ومؤدبة وصـغـر سنها فضيلة وليس عيبا. ولن يضيع تعبي سدى كما ضاع مع حسنة.

*　　　*　　　*

لاحظ عبيد المنتاز اثر الحزن والكآبة على وجه ناصر. حاول التسرية عنه ببضع كلمات. سرعان ما ادرك عقم مفعولها وقال لنفسه: ما قيمة ان تعزي المفجوع بعزيـز وتعظه بالقول (كلنا لـهـا لدرب) هل تخفف هذه الكلمات وزن ذرة من حزنه؟ ثم انعطف بالحديث الى جوهره: اسمع. انت محظوظ لدرجة احسدك عليهـا. تهيأت كل اسباب الاستمتاع بليلـة الوداع. ابوها مدعو عند صلال يبيت هـناك وكذلك ولـده فالح. واختهـا ذهبت لزيـارة خالتهـا. والليلة ليلـة الوداع وهـي منفردة بحجـرتها سـأخبر صـالحة بـوجودك لـتبلغها. ولا اظنـك تجهل قول الشاعـر (خذ حبة الـتوديع حدر الكلاده..) استـشعر لذعة غيرة من كلمات عبيد. تخيله يرفع القلادة ليعين مكان القبلة. متمليا نحرها. ود لو يزجره: كف عن العبث بنحرها.

ما لبث ان زجر نفسه ساخرا: انها لـيست سوى كلمات مبعثها الاشفاق والمشـاركة الـوجدانـية. وتهب مـذعورا من فـرط غيرة لانه يـذكرك بـأن قبلة الوداع تحت القلادة.. يا ثورا يحمل العگال بدل الارض ما الذي تفعله حين تمسي بين يـدي الكلـب الاجرب ابـن صـلال يعبث بمفـاتنهـا وما الـذي انت صانعه وهو يعريها؟

انتفض لهـذا الخاطـر الوقـح وحرك رأسه نفيـا. فتسـاءل عبيـد مدهـوشا كيف يرفض صاحبه لقاء الوداع؟ تنبه ناصر الى نفسه وصحح لصديقه:

– لا. هيچ ما عنيت شي بهزة راسي!

غادرتها صالحة، فأجتهدت لجمع شتات فكرها. وجدت نفسها متعلقة بلوح سفينة غارقة لا تدري ايان يستقر، وتساءلت: ولماذا اكون جسرا يعبر عليه لمغنم من صلال او كبش فداء الصلح؟ لئن تعمد قلبي ووضعه في اساس بناء علاقته بصلال فلأتعمد تمريغ جبهته بوحل العار. وهكذا لا حول ولا قوة لي فمن ارادة ابي الى ارادة ناصر قد يرفض وقد يرضى وانت موضع المساومة يا تعسة.. ذاك حريص على مغنم وهذا حريص على سمعة.. يا ايها القلب المجنون سلمتك قياده، فلأنتظر ما هو صانعه. لكل قدره، مستسلم لما يصنع.. وقدري انت يا ناصر. ثم استدركت وقالت لنفسها مشجعة: وعلى اية حال لابد لي من عمل شيء...

* * *

وقف ناصر ومعه عبيد المنتاز جوار الباب خبط عليه برفق، ففتح على عجل. لم تظلله بعباءتها، التصق بها وهما في الطريق الى حجرتها. تنسم عطرا ساحرا لم يستنشقه من قبل. دخل حجرتها اول مرة، لم يتبين موطئ قدمه، اول وهلة. اقتادته الى فراش وثير. ارتميا متعانقين، ولما تحرك كفه فوق خصرها خيل اليه ان شيئا من نسيج الثوب، الناعم جدا، يعلق بأصابعه. عرف لحظتئذ كم هي خشنة اصابعه. مرر ظاهر كفه على الثوب معجبا بنعومته، حسبته يتساءل بصمت. اجابت بصوت متهدج:

– هذا نيشان العرس.. جابوه اليوم!

اطل الخاطر الوقح: ستكون بين يدي الكلب الاجرب ابن صلال يعبث بمفاتنها.. وقد يعريها. بأي حق يعريها. انتفض كالمصعوق. انقض عليها كالصقر ينشب مخالبه في الحبارى. ادركت انها ليست لحظات تساؤل

واجوبة. ارجأت السوآل عن القرار الحاسم. خفت الظلمة امام ناظريه. تبين ملامح وجهها تراءى له ان بريقا يشع في عينيها. شاركته جهد الضم والعناق بقدر مساو لما يبذل. انسابت اصابعه فوق ثوبها (الچيناوي) فوشوش الثوب تحت كفه الخشنة. شعر كأن شخصا ما يعيره: كف فلاح خشنة لا تنزلق فوق هذا النسيج الناعم. ان مخمله يعلق بأصابعك.. خلق هذا النسيج والجسد البض الذي تحته لاصابع المترفين. اطل الخاطر الوقح: وستكون بين يدي الكلب الاجرب ابن صلال.. وتعريها تعريها يا كلب لن ادعك تفعل هذا. انتفض متوحشا. امسك نيل الثوب وسحبه بعنف. انزلق الثوب على جسمها الممتلئ. لم يترك لها فرصة للمقاومة: انا الذي اعريها ايها الكلب الاجرب. وها هي بين يدي. تبدى جسمها بضا رغم الظلمة. تحررت من خجل وخوف على نحو مفاجئ كما تحررت من ثوبها: وساقطف الثمر الناضج ايها الكلب الاجرب. الثمر الشهي ولك الفضلة. نبت لهما جناحان، فحلقا الى حيث الوان الطيف الشمسي وفي بحر من البخور تتحرك الاجنحة من تلقاء نفسها. ليس ثمة غبار ولا عواء وعاظ. ارتعشت مثل سمكة يمسكها الصياد وسط الماء. كان يزفر انفاسه من منخريه كحصان اجهده العدو. ندت آهة. همهمت كالمستغيث في نومه. تخدرا بدبيب لذيذ. احسا وكأن العظام في جسديهما تستحيل الى عجينه لدنة. اختلطت الزوايا بالخطوط وتلاشت الالوان. ثم تحولت الظلمة الى الوان ثوبها الچيناوي. اطبقت جفنيها على شريحة الوان زاهية لا عد لها وساءلت نفسها: أهذا الذي تحسب العذراء له الف حساب؟ اهي اللحظة التي يحطنها بما يشبه قرون العفاريت فتمتلئ قلوب العذارى رعبا من ذلك

المجهول؟ ان عضة البرغوث اكثر ايلاما يا سخيفات. كان ينبغي تذوق هذا في (كلة) العرس والزغاريد تطوف حول البيت.. والبنادق تلعلع في الفضاء. وعلى ضوء فانوس العرس اتملى وجهك بلا وجل. هكذا ارادوها. انفك راغم بالتراب يا من أردت المتاجرة بي.

احتضنته بكل قوتها وتوسدت ذراعه. سمع ناصر خبطا رقيقا على الباب. وتناهى صوت عبيد قرب الباب (احح احح) تذكر الاشارة بينهما ساعة يستجد جديد. جمع ثيابه. لبس على عجل. ولما تزل مستلقية على فراشها. ألقى نظرة عجلى قبل مغادرته الحجرة.

كان جسمها في الظلمة يذكره بالحليب وقد امتلأ به قدره. مرة سأل امه: ولكن لماذا لاتنعكس النجوم في قدر الحليب كما تنعكس على الماء؟. طالعه خيط من نور الفجر: احقا ما ارى؟ انقضى الليل بهذه السرعة؟ فطن الى صياح الديكة وفي مثل هذا الوقت يردد أبوه:

- ياربي حسن العاقبة. الفى صديقه عند الباب. عاجله بلازمة (خلف الدواح): بلابوش دنيا.

تنشق ملء رئتيه، نسمة الصباح الباردة وردد في سره باخلاص: ياربي حسن العاقبة. ما انريد غير حسن العاقبة.

* * *

اجاب سويلم الصكر نيابة عن اخويه:

- ما يغلا عليك شي يا ابو ناصر.. التريده ايصير..

ثم استدرك يبرر تحفظاته: في هذا الموسم كما ترى زرعنا ضعف مساحة العام الاول. وليس لنا مساعد على جمع الزرع سوى نعناعة،

والفلاح لا يمكنه الاستغناء عن مشاركة المرأة له في الحقل. وانت تعلم بحال امنا المريضة. لذا نقترح تأجيل الزواج الى ما بعد الحصاد.

قطع عليه حسين طريق المناقشة حين قرر: لابد من زفاف نعناعة قبل الحصاد، وسوف نعفيها من كل عمل طيلة ايام الحصاد لتجمع زرعكم. لم يعد بوسع سويلم الاعتراض. لكنه تساءل وكأنه يفكر بصوت مسموع:

- چا شنهو الداعي للعجله؟

- آنه اعرف شي وانتم تعرفون شي.

وهمست ام ناصر لولدها:

- ابوك ايگول على عناد سعدون بليلة اللي تنزف حسنة يصير عرس ناصر!

استبد به التردد لبعض الوقت. وجد في معاندة سعدون بعض السلوى.

لكن صورة حسنة تطل في كل لحظة، معاتبة مستعطفة، فيسألها: - ولكن ما الذي أستطيع فعله يا حسنة! والحل الذي تقترحينه فوق طاقتي. لن اكون سببا في تلويث سمعة العشيرة. بـ (النهيبه).. وماذا لو رفضت الزواج بنعناعة؟ وقد شرع صلال بأجراءات الزواج؟ ومع ذلك لن اقطع خيط الرجاء.. حتى بعد الزواج.. وما الذي اجنيه من مخالفة ابي؟.. وما الذي تفيدينه من تأجيل زواجي؟ دقق النظر في وجه نعناعة، صبيحة اليوم التالي، وتملى قامتها بعين الناقد المتفحص. وجدها فتاة وسيمة، لايعيبها سوى صغر سنها. افضى لامه بهذه الملاحظة. فردت عليه باسمة:

- لا تهتم. البنيه بحضن الرجال ايصير يومها بشهر.

وقال خلف حين ابلغ الخبر:

- يا نعمتك يا ربي، دهينتنا على دبيستنا!

شـرع حسين يـهيء مستلـزمات العرس، وقد اعفـاه اولاد صكَر من مهر نعناعة، معتبرين الـزواج (گصه بگصه) فمثلما يتـكلفون تجهيـز شقيقتهم، سيقوم بتجهيز ابنته.

بعثر حسين ثمن الثور والبقرة، حتى عاتبه خلف:

- گمت تصرف بغير وجع گلب.. چنّك ما ضام للصبيان اچعاب!

فلقد اشـترى رزا من النوع الجيد، وكانت الكمية اكثر مما يحتاجه عشاء ليلة الزفة. وملأ خرجا كبيرا بالخلال الممتاز. انفق على سكاير المزبن مبلغا لا يستهان به. هـذا الـى جانـب بعض الحـاجيـات التي تـعتبـر في عداد الكماليات، مثل اللمبات النفطية وبعض الاوانـي المعدنية، ولكل حاجة ثمنها، فحتى الـدنابك الثـلاثة دفع عنهـا نقودا معـدودة، وكان يصـدر في هذا عن شعور بمعانـدة سعدون: اذا ما حضـر ليلة الزفـة سيجذب حسـرة حقيقية، اعـرفه طول عمـره أسيـر المظاهـر. مـا رأى قطعـة ملابـس عنـده غيـره الا تمنـاها، ومـا اعجب بمنطق انسان الا وتحسر، ليته يملـك مثل منطقه. يتميز غيـضـا اذا سمع احـدا يثني علـى احد. لـكن ماهـو اهم من ذلـك ان يتعرى صلال علـى حقـيقتـة امـام عينيه ويعـرف مـاذا يـضمـر وراء هـذا القـرب وساعتها يعـض اصابع الندم -ولات سـاعة مندم -ويقـول ياليتني زوجت حسنة لابن حسين واحتفظت بتلك العلاقة الطاهرة.

ويوم بدأت مظاهر الفرح والتـطريب في بيت صلال، اوحـى حسـين لـحمزه بن خلف ولـده نعمة، الـذي تعارفـوا على تسـميته مازحـين (ملا نعمه) بأن يباشرا قرع الدنابك ويستعينان بأصدقائهما في القرية.

كان ذلك مساء الاحد، وموعد الزفة مساء الخميس. ومنذ صباح الثلاثاء احتجبت نعناعة واعفيت من اشغال البيت.

استشار حسين خلفا حول قضية (المومن) الذي يعقد القران، وقد تأكد لهما ذهاب ملا محسن الى عرس ابن صلال. فأقترح خلف ان يجري العقد (ملا نعمة) بعد ان تأكد من اتقانه لصيغة العقد. رفض حسين هذا العرض، مبررا رفضه بالسبب التالي: سيقولون بخل حسين (بربية) المومن وحمل ولده على عقد قران اخيه.. لن افعلها ابدا (الشايل الكاره ما يضهده العود) وفضل استدعاء علي بن ملا محسن.

تطوع خلف للذهاب بنفسه الى قرية سعدون ليدعوه مع ابناء القرية على العشاء، وليحضر ابن ملا محسن. لعقد القران. اعرب حسين عن شكه بأستجابة سعدون للدعوة. فأنكر خلف سوء الظن الزائد عن اللزوم وقال كالمعاتب:

- ابن مهلهل ذهب تيزاب. اشلون ما راد ايصير ما يزنجر!

وحين رجع من القرية قال لحسين بأستسلام:

- ظنك بمچانه.. صاحبنا يشتل فوگ فوگ. كال اودي فالح بمچاني آنه مالي خلگك بلابوش دنيا.

وكرر خلف لفظ (خلگ) بصيغ متعددة سخرا من سعدون وانكارا لتعاليه على اصدقائه وابناء عمومته:

- مالي خولک.. مالي خالک.. مالي خليک بلابوش خلگ!

* * *

شيد حسين صريفة منفردة للعروس، رفع الستار القاطع بين الربعة

والقسم المخصص للعائلة، وجعل البيت كله مضيفا، ليستقبل المدعوين دون مضايقة. وكان على يقين من ان احدا من اهل القرية لن يذهب الى عرس ابن صلال، فذهاب اقرباء العروس وابناء عشيرتها الى حفل زفاف العريس المنتسب لعشيرة اخرى مدعاة للخجل ولا يقدم عليه الا الاطفال واولئك الذين لا يعيرون العرف أدنى اهتمام.

ومع غروب الشمس زفت نعناعة الى صريفتها وارتفعت الهلاهل تتخللها اطلاقات نارية وقرعت الدنابك، فأنطلق خلف على سجيته، امسك عصاه من وسطها واستدار وسط الديوان. حاول ان يحرك جذعه على ايقاع الدنابك ولهوج صائحا:

– حسين.. حسين. ثواب لبوك علمني بهذا البيت.. اشلون اشلون من تطب للسوگك صبحه؟

انشده حسين وفي صوته رنة مرح:

من تطب للسوگك صبحه	**صابت الدلال فرحه**
جيت اعاملها الوكحه	**غطت الروبه بطبگها**

داده خيعونه الشبگها..

وراح خلف يركل الارض بقدم واحدة، مثيرا للغبار، حتى تشكلت منه سحابة في سماء البيت. وقد امال جذعه جانبا وهو يردد بانفعال:

– داده خيعونه الشبگها.. داده خيعونه الشبگها.

فتحرر الشباب من بقايا حرجهم. وقرعت الدنابك وغنى المغنون فأعجب خلف بغناء احدهم وصاح من طرب:

– ايه بويه ايه.. ولكم هذا موش غنى.. هذا اتفلش! وروح مهلهل اتفلش!

بلابوش غنا.

كان حسين يتطاول مزهوا بحفل زفاف ابنه، فكل شيء قد أعد بصورة ترفع الرأس فخارا: الخروف الذي اقتاده خلف عنوة من شياه اخيه جودة (ابو گصتين) والعجل سمين ضخم بما فيه الكفاية، والرز كثير وهو من النوع الفاخر. ويجلس ناصر وسط الديوان كالصقر على مرقاه، مخضوب الكفين، امامه خنجر العرس، لفت قبضته بمسبحة حسينية، والقهوة تدور بلا انقطاع وسكاير المزبن –التي اسماها جوده اصابع العروس –توزع بسخاء: انه حفل رائع لا ينقصه سوى وجود سعدون ليرى بأم عينيه هذه الأبهة.

وصاح المصوت، بعد العشاء: شوباش شوباش فتوالى المدعوون لدفع العطاء. وكان اكبر مبلغ دفع من يد فالح بن سعدون.

تولى خلف استدعاء (الملاّ) الصغير، علي بن ملا محسن، الى صريفة العروس، ليأخذ اقرارها بقبول ناصر زوجا لها، وتوكيله نيابة عنها ليجري العقد مع العريس. شرع الملا الصغير يتلو صيغة العقد، وكرر استجوابها ثلاثا –وذلك امر لازم فالفتاة لا تجيب بنعم عند اول سوآل –وكلما تمنعت كان ذلك أدعى لتعلق الزوج بها في قادم الايام. أجابت بعد السوآل الثالث، بصوت تمازجه الرهبة ويثقله حياء عذري:

- نعم ونته وكيلي..

كرر الملا الصغير تلاوة الصيغة مجددا وسألها:

- ان قبلت قولي نعم انت وكيلي؟

اجابت:

- نعم ونته وكيلي.

وعاود التلاوة مرة اخرى بسبب من عدم تلفظها الاقرار باللغة الفصحى. فنفذ صبر خلف وقال له بنبرة حادة:

- عمي هيه شنهي؟ بيش تطلبها.. چا غير هالتگول نعم ونته وكيلي؟

رد الملا الصغير بحذلقه: ينبغي ان يكون اللفظ سليما فتقول ((نعم وانت وكيلي)) وليس ((نعم وانته وكيلي)).

وبعد جهد مضن نطقت على نحو مقارب لما يريد وغادرا صريفة العروس. انتظر الملا في كوسر البيت ريثما يعود خلف بالعريس..

تحنبل الملا الصغير مع ناصر، فأشترط تلفظ الكلمات بحركاتها وسكناتها، مصغيا الى مخارج الحروف، مصرا على سماع حرف (القاف) مجلجلا رنانا لا تمازجه خنة اوغنة من حرف (الغين) في لفظة (قبلت) فخرج خلف عن صبره وخاطب الملا الصغير بنفس قصير:

- عمي هيه شنهي؟ لا اتسويها جرجره.. البنيه راضيه والولد راضي، هالعجن شنهو لزومه؟ توتو.. قبلتوا.. بلابوش قبلتوا!!

تهيأ عدد من الشباب، كل يمسك (عگاله) بيده، محاولين ضرب العريس، لحظة قيامه، فأستبسل اثنان من اصدقائه، ودافعوا عنه بشهامة، حتى اوصلاه (الصريفة) سالما.

فضج المكان بالضحك وصخب الشباب -لعلها المرة الاولى التي يزف بها عريس دون ان يوجع ظهره بضرب العگل.

انسحبت النساء من صريفة العروس، حالما دخل ناصر، وقبل ان يستقر في مجلسه رفع (البويمه) عن وجهها، فلاح له وضاء جميلا قبلها في

الجبين على استحياء وقال العبارة التقليدية:

- الگمرا جدامچ والظلمه وراچ.

تملى وجهها. كان ينضح انوثة وحياء. بدت في زينتها وثياب العرس اكبر مما هي. تذكر قولا شائعا (في ليلة العرس ويوم العيد تستعير الفتاة جمالا من سبعة جيران لتضيفه الى جمالها). ارتعشت خوفا حين داعبها. اشفق عليها وارجأ ما كان ينبغي انجازه، لمفاخرة الاقران، حين يواجههم بعد قليل. شملته موجة سرور وقال لنفسه: لك الحمد ياربي. انها صغيرة ولم تبلغ سن العشق والعبث بعد. والا فما يدريني أي كف عبثت بمفاتنها. اما انت ايها الكلب الاجرب فأنعم بالقشور الليلة. ولقد أتيت على اللباب وقطفت زهرة الشباب، لو علم طويل العمر بما بذلت من جهد لاحفظ له كرامته لقبل التراب تحت اقدامي: لو طاوعتها لكان اليوم يمضغ الهوان والمذلة. ما اجمل دعاءك يا ابي: ربي حسن العاقبة.

كانت ام العروس تدور حول الكوخ، وتخطر في الفناء المجاور مثل قطاة ضلت أفراخها. وهمس حمزة بأذن عبيد المنتاز حين لاحظ دوران ام العروس:

- صدگك لو گالوا: مثل ام العروس فارغه مشغوله!

وطال انتظار اصدقاء العريس، فأقترب عبيد من الصريفة وتنحح

(احح احح) تذكر ناصر انه سمع نحنحة من قبل على هذا النحو، في مناسبة غير عادية. هتف عبيد:

- بلابوش دنيا! سويتها اطواله الوادم اتريد تمشي. متعلم لما ايصايحونك!!

ادرك ناصر انه ليس حر التصرف في وقته، فالمدعوون لا يغادرون بيت العريس الا بعد خروجه من عش العرس واعلانه ما يدعو لفخر اهل العروسين على حد سواء. قرر ان يكذب كذبة بيضاء فرد على تساؤلات اصدقائه وهم يعانقونه:

- طيرّت الحمل!

ولما دخل الربعة واستقبله الحاضرون للتهنئة معانقين. سارع بعضهم الى التسلل خارج الربعة، وكان من بينهم حسين وخلف. عمد احد الشبان فأطفأ (اللمبة)، وكان ذلك ايذانا بضرب (العگل) دون تمييز. اختلط الصراخ بالضحك ولم ينج من الضرب الا اولئك الذين هربوا قبل ان يسود الظلام. اشعلت (اللمبة) ثانية ورجع حسين وخلف ومن اختبأ معهما، فطلب بعض الحاضرين ان يرقص حسين وخلف تعويضا عن نجاتهما من ضرب العگل.

قرعت الدنابك، تخاصر الكهلان، ولعبا چوبية، انضم اليهما عدد من الشباب، فلم يوفقوا لاجادة ذلك النوع القديم من الجوبية الذي يحسنه خلف وحسين.

أشار احدهم على ناصر ان يعود الى عروسه، وقد اصبح في حل من المدعوين، تفرقت النساء ثانية حالما دخل الصريفة بعد ان ودعن العروس وعريسها بحزمة متناغمة من الهلاهل.

خلع يشماغه وعكاله وعباءته وسترته. اخذ عروسه بين يديه ملاطفا. شرع يداعبها برفق علّه يحررها من الخوف تذكر قولا: لقد نسيت اسم الشخص الذي قال ان ليلة العرس تاج يضعه الشاب على رأسه وانها ليلة

واحدة في العمر لن تتكرر ابدا حتى وان تعددت الزوجات وقال ذلك الشخص لقد نسيت اسمه تماما: ان ادق تفاصيل ليلة العرس حتى تلك الحركات التي تصدر عفوا تظل عالقة في الذهن كنقش على حجر، عصية ابدا على سلطان النسيان، وقال ذلك الشخص الذي نسيت اسمه. قال؟ لقد نسيت ما قال بهذا الصدد واحسبه قولا له اهمية خاصة. دعك منه..

اقتحمت عليه خلوته مع عروسه صورة حسنة: هل هي منسجمة معه وما الذي يفعله الكلب الاجرب الآن. هل استجابت لحركاته الكريهة؟ الكريهة؟ وهل رأيت حركاته، لاتخطرف ودع الثور، حذار ان يأخذك الثور بحكايته السخيفة. قرر شباب القرية ان لا يضيعوا فرصة للاستمتاع بهذه الليلة الربيعية المقمرة. فبدأو فصلا جديدا. وفي هدأة الليل تعانقت اصوات الدنابك متناهية من بيت صلال حاول بعضهم ان يعرض بصلال لانه جاء ببدعة، فأستأجر كاولية لاقامة الفرح. حال حسين دون تشعب الحديث وقال:

- بويه مالنا ومال السلاطين.

وقف حمزه بن خلف خارج البيت ونده (الملا) الصغير، نهض علي بن ملا محسن مؤملا من وراء هذه الدعوة هدية خاصة من اهل العريس. فوجئ بثور ادبس وبقرة صفراء يمسكهما نعمه بن حسين. امره حمزه بلهجة جادة:

- شيخنا من فضلك اكطع مهر بت الحلال.على هذا ابن الحموله!

بهت الملا الصغير. تصنع ضحكة فاترة، دارى بها خيبته، وقال يخاطب زميله السابق في الكتّاب:

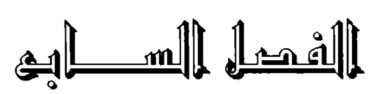
- يمعوّد نعمه -عيب مناك الوادم!

عاجله حمزه بضربة عگال موجعة وامره قائلا:

- العباس كفيلك -اگطع عليك العگال كون ما تملچ الصفرا على الادبس!

لم تشفع له زمالة نعمة، ولا تودده لحمزة، وجد نفسه في النهاية مضطرا لاطلاق صيحة استغاثة. ادركه المدعوون وخلصوه.

وكان ذلك مسك ختام الحفل.


الفصل السابع

صاح سعدون، بلهجة تهديد، وكلامه موجه لكل الحاضرين:

- عرب دنبوس —موش عرب ناموس!

سحب نفسا من سكارته. ثم عاود التفكير ومحاورة نفسه، وكأنه يحرض نفسه على التمادي في مسلكه الجديد: (چنا وچنينا) كما يفكر ويتصرف خلف (ما چنك شفت حاكم انگريزي وگعدت وي قيمقام..) التقت عيناه عبر باب المضيف بحصانه المدلل (نجيمان) وكان يستدير حول مربطه. فأستبدت به الصورة، وقال يخاطب نفسه: كأنك هذا الحصان المربوط يدور حول (الخيّه) لا يبتعد عن مدى سلسلته شبرا واحدا. وانت يا مغفل يا سعدون تتحرك وكأن العشيرة (خيّه) لا تبتعد عن اهتماماتها شبرا واحدا.. قال الخمس.. وقالت (الفصلية)، لا تريد ان تتحرك ابعد من هذا المدى. تتوهم ان الدنيا تنتظرك.. تستأذنك في حركتها. ما هو الخمس وما هي حصتي من الفصلية؟ (الف عصفور ما تترس جدر). ولم تسأل نفسك: من نصب لك المضخه؟ ومن يعدك بتسجيل الارض ملكا صرفا؟ اجب يامغفل.. من نصب المضخه؟ اهم عشيرتك ام الانگليز؟ ومن يقدر على تسجيل الارض بأسمك ملكا صرفا؟.

وفرحت بخمس السرقة ولا تدري ان الانگليز —الحكومه —لا يرضون بسلب مسافر على الطريق العام.. وتلجلجت امام معاون الشرطة ولكن جزا اللّه صلالا الف خير.. تمكن من تسوية القضية مع مأمور المركز. اما انت فلا تزال تدور حول (الخيّه).. غمرت المياه طريق السيارات الجديد بين الناصرية والكوت.. فأكتفيت بالعتاب: (اخوكم.. عيب.. لا تجيني حجاية ناگصه) ما هكذا يا مربوط.. تعاتبهم بكلمات رقيقة.. نسيت وضع ابهامك

تـتعهد بسـلامة الـطريق من الغرق وصيـانة القناطر من عبث العابثين.. واذا لم (تشلع الخـيّه) فقد يجئ المفتـش الانكليزي بنفسه ويجد الطـريق مغمورا بمياه المضخه فيقرر:

(مكينه ماكـو.. مكيـنه فنش.. سـعدون فـنش.. مكينـه ينشلـع.. گاع مـاكو سعـدون فنـش) وتعـود ثـانيــة تتمـسح بـأذيـال العـشيـرة (رد تـارس صـمّه بخصيانه!) وتتلمض لخمس سرقة ولطعة من فـصلية او فضلة من ضـرائب الكـوده.. و (خـشـمك اذنك) للّه درك يـا صـلال: (بـدّل بـدّل.. راوهـم عين الحمـرا.. هذوله موش عرب ناموس هـذوله عرب دنبوس..)، رفـع صـوته يأمر عبيدا المنتاز:

- من عين بـاچر شغلك مـاي المكيـنه. اتسـويه رشـن مضـبوط، والـعليهن كلـهن، تحفظ الجادّه من الغريج لو طارت عليها نگطة ماي انت حگي.. اطلع بيك نار اللّه كلها.. احبسك، اخلي حديدك مَن..

ابتسم عبيد المنتاز واجاب:

- امرك امحفوظ.

* * *

بكـر عبيد لتأديـة عمله الجديد، كمـا ينبغي، وسار مع (المحمـوله) يراقبها بدقة.. فلمح علـى البعد، تحت اشعة الشمس، بـريقا يخطف الابصار يقترب من طريق السيـارات. اسرع ناحيته، ثـم هرول، فأستقبله لـسان الماء يزحـف كالافعى. رأى صاحب (الرشن) منهمكا يجاهد بأقصى طاقته للسيطرة على الثغـرة التي حـدثت في المحمـوله. ركـض عبـيد نـحوه. وجـد الثغـرة كبيـرة وخـطرة.. كان عـرق الفلاح يتصبب بغزارة، فيختلـط برذاذ الماء المتـناثر من

لسان المسحاة. ركب عبيدا الخوف من عواقب الامور، وهو في اليوم الاول من وظيفته الجديدة، فأندفع معاتبا، ثم شاتما. ولم يرد عليه الفلاح بشيء ولم يتوقف عن عمله. غضب عبيد من استهانة الفلاح به، واعراضه عنه. فأنطلقت الشتائم من فمه مثل رذاذ الماء الذي يرشق وجه الفلاح من لسان مسحاته. آثر الفلاح ان لا يضيع دقيقة من الوقت في عبث الكلام والجدل، فما لم تسند (شلة) الطين اختها، جرفتها المياه المتحدرة. لم يجد عبيد في الشتائم متنفسا عن غيظه.. تقدم نحو الفلاح خطوة، وبصق في وجهه..

كف الفلاح عن العمل. استقام في وقفته، مستندا على المسحاة. استحال اعياؤه الى غضب وحشي. اقتلع قدميه من الطين. وجه لسان مسحاته الى صدر عبيد.. ثم خطا نحوه مرتعدا من فرط انفعال. كان يطلق زفيرا عاليا من منخريه.. فأدرك عبيد دنو الخطر.. تراجع على عجل. اندفع الفلاح نحوه، يرعد بكلمات غير مفهومة. ميز عبيد من بينها عبارة واحدة:

(لاراحة ولا كرامه! عليمن خايف بعد..)

كان هديره ينذر بما وراءه. تحتم على عبيد ان يستعين ببندقيته. دفع اطلاقة من خزانها الى بيت النار، وصوبها ناحيته، متعمدا تخويفه دون قتله. ازت الرصاصة فوق رأس الفلاح.. فهجم كالثور المستثار، وكأن صوت الرصاصة كلمة عار جارحة، وسط الديوان، لا مناص من الرد عليها. ارتعب عبيد من هجوم الفلاح الخاطف. قدر ان بينه وبين الموت الذي يكمن في لسان المسحاه، بضعة اشبار وبضع ثوان، فدفع الى بيت النار اطلاقة اخرى. دوت المرة دون ان تئز رصاصتها.

صرخ الفلاح بصوت مرعب، سمعته القرية. واستقرت مسحاته بين

قدمي عبيد، بعد ان جرحت ساقه اليمنى. ركض اهل القرية.. وتحلق الخضارة حول ابنهم القتيل.. فيما شغل سعدون بن مهلهل بتضميد جراح عبيد.. واطلق فالح لفرسه العنان، بأمر والده، ليبلغ الشرطة بالحادث.

وصلت سيارة الشرطة قبل الظهر.. قام المفوض بمعاينة مكان الحادث..

اجرى تحقيقا سريعا، بعد خلوة قصيرة مع سعدون، ثم وضعت جثة القتيل فوق السيارة وأجلس القاتل، الجريح، بداخلها. تشبثت ام القتيل بالسيارة، دون وعي، فنهرها المفوض بخشونة:

- شكو گلبتوا الدنيا؟ قحط موت! عبد المحسن السعدون ريس وزاره انتحر من كيفه البارحه!!

* * *

عرف الخضارة ان جرح عبيد بسيط، وانه البادئ بالعدوان، فبعثوا من ينذر سعدونا في مضيفه: انهم يعتبرون الحادث على جانب كبير من الاهمية.. وسوف يرحلون الى حيث تقيم عشيرتهم، ومن هناك يثأرون. ويحسنون الاختيار.

استبد الخوف بسعدون من اشارتهم الى (حسن الاختيار). فأستدعى حسين وخلف لمشاورتهم في الامر. استقر الرأي، بعد المداولة، على ارسال السيد محمد ابو شراره الى عم القتيل ليأخذ (عطوه) لمدة شهر، يبحثون خلاله الامر..

رفض عم القتيل ان تكون (العطوه) شهرا، بل اقترحها اسبوعا. وبعد يومين حضر رئيس عشيرة الخضاره ونزل ببيت عم القتيل.

كان سعدون ميالا لاجراء التسوية بأي ثمن، ولذلك تمسك رئيس عشيرة

الخضاره بمطلبه: ان تكون الدية امرأتين (فصل) واحدة لانهم جيران، والثانية لان القاتل تعمد القتيل في محل عمله.

اجتمع سعدون مع وجوه العشيرة.. تداولوا الامر.. رد على ملاحظات القائلين بأن الخضارة هم في عداد الدرجة الثانية من العشائر، ولا يصح تزويجهم من بناتنا:

- عمي خلصونا من هالسوالف الماچول ريعهن.. كل احنا اولاد حوا وآدم..

فهمس خلف بأذن حسين:

- خايف الجبان.. خايف على روحه.. صاير خيّر.. كل احنا (اوناد!) حوا وآدم..

- لو يعرف الطلابه اتطيح بروسنا وحدنا.. چاشاوخها.. وسوالها بنايج وتخاريص! لكن هذا الحچي مال خايف، موش مال خيّر.

اخيرا فوضوا السيد ابو شرارة ان يتبنى فكرة اعطاء فصلية واحدة، وهكذا كان. وشدّت الراية على فصلية، وتليت الفاتحة بعد تسمية صالحة بنت احميد ابو البينه -فصلية -.

زفت الى اخ القتيل بعد ثلاثة اشهر، دون ضجة او اي مظهر من مظاهر الفرح. وبلغ القرية نبأ الحكم على عبيد بأربعة عشر عاما مع الاشغال الشاقة.

* * *

وافق الفلاحون، عن طيب خاطر، على اعطاء (كفة الگهوچيه)) من كل بيدر لغافل -ابو عبيد -اشفاقا عليه بعد محنته بسجن ولده. وسكتوا

محرجين، عندما طلب فالح بن سعدون ان تؤخذ من كل بيدر (گفة العلوية) للسيد محمد ابو شراره. فقد كره كل منهم ان يكون البادئ بالمعارضة، والمسبب لقطع رزق (ابن) رسول الله. وانكروا اعطاء (گفة الكتابيّه) لملا محسن قائلين فيما بينهم: انه يكتب حسابات الشيوخ وليس حسابات الفلاحين.. فلماذا ندفع اجره من لقمة عيشنا؟ لكن احدا منهم لم يجاهر برأيه، امام فالح بن سعدون، واكتفى بعضهم بالهمس:

- هاي ينراد الها ولد نشمي مثل ناصر بن حسين يوكف بوجه فالح ويبهذله... لكن مدري ليش ساجت.. لهسا ما حچا؟!

بوشر بقسمة الحاصل، واخذت الكتابيّه اسوة بأخواتها، وغدت تلك الرسوم أشبه بالقوانين النافذة، بعد يوم واحد من فرضها، ثم شملت الى جانب هورة البترا ديمة خلف وبقية الديمات.

* * *

يوم احست (صالحه) ان الجنين نبت في احشائها، راحت تفكر:

اذا كان العرف يقضي بأن على (الفصلية) ان تنجب طفلا في بيت (المفصول) من ثم يحق لها الطلاق.. فها هو الطفل ينمو. ويتحرر عبيد من سجنه -بهذه الطريقة او تلك -يقولون ان موت الملك وميلاد طفل للملك مناسبتان (للمراحم).. فياربي وانا المظلومة.. ودعوة المظلوم مستجابة - كما يقول السيد الروزخون -اسألك بظلامتي ان تجعل مواليد الملوك مثل توالد الارانب وموتهم مثل موت الدجاج.. والا فليهرب.. اهرب يا من لا يستعصي عليك جدار ولا ترهب الموت.. غادر سجنك وتعال -لأغادر سجني الكئيب.

كان زوجها صغير السن، نسبيا، هادئا لدرجة المسكنة.

حسبت هدوءه في الاشهر الاولى يعود الى حزنه على اخيه، لكن طبعه لم يتبدل، ولم يزايله الهدوء مع زوال آثار الحزن. بدا لها وكأن معشره لا يضايق. ولا تمضي وقتها رتيبا مملا الى جانبه.

* * *

تأهب الشيخ سعدون لزواج ولده. اخذ على نفسه ان يجعل من عرس فالح مظاهرة ضخمة، لدرجة يقال معها: انه العرس الاول في كل شيء. أوعز لشباب القرية بممارسة مظاهر الفرح قبل عشرة ايام من موعد (الزّفه) وقبل الموعد بثلاثة ايام احضرت جوقة الكاوليه. فأستاء الكهول والشيوخ، وتهامسوا اسفين:

- يا حيف واللّه يا حيف.. كاوليات تركص بمضيف مهلهل!.

وزفت هلالة بنت صلال بسيارة، رغم قصر المسافة بين القريتين، فكانت سابقة لا مثيل لها في الريف كله. كانت حسنة بنت سعدون بين النساء اللواتي يحطن المضيف لمشاهدة رقص الكاوليات. انفردت بصديقتها صالحة بنت ابو البينه فتفجرت ينابيع العواطف بعد خمول،.. تحسرت صالحة وقالت:

- انكتب علينا جواز الغصب.. مدري شنهو ذنبنا عد اللّه؟

- اسكتي! فكينا من سالفة اللّه —بعد عيني عينه —وين البطلي يصاحبه! - مصايب.. ما سدت على اهل البيت..

- طين خاوه المصايب.. مرّت على كل راس.. حتى هاي..

كانت تشير بلفظ (هاي) الى عروس اخيها، التي شاع خبر عشقها

لشاب في قرية صلال، واستدركت حسنة متعجبة: ولكنها سرعان ما انسلخت من حبها وكأنه (سلاب حيّه) خلفته في قرية ابيها واقبلت على العرس بروحها وجسدها، حتى لتبدو الفرحة في كل خيط من ثيابها! في حين اجد نفسي أسيرة الحب الاول.. كل شيء يذكرني بناصر. وضمت طفلها بحنان الى صدرها. وحين لمحت (ناصر) ينهض وسط الديوان، ليفسح المكان لقادم جديد. ارتجفت ثم احست بالوهن، فقالت لصديقتها:

- الزميني گبل ما اطيح، مدري اشبيّه گلبي چنّه طير مذبوح..

كان غناء الكاولية شجيا مؤثرا، فتأججت كوامن الحب العارم، وبعثت الرغبات عنيفة. فساءلت نفسها: وبأي عذر سأطلب لقياك؟ قلت لصالحة ذات يوم اريد مواجهته للتحلل من عهد الحب الذي ارتبطنا به. فما عذري الآن؟ وكيف؟ واين؟ ومع ذلك فقد اصبحت هي الاخرى لاحول لها ولا قوة بعد سجن عبيد.

ثم توجهت اليه بالعتاب: انتظرتك ولا زلت.. توقعتك في كل ليلة (تنسف الكلّه) وتتمدد الى جانبي كما كنت قبلا. أتحسبه مخيفا.. يحول بينك وبين الزيارة التي طال انتظاري لها؟ ام تراك سعدت بزواجك فنسيت؟

تناغم صوت الكاولية مع وتر الربابة —عبث الطفل بثديها —تذكرت يوم جاءت الى اهلها لتضع مولودها البكر.. وتساءلت امها بقلق:

- اخاف ناگص حسابه..

وراحت تعد على اصابعها مغمغمة:

-گولي.. وچن الله غسم بليلة الزفة.. ايه.. ربيع وجماد وجماد.. لكن..

وحين وضعته سليما معافى كامل التكوين، اندهشت امها.. واعادت

حساب الاشهر على اصابعها ثم اعلنت:

- ناگص شهرين.. لكن عافيتچ زينه وصار الولد تام..

استبدت بها العواطف، حين ارتفع صوت احدى الكاوليات ببيت مؤثر من (شعر البنات) اعجب المغنية نفسها، كما يبدو، فرق له صوتها، والتمعت بحّته تثير الشجون اكثر مما تطرب:

ما ظل عدل بعضاي حي وارتجي اعليه

كل هذا ما خلّيت شامت يحس بيه

بكت حسنة بصوت مخنوق واجهشت صالحة بحرقة ثم جذبت صديقتها لتنهضها وقالت:

- امشينا انشوف النا مچان ونبچي على كيفنا، حتى نستراح.

الفصل الثامن

وقف عبيد في المكان الذي سقط فيه القتيل وتساءل: كم تبدلت معالم الارض؟ واضحى الطريق محدودب الظهر كأنه شاخ بفعل السنين، من حمل التراب لتعليتك يا ملعون؟ وقد امضيت السنين هناك أحمل التراب على ظهري لنبني سدا يحمي المدينة والزرع من الغرق. اليس هذا مضحكا

–لو كان الضحك سهلا؟ وحاور نفسه بتهكم:

ياحامي الطرق والمدن من الغريق ما الذي دعاك للتسكع هنا وفي هذا المكان بالذات؟ ألا يكفي عذاب حفنة سنين؟ كفاني ايتها الذكريات –لا تطلّي، كفّي عن مطاردتي.. لقد دفعت الكفارة اضعافا مضاعفة. ادار ظهره للمكان وخطا على مهل، متحسسا آثار القيد على ساقيه: أما زالوا يدعونني المنتاز؟ عبيد المنتاز.. كان الضحك (بلاش) بلابوش دنيا يا خلف!

تثاقل في مشيته عند مشارف القرية، وطوقها بنظرة شاملة، وراح يتذكر: لم تعد كما وصفها احميد ابو البينه –قطيع معزى يتقدمه خروف ابيض، انعكست الصورة وأضحت البيوت من الطين والقصب. مضيف الشيوخ وحده يفرض وجوده. ويشمخ القصر في مكان حوش الطين. من تلك الزاوية طالما لمحتها.. وترى اشارتي.. واتسلل الى (صيرة) اهلها. ترى اي المضختين هي الجديدة؟ ولكنهم شيدوا للاولى حجرة من الطابوق شأن الثانية. ولم تكن ثمة اشجار على الشاطئ. لابد انها غرست في وقت واحد مع حديقة القصر. لقد غرسوا وأكلوا الثمر.. ولم تنبت بذورك ايها القلب العقيم.. وفي اي جهة من القريه موقع بيتها؟ ما الذي ستقولينه لحظة تسمعين الخبر (عبيد طلع من السجن)؟ اتمنى لو اعرف مشاعرك يا صالحة. اما انت يا امي الحنون لو كنت على قيد الحياة لأمتلأ الفضاء

بالهلاهل..

تحسس ساقيه ثانية، وواصل سيره الوئيد. انزل (الصرة) من على كتفه، وضعها في (كوسر) المضيف.. ثم دخل على استيحاء، وشيء من الخوف لم يعين مبعثه، جعله يتمنى خلو المضيف الا من ابيه.

كانت مفاجأة للاب لم يتغلب عليها.. اغمي عليه لبعض الوقت. تنسم عبيد هواء القرية، وفغم انفه عبير القهوة.. ودخان الوجاق، يتميز برائحة كاد ان ينساها. لم تعد آثار القيد تشغله لولا تحية قادم ونهوض وجلوس. ادار عينيه من وراء الدخان، فانكر كثيرا من الوجوه.. وحاور نفسه: من كانوا مردا نبتت شواربهم وطالت.. وابيض شعر الكثيرين ممن خلفتهم شبابا –المضيف وحده ما زال يحتفظ بسواد شعره.. ذلك لانه بلا قلب!!. تلمس عقاله الضامر، الذي ينتسب الى مرحلة تجاوزها الناس وصاروا يلبسون (العگل) الغليظة، وقد لفت انتباهه رجل يتبختر في مشيته.. بدا وكأن العگال زائدا عن حاجته، ولولا مشيته الوئيدة لسقط العگال جانبا. فتساءل عبيد في سره: من هذا الذي يمشي وكأنه مدير السجن.. ويضع العگال جانبا مثل (سدارة) رئيس العرفاء؟ سرعان ما تذكره: انت فالح.. يا صديق الشباب..

هب الحاضرون وقوفا قبل أن تطأ قدماه عتبة باب المضيف. فأستقبله عبيد.. صافحه وطبع قبلة على خده (كان مكانها الصحيح ظاهر كفه – هكذا افهمه ابوه فيما بعد –) تفحص صديقه القديم: انهم يدعونه الشيخ – ويخاطبونه محفوظ.. لا بأس. لحظ امتلاء جسمه الى حد الترهل. وحيوية تعبر عن نفسها من خلال النظرات المتسلطة ونبرة الصوت والضحكة

المجلجلة.

هكذا؟ ولا حتى سوآل.. بل إنه اهمال متعمد..؟

نبهه ابوه ان يسارع لاستقبال الشيخ سعدون خارج المضيف. احس حرارة اللقاء.. قبله سعدون. وقال (هله بيك.. هله بيك..) فخاطب فالحا في سره: كان ينبغي ان احس حرارة لقائك ياعديم الوفاء..

سأله الشيخ سعدون:

- اشلونك يا عبيد؟

- اللّه يحفظك (سيدي)

ضحك فالح بصلافة وعقبّ:

- هم زين ما كلت اللّه يحفظك عريفي!

برر الشيخ سعدون هفوة لسان عبيد، بتحكم العادة، نتيجه احتكاكه بأدارة السجن. خجل عبيد من سخرية فالح فعاتبه غاضبا في سره: تتصيد العبارات ضدي يا.. اعرف يا متغطرس اي علاقات مجنونة بين زوجتك وبين عشيقها.. ولن اتردد في المبيت معها على فراشك –لو اتيحت لي الفرصة.. كما بات ناصر مع شقيقتك (المحصنة).

كان يتوقع السوآل في اية لحظة، ومن اي كان، عن حياة السجن والسجناء، وبه شوق لاعلان خبر تنصيبه مراقبا على (القاووش) منذ سنتين.. لكن الحاضرين لا يجرؤن كما يبدو، فتساءل في سره: حتى الكلام وقف على سعدون وهذا الرقيع.. واحسب ان الضحك صار من المحرمات.. ألم يقولوا ذات يوم (الضحج زادنا)؟ فما هو زادكم يا خلف بلابوش دنيا!؟

اجال الشيخ سعدون بصره في الديوان، ثم سأل عن السيد محمد ابو

شرارة. فأجيب انه لم يأت بعد. امر عبيدا بالذهاب الى بيت السيد ليصحبه من هناك الى اهل القتيل، لغسل قلوبهم بالتحية، تأكيدا لنسيان الماضي.

نهض عبيد ثم وقف حيث هو، كأنه ليس للمضيف بابا يخرج منه. بادره سعدون بالسوآل عن سبب تردده. فأعترف عبيد، خجلا، بأنه قد لا يهتدي الى بيت السيد.. ضحك فالح مرة اخرى. واشار سعدون بأصبعه الى صبي يجلس القرفصاء عند الباب، وامره بمرافقة عبيد.

سأله عبيد في الطريق:

- ابن من انته؟

- ابن سلمان الحميد.

- شسمك؟

- داود

هم بسوآل عن عمته صالحة. وبعد ان تفرس وجهه استدرك وقال لنفسه: لقد تجاوز عهد الطفولة والبراءة ويبدو شيطانا اكثر منه انسانا. ولم العجلة؟ بعد دقائق اصل بيتها.. ونظرة واحدة تفصح عن كل ما في الصدور.. كانت تقول اكثر من عبارة بنظرة واحدة.. وتعرف ما الذي اريده بطرفة عين. مشاكل العالم كلها لا يمكن ان تأتي على الحب الذي في قلبها -وبقية منه تكفيني.

قطعت الطريق فتاة ممتلئة تحمل جود ماء: لم ار الجود ولم ار لفة (الوزار) منذ دهر طويل (متونس بدنياك عونك يهلجود -شيلك على الورچين وحبلك على انهود) ولها طريقتها الخاصة في لف الوزار.. ويا لروعة حركة ردن العباءة على وركها. هل عبث الزمان بذلك القوام الرائع يا

صالحة؟

صحبه السيد ابو شرارة الى بيت خضير، زوج صالحة، فلقي ترحيبا وديا وسمع كلمات دافئة: كل شيء قد طواه النسيان وان هي الا ساعة شيطانية.. ولا يشك احد الآن في ان الحادث ابن دقيقته غير مدبر.. ولم يكن ثمة سبق اصرار.. اعتبرني صديقك وقريبك وسندك في قادم الايام.

ثم صوت على زوجته:

– صالحة. هذا ابن عمج عبيد. تعاي سلمي عليه.

كانت ترتعش كالمقرورة، منزوية في ركن البيت، تحتضن طفليها، مثل دجاجة تجمع افراخها تحت جناحيها لحظة يمرق جارح في الفضاء.

تمنت لو يكون ولدها الثالث لحظتئذ في البيت فينضم الى اخويه.

نهضت بأرتباك متعثرة. قصدت الربعة. وقفت عند الباب. تحاشت النظر اليه. حيته بصوت مهزوز، لم تتوضح نبراته..

غادر الربعة مفكرا: ما معنى حمل الرضيع على صدرها وتقتاد الثاني بيدها؟ اهو كلام ارادت قوله..؟ لم اتبين وجهها ولم اقرأ ما في عينيها.. ولكن صوتها..؟ هل ارادت القول انظر ولكل شيء نهاية؟

وقف على جرف الغراف. استعاد معالمه القديمة: لقد كان يحصر القرية كالهلال.. ابتعد من هناك واقترب كثيرا من المضخة حتى اضطرهم لتكسية السد بالحطب. كانت بينه وبين المضخة مسافة.. لقد حفرنا المجرى بصعوبة يومذاك. لئن غيّر شط الغراف مجراه ابتعد من مكان واقترب من آخر فلم لا يتغير قلب صالحة؟ ويهملني فالح على نحو مقصود؟ لقد مر زمن طويل.. طويل جدا.. والزمن كفيل بتغيير كل الاشياء وحتى القلوب.. يالها من حكمة

رائعة كنت ترددها يا خلف —بلابوش دنيا —لقد مر زمن طويل ومن حق الغراف ومن حق صالحة وحتى فالح بن سعدون وكل الاشياء من حقها ان تتغير.. ويتعين على هذا القلب ان يتغير.. ولابد من التغيير كلية.

شارفت الشمس على المغيب، فوقف يتملاها! منذ متى لم ارها تنعكس على صفحة الغراف؟ لم يكن يستهويني مثل هذا المنظر.. لقد تغيرت، انا الآخر، دون علم مني!!

نزلت الشاطيء امرأة. مدت ساقها في الماء لتغسله.. لاح له الساق بضا يلمع تحت اشعة الشمس المحمرة. تحلب ريقه. وسائل نفسه: هل فات الاوان؟ الظفر بامرأة حقيقية في متناول اليد التي تحمل من المال ما يغري اهلها.. او في الاقل من يملك عنفوان الشباب.. وانا خالي الوفاض من كليهما.

فتل شاربه، دونما اعتزاز به، ثم اشعل سيكارة، وشيع المرأة التي غسلت ساقيها بنظرة شرهة. وعاد يرقب قرص الشمس الذي اتسعت دائرته، وبدأ يلامس الموج.. ثم تأرجح قرص الشمس مع حركة موج الغراف. واخذ بالغوص رويدا رويدا.

تعين عليه ان يعود الى مضيف الشيوخ: فحاور نفسه: اما وقد هجر والدي بيته.. واتخذ المضيف مسكنا.. فبالتبعية سيكون المضيف مسكني ياله من (قاووش) كبير؟ ذلك امر لا محيد عنه. ما دمت فارغ الجيب. فرغيف الخبز سيف ان لم تكن قبضته بين اصابعك فشفرته مسلطة على عنقك. واذا ما بقي حالي هكذا..

فمعنى تحرري من السجن مجرد الخروج الى ساحة سجن اكبر..

ومثلما حال السجن بيني وبين صالحة من قبل سيحول بيني وبينها. هذا الجدار السميك من الاطفال الذين تدرعت بهم وهي تلقي تحيتها متوثبة. ولم ار ابتسامة فالح كما لم ار ابتسامة المدير طيلة سنوات سجني، يتحتم عليّ -ان احفر بئرا بأبرة. ابدأ من الصفر. والا فمن قاووش الى قاووش اكبر. ومثلما ضحكت وتزلفت (السرهنك) واصبحت مراقبا سوف اتزلف من هو اهم عليّ ان احتمل فالحا واحمله على مودتي. واحسب ان اليدين خلقتا لتتحركا.. فأما على زناد البندقية واما للطبطبة على الاكتاف، ولقد جربت الاولى وتجرعت مرارتها بما فيه الكفاية.. وعليّ ان اجرب الثانية فربما تذوقت حلاوتها!

* * *

بعد خلو المضيف من سمّار الليل الصق غافل فراشه بفراش ولده، وتمددا يتهامسان.. تذكر عبيد ردهة السجن وازدحامها بالسجناء وقال لنفسه: ولاول مرة بعد عمر طويل تحتل هذا القاووش الكبير بمفردك. كاد ان يضحك: لو كان في ينبوع الضحك قطرة يا عبيد. طرح اسئلة على ابيه، كيفما اتفق، شرع الاب يجيب بأسهاب، يستطرد فيبلغ احداثا لا علاقة لها بالسوآل.. واحيانا ينسى السوآل.. ويكرر روايات سبق لعبيد ان سمعها في المواجهات الشهرية: واما حمزة الخلف فقد تزوج شقيقة خضير زوج صالحة (لو حدثتني عن صالحة دون سواها) ورزق ناصر بن حسين بطفلين قبل ان يرحل الى مدينة الكوت اثر شجار عنيف بينه وبين فالح بن سعدون حول قسمة الحاصل.. ومع انه تجاسر كثيرا على ابن سعدون، لكن الفلاحين يتذكرونه بأحترام.. ويكنون له الود.. وكان لابد من رحيله..

لقد عوضه اللّه عن (الفلاحة) بأحسن منها فهو الآن يعمل في سدة الكوت ويكسب اجرا جيدا.. وآلت ثروة احميد ابو البينه بعد موته الى ولده صالح ويبدو اكثر بخلا منَ المرحوم وقد تضاعفت اغنامه (تحدث عن صالح وانعطف بالحديث الى صالحة.. اليس بمقدورك ان تخفف عني هذا الحزن الثقيل) وعلى ذكر الغنم إشترت هلالة بنت صلال زوجة فالح

(اعرفها جيدا.. حدثني عنها عشيقها في غابر الزمان.. وقد اخذت على نفسي عهدا بمضاجعتها على فراش الشيخ فالح حتى لو بقى من عمري يوم واحد.. لأثلم غطرسته.. واجزيه عن عدم وفائه..) مائة راس غنم في العام الماضي واودعتها مع غنم صالح ابو البينه (هكذا تلعب بي مثل (الهوله) بين صالحة التي احبها وهلالة التي اشتهيها..) وعلى ذكر هلالة تقول عنها ام فالح: لو كان بمستطاعها بيع (طابوگ) القصر لفعلت. ان لها يدا طويلة وأساليب شيطانية –نعوذ باللّه –للاستحواذ على المال. وان لها سلطانا على زوجها، هو بلا شك نتيجة عمل سحري محكم (انها بشارة خير.. فأذا كان مسلكها يعتمد السحر والشياطين ولها يد طويلة وما الى ذلك من النعوت فسوف احقق امنيتي عما قريب.)

أما زوجها فقد اصبح هو الشيخ الحقيقي يتصرف بالمقاطعة كيفما شاء. حتى شل يد سعدون عن العمل.. تصور انه يجلب الكاوليات الى القصر ويبقين حتى مطلع الشمس ويتظاهر الشيخ سعدون بجهله لما يحدث (وهذا يعني انه مشغول عنها.. وسوف تكون مهمتي اسهل) وانا على ثقة بأنه عليم بشرب فالح للعرق. واما حسنة بنت الشيخ فقد انجبت ولدا وثلاث بنات من ابن صلال وتشكو امها من سوء علاقتها بزوجها (اعرف

الاسباب.. واقطع ان الولد والبنات هم اولاد ناصر وليس اولاد شعيبث وانا على استعداد للرهان بأن ناصرا يتسلل اليها كل ليلة حتى وهو في الكوت.. ان له قلب اسد وخفة ثعلب) واما ابن سعدون الآخر فهو الآن يقيم في المدينة عند الحاج محمد شريك الشيوخ بالمضخة الجديدة.. ويقال ان فيصلا.. سينهي الدراسة الثانوية عما قريب وبعدها يدرس في مدرسة يتخرج منها (قيمقام) او على الاقل (متصرف).

* * *

استيقظ غافل مبكرا. صلى ركعتي الصبح على عجل. نهض عبيد من فراشه توجه نحو مشرق الشمس. تمطى مرارا. كان مزاجه صافيا. مد بصره الى كل الاتجاهات. استشعر فرحة، وقال لنفسه: ولا جدار يحجب الرؤيا.. هذا وحده يكفي سببا للاستبشار بالحياة الجديدة. اصغى لصياح الديكة. ونهيق الحمير وخوار البقر. وكان يستزيد مستمتعا. تركز انتباهه حول صوت المضختين.. استطاب تناغم صوتيهما ونشوز واحدة عن الاخرى من آن لآخر. ثم انصرف الى صوت الهاون وقد بدأ ابوه يوقع لحنا، كان لا يحسنه الا سعدون نفسه. وتزايد اللغط في القرية وانعقدت سحابة من دخان التنانير فوق الاكواخ. فحاور نفسه: وهي واحدة من بين الخبازات ما اعذب خفق الاكف وهي ترقق العجين. آخ يا صمون السجن الاسود.. اقبح ما في السجن صمونه الاسود.. كل شيء في السجن رديء

—يالقبح التعداد الصباحي..

لقد كنا ثلثمائة سجين نصطف كالغنم وكنتم ثلاثة لم تتراجعوا عن قراركم بعدم الحضور مع (المصطر) لله دركم. انتم الرجال الشجعان اما

نحن فقد كنا نتحرك كالغنم يسوقنا رئيس العرفاء بعصاه.. ليتني اعرف من اين تستمدون شجاعتكم وليس بينكم قاتل او سارق.. مجرد أفندية.. اصواتكم مثل اجسامكم رقيقة ناعمة.. ولم اكلف نفسي مهمة التدقيق في اقوالكم عن مساواة الناس.. تناهت اليه دعوات الفلاحين الصباحية: (اليوم يومك يا علي.. اصبحنا واصبح الملك لله..) فأقتحم ذهنه خاطر طائش.. وردد الدعاء في سره: (اصبحنا واصبح الملك لبيت مهلهل) استعاذ بالله من الشيطان الذي أوحى له بهذه العبارة الصبيانية.. تذكر استغاثة ابيه في الليل من كثرة العمل الذي ينتظره في الصباح حين اعلمه:

- باچر تجي هجنه..
- مگصدك لجنه؟
- يمكن.
- شتسوي؟
- ايگول الشيخ اتخرّط الگاع.
- اتسوي الها خرايط؟
- يمكن.

اخذ على نفسه مهمة كنس المضيف.. فيما انصرف الاب لجلب الماء من الشط.. حمل صفيحتين تتدليان من طرف عمود، وكأنهما ميزان. وعاد العجوز ينوء تحت ثقلهما، وقد ابتل ثوبه تماما. اشفق عبيد على ابيه، فتناول الصفيحتين وافرغهما بالكوز الكبير.

هرول غافل بعد ذلك الى حوش الشيوخ ونقل السجاد لفرش المضيف على نحو غير اعتيادي:

- ابني.. ابني.. سوّه افراش حكومه.. ابني اريدك تبيض وجهي.

تمنى لو يصاحب ابيه الى الحوش لنقل السجاد، او يقوم بالمهمة لوحده عله يلمح زوجة فالح بن سعدون. وسرعان ما عدل عن رأيه مؤملا سنوح الفرصة في مناسبة اخرى.

* * *

اعجب فالح بن سعدون بخفة عبيد ومهارته، وهو يوزع كؤوس (الشربت) واللبن واقداح الشاي على رئيس لجنة التسوية واعضائها، ثم القهوة فيما بعد. وتجلت براعته في صف مواعين المرق والحلوى وتوزيع صحون اللحم في الاماكن المناسبة على المائدة.

اقترح رئيس لجنة تسوية حقوق الاراضي، بعد الغداء مباشرة، ان يقوم بجولة استطلاعية للتحقق من معالم المقاطعة على الطبيعة. فبادر فالح بن سعدون يرد اقتراح الرئيس: اذا اتعبت نفسك في العمل هذا اليوم فمن يسهر مع (بتّه)؟ وذكر الاسم همسا مع ابتسامة مقصودة. فكان لاسمها فعل المخدر بالنسبة للرئيس الذي عرف بولعه الشديد بالكاوليات.

تصنع الشيخ سعدون حراجة الموقف، لان الحديث يدور حول الكاولية وهو الوقور المتدين، واغتنمها فرصة سانحة للانصراف، فأطلق ضحكة باهتة وقال للرئيس:

- بيگك آنه شايب.. تعفوني من گعدتكم. هذا خادمك فالح شاب مثلكم.. ايلوگ الكم وتلوگون له.. آنه اروح للمضيف يم ربعي الفلاليح!

وعمل سعدون بهمة لا تدانيها همة الشباب: بعث من يحضر صلالا على الفور. ورسولا آخر الى قرية (العلوه) ياتيه بخلف واولاد صگر. ثم انفرد

بغافل لبعض الوقت ولقنه عبارات يقولها غدا امام اللجنة. وفعل الشيء نفسه مع ولدي احميد ابو البينه.

*　　*　　*

كان خلف، على طول الدرب، يمازح اولاد صگر مرددا: (عزيمه يوچوي احصان.. عزيمه يوچوي احصان..؟) فيجيبه سويلم الصكر: (كلبي لا سبني چنها چوي احصان!) وينصحه خلف بأن لا يتأثر بآراء حسين المتطرفه ضد بيت مهلهل.. يتشكك في كل فعل او قول يصدر عنهم.

*　　*　　*

رحب سعدون بمقدم خلف واولاد صگر وسارع يستفسر، بلهفة، عن صحة حسين ومزاجه. ففكر خلف على الفور: ابن مهلهل ذهب تيزاب لن يصدأ ابدا.. ليس بمقدوره التخلص من مودتنا.. وعشرتنا الطويلة —انها (عشرة) العمر انها تعاوده كحنين المدخن الى التبغ بعد انقطاع طويل. وحين فرغ من لفيفة التبغ اخرج الزناد.. وسحب الفتيلة الى اعلى ثم نفخها قبل ان يقدح.. فضحك سعدون وقال:

- هاه.. جنّه صار ابو نفخه؟!

ومد يده الى جيبه، فأخرج قطعة معدنية مربعة الشكل، تلمع كالفضة المجلوة، واومأ لخلف بالاقتراب منه. ولما حاذاه خلف ضغط بأصبعه على الكتلة المعدنية المربعة فانبعجت من جانب وارتفع غطاء من اعلا وتصاعدت شعلة نار.. حدث ذلك مرة واحدة. دهش خلف، وظل يراقبها بفم نصف مفتوح. قال سعدون بلهجة انتصار:

- هذا الشغل. موش ازنادك ابو نفخه!

ثم ناوله الزناد، شارحا كيفية استعماله..

اوجس سويلم الصگر خيفة، وردد في سره: (يا يمّه..!)

لقد فعل مثل هذا يوم جئنا نحتج على تعيين (شحنه) يراقب الديمات.. وخدع خلفا بزناد. ان اللعبة تتكرر (اللّه يستر من تاليها).

قدر سعدون ان تصرفه هذا بحاجة الى ما يبرره، ويبعد الشبهات عن مقاصده فقال لخلف:

- يا سبحان اللّه.. كلما اشوف زناد جديد بدكان يوعد واحد - اتذكرك.. اول ما شفت هذا الزناد بالدكان تذكرتك واشتريته.. گلت هذا بعده ما داير بولايتنا، يشتغل بالبانزيم وبالنفط.. لازم آخذه لخلف.. خلف لازم دوم عنده زناد جديد.. محد شايل مثله..

ضحك خلف ببراءة. سر لهذه الالتفاتة الكريمة. وحاور نفسه:

ان البرود الذي ينتاب علاقتنا هو من صنع حسين. ولكنه سرعان ما يزول.. وان هو الا سحابة صيف. ولا يبقى الا الود القديم يفرض نفسه ويطرد كل ما هو طارئ.

نهض سعدون اكراما لصلال.. فأستاء خلف لمقدمه وقال في سره: (لا هلا ولا مرحبا.. هم حضرها الخبيث صلال؟!) وبعد خلوة قصيرة بين سعدون وصلال رجع سعدون واتخذ مكانه جوار خلف.. ثم اومأ لاولاد صگر فأنضموا اليهما. وشرع سعدون يتحدث بصوت خفيض: لقد بذلنا جهدا مضنيا للتفاهم مع رئيس لجنة التسوية.. ودفعنا له مقدما مبلغا كبيرا من المال.. وندفع ضعف ذلك بعد اجراء التسوية.. والشيء الجوهري في هذه القضية، كون الاتفاق ينص على تقديم مبلغ معين من المال عن كل

قطعة ارض في المقاطعة.. بالنسبة لي ولصلال، وتجنبا لدفع مبالغ طائلة (والتفت الى اولاد صگر) اريدكم ان تبرزوا وصولات الضرائب القديمة عن ديمتكم وتقرون امام اللجنة بأنكم دفعتم الضرائب نيابة عن صلال. وانها كانت ولا تزال جزءاً من ارضه.

والتفت الى خلف وقال بدالة ظاهرة:

- وانته اتگول چنت ادفع الضريبة بدال سعدون بن مهلهل.

ثم بدل نبرة صوته وهو يوضح: وان هي الا اجراءات شكلية، لا تمس حقوقكم الاساسية بشيء..

فوجئوا بالطلب غير المتوقع، وعلى الرغم من مقدمة سعدون لحديثه فقد استبدت الشكوك بأولاد صگر ولكنهم انتظروا كلمه خلف فأذا هو يعترض على مسألة تبديل اسم الديمة الذي اراده سعدون، ان يكون اسمها (هورة السرابه) بدلا من ديمة خلف. وليس له اعتراض على الاقرار بكونه يدفع الضريبة نيابة عن بيت مهلهل..

ضحك سعدون وقال:

- يا خويه غابل اللجنه جاعده ويانا بالبيوت وتمنعنا من كولتن (ديمة خلف)؟ هاي ترتيبات حكومه.. اتروح وي لجنتها.. نعلة والديهم.. احنا كلمن على وضعه... تشبث اولاد صگر بأعتراض معقول لا يكشف صراحة عن مجابهتهم لسعدون، وهو انهم على استعداد للاقرار بان الديمة كانت جزءاً من ارض بيت مهلهل اسوة بأقرار خلف. ولكنهم يرفضون القول انها جزء من ارض صلال. فتساءل سعدون بنبرة حادة:

- تظنون بي غير ظن؟ غابل اطي گاع اخوتي للغريب؟ لكن هاي شغله

حكوميه بيها سر.. ما اكدر احچيه هسا..

فبادر خلف يؤيد قول سعدون:

- ابن مهلهل لو يعرف بيها مذرّة ما ايسويها.. ابدا ما يطّي كاع اخوته للغريب.. اللّه وكبر. هيچ توصل الامور؟!

وحين عادوا الى قريتهم راح خلف يردد ضاحكا:

- لا هي عزيمه ولا هي چوي حصان..!

* * *

نهض غافل قبل موعده، ليهيء قهوة الصباح في المضيف، ويذهب الى حيث امره الشيخ.. صاح ثانية ليوقظ ولده:

- اگعد بويه، اگعد. ما ظل عدنا وكت.

- بويه دنيا فجر.. بعد وكت. هسه نمت.

- اگلك اگعد ما ظل وكت.

- بويه هذوله هسه ناموا.. جانوا سكارى ويرگصون وي الكاوليات الليل كله.. بعد ثلث ساعات.. اربعه ما يكعدون.

- انته تعرف شي وآنا اعرف شي. ما دام الشيخ گال اغبشوا لازم نغبش.

فرك عبيد عينيه، وغالب نعاسا شديدا.. ثم نهض متعثر الخطى.. فعاجله ابوه بلهوجة:

- يا اللّه يا اللّه.. نتريگك عند بيت خلف ونتنذر الهجنه.

تعين على عبيد ان يرجو والده التمهل في مشيه. كان يجد صعوبة في اللحاق به. لم يتخلص كلية من آثار القيد على ساقيه. وفي رأسه وشوشة

من بقايا كؤوس احتساها خلسة ليلة البارحة، لمجرد معرفة مذاق هذا الشراب الذي أسقط وقار رئيس اللجنة والشيخ وبقية الافندية وجعلهم يرقصون مع الكاولية على ذلك النحو المضحك. وفكر عبيد نادما: اوشكت على ارتكاب الحماقة بعد منتصف الليل. والآن ادركت ان للحماقات طريقا آخر غير فوهة البندقية. لقد نهرتني بعنف حين امسكتها بأشتهاء.. لو شربت مقدار ما شرب الافندية لاغتصبتها عنوة مددتها فوق صدر فالح بن سعدون. واكبر الحرائق من شرارة واحدة. ما احلاها وهي تهز الردفين. لن اعود ثانية الى مثل حماقة البارحة. احس التعب وهو يجاهد للحاق بوالده، فسأله مستغربا عن اسباب تعجله:

– يا بويه ما اتگلي ليش مستعجل؟ هذوله بعد ساعتين ما يگعدون من النوم.

– واللّه يا بويه آنه هم ما ادري ليش مستعجل.

ثم تحسس الوصولات في جيب الدشداشة، عند الورك، وتأوه قائلا:

– اويلاه يعبيد يبني.. كون اگلهم هاي ادويمتي وذني وصولاتها.. وكون ايغيدونها بأسمي..

– چا ليش ما اتگلهم؟

– احوه! احوه!.. چا والشيخ شيگول؟!

– چا ليش تحچي.

– هيچ. خبرك تمنّي!

– انته وي الشيوخ ميت بيد امغسّل!

– على ما عدّيت يا بني.. يو مثل ما ايگول مرحوم احميد:

حريم وتحت خيمتك يا كريم!

وعاود المشي بخطى سريعة. اجتهد عبيد ثانية للحاق به، فلم يفلح. قرر ان يعيق سبيله بأسئلة.. وقد عرف ميله الشديد للاجابات المسهبة. ابتدأ بملا محسن، وقد رآه ليلة البارحة يتصرف بدالة كبيرة على الشيوخ، ويحظى بأحترام فالح بن سعدون وصلال على حد سواء. ورأى ولده ملا علي يغمز فالحا بعين واحدة، بلا كلفة، فيرد له الغمزة بمثلها.. اجاب الاب بشهية متفتحة للكلام. اضحى ملا محسن مسؤول مالية الشيوخ.. ومركزه يزداد اهمية مع ازدياد مدخولاتهم. ويخيل الي ان نجم ملا علي يصعد مع صعود نجم فالح. وقد تزوج فتاة تمت بصلة قربى (بعيدة) الى هلاله بنت صلال زوجة فالح وكانت تتردد الى حوش الشيوخ بكثرة لكنها امتنعت فيما بعد. وقد اشاع الناس، نعوذ بالله، ان زوجة فالح ضبطتها معه في وضع.. نعوذ بالله (هذا افضل ما في الحديث. ومن الخير ان تستمر فيه على النحو الذي يسهل مهماتي القادمة..) وبسبب من صلة القربى – البعيدة –حيل بين الفضيحة وبين الانتشار. ولكن أهل القرية لكل واحد منهم زوجين من العيون والآذان ولهم انوف عجيبة تتشمم الفضائح حيثما وقعت –نعوذ بالله –.

وبدا الاب ملمّا بفضائح القرية واشاعاتها. لم تغب عنه صغيرة ولا كبيرة. اوردها كمثال على تعقب الناس لآثار الفضائح وتصيدها. وكان يرويها.. (والذنب على من كالها) وينفض زيق ثوبه بعد كل رواية.

واما بنت ملا محسن فقد تزوجها محمد البقال. واما السيد ابو شرارة فقد تحسنت احواله بفضل (كفة العلوية) التي تؤخذ من كل بيدر في

المقاطعة، ولكن يبدو لي وهو مجرد حدس، ان السيد حسن الكربلائي ابن المرحوم سيد علي الروزخون هو منافس خطير للسيد ابو شرارة حول كيلة العلويه. بعد ان توطدت علاقات عائلته مع عائلة الشيوخ خلال سفراتهم لزيارة العتبات المقدسة، وبفعل الهدايا السنوية التي يحسن اختيارها للشيوخ وللشيخيات (... وماذا عن المفلس الذي لا يستطيع تقديم الهدايا للشيخيات؟) وقد لا تعلم ان ضيدان الحائك توفي منذ سنتين وصار ولده سائقا لمضختي الشيوخ وتزوج بنت البقال..

تساءل عبيد عندما توسطا هورة البترا:

- چنهم شايلين من دارهم، اللي عرّس بيها ناصر؟.

- شيلهم الفيضان.. وحطّوا بذيچ الصفحة.. هسا صرنا انسميهم اهل العلوه..

- الاحسن انروح لبيت حسين.. هذا واجب.. شتگول؟

- لا. لا. لا. كلشي ولا هاي. الشيخ وصاني. گال كلشي ولا تمرّون على بيت حسين.

وتساءل عبيد: الا يثير وجودي في بيت خلف شجون زوجة حمزة وهي اخت القتيل؟ فرد الاب مهونا:

- اووه.. يا ابني بلت عظام الموتى وصارت تراب، وانزفت فصليه وترست البيت جهال.. يا ابني العدلين مشغولين عن الموتى بضيم المعاش.. ودولاب الدنيا ما امخلي الوادم تلتفت لا هيچ ولا هيچ.. دنيا.. مثلما يگول خلف.. بلابوش دنيا!

استقبل عبيد بما يناسب طول الفراق -حتى حسين سعى بنفسه وجاء

لتحيته.. وترك جودة شياهه وجاء لهذا القصد –تفحص عبيد وجوه الحاضرين فقال لنفسه: ليس بينهم غريب ولكن ملامحهم تغيرت وغطى الشيب كل نبتة في وجهي حسين وخلف اما حمزة فهو الوحيد الذي يصح عليه القول، عصي على سلطان التغيير هكذا كما كان نحيفا معتدل القامة وشعر وجهه مثل زرع السبخ. اما ملا نعمة فقد كبر اكثر مما ينبغي في جسمه وفي عقله.. يتكلم مثل كهل عركته الحياة.. يسلسل الاسئلة وكأنه ذاك الحاكم الذي استجوبني. ما هي حياة السجن؟ ما هي احاسيس السجين؟ ما الذي يتعلمه السجين من هذه التجربة المريرة..

واصغى الحاضرون بمن فيهم حسين لاسئلة ابنه الملا.. فكان عبيد يستعين، احيانا، بحركات يديه وتكوير جسمه: هكذا نجلس القرفصاء عند التعداد الصباحي.. ويخطر رئيس العرفاء.. يعد المسجونين كما يفعل راعي الغنم، مع فارق واحد –والتفت ناحية جودة، وقدم ابتسامة لقوله: لكن عمي جودة يستمتع بعدّ شياهه ويتألم لمرض احداهن، بينما السجين عندهم عديم الاهمية.. ليس اكثر من رقم.. ثم وصف عملية الجلد على المقرعة.. فغالب الاب دمعة اشفاق لمحها عبيد فأستدرك يوضح: ولكنني لم اتعرض لعقوبة الجلد –والحمد لله –، بل اصبحت في السنتين الاخيرتين مراقبا لاكبر ردهة في السجن.

وبالغ في وصف المشقة التي لاقاها السجناء خلال اقامة السد الترابي حول مدينة الكوت، لوقايتها من الغرق، والسد المقابل للمدينة. ثم تعمد استدرار العطف على السجناء بقوله:

– وبيناتهم ساده اولاد رسول الله.. واجاويد اولاد حمايل.. وكل واحد

منهم هزّته ما يشيلها المطي تكرمون عن طاريّه!

توقف برهة ليبحث عن ادوات تعبير لاتنم عن اعجاب او انكار لموقف ثلاثة من السجناء اعلنوا العصيان على ادارة السجن وسببوا المتاعب للمدير ورفضوا حمل ذرة من تراب.. يزعمون انهم ليسوا سجناء...

تركزت اسئلة ملا نعمة حول هؤلاء الثلاثة..

ويجيبه عبيد: ان تهمتهم غامضة.. يقول المدير ان ملتّهم غريبة.. ويتساءل ملا نعمة! بسبب من غرابة ملتهم يسجنون؟

ذلك شيء لا يصدق، فالغرباء هم المتسلطون على رقاب المواطنين. حرك حسين مسبحته وانشد بيتا ناقصا، كي لا تفوت المناسبة:

الغريب امبربع بخير البلد

واحنا شربنا صار برنوطي!

بحث عبيد في زوايا ذاكرته، خلال فترة انشاد حسين، رفع كفه مباعدا بين اصابعها ليوقف تساؤلات الملا وقال:

- تذكرت.. تذكرت.. يكول المدير هذوله على ملّة (المسقوف) لم يكن تذكر لفظ (المسقوف) الا بمثابة غموض جديد يضيفه على السجناء الثلاثة. ادرك هذه الحقيقة بنفسه، قبل ان يستوضحوه، فأنبرى يكشف عن الجانب الذي عرفه عنهم مباشرة، وقال بلهجة تهكمية:

- يريدونها سوا.. لا غني ولا فقير ولا فلاح ولا ملاچ..!

تساءل الحاضرون بأنكار: ومن يعمل اذن؟. واجاب عبيد بنبرة من يقول (وذنبهم على جنبهم): يريدون توزيع الاراضي على الفلاحين بالتساوي. استوضح الملا: وكيف يتعاملون فيما بينهم.. وكيف يتصرفون ازاء

الآخرين؟ امسك عبيد ياقة سترته على نحو ما فعل ابوه، وهو يروي الفضائح، وقال:

- الشهادة للّه، امأدبين.. امكمّلين.. يفتهمون اهواي.. لوما هالسالفه الغريبه.

تساءل ملا نعمة: وهل فيما يدعون اليه منكرا...؟ اجاب عبيد، ولعله استظهر الاجابة من أحد، خلال احاديث دارت حول السجناء الثلاثة، داخل السجن: حين تعد الناس بأن السماء سوف تمطر ذهبا وفضة، فأنت لم تقل منكرا ولكن الناس يسخرون منك بلا شك. او لنقل اذا اعلن عشرة من فلاحي البترا عن عزمهم على سد نهر الغراف بمساحيهم، ايام فيضانه.. الا يصبحون موضع اتهام في قواهم العقلية؟ تعجل الملا في رده وقال:

- النبي بدا دعوته لوحده..

فضجت ربعة خلف بأصوات الحاضرين:

- استخفر اللّه.. استخفر اللّه.. هاي وين وذيچ وين؟!

- أفا عليك هذا انته التفتهم.. تحچي هاي؟!

تراجع الملا على الفور وحاول توضيح فكرته: قصدت ان الدعوات تبدأها قلة من الناس... وما اردت المقارنة ابدا.

خرج جودة عن صمته، لاول مرة، وقال:

- هذوله يحچون تسعه بالشهر! اللّه ما ساوا خلگه.. اصابعك كلهن سوا؟!

وعقب حسين بغموض:

- ايه.. كل سدر وبيه علم. ويتعبك المايفتهم.

استجاب عبيد لسوآل الملا، فتحدث عن حياة السجناء الثلاثة اليومية: يأكلون سوية.. وكل ادواتهم وطعامعهم وحاجياتهم مشتركة.. يجمعون الهدايا التي تصلهم في المواجهات الشهرية، بما فيها الملابس، وليس لاحد منهم ان يقول (هذا حلالي وذاك حلالك..) توقف خلف عن لف سكارته. اشرق وجهه بأبتسامة، ثم غمز اخاه بعين واحدة وقال:

- هاي بيها سبع احظوظ. كون اتصير الحسبه خلط وشّ.. ومثلات آنا وجودة نخلط كل موجوداتنا ونگرطهن سوا.. بلابوش دنيا!

ثم التفت ناحية غافل وقال:

- ومثلات ابوك يا عبيد يخلط موجوداته وي موجودات بيت مهلهل ويگرطونهن سوا....

دخل الربعة صبي يلهث وصرخ برعب.

- اجتنا خيل.. راچبتها افنديه. وشرطة.. ووادم!

نهض غافل على عجل، وقال بأرتباك:

- الهجنه.. اعوينة ابو غافل.. الهجنه الهجنه!

ضحك خلف وقال:

- حتى انته عرفت الهجنه؟ بلابوش دنيا!

انتهى الجزء الاول من الرباعية

يليه الجزء الثاني

بلابوش دنيا!

تنويه

ســــــــقط سهوا في ظهــر غلاف رواية (الزناد) الفقرة التالية خدمة للحركة الثقافية.

لذا اقتضى التنويه



هذا الكتاب

رباعية ابو گاطع:

عمل أدبي روائي للكاتب المعروف شمران الياسري ، كتبهُ في سبعينات القـــرن الماضي ، وهو بمثابـــة توثيق لحقبة زمنية من تاريخ العراق منذُ عشرينيات القرن الماضي وحـــتى منتصف الســـتينيات ، يســـتعرض فيه المؤلف الحراك السياسي والاجتماعي لشعب مقهور ، خرج من الاحتلال العثماني ليخلفهُ احتلال بريطاني ، ثم لنظام ملكي وجمهوري وحكومات متعاقبه لم تكن بمستوى طموح الجماهير في العيش برفاه وسعادة.

رباعية ابو گاطع:

وثيقة تاريخية كتبت باسلوب أدبي روائي ممتع ، كاتبها خرج من رحم المعاناة الشعبيه ، ولهذا جاء الســـرد سلساً ، و الرؤية تجمع بين الواقعية والخلق والابداع..

تقدم دار الرواد للطباعة هذه الرواية باجزاءها الاربعة خدمة لجمهور القراء وبقصد اشاعة الثقافة الادبـــية الملتزمة.

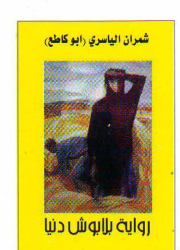
تنويه :

قامت مجلة الثقافه الجديده بطرح فكرة طبع هذه الرواية على حســـاب القـــراء بـــعد ان رفضت اجهزة النظام السابق تعضيد نشرها ، فكانت الاستجابة سريعة ، اذ حجز القراء نسخهم ودفعوا ثمنها قبل الطبع, حـــرصاً على صدور هذا العمل الادبي.

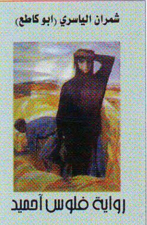
يمكن تفسير هذا الموقف ،بأنه تحد للسلطة ورغبة في أن يرى هذا العمل الادبي النور ، رغم كل العقبات ، كما يدلل على ثقة القراء بالمؤلف ذي الشعبية الواسعة .. وكفاهم ان المؤلف هو ابو گاطع

انها ثقة ومحبة الجماهير ..وها هي مطبعة الرواد تعيد تجديد هذه الثقة بـــالكاتب والرواية خدمة للحـــركة

رباعية ابو كاطع



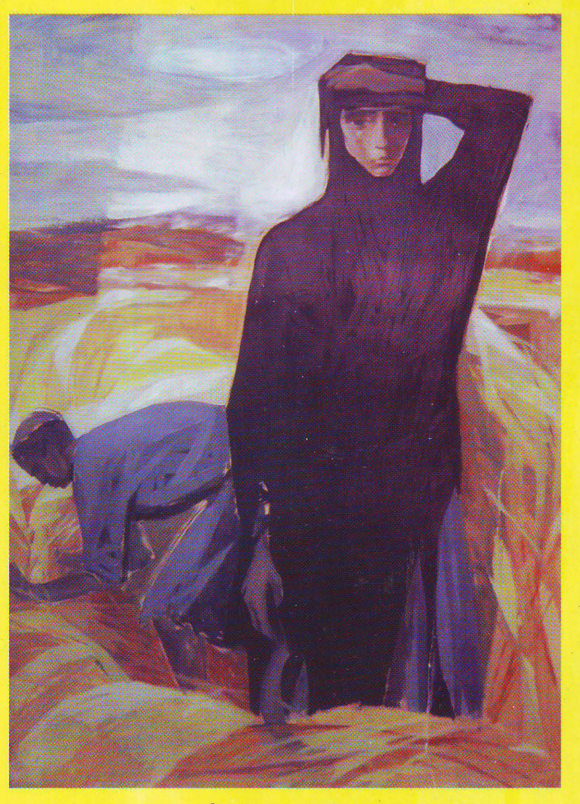
شمران الياسري (ابو كاطع)
رواية غنم الشيوخ



شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٧

شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية بلابوش دنيا

الكتاب : بلا بوش دنيا

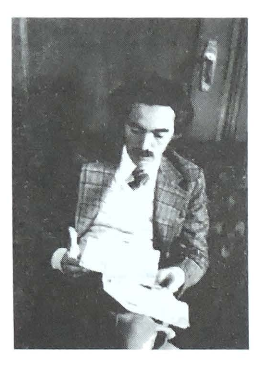
المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة والنشـر والتـوزيع المحـدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد



نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط - قضاء الحي - ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحداره من اسرة علوية (من السادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحيط الذي يعيش فيه ومنحهُ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياسري المدارس الحكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهُ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القراءة والكتابة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ـــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ـــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحيان للأختفاء ، منعته من تحقيق هذا المشروع.

ـــ أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبـــح لديه عمود يومي يكتبـــه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحـــية ومشـــكلات الريف ، اما بـــرنامجه الاذاعي (احجيها بصراحه يبو گاطع) فقد كان خطاً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

*عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البـــلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين ســجن بـــغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربـــا ليعمل مندوبـــاً لوكالة الانبـــاء الفلسطينيه في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير .

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأســـرته وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

* ومع انغماس (ابو گاطع) في العمل الصحفي ، الاأنه كان يردد بأستمرار .. الروايـة .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي ..وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

بلا بوش دنيا

شمـــران اليـــاســـري

روايـة

بلابوش دنيا

الجزء الثاني من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام ١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت براعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة .. تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد .

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوگاطع) اديبا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجه الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة ولأعلام (سابقاً) لتعضيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو كاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ,١٩٦٣

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالا لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد..

ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل وُيغّير مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابو كَاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..

إن ما تعلّمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف ُيعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفرّد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محض حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزائها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كَاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والربح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنبا" الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القارىء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحمّيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه إبن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٣.. فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعادت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري ـ ابو كاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخّلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسري
شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

تطاول فرهود بن خلف على اطراف قدميه، ثم شكل كفيه كأسطوانتين ووضعهما في مواجهة عينيه، كمن يراقب بالناظور، وقال معابثا:

- دگيت الدربيل على درب الكوت. ما شفت خيّال، ولا حتى زلمه..

افتقد خلف الطمأنينة، فقرر اعتلاء (السوباط) بنفسه. فكر وهو ينظر وراء هورة البترا ومقاطعة صلال: اطعمها بلا كيل ولم يروضها بالركوب حتى صارت تملأ الافق بصهيلها وتستدير على مربطها- وقد اختلط شعر (شليلها) بشعر (معارفها) كلما لمحت خيّالا على الطريق او سمعت وقع حوافر من بعيد.. ولربما اغرته فأطلق لها العنان. وليس دون معنى قولهم (مناياهن تحت حوافرهن).

رفع صوته من فوق مرتقاه ونادى حسينا يسأله:

- أبو ناصر ما اتگلي شنهي تعطيلة حمزة؟ شو هاي مدري شنهي ما شنهي.. گال فرد يوم اظل بالكوت..

فأصيب حسين بعدوى القلق وحاور نفسه: وهذا مدعاة لوساوسي، فقد تعوّد ان يحل ضيفا على ناصر كلما سافر الى الكوت، ويعود بما يطمئنني.. اخبار وهدايا .. ولقد تشعبت اخباره وهداياه في الاشهر الاخيرة.. افهم لماذا تنوعت هداياه: اتقن صنعته فارتفع اجره الى درهم ونصف الدرهم في اليوم الواحد . وهذا مبلغ كبير اذا كانت وزنة الحنطة بثلاثة دراهم.. . لكن تشعّب اخباره لغز ومبعث قلق. لدرجة تراجع خوفي عليه من دسائس بيت مهلهل الى المرتبة الثانية وحل محله خوف غامض من عدو لا اكاد اشخصه بسهولة.. اشم من كلماته ومن اخباره رائحة مناكدة لا تشبه تلك التي سببت رحيله من البترا . ولولا هذا القلب الملعون الذي لا

يطاوعني دائما لقلت له مزيدا من المناكدة، مزيدا من المتاعب لكل الظالمين والمتغطرسين . ترى هل وقع في مشكل مع الانكليز المشرفين على بناء السد او مع الشرطة فتحتم على حمزة ان ينتظر النتائج ليأتيني بالخبر اليقين؟ بدأت افكر مثل العجائز!! نسيت من اكون.. وتنكرت لكل الشعر الذي قلته ورويته ونسيت..

تصايح اطفال القرية وهرعوا يتطلعون بشغف الى سيارة تجتاز المرتفع الجنوبي لهورة البترا..

وضع خلف كفه فوق حاجبيه واعلن دونما تمييز للونها.

- هاي سيارة ابن مهلهل وچاد..

ثم نادى ولده:

- ولك فرهود.. اركض بالعجل اكنس الربعة وافرش السجادة الجديدة. ترا ابن مهلهل امسيّر علينا.

صاح حسين من ربعته:

- ابو حمزه شنهي هالزحمه!.

لم يستجب فرهود لامر والده. انصرف مع الاولاد والاطفال لاستقبال السيارة. فأضطر خلف للنزول من (السوباط) ليأخذ على عاتقه مهمة كنس الربعة وفرشها.. سمع (هورن) السيارة قرب بيته، فخرج لاستقبال الشيخ والترحيب به. لكن السيارة اجتازت البيت بسرعة، فجلله غبار كثيف، غمر القرية كلها، وحال بينه وبين الرؤية..

فناداه حسين بنبرة تهكمية:

- ابو حمزه شنهي هالزحمه!

تساءل خلف بانكسار:

- شتگول ابو ناصر؟

اجابه حسين ساخرا:

- الشيخ گال: اخاف اتصير زحمه على الجماعه ولهالسبب ما حوّل بربعتك.. ولا سلم علينا بأصابعه حتى لا يكلفنا برد السلام!!

قال خلف بفتور:

- اخاف هاي سياره غريبه؟

فأجابه حسين مناكدا:

- لا، ولا لك لوا..

ثم انشد بصوت عال:

- سلّم على الويّاي چنّي غريبه .

يا دمعة البالعين صيري اديبه

صاح الاطفال، وهم يقتفون اثر السيارة:

- وگفت.. وگفت يم بنية سيد سراب..

فتبعهم خلف على مهل . رأى سعدون بن مهلهل وولده فالحا يشيران صوب ديمته ومن حين لآخر يشاركهما عبيد المنتاز اشارة بيده او حركة من رأسه..

كانوا يناقشون مشروع تمديد جدول البترا: يريد الشيخ سعدون نهاية الجدول في الطرف الغربي من هورة السرابه (ديمة خلف) ويصر فالح على تمديده مسافة ابعد، معززا وجهة نظره بقول مسّاح التسوية: ان هذه المنطقة تروى بسهولة من مياه جدول البترا اذا اكملت سدة الكوت.. ويشير

فالح بأصبعه الى مكان القرية المقترح بدلا من الموضع الذي يقترحه ابوه.. ويوازن عبيد في تأييده للرأيين يريدها بالتساوي، مرة للاب واخرى للابن، فكلاهما راغب في تنصيبه سركالا على الاراضي البكر عند احيائها . ولا فرق بين ان تكون القرية هنا او هناك، بل ان الامر الجوهري عنده تمديد الجدول مسافة أبعد ليستغل اكبر عدد ممكن من الفلاحين..

ادرك خلف طرفا من حوارهم، فابتهج لتحقيق ما كان حلما يراوده.. واقحم نفسه على المتحدثين شارحا وجهة نظره: ان يتفرع الجدول الى فرعين، قبل اختراق ديمته، ليطوقها باحكام.. نظر اليه فالح بن سعدون شزرا، ثم امره بالكف عن التدخل فيما لا يعنيه..

توّثب خلف للرد، فأمسك سعدون ذراعه وسحبه برفق، حتى اذا ابتعد خطوات.. اسر اليه بلهجة ناعمة: لا تتعب نفسك في امر يتولاه غيرك.. واضاف كالمتذمر من حدة مزاج فالح: الشباب غريبو الاطوار.. واحسب اننا وهم على طرفي نقيض.. . ولكن على العموم، ما داموا يملكون طاقة وحيوية نفتقر اليها، وما دامت مشاريعهم مثمرة، فلنفسح لهم المجال ونريح انفسنا، بعض الشيء.. ونصيحتي لك، بعدم التدخل في هذه المسألة لان فالحا يتولاها بنفسه..

ويوم ينجز المشروع وتتدفق المياه، فما عليك إلا ان تختار من الارض ما يكفيك.. وفي اي مكان شئت . ثم صمت سعدون برهة، وتساءل كأنه تذكر مسألة هامة:

- گلي زنادك لگيت له بانزيم؟

ندت آهة عن خلف وقال:

- اويلاخ سعدون يا خوي.. ورروح مهلهل چنّك بگلبي . صارلي مدّه ادور له على بانزيم.. عذبني بالنفط.. ما يدوي بالنفط.. بلابوش نفط..!

اشار عليه سعدون ان يحضر قنينة ليملأها بالبنزين من خزان السيارة، فهرول خلف الى بيته...

انتهى فالح بن سعدون الى قرار حاسم حول مسافة الجدول ومكان القرية، فلم يعد ثمة ما يدعوه للبقاء- وكان ابوه متعجلا الانصراف هو الآخر...

ولما استقبلهم خلف ملوحا بقنينته الفارغة امر فالح سائق السيارة ان لا يتمهل، واخرج رأسه حتى العنق من نافذة السيارة وصوت على خلف بسخرية:

- نفط.. نفط.. حط له نفط . احسن لك وروح والدك!

غشي الغبار خلفا، لبعض الوقت، حرك كفه قريبا من وجهه، ثم عاد الى بيته يجرجر قدميه من فرط خيبته.. فاستقبله حسين مهوسا:

- رد تارس صمّه بخصيانه.. رد تارس صمّه بخصيانه!!

* * *

تساءل حمزة وهو يترجل عن فرسه:

- شنهي هالسياره اللي چانت يمكم؟

سارع حسين، على غير عادته، فأجاب:

- الشيوخ يريدون يطلعون نهر يعمرون بيه هورة السرابه..

ضحك حمزة وقال:

- على كولة ناصر ما دام شيوخكم بدلوا اسامي الگيعان يجي يوم يبدلون بيه اساميكم..

قهقه حسين عاليا، حتى تراقصت خصلات لحيته، ورمق خلفا بنظرة ذات مغزى، فألفاه منشغلا بلف سيكارة، متعمدا تجاهل النكتة التي رواها ولده..

تلفّت حمزة الى كل الاتجاهات، ثم خفض صوته ليروي نكتة اخرى سمعها من ناصر: يتندّر عمال سدة الكوت بحكاية عن ((شيخنا)) سعدون بن مهلهل عضو مجلس الامة الموقر!، بأنه يباشر النوم في قاعة المجلس لحظة جلوسه على الكرسي، ويغط في نوم عميق خلال المناقشات.. فأذا اقتضى الامر توقيع بعض الوثائق عمد جاره الى خلع الخاتم من اصبعه ويصمه على الوثيقة.. واذا ما ارفضت الجلسة بقي في مكانه يملأ القاعة شخيرا حتى يوقظه الكناسون!

* * *

اصغى حسين بأنتباه لما يرويه حمزة.. استبدّ به واحد من الاخبار مفاده: ان ناصر سينتقل الى كركوك بعد انجاز سدة الكوت، لان المهندس اعجب بمهارته ويريده ان يعمل هناك..

فتساءل حسين وخلف معا:

- هاي وين صايره كركوك؟

- فوگك من بغداد..

حرك حسين رأسه وقال:

– سامع بسمها من المثل اليگول: مجدّي كركوك يجدّي وخنجره بحزامه!

وقال خلف:

– واسمها معلوم بالسبلان الزينه.. عليه الوصف، سبيل كركوه..

وقال حمزة:

– منّاه وغادي لا تنعرف بمجاديتها ولا بسبلانها، تنعرف بنفطها..

واجاب على تساؤلاتهم حول النفط، فنسج رواية، لم ينسبها لناصر: ان النفط يستخرج من الآبار بمضخات تشبه مضخات الشيوخ ويجري النفط انهارا كما يجري الماء في المحمولة.. وقد يتولى ناصر مساعدة المهندس على تشغيل المضخة..

تذكر حمزة، بعد كلام طويل، قصاصة ورق في جيبه، هي رسالة الى حسين من حفيده فاضل بن ناصر. لم يصدق حسين ان حفيده بلغ مرحلة كتابة الرسائل وهو في هذا السن . تملّى سطورها ثم ناولها لولده ملا نعمه . شرع يتلوها بتلكوء لرداءة الخط الذي يناسب تلميذا في عامه الدراسي الثاني.

كانت مجرد تحيات لجده وعمه واخوانه و (سلام خصوصي الى جدي خلف...). ضحك خلف.. ثم رفع كفه حتى لامست (عگاله) وقال:

– وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته..

فكر سويلم الصگر: كيف يتسّنى لرجل هنا في البترا ان يتلو سوادا على بياض سطرته انامل طفل مثل فاضل؟ اوشك ان يطرح السؤال على الملا، ثم ما لبث ان اهمله مخافة تسليط الاضواء على ابن اخته، فتصيبه

عيون الحاسدين .

تحدث حمزة باسهاب عن (سدة) الكوت وضخامتها وعن (سدة) الغراف الاصغر حجما.. والاستعدادات لافتتاح السدين على يد الملك غازي الاول.. . انصرف خلف لتصور المفتاح الذي (يفتح) به الملك هذين السدين.. تخيله ضخما، معقدا، غالي الثمن.. فأرتفع صوته بالتساؤل:

- ايباه! هذا اشلون مفتاح؟!

اجابه سويلم الصگر:

- انته گول . مفتاح وبيد الملك!

ثم استحوذ حمزة على انتباه الحاضرين بوصفه الدقيق لجهاز الراديو، الذي رآه ولمسه بأصابعه..

فقال سويلم الصگر، اعجابا بفطنة حمزه:

- اللّه يبلى يومك يا حمزة.. سفرتك يومين ونص.. هاكثر شايف مساعل.. هاكثر سامع سوالف..

قال خلف عن الراديو:

- هذا مثل مال بيت مهلهل.. ابو البوري.

فأجابه ولده:

- يا بويه انته تحچي تسعة بالشهر.. يا بوري يا نوري.. هذا التگول عليه صندوگك غنا ايسمونه فنغراف ايحطّون بيه غوانه وايغني.. هذاك لا غوانه ولا زبانه..

ثم شرع يوضح لهم: لم اصدق مبدأ الامر ما سمعته عن الراديو.. ولكن ناصرا اخذني الى الجهاز ونادى صديقه صاحب المقهى.. وجعلني احرك

ازرار الراديو.. واصغي الى تنفس المذيع من لندن..

فهوس حسين مقاطعا:

- ايگح بلنده وصوته اهنا!

وجاهر حسين بتصديقه لرواية حمزة: ليس ثمة مستحيل بعد الآن.. وقد امتلك الانسان سر (عجن) الحديد وقولبته كما يريد.. وحديث نبوي يقول.. اذا تكلم الحديد وقرب البعيد..

قاطعه خلف على الفور مؤيدا: لقد قرب البعيد بصورة لا يحتملها العقل.. تصوّر لقد كانت السيارة في اقصى طرف من البترا.. ودخلت مسرعا لاكنس الربعة.. وقبل اتمام الفراش اجتازت القرية..

قال حسين وكأنه يكمل لخلف:

- وچثحت التراب بوجوهنا!

ونسي حسين ان يقول بقية النبوءة.. ما الذي سيحدث اذا تكلم الحديد وقرب البعيد، فقد استهواه حديث حمزة عن الجرملي (هترل) الذي يعتزم محاربة الانگليز.. وقال بشماته:

- اويلاخ يا الانگريز.. هلبت يحصل الكم يوم اسود.. مامش حامض بول مثل هذا الهتر.. ثم هوّس (ويصفالي الجو واهلس ريشه!؟).

لكن حمزة عاجله بما خفف حماسه، حين اخبره بعداء ناصر لهتلر..

* * *

ازدحم مضيف الشيوخ الكبير بالمعزين، كذلك بيت الشعر الذي نصب بينه وبين القصر، وثمة افندية وشيوخ يؤمون القصر فتزدحم صالته

وحجراته من آن لآخر.. وقريبا من (رفّة) المضيف تحّلق جمع اللطامات، فأصغى الرجال بأنتباه الى مطلع تردده الشاعرة:

- حفر بير الفهم بأبره وطلع ميتين نبّاره

طرف صيته وصل بغداد واهل الحي والعمارة

وتناهى صراخ رجل يندب:

- يا سعدون يا خويه..

فأشرأبت الاعناق نحوه . كان بادي الاعياء، تتقدمه عكازّته .

ولما اقترب من المضيف الكبير اجهش بالبكاء واعول:

- يسعدون خويه الدنيا بعدك ما تسوا فلس.. هيج اتموت بساع بساع..

اشاع صراخه، ومشيته المتعثرة، جوا عاطفيا.. فانصرف المعزون عما تقوله الشاعرة . واجيب المتسائلون: هذا خلف، احد افراد عشيرة المرحوم سعدون بن مهلهل.. وكان يرتبط معه بعلاقات ود خاصة.. ترجع لايام الطفولة .

بكى خلف على نحو موصول، وسط الديوان، فتخفف الحاضرون من ضعف العاطفة رويدا رويدا.. واظهر بعضهم الانكار لمواصلة البكاء وفي اذهانهم سؤال: لو ضج الديوان بالبكاء مشاركة لخلف فما الذي تفعله النساء؟

همس احدهم بأذن خلف، ينصحه بالكف عن البكاء.. فأستثيرت عواطفه.. وانطلقت شجونه، دون مراعاة لأي اعتبار، ورفع صوته صارخا:

- يسعدون اشلون انساك؟

ثم ادخل كفه الى جيبه واخرج الزناد.. وراح يلوح به، ويصرخ بصوت

اعلى:

- هذا زنادك يسعدون!

غالب الضحك بعضهم.. واشفق آخرون على العجوز..

دخل فالح بن سعدون، بعد توديعه لمجموعة من الافندية، فسمع صيحة خلف (هذا ازنادك يسعدون)، امتلأ غيظا، واشار الى عبيد وداود بأخراج خلف من المضيف..

بذل حمزة فوق ما يحتمل انسان مثله، ليحول بين نفسه وبين ارتكاب حماقة يطفئ بها غليله من مسلك ابيه.. ولما ابتعدا عن المضيف، لطم حمزة على وجهه ورأسه وقال حانقا:

- ليش هيچ ليش؟ سويتنا ضحچه لليسوا والمايسوا.. تصرخ مثل الزعطوط: ازنادك يسعدون.. انعل ابو الزناد لا ابو الباعه لا ابو الاشتراه.. لا ابو ذاك اليوم الاسود السواني ابنك..!!

التزم خلف جانب الصمت، فيما راح حمزه يكيل الشتائم لسعدون ومهلهل وجدهم السابع عشر على طول الدرب.. وعقّب حسين، الذي تمارض عن حضور الفاتحة، حين بلغه امر خلف، وصراخه وتلويحه بالزناد:

- يا حيف واللّه يا حيف.. إخّرف الزلمه!

ومرة قال بمحضر من حمزه، بِدالة لا ينكرها عليه احد، وكأنما يخاطب خلفا:

- يا سفيه.. يا كلب ما مش.. اشتذكر منّه وتبچي عليه؟ أطاّك زناد واخذ ديمتك!.

* * *

تسابق فالح بن سعدون مع الزمن، بخطوات عملية ناجحة: اتفق مع الحاج محمد تاجر الشيوخ على تسليف الفلاحين بطريقة (الاخضر) ثم ابتاع المتبقي من محاصيلهم.. واشترك معه في طاحونة نصبت جوار المضخات.. وزرعا مساحة كبيرة بمحصول القطن.. ثم نفذ رغبة، حال والده دون تنفيذها ايام حياته، وذلك بطلبه انشاء مدرسة لاطفال القرية، لتستقبل ولده حين يصبح في سن مناسبة للدراسة . كان اعتراض المرحوم والده على فتح مدرسة للقرية يتلخّص في انها تحشو اذهان الصبية بكل ما هو غريب وسخيف، كقول ابنه فيصل: ان الارض هي التي تدور حول الشمس . المطر يتكون سحابه من البخار.. وان فيصلاً تجرأ ذات يوم وشتم الانگليز ممتدحا (الجرمل) وهتلر .

وبقدر ما كان الشيخ فالح يتعجل جمع الثروة والصعود في سلّم الشهرة، كان يستزيد من اغتراف الملذات، فعمّر القصر دائما بالكاوليات.. وامسى الخمر فيه كالقهوة في المضيف.. وتعّود اهل القرية سماع الفضائح باستمرار. ففي كل يوم فضيحة، ليس بينها رقص الكاوليات.. او مبيت مومس من المدينة لليلة او ليلتين .

انما الذي يستحق الهمس هو ما يتعلق ببعض بنات القرية .

ولم تتردد زوجته عن اعلان موافقتها على مسلكه قائلة: فليفعل كل شيء.. . وليجمع كل (گحاب) الدنيا.. المهم ان لا يتزوج امرأة تشاركني بيتي وتنجب اطفالا يزاحمون اولادي على (الشيخه) والثروة . واخيرا غضّت الطرف عن دخول زوجة ملا علي الى حوش الشيوخ، وحتى الى

حجرة زوجها.

* * *

في أمسية من أماسي ايار ١٩٤١، لوحظ على الشيخ فالح بن سعدون ضيقه من سكون الهواء ووخمته، فلم يكفه خلع اليشماغ، بعد السترة والعباءة، بل عمد الى تحريك المهفة، على نحو عصبي.

وكانت هي الامسية الثامنة لملا نعمة وحمزة بن خلف التي يقصدان فيها قرية الشيوخ على التوالي، بعد ان نقل الشيخ جهاز الراديو من القصر الى المضيف، ليشبع فضول الفلاحين لاخبار المعركة بين الجيش العراقي والجيش البريطاني..

رد الحاضرون تحية الملا وحمزة بما يشبه الهمس، ولم يمسّ احد عليهما بالخير.. فتوجها اسوة بالحاضرين الى الراديو يصغيان باهتمام..

كان واضحا ان الجميع ينتظرون اذاعة نبأ هام.. همس معلّم القرية (مهدي) بأذن الملا:

– الكل ينتظرون برقية الشيخ اللي درزها تأييد للحكومة.. وساعة السودة الجابتني لهالمدرسة!.

شرع المذيع يتلو برقيات التأييد، وكانت الثامنة، في ترتيبها بين البرقيات:

(من فالح الشيخ سعدون المهلهل رئيس عشائر السياح الى فخامة رئيس الوزراء المحترم . انا وعشائري نؤيدكم حتى آخر قطرة من دمائنا . ونحن على استعداد لترك حصاد الشعير والمباشرة بحصاد الانگليز..)

استطال عنق الشيخ مزهوا . ضحك معلم القرية الآخر (عبد العال) وقال

بحماس:

- عاشت ايدك ابو ضاري على هالبرقية الرنانه!

وكانت في الحق من بنات افكاره، وبخط يده، وليس للشيخ منها سوى التوقيع .

همس ملا نعمة بأذن المعلم مهدي:

- واللّه عاد كول وفعل!! عنده زلم تهدل الايد.. تحتل لندن بيوم وليله.. مخصوص ملا علي وداود أبو البينه!!.

وحين رجع الملا الى اهله، ووجدهم بأنتظار للوقوف على آخر الانباء، بادرهم بلهجة اليائس الساخر:

- اتبين الحسبه فاشوشيه.. والسالفه ماچلها الثور.. ما دام فالح وزلمه يحصدون الانكريز بالمناجل!!

ثم اعاد عليهم حكاية البرقية.. والجو الذي اصطنع في الديوان لسماعها.. فلهوج خلف مقاطعا:

- بعد بيتي ابن سعدون.. داع اسم العشيره من الراديون!! عز اللّه ثنية مهلهل ما خلت.. بيها اسباع!

فغمغم حسين بصوت خفيض:

- بيها اضباع!

* * *

انشقت القبور عن (السبلان) وبُعثت من جديد، بعد ان تعّذر الحصول على ورق لف السكاير . القى ملا نعمة (قوطية التتن) وسط الديوان وقال:

- والله ما اشرب التتن بالسبيل لو ينكطع ورگ اللف مية سنه!

فقال حمزة الخلف:

- لا والله خويه.. آنه أسوّي لي سبيل طين.. وانتذر السبيل الكركوكلي المواعدني بيه ناصر .

ثم انشد مقطعا من قصيدة اشتهرت في تلك الايام:

- لوردت حظك يميل اشتر ازناد وسبيل!

* * *

جاء خلف الى حسين، وقد طرأت له فكرة، وقبل ان يطرح ما يدور في ذهنه، ملأ السبيل بالتبغ ثم اخرج زناد سعدون واشعله، مبالغا في اظهار صعوبة اشتعال السبيل من لهبة الزناد وقال:

- شوف.. شوف الموعظة اشلون؟

لم يعرف حسين مقصد صاحبه، فطلب مزيدا من الايضاح عن هذه الموعظة الغامضة . فقال خلف بصوت متهدج:

- آنه لو افتهم چا ضمّيت الزناد من يوم موتة سعدون..

هاي عبره الي.. ضاع ورگك اللف وردينا للسبلان!

تساءل حسين ثانية عن موضع العبرة في كل هذا.. فأجابه خلف:

- سوّاها الجليل عبره.. معناها: ولك يا خلف من راح راعي الزناد الاطاك اياه لازم تدفنه . لكن ابن آدم چبدته ملسا.. تالي ما تالي ضاع ورگ اللف وردينا للسبلان. وشوفة عينك، السبيل ما يورّث من هذا الزناد! ولك يا خلف هاي عبره.. لكن آنه ما افتهم!!

كتم حسين ضحكته واجاب:

- تمام . لو تفتهم چا دفنت الزناد بچفن المرحوم!

لم يفطن خلف الى المعابثة في كلام صاحبه فقال موافقا:

- تمام يا ابو ناصر . تمام .

وتمادى حسين في معابثته فأضاف:

- لو حاط الزناد وبطل البانزيم بچفن المرحوم چان صارت سالفه تنذچر بالتاريخ!

تنبه خلف الى مرمى الكلام، فحرك رأسه صعودا وهبوطا وقال بلهجة عتاب:

- انته گلبك جاسي.. آنه موش مثلك، شسوي گلبي موش بيدي . واللّه يا حسين كلما اتذكر سعدون اذكر عشرتنا الاوليه.. وايام الشباب.. ويتفطر گلبي .

* * *

دأب حسين في كل ليلة على أخذ (الخيرة الاربعينية) للتنبوء بمستقبل الحرب، التي يسميها (صخونه - تطحن عظام الناس سكتاوي!)

امسك مسبحته . فشرع الحاضرون بذكر ابيات (الابوذيه) يقول الواحد منهم اسم البيت:

- ابو ملوّه..

- ابو ونصار..

- ابو والحگ..

ويسقط حسين حبة من الاربعين مع ذكر اسم البيت . وحين بلغ (الخرزه) الاخيرة طلب من صاحب البيت ان يتلوه:

(امدهلي وارد اضربك بيس واكراك

واعلمنك للبس البدن واكراك

بعزم اللّه اوچّر فوكك وكراك

واهلسّ ريش جنحانك بديّه)

تساءل الحاضرون:

- المن نويت؟

- المن الخيره؟

فأجابهم حسين:

- لهتلر..

علق خلف بحماس:

- اي واللّه.. الانگريزي صار له اسنين لابس كرك الرياسه.. المنعول والدين ينراد له واحد مثل الهتر يهلس ريشه .

واضمر ثانية.. فصادف الحبة الاربعين هذا البيت:

- والحظ...

- والحظ...

شسوي للبخت لومال والحظ

يجيب لصاحبه وين الردّيه .

وحين سألوه لمن اضمرت، اجاب متحيزا:

- نويت للانگريزي.. .

وشجر بينه وبين ولده ملا نعمة نقاش بسبب حماس الملا للجيش السوفيتي وزهوه بأنتصاراته. فقال حسين:

- اسمع.. آنه بيني وبين الانگريز عداوه.. عداوه وكسر عظم . كلمن ايحارب الانگريز آنه افرح له.. لا اتگللي هذوله الروس حكومة عمال وفلاليح.. عساهم حكومة ملايكه.. هاي ما افتهمها.. آنه ضد الانگريز على ظهر ابو اشهبا.. . وكل اليعاديهم صاحبي!!

* * *

واذا ما اغتفر للحرب كثير من مساوئها، فان واحدة لم يغفرها خلف ابدا، لم يغفر تعذر الحصول على كفن لغافل.. الا بعد تقديم عريضة لدائرة التموين.. وبسبب من ذلك تأخر دفن الجثة يومين..

اجهش بالبكاء وولول:

- ويلي ويلي يربي.. حتى جفن الميت بالتومين . ياربي لو ماخذ اعمارنا من چان الخام چثير!

وعقّب حسين على ذلك بشتيمة لفالح بن سعدون:

- المنعول والدين ضام الخام.. اطوال اطوال.. وما يطي منّه جفن لغافل.

ولم تكن التهمة جزافا، فقد عرف الناس الشيء الكثير عن تلاعب فالح بكوبونات تموين العشيرة.. وتزويره لالف دفتر نفوس.. حتى اصبح من كبار المضاربين في السوق السوداء، بالاشتراك مع الحاج محمد..

* * *

يوم قرر ملا نعمة الزواج، اعلن انه لن يشتري ثوبا واحدا لقريبات

العروس، فاستقبح حسين عزمه، واقترح ان يدّبر الثياب بأية وسيلة.. لكن ولده اجابه:

– يا بويه الوادم تعرف اشصاير بالدنيا– حتى چفن الميت بالتموين.. تعذرني الوادم تعذرني..

فلم يقتنع حسين بهذه التبريرات، وقال ساخرا:

– اتريد اتسويه مثل عرس جدتي– اللّه يرحمها– اتگول:

كل سياگي عجل ادبس . وجهازي ثوب كيشي.. وغراض العرس سمل ايزار.. وعشى ليلة الزفه صحن حميض!!

* * *

كانت امسية خريفية.. والجو في غاية الاعتدال.. ولا شيء يستأثر بأهتمام الفلاحين ويثير قلق حسين غير اخبار المعركة بين آل عايد وشرطة القوة السيارة .

رشف فنجان القهوة بتلذذ، ثم ترنم بواحدة من هوسات آل عايد:

باشينا زلازل واصكر البيكات

اجينا بجيش چلته ما يحسب المات

حاصرنا المعصيه والمعاون بات

ظل ملچ الموت ايحوم اعليه .

– شتگول بيها يحسين؟

– الحسبه موش هينّه..

– ايگولون فوگك الخمس مية شرطي .

- ابشر يلواوي الشرطه اسمان!

وجاء ولده ملا نعمة ليعلن بحزن:

- گومتهم الشرطة..

ضرب حسين كفا بكف وقال:

- عرفتها..

ثم اصغى لتفاصيل المعركة.. وبعد قليل ضعف تركيزه. كان آخر عهده بأقوال ولده: ان الطيار الذي حوّم بطائرته ورّش الفلاحين برشاشته هو ابن اخ الاقطاعي الذي يملك مقاطعة (التساعين).

كف عن تحريك مسبحته- شرع يحاور نفسه:

.. ولكن طير الابابيل الجديد يسوقه ظالم ليحصد المظلومين يا سيد علي الكربلائي!! اسرار لا تدركها انت ولا حتى انا.. قالت له يريد ان يغتصبني فأجابها لا تدركين مراميه ومقاصده .

(ولك صخمّني) ودار حول قبة الطين ولطخها بالحناء.. يداس بالاقدام يا سيد علي الكربلائي؟! لم ار فالحا يدور بطاسة حناء يلطخ بها جدران المقامات.. ولم يذهب لزيارة العتبات المقدسة.. لكن غافلا كان يجمع محصوله السنوي ليسد نفقات الزيارة بعد ان تأخذ خمسها يا سيد علي الكربلائي.. كيف ينبت جناح لطير الابابيل حتى يرمي الكعبة؟! لم تقل لفالح موعظة مثل تلك التي كنت ترددها على مسامع غافل: لا تنظر الى من هو فوقك.. انظر الى من هو دونك. لترض بما قسم لك.. اي شيء دونه؟ لا شيء . حتى الثعالب اكثر حرية وارفه عيشا! ولم يجد الثعلب نفسه يوما في حاجة لحمل طاسة حناء يلطخ بها جدران سيد سراب. اما عزم القوي

فعل.. دون حناء ولا دعاء. لكن غافلا وقد امضى ليلة شتوية باردة في هورة البترا، يسقي ارضه، تجمدت اطرافه.. فلبد في حفرته يستقبل شمس الصباح، عاجز عن السعي الى عباءته المطوية قيد خطوات عنه . جاء الواوي وبال على عباءة غافل.. وهو ينظر.. ولا حول ولا قوة له.. جز على اسنانه ورمق السماء بنظرة ذليلة ودعا (وين العباس وين ابو فاضل بجاهك عد ربك.. كون يجلبني چلب . حتى اركض ورا هالميحوم والزمه، واگطهه اتگطعّ!). اما ذاك فقد ركب طير الابابيل الجديد وحصدهم برشاشته دون دعاء ولا حناء.. وانتظرت هتلر ليسحق الانگليز وصنائع الانگليز واخذنا له (الخيرة الاربعينية) ودعونا له ان يصير (چلب) حتى ينتقم لنا من الواوي.. ولكن نعمة يقول بينه وبين الهزيمة اشهر وتنتظره اشر ميتة.. انها اسرار يا سيد علي الكربلائي.. (الخمس) واذا بهم يأخذون ثلاثة اخماس ثم زحفوا فأخذوا (گفة العلويه) واخرى للكتّابية ثم للگهوچيه.. وللغاطوط وللكيرخ وللچايول وللعنبري وللشحنه وللمامور واخيرا خمسة بالمائة لا احد يعرف وجهتها.. فرفع ناصر صوت الاحتجاج وتشاجر.. وارغم على الرحيل فقال الضعفاء اهل (طوس الحناء): ناصر متهور مغرور.. ما كان له ان يكون البادئ بالصدام.. وها هم يقولون (آل عايد متعافين.. يريدون يعصون بگاع المنتفج) فمن يحك جلدك يا اجرب اذا حرمت على نفسك استعمال اظافرك؟!

انه نعاس ليس الا.. هد الجسم القوي.. يتهاوى بمجرد ان يغشاه النعاس . اراهن بدمي ومسبحتي وبثورة العشرين.. ان خلفاً وحده- لو افاق من هذه الغفوة – بمقدوره ان يهزم فالحاً وكل الذباب الملتصق به..

حدّق في وجه خلف لبعض الوقت. تذّكر معركة (العركوب)، كان شاباً وجدائله اطول من ذراع حرّكتها الريح فابتعدت احداهن.. فأصابها الرصاص.. ولم يستجب لصيحات ابن عمه (ولك اگعد يخلف.. اگعد..) فجلجل صوته كالرعد:

كلمن بيومه.. كلمن بيومه.. بلابوش تفگك!

الفصل الثاني

مرة قال خلف:

- اهل البترا يصبرون حتى على افراگك التتن ولا يصبرون على افراگك الغيل والغال.

وادرف موضحا:

- اليتعارك وي مرته ايسوي عليهم فضل چبير.. ثاني يوم يلوچون السالفه، وبالليل ايحطولها بنايج وتخاريص، وثالث ليله، كون ماعدهم غيرها، ايفصلون الحچايه من حلهّ وجديد.

ومع ذلك ما كان بمقدورهم ان يظهروا اهتماما بالخبر اكثر من اهتمام البصريين والبغداديين الذين قرأوه في نهاية تقرير صحفي موجز (... وطالب العمال بحرية تنظيمهم النقابي، وان لا يطرد عامل اعتباطا، وان يتقاضى اجرا يليق بانسان.. فأصغت شركة نفط العراق، لا لتلبي، بل لتدبر امرا محكما، يطفي الشرارة في مهدها.. وانطلق رصاص مجنون كأنه من بقايا ذخيرة هتلر.. فأنجلت مذبحة (گاورباغي) عن عدد من العمال قتلى وجرحى.. وفي ضحى اليوم التالي شوهدت جثة تتدلى بين اغصان شجرة كبيرة.. كانت جثة عامل النفط ناصر بن حسين).

ادركوا، على نحو غامض، ان الخوض في تفاصيل مقتله محظور علانية فقد كانت سيرته الحسنه لا تجري على السنتهم بمحضر من حوشية الشيوخ، بعد ترحيله من البترا، اما وقد اختار خصومة الدولة وشركة النفط كنقابي نشيط، فلابد ان التساؤل عن اسباب مقتله يوصل بالضرورة الى ذكر المطاليب التي رفعتها النقابة وما الى ذلك من كلام محرم.

لقد كان استشهاده مدعاة حزن واسف لاهل البترا..

ولكن الخبر في افواههم له مذاق الحنظل، ولا يحتمل القيل والقال، مثل حادث انتحار فيصل بن سعدون. الذي وجد مقتولا وبجانبه مسدسه. وانتهى التحقيق الرسمي الى انه مات منتحرا.

تهامس الفلاحون، والسنتهم تدور دائما وبها شوق للكلام مثل شوقها لملامسة الطعام، فراحوا يربطون الجزئيات ليصنعوا منها شيئا كليا، فان لحظوا ثغرة في ما صنعوا، تطوّع احدهم ليضيف من عندياته.. لكن الشيء المؤكد ان فالح بن سعدون كان قاسيا في معاملته لاخيه، مُقتّرا عليه شديد التقتير بالمقارنة مع اسرافه على الملذات والولائم الخاصة. ويعرفون جيدا بان فيصلا اعتزم دخول كلية الحقوق وكانت امنيته ان يصبح (قيمقام) وبعدها (متصرف) وتلك امنية ابناء الشيوخ. وطالب اخاه بمصروفات اضافية تناسب اقامته في بغداد، فرفض طلبه.

وسمع اكثر من فلاح صياح فالح بأعلى صوته:

- ما عندي افلوس.. ابوك ما خلّف لي قاصة.. ما خلفّ غير الگاع.. وهاي الفلوس من چد اذراعي وشغلي بالتجارة..

ويومها اعلن فيصل: انه صرف النظر عن دخول كلية الحقوق وقرر الاقامة في الريف، بعد ان يقتسم الاراضي، بالتساوي، مع اخيه.

بعدها سمعوا فالحا يهدد ويتوعد..

وتكاملت عناصر المأساة بموت ام فيصل حزنا عليه، بعد اسابيع من اغتياله.

* * *

اقلع حسين عن محاولة ترحيل عائلة ناصر الى الريف، مقتنعا بما

عرضه ملا نعمة (فاضل يتخرج معلم هالسنه، وكامل ساعدوه جماعة مرحوم ابوه ولگوله شغل بمطبعة.. واجروا حوش ابغداد.. وحالهم ماشي والبنيّه تساعد امها على شغل البيت..)

انصرف الى نفسه يجمع شتات قواه وشجاعته بقصد الوصول الى حالة من التماسك الذي يغيض الشامتين . وكرر هذا الحوار لنفسه دون زيادة او نقصان عشرات المرات:

تذكرّ انك شغلت الدواوين بحكاياتك واشعارك عن الشجاعة والشجعان . تذّكر يا حسين انك رويت حكاية الام التي جاءها نعي ولدها، في ثورة العشرين، على صورة هوسة (چن لا جبتي ولا لوليتي.. .) وردّت الام بشجاعة تفتقر اليها انت يا حسين، الذي بالغوا بشجاعتك وحكمتك: (ربيته ولوليت لهذا...)

صار كالمتسلق قمة، لم يطأها قدم انسان قبله، يوشك ان يبلغ قمة الشجاعة، ويتجاوز حزنه، ولكن نحيب خلف يرميه من حالق، فيجد نفسه وجها لوجه امام عاطفته .

فيتمنى: لو كانت الشجاعة تختزن . لو كان الفرح يختزن. لو كان هذا القلب طوع الاشارة.. يا ايها القلب الملعون الذي لا يُركن اليه في الملمات. لو طاوعتك يوم (العركوب) ويوم (الجوابر) لما اصبحت في هذا الموقع: اشتم الرجال فلا يجرأون على تجريحي، بكلمة واحدة، فليس بميسورهم شطب الماضي، رغم كل الحقد. لقد غلبّت الشك فيك.. ادركت ان ثقتي فيك مغامرة خطرة.. فعقلت ركبتي باليشماغ وصمدت للرصاص.. والآن كيف السبيل الى سيطرة محكمة عليك؟ الى حد الابتسام امام الشامتين؟

ولكن هذا خلف.. الذي لم يجد حاجة لعقل ركبته في المعركتين.. هذا الرجل الذي تميز عن سواه بالوقوف على مترب النهر.

وكأنه لا يسمع ازيز الرصاص ولا يرى دخان البارود.. ها هو يجهش بالبكاء وكأنه المفجوع قبلى ويذرف الدمع بغزارة اكثر مني..

*　*　*

وتراءى للناس انه فخور باستشهاد ولده، الذي وقف ضد الدولة والانكليز كما وقف بوجه بيت مهلهل من قبل.

وقيل عن حسين في الدواوين، واللقاءات اليومية وبين الفلاحين في حقولهم:

. . زلمه اكوى من الشدايد..

. . سامعين بوگفاته ايام الحرايب..

. . الحزن والخوف ما يندل باب گلبه..

وسمعوه يردد من حين لآخر:

– آه يناصر.. استافوا الأنگريز والشيوخ مني.. اشلون اگدر آخذ ثارك؟ بيش آخذ ثارك؟.

وحفظ الكثيرون عن ظهر قلب، هذا البيت الذي يُكثر حسين من ترديده:

لا اسبوع الهم وادبره　　والخلكك من وسع الابره

والكلب مثل المعبره　　ولد، وإمخليه الثاني

ثم وهنت قواه وتهدم جسمه، كشمعة تذوب بصمت..

وصدقت نبوءته:

– ينعمه.. روح لبغداد جيب اولاد ناصر حتى اشوفهم واموت.

فقد فارق الحياة بعد اسبوعين من رؤيته لاحفاده .

* * *

حزن عليه خلف اكثر من ملا نعمة، وبكاه مثلما بكته ارملته..

ضحى كل يوم تتجمع النساء حول خلف، في ربعة حسين. فيبدأ البكاء والنعي.. وبلغ من الحزن حدا جعله يحاكي النساء في (النعي) يرفع صوته بأبيات لفدعة الشاعرة (برواية حسين نفسه) وهي تنعى شقيقها، واسمه حسين كذلك:

حسين السحاب وهمل مايه
يموحان يمشيّل الگرايا
يعربيد يا شيخ الحيايا
على گرصتك ما تنفع آيه
يبكّار واخوانك ثوايا

ويوم استدعي ولده فرهود للخدمة الاجبارية في الجيش، صرفته المخاوف عن المآتم اليومية.. وتشبث بأمل تدّخل الشيوخ لدى دائرة التجنيد لتخليصه من الخدمة العسكرية كما خلصّوا خادمهم داود ابو البينه، وابن الملا.. ونسيب السيد ابو شراره.. وآخرين..

حين يئس من مساعدة الشيوخ، وسيق فرهود للخدمة العسكرية جاهر خلف بالقول:

- اللّه يرحمك ياحسين، بس انته تعرف بيت مهلهل زين.. باطلين الغيره، نفعهم، على گولة ابو المثل، لخالتي وابن خالتي واليزود لجارتي!

وفوجئ خلف بأخبار سوق الجيش العراقي الى فلسطين (عام ١٩٤٨)

وحدوث المعارك بين الجيوش العربية واليهود.. فأستبد به الخوف والّم به خاطر مرعب: سُيقتل فرهود كما قُتل ناصر . نهايتنا غريبة وشاذة.. مات سعدون وتقاتل ولداه . وسُجن ابن غافل قاتلا.. وقتل ابن حسين على يد شركة النفط الانكليزية فمات حزنا عليه.. ويُقتل فرهود على يد اليهود واموت حزنا عليه.

رفع صوته كالمعاتب:

- ليش ربي؟ ليش هيچ تسوي بينا.. شمسوين وياك؟

تراءى له موته مقرونا بمقتل فرهود.. اجهش بالبكاء . انكّب على حائط مقام سيد سراب. تذكّر اصل وجود سيد سراب:

ولكن يا خايب يا خلف الم تبتدع سيد سراب من خيالك لتحول دون ثرثرة حمزة ومعابثاته؟ الست من وضع اول حجر ليكون علامة لمجرى مقترح عهد ذاك؟

كيف غدت المزحة حقيقة.. وتحوّل الوهم الى واقع ملموس ؟ غرست بذرة وهمية من ثمرة خيالية وها انت تستظل بالشجرة ؟! بنوا على المكان حائطا.. ولطخوه بالحناء من كل جانب.. والزوار لا ينقطعون.. وصار عبيد المنتاز سركالا على العلوه و (قيمّا) على المقام.. فيتوافد الزوار على بيته حاملين النذور.. دراهم، ودجاجاً..

وهاهم يتحدثون عن كرامات لا اول لها ولا آخر . تضاء شمعة من تلقاء نفسها في ليلة الجمعة وليالي الاعياد..

ولا زالوا يرددون (ما تنبني گبه الا على وجه صالح) وتتجمع القرائن والادلة على ان في الامر (سر).

لقد كنت واسطة لتنفيذ ارادة الهية..- دون علمي.. ولابد ان مشيئته، سبحانه وتعالى، اجرت تلك المزحة على لساني.. وقبل هذا جمعت الحجارة وفي هذا المكان بالذات . ولم يسبق لي ممارسة العبث على تلك الصورة ابدا.

واني لاذكر تلك القوة الخفية.. حملتني على جناح سحري فجمعت كسر الطابوق والفخار والاحجار- يا سبحان اللّه- لقد كنت واسطة لتنفيذ ارادة خفية.. وأقطع ان في هذا المكان قبر لولي من اولياء اللّه . ولابد ان يكون اسمه سيد سراب. والا فما معنى كل هذا ؟ يكفيني شرفا كوني السبّاق لتنفيذ تلك الارادة الالهية..

ودب اليه النعاس بلا استئذان، فتدلّى رأسه حتى لامس كتفه.. افلتتت اصابع كفيه المشبوكة على ركبتيه فسقط جانبا..

عضّ اصبعه ندما . كان عليه ان لا يستيقظ، ولو لدقيقة واحدة . ويسأل السيد الجليل ذا الوجه الصبوح الذي يشبه الى حد كبير السيد علي الكربلائي ويعتمر شيئا اخضر شبيه بالكشيدة.. لكن له حاشية تذكّر بيرنيطة مسّاح التسوية.. ويمتطي السيد الجليل صهوة جواد ابيض كالحليب . تذكره خلف تماما: ياله من حصان عجيب ثنى ركبتيه كالبعير.. وبرك على الارض ليسّهل على السيد ترجلّه.. بقي الحصان هكذا حتى انتهى السيد الجليل من تأشير دائرة على الارض.. في ذات المكان الذي وضعت فيه اول حجارة واسميته عبثا سيد سراب.. كان عليّ ان استجير به واكلفه بأنقاذ فرهود من محنته واعادته سالما.. وكان علي ان اتبسّط معه في الحديث وابحث جملة امور.. ان لهذا المقام شأنا عظيما وان هذا

الحائط البسيط لا يناسبه.. وها هـي ذي عبرة اخرى فأعتبر يا خلف!!. نذر علي لئن رجع فرهود . سوف ابذل كل جهدي لا صلاح مقامك يا مولاي..

التفت الى الحائط وقبلّه، ثم بكى . نهض من مكانه وسعى الى حيث برك الحصان..

لمح آثار حوافر حمار: لابد ان يكون حافر حصان السيد الجليل صغيرا مثل حوافر الحمير، وتلك معجزة.

انحنى على الارض وقبلّ آثار الحوافر. حاول ان يتبين الدائرة التي اختطها السيد الجليل.. فرأى آثارا مضطربة وثمة اقدام اطفال.. وقدم رجل لا ينتعل شيئا: لم ادقق النظر في هيئة السيد . ان كان حافيا ام لا.. ولكن على اية حال ان لم يكن قدمك يا مولاي فإكراما لك . وانحنى على الارض ثانية ليقّبل الاثر..

عاد ثانية يطوف بمقام سيد سراب. جدد العهد بأصلاح المقام، اذا ما رجع فرهود وانتهت الحرب مع اليهود.

كأن السماء كانت مشرعة لتلقّي دعوات خلف . فقد رجع فرهود وانتهت الحرب مع اليهود على نحو قريب مما وصفه فاضل بن ناصر حين زار بيت عمه ملا نعمة، واستمتع بملاطفة خلف ومعابثته وراح يروي قصة مختلفة عن اشتراكه في حرب فلسطين:

- يا ابو حمزة هاي ايدي تشهد.. اشلون طبّيت العركة واشلون طلعت منها..

تطّلع خلف بأشفاق الى ذراع فاضل، المجبرة، المربوطة الى عنقه، فحرك رأسه من فرط حماس وقال:

- بعد شيبي يا ابن ابن حسين. الشجاعة الك ولأهلك.. جدك بالعركة شد ركبته بچماغه.. وابوك ماهاب رشاشات الحكومة والانكريز.

استعاد فاضل ذكرى ذلك اليوم، وادق التفاصيل.. كيف لمح على البعد موكبا تتصدره لافتة كبيرة (موكب العمارة يعزي الشعب بشهداء وثبة كانون) فساءل نفسه: وما الفرق بين العمارة والكوت؟ واندس وسط الموكب.

وقال خلف:

- كل الزلم من شافت مرحوم جدك عگل ركبته ركدت گلوبها.

وجاء مزاج فاضل للمعابثة فتصنّع الجد في كلامه: كنت في فصيلة يتوسطها سيدنا الوصي على العرش . ويتقدمها جلالة الملك عبد اللّه.. وفجأة اغارت علينا طائرات اليهود فهرب افراد الفصيلة وبقينا نحن الثلاثة: جلالة الملك وسمو الوصي وانا. فانبطح جلالته على الارض وراح يرمي الطائرات حتى اسقط ثماني طائرات.. اما سيدنا الوصي فقد اسقط سبع طائرات ونص!

ولا ادري كم اسقطت برشاشتي....

تحرك رأس خلف ثانية من شدة الانفعال واغرورقت عيناه بالدموع ثم ردد .

- بعد شيبي.. بعد شيبي.. الشجاعة الك ولأهلك.. ذيج السنة....

اوشكت اللعبة ان تفتضح، فقد الحت عليه الضحكة وحاصرته ذكرى دعابة صديقه شوكت بغدادي (لو ميت چان گلنا عليك ياشهيدا سقط بارض الميدان) فمن الزقاق المؤدي الى الميدان هجم المسلحون بالهراوات وانقضّوا على المتظاهرين وهم يهتفون: اللّه غايتنا.. فلسطين عربية.. وكان

فاضل من بين عدد كبير من المتظاهرين الذين اصيبوا بجروح- وبينهم فتيات كذلك.. تحسس ذراعه (المجبرة) وقرر مواصلة الحديث على النحو الذي بدأه:

- وبعدين يا ابو حمزة.. الحچايه ما خافيه عليك.. غلبونا اليهود.. . لكن احنا الهم!

واطلق لضحكته العنان..

قال خلف تعقيبا على هزيمة افراد الفصيل:

- اسمع . ولو انته دارس مدارس وتفتهم. لو هذوله من فرد عشيره چان ما شردوا . من حيث واحد يستحي من الآخر.

بعركتنا الچبيره.. بعضهم خفّت گلوبهم رادوا يشردون لكن من شافوا جدك عگل ركبته ومهلهل ذب عگاله وتنخّا.. محد شرد..

واقترح خلف- لتحقيق النصر- ان تكون الجولة القادمة مع اليهود على هذه الصورة:

- تتجدم عشاير ربيعة. كل عشيره تحت بيرغها، وجدامها الشيخ. وكل فخذ يتبع ريس فخذه.. وورا ربيعة عشاير بني لام. واظن هذا يكفي - لكن ميخالف.. ابو المثل ايگول: اتحزم للواوي بحزام سبع. خل تجي عشاير المنتفج..

قال فاضل وهو يغالب ضحكة لجوج:

- جدي ابو حمزة . هيه هم رايح اتصير عركة عشاير، انشا اللّه، والشي اللي تفكر بيه گاعد يفكرون بيه المسؤولين فعلا..

- چا شمعطلهم.. بلابوش يهود ؟!

– عدهم بعض الامور ايريدون ايرتبونها.. معلومك يا ابو حمزة السياسة بحر ما يتگيش!!

*　　*　　*

استعذب فاضل حكايات خلف عن غابر ايام بيت مهلهل: كان سعدون يقاسمه (گبصة البرنوطي) ويستعير زبون حسين اذا سافر الى المدينة.. وذات مرة بعث سعدون من يحضر خلفا صبيحة يوم العيد.. فوجده حاسر الرأس.. لأنْ العجل اكل يشماغه... وباتوا ثلاث ليال لا يطعمون الا الخبّاز وحده.. ومرة.. ومرة..

قال فاضل لعمه ملا نعمة: يُخيَل اليّ ان هذا العالم الذي يتحدث عنه تفصلنا عنه آلاف السنين!

واحسب ان شخصيته وحكاياته ستلهمني شيئا ما.. بدأت افكر بأسلوب يناسبها.. اسهل شيء كتابة المقامة.

أمسك فاضل قلمه وقلب علبة السكائر وقال:

– هسه اراويك نمونه من المقامه.

*　　*　　*

كان مقدرا لفرهود بن خلف ان يتزوج سكونه بنت عمه جودة، بيد ان اصرار جودة على اقامة فرهود في بيته (گعيدي) انشب الخلاف العائلي، وانتهى الى قطيعة رحل اثرها جودة عن ال خلف فتزوج فرهود فتاة تمت بصلة القربى لزوجة اخيه حمزة. عصر اليوم الذي تلا (الزفّه) اقبلت سيارة الشيخ فالح، الجديدة، ذات اللون الذهبي، تتهادى في سيرها، يقودها الشيخ بنفسه، وليس معه سوى خادمه داود ابو البينه، يحمل بندقية برنو

جديدة، بهرت الفلاحين اكثر مما بهرتهم السيارة.

سوّي الفراش في ربعة خلف ليناسب حضور الشيخ فالح بن مهلهل . واحضروا وسائد العروس، لتحتل صدر الديوان، متكأ للشيخ.

هرع الحاضرون لاستقباله. اسرع داود، يمسك البندقية بيد ويفتح باب السيارة باليد الاخرى.

كان آخر المستقبلين خلف. سلم الجميع على الشيخ، بتقبيل اطراف اصابعه، عدا ملا نعمة، الذي اكتفى بالمصافحة.

اندفع خلف ليعانق الشيخ فالح بن سعدون، فلم يتيسر له العناق، لان الشيخ أبعد وجهه، فأستعاض خلف عن العناق بتقبيل الكتف.

يئس حمزة من تحرك الشيخ عن مكانه، جوار السيارة، فأستحثه قائلا:

- محفوظ اتفضل اخذ راحتك..

رد الشيخ فالح من منخريه:

- لا . ما اگدر، يعني مستعجل.. مدير الشرطة معزوم عدنا، هسا يجي..

شعر حمزة بحراجة موقفه، امام الحاضرين، فألح ثانية للخروج من المأزق:

- محفوظ اشوية.. على گد ما تشرب الگهوه.. هز الشيخ رأسه نفيا وقال:

- لا. بس.. ميخالف جيبولي الگهوة لهناه..

ركض حمزة ليأتي بدلة القهوة: بعض الشيء خير من لا شيء.

لاحظ الشيخ من وراء نظارته الشمسية علامات انكار واضحة على وجه

ملا نعمة.

ولم يحتمل خلف هذه الاهانة.. فتحدّر معاتبا بصوت اجش:

- ابن سعدون.. يا ابن سعدون. ليش ما اتطب بربعتي؟ چنت آنه وابوك فرد بيت.. ما بيناتنا بس الحرمه اللّه...

تناول الشيخ فنجان القهوة متضايقا، ثم تأفف وقال:

-.. چنا.. وچنينا!! هاي شيخلصها!

عاود الكلام خلف بصوت مرتفع:

- چنا وچنينا! ما معجبتك؟ ليش؟ صار الها الف سنه؟

هذا ازناد ابوك بعده بجيبي بلابوش دنيا!

سحبه فرهود من ذراعه بغضب وهمس له بنبرة حادة:

- اس . عيب . جدام الوادم.. لا تفضحنا.. لا اتسويها مثل روحتك لفاتحة ابوه..!!

اخرج الشيخ فالح ورقة من فئة عشرة دنانير ودسها في جيب حمزة، وكانت دلة القهوة تشغل يده اليمنى، فيما تشغل الفناجين يسراه...

ثم فتح باب السيارة بنفسه وجلس وراء عجلة القيادة غاضبا.

وانطلقت السيارة بطيش، دون ان يودع الواقفين بكلمة او ايماءة.

ارتفع صوت فرهود مؤنبا:

- شنهي طرگاعتك يابويه بليت الوادم بهالزناد الاگشر!؟ اشصار ؟ سجادة النبي الچان ضامها السلطان بخزنته ؟! نعلة ابو الزناد لا ابو أهله.

ارتعش خلف . ثم حرك عكازته بكف مرتجفة وصرخ:

- كوم . كوم!! ايعلمني للحچي! واللّه لوما عريّس چنت اچّسر العصا على راسك!.

تدخل حمزة لوقف الشجار وقال بغيض مكتوم .

- يا امعودين فضحتونا جدام الوادم.. خلوّا سوالفنا بيناتنا!

ولما غادر الربعة حمزة، ليعيد وسائد العروس، قال ملا نعمة بقصد التحريض:

- دكة الشيخ محد امسويها!! يجي يتبارك للعريس وما يطب بيته؟!

قال خلف وكأنه يخاطب نفسه:

- صاروا ما يستحون من المنگود..

واصل ملا نعمة تحريضه، لانتزاع شتيمة صريحة موجهة للشيوخ من فم خلف:

- چان گلت على احساب خلف.. هذا عمي وصاحب أبوي اگعد اشويّه بربعته؟!

غمغم خلف بعبارات غير واضحة، ثم رفع صوته:

- محد چان يعرفهم زين، غير مرحوم ابوك.. كل احنا اگلوب سمچ!.

اقلع الملا عن مواصلة التحريض وقد جاء خلف على ذكر ابيه.. حرّك خلف رأسه وقال بلهجة ندم:

- اللّه يرحمك يا حسين.. بس انته زلمه..

ثم انشد موالا حفظه عن حسين.. تنبه ملا نعمه الى آخر الموال:

تنعد بلادي واعدها من الارض منفاي

تا اللّه ما ساعتن ذمها يكع من فاي

موش الارض لچن الناس الذي فيها..

تفحّص وجهه وهو ينشد.. تذكّر قول ابيه يوم بلغه صراخ خلف في مجلس فاتحة سعدون:

لقد قسوت على خلف.. انه لا يستحق القسوة. انتم لا تعرفونه.. شجاع وجسور.. وقد يسخو بالرغيف الذي لا يملك سواه.

ما نطق الكذب طول حياته. واحسب ان الصدق جذر شجاعته وسخاءه. والصدق مناعة ضد كل رذيلة: ولكن يا أبي لا يصح الاطلاق في مسألة الصدق والكذب، ففي ايامنا هذه غدت الدنيا اكثر تعقيدا.. لا تخادعني يا نعمة. ما عقدّ الدنيا إلا الكذب.

وسمع خلفا يقول:

- گالها المرحوم وصدگك.. راحوا للانگريزي هوه وصلال.. وچانوا مثل عداوة الچلب والبزون.. ردّوا من بغداد صدگان ما يطير بيناتهم ابو الزعر.. ومن ذاك اليوم، صاروا همّه بكتر واحنا بكتر.

ولكن يا أبي.. لا تخادعني يا نعمة. الجبان لا يقول انخلع قلبي هلعا ووليت الادبار هاربا، ولهذا يلتجيء للكذب فيغزل وينسج ليخفي هزيمته . وقد يتمادى في النسج فيوهم الآخرين بشجاعته وانه كان مهاجما- بطريقة لا يفهمها سواه- وليس هاربا . وقد تحالفه البراعة فيصدق الناس زعمه.. ولابد من امتحان حقيقي.. اللصوص والبخلاء لا يصدقون.. قل لي هل سمعت خسيسا يجاهر بخسته ؟ الكذب هو الذي عقّد الدنيا..

وسمع خلفا يقول: اللّه يرحمك ياحسين.. ثم انشد بيتا من التجليبه:

اجلبنك يليلي والهموم اطعوس

نخرن سبّاح كلبي مثل نخر السوس
اداري چم نذل واصبر لچم ديوس
واسكت لو حچي اليتنومس بعيبه؟!!

لست هذا ما قصدته - اردت القول: كانت دنياكم على درجة من البساطة تحتمل الصدق الذي تدعو اليه اما اليوم فأننا نعيش في ظل نظام معقد.. وسبل السياسة ملتوية.. وهذا تبرير للكذب. اعطني مثالا مفهوما. خذ مثلا الاحزاب المعارضة للسلطة، هل تنجح في عملها مع الصدق المطلق الذي تريده؟ واي ضرر في ان يقولوا الصدق ولا يكذبون؟ لا اقصد حديثهم مع الناس بل قصدت تعاملهم مع السلطة . فلو وقع احد الثوريين في قبضة السلطة وطولب بالاعتراف على زملائه.. هل يلتزم مبدأ الصدق الذي تدعو اليه ويكشف اسرار منظمته؟

ولكن يا (ولد)- روحي فداء الملالي!! كيف سمحت لنفسك ووضعت المسألة على هذه الصورة الساذجة؟ الم يكن هذا الثوري قد تعاهد في الاصل مع منظمته على صيانة اسرارها وقال انني قادر على حمل الامانة؟ واذن فعدم اعترافه.. وصيانته لاسرار منظمته هو الصدق بعينه . انه عاهد وصدق فلماذا قلبت المثال على رأسه؟! لو سألك اللص اين تخفي بندقيتك ليلا، هل تجيبه في مكان كذا؟ لو كشفت له المكان الحقيقي لكنت كاذبا ولم تصدق لان الاصل في القضية كونك عاهدت نفسك على صيانة بندقيتك ولم تعاهد اللصوص على تسليمها يا ملاّتي!! فلا تبرر الكذب على هذا النحو.

اما صدق خلف فقد تجاوز الحد خطوة واحدة.. والحبة الواحدة الزائدة

في كفة الميزان ترجحها على الاخرى فيبدو الميزان مثل هذا الذي في السماء.. وندعوه ميزان الباطل!

وارتفع صوت خلف يهدد ولديه:

- موش حسبالكم شيبّت وضعفت وحك العباس ابو فاضل عشره مثلكم ما يوگفون بوجهي.. لاتخلوّني اگوم عليكم بها العصى.. تعلمونّي على الحچي ؟ واللّه لوما العشره الطويلة.. چنت افتك عليهم فتوگ.. ويعرفوني گول وفعل.. لكن.. بلابوش دنياً.

صدقني يانعمة لو كان خلف يحمل عداوة للشيوخ قدر ما احمل، لوقف على الطريق العام يشتمهم صباح مساء.. وقد يحرك يده- ويالها من يد شجاعة لو تحركت في الوقت المناسب.

ولا يذهبن بك الظن - يا ملاتي - انني أومن بالقول الذي ابتدعه الضعفاء وروجه المغرضون: (التقيّه واجبة) انني امقت هذا القول لأنه فضفاض لا تحده حدود.. فقد يحتمي به الديوث.. يرى القوي يدوس فراشه ويغتصب امرأته.. ويتطامن الى هذا القول المطّاط الذي يتسع لكل شيء.. يردده بمذلة ومهانة (التقيّة واجبه).

ارتفع صوت خلف فقطع على الملا سلسلة التداعيات:

- والفرگ بيني وبين مرحوم حسين، هو يشوف بعيد - بعيد.. وآنه شوفي من طول خيالي. هوه عرفهم گبل ثلاثين سنه وآنه هسه عرفتهم.. توني عرفتهم.. اليوم عرفتهم!

اتظنني اجعل من (خلف) بهلولاً.. لأقلل من شأن صراحته كما حاول الكذابون.. ليظهروا الصدق وكأنه اسطورة خرافية.. وقال مشرعو النفاق:

سألها لماذا (ذاك) بالطول و (هذا) بالعرض؟ ضربته على هامته. وتداولوا المأثور: (اليحچي الصدگك طاگيته منگوبه!) لا اعتراض لي على صراحة خلف، ولا عيب في صدقه الا اعتقاده بأن الناس لا يكذبون اطلاقا، وعنده ان ليس ثمة ما يدعو الآخرين للكذب اطلاقا.

سمع (خلفا) يقول بصوت هادئ:

- گال لي ديمتك الك وصدگته.. گال لي هاي ترتيبات حكومة وصدگته.. گال لي ذكرتك بالزناد محبه خالصه وصدگته وگال لي..

فلا تحاول معي عبثا - تبرير نوع من انواع الكذب.. ان البساطة والتعقيد.. والسياسة والعواطف كلها في حاجة الى الصدق مثل حاجة الخبز للملح.. فلا تحبب لي خبزا بلا ملح يا (ملاّتي).


الفصل الثالث

لم يعد طريق (العلوه) حكرا على سيارات الشيوخ. من حين لآخر تجتازه سيارة اجرة، تقل عروسا او مريضا او جنازة.

راقب الطريق احدهم، ثم اعلن عن مقدم سيارة. قطع بعد قليل انها ليست من سيارات الشيوخ.

ولما اقتربت من الربعة، شاهد الحاضرون بوضوح (استاد) فاضل، فهرعوا لاستقباله مرحبين. لم يغادر فاضل مكانه قرب السيارة، حتى انزل السائق كل الحاجيات، فحمل من بينها (صندوق كارتون) برفق، ودخل به الربعة . داعب عمه، ملا نعمة، وهو يفك المغلف:

- مرحوم جدّي خلفّ لك عدة الگهوة، اللي اتگول عنها: سلعه والها عشر ضروس..

آنه جبت لك سلعه الها مية ضرس!! كل عشر تيام لازم تشحن الباتري.

ثم اردف مشيرا بقبض الكف وبسطها:

- بارك لي.. خلصت من الريف نقلوني لبغداد. وجبت لك الراديو ابو الباتري..

دخل خلف مستعينا بعكازه، وقال بصوت رققته العاطفة:

- اشم ريحة حسين. يا مرحبا بريحة حسين.

ثم عانق فاضلا وبكى.. فاصيب الحاضرون بعدوى العواطف.

دمعت عيون البعض، وتماسك البعض الآخر.. وتعسرت الدعابة على فاضل. فلم يجد شيئا مناسبا للتعبير عن وده واحترامه، لصديق جده، غير اشعال سيكارة وتقديمها لخلف.

عاود عملية ربط الراديو بالبطارية. القى طرف الهوائي من نافذة كوسر الربعة. انبعث الصوت عاليا، فذعر خلف وتكنّى:

- انا ابو حمزة!

ثم اطمأن للراديو الذي سمع عنه الكثير، وليس الخبر كالعيان، وسمع تنفس المذيع، او هكذا تراءى له: تماما كما وصفوه.. ولا سلك تليفون ولا خيط صوف او شعر يربط (العلوه) بالعالم .

وترنم بالهوسة المعروفة (ايگح بلنده وصوته اهناه!).

مرر اصابعه على هيكل الراديو. تلمس الازرار وسلك الهوائي. حاول تحريك البطارية فألفاها ثقيلة. قال باندهاش:

- حسبالك رصاص..

فعاجله فاضل معابثا:

- بلابوش دنيا!

تساءل خلف، دون انكار:

- منين عرفتها البلابوش دنيا؟

- الراديو سولف لي كلشي.. حتى على زناد ابن مهلهل المعتز بيه..

ثم تنبه الى ازدحام الربعه بالفلاحين وكثرة الوجوه الغريبة بينهم : ما اسهل الكلمات التي توجب الاعتذار، ولكن بعد فوات الاوان، اذا كثر المزاح . فألزم نفسه بالجد وتشاغل بالراديو يبحث عن اذاعة جديدة.

جلس الى جانبه ملا نعمة، وبيده ورقة وقلم، وراح يكتب مواعيد نشرات الاخبار واماكن المحطات على اللوح الزجاجي.. ثم تساءل:

- بغداد ما كتبناها..؟

اجابه فاضل بنفس قصير، وقد كوّر انفه، كأنه يشم رائحة كريهة:
- يمعوّد هاي شلك بيها؟ اشتسمع منها؟!

* * *

انعقد ديوان العصر، في ربعة ملا نعمة، وكان الحاضرون يصغون للراديو تارة، ولاحاديث (استاد) فاضل تارة اخرى. لمح ملا نعمة عمامة السيد حسن الكربلائي في طرف هورة البترا، ووجهته قرية العلوة، فأستشعر حرجا مبعثه وجود فاضل: فقد يجاهر ببعض آرائه حول الدين.. وينشب الخلاف بينهما (وبلوه عركة الخطار والجار- الثنين اعزاز وآنه اشلون بيّه!!)

كتب ورقة، على عجل، وناولها لابن اخيه:

عزيزي فاضل- اقبل علينا حسن السيد علي الكربلائي- ربما لاتعرفه- انه صديقي، بعض الشيء، وتعودت ان ادفع له اكرامية سنوية، تعارفنا على تسميتها (خمس السيد) والمألوف ان يمضي في بيتي ليلتين او ثلاث..

كل ما ارجوه عدم المجاهرة بشيء من ذاك (الحچي الخبرك!! وانته موش غشيم دارس مدارس وتفتهم!)

استاء الكربلائي من وجود فاضل: ما جمعتني الصدفة بواحد من هؤلاء الافندية الا وتسبب لي في متاعب (الچلب والبزون) ولكن لا بأس فلأسبقه واغرقه..

توجه السيد حسن الكربلائي بلسان يقطر العسل، الى فاضل، متسائلا عن الصحة والاحوال والراحة والمزاج، داعيا له بالخير والبركة وطول

البقاء... ممتدحا هذه الصدفة الحسنة (ورب صدفة خير من ميعاد): كنت اسأل عنك باستمرار.. والاذن تعشق قبل العين احيانا . .

احترم فاضل وصية عمه، فبالغ في جدّه وتحفظه، حتى كف عن تشغيل الراديو (الا للاخبار وحدها، ومن اذاعة بغداد دون سواها).

فعقب خلف على ذلك:

- هم ردّينا على ايام التومين.. فكهّ.. فكهّ خلنا نشبع سوالف وغنا وغير وبعد..

وتساءل خلف دون مناسبة لم لا تعمد الحكومة لاذاعة (المقتل) يوم عاشوراء، من راديو بغداد، وبصوت روزخون جيد كصوت المرحوم سيد علي؟

فتوجب على السيد حسن ان يرد:

- ويرحم والديك..

واجاب فاضل بجد متصنع:

- انشا اللّه الحكومة ما تقصر عن واجبها.. ويجي يوم تسمع المقتل كلهّ من اذاعة بغداد..

تراءى لفاضل ان السيد الكربلائي لطيف، مستساغ المعشر، لاينقطع عن رواية الشعر ولا تفوته مناسبة للنكتة.. تتميز تعليقاته بالسخرية اللاذعة (الوقورة). فتحرر من بعض جدّه، وحاور السيد في شأن من شؤون الحياة.. فوجده يفكر بطريقة منطقية.

اقلع عن تحفظه، وكاد ان ينطلق على سجيته. حاور نفسه كالمعاتب: لقد ظلمت السيد اعتمادا على تحذيرات مبهمة.. اظنهم لايعرفون محاورة

امثاله، ويصنعون من الحبة قبة.. والا ما معنى هذا التحرج؟!

انحرف مسار الحديث، دون قصد سابق، عن الفقر والغنى، فعرض السيد وجهة نظره: ان الرزق من اللّه مطلقا، ابتداء بحبة القمح ترزقها النملة.. وانتهاء بمقاطعة بيت مهلهل.

ضحك فاضل وتعجل الاجابة: لو صح هذا لانتهينا بالضرورة الى التسليم بأن المومسات اللائي يستقبلن عددا اكبر من الزبائن، قد كتب لهن رزق اوفر من زميلاتهن اللواتي حرمن تلك الليلة من (الزوار)... وعلى اللصوص ينطبق نفس المثال..

استبد القلق بملا نعمة، وقال لنفسه: افلت الزمام وتحطم صمام الامان (وانلاصت والعباس ابو فاضل)

تمسك السيد الكربلائي بالحلقة الضعيفة، فتوجه للحاضرين محتكما: ايصح اقحام اسماء المومسات وقطاع الطرق واللصوص على اسم اللّه عزّ وجل؟

نفض الحاضرون اثوابهم وتداخلت اصواتهم:

(استغفر اللّه.. استغفر اللّه..)

ولما انبرى فاضل لتوضيح قصده، كان السيد قد كسب الجالسين لصفه - وتلك بغيته- ولتكن الحقيقة فيما بعد مجهولة او معلومة، ظالمة او مظلومة. فقد تعلم ولمس باليد من خلال تجاربه، ان قمة النجاح في النقاش كسب السامعين ساعة الجدل، وباية وسيلة، ولاعبرة في ان تكون الحقيقة من جنس الذكور او الاناث. ثم ماهي الحقيقة ؟ لقد ساءل السيد نفسه، اكثر من مرة، فلم يهتد الى جواب.

انتقد فاضل نفسه، فيما بعد: لا اصلح للمناقشة ابدا.. ولا اعرف ان لكل مقام مقالا- وما هو اهم من ذلك.. لا اتميز بسرعة البديهية- وذلك شرط ضروري للمناقش (الناجح)!

*　　　*　　　*

اسر فرهود لملا نعمة: ان الشيخ فالح بن سعدون متضايق من وجود الراديو في بيتك، لدرجة التصريح امام عدد كبير من حاشيته وبمحضر من حمزة:

- بعد . . وبعد . . گام ايشغل راديو للفلح حتى ايلعبهم على گصبه!.

واشار فرهود باصبعه الى الراديو، حين فرغ مذيع موسكو من حديث عن حياة الكولخوزيين، وقال:

- ما ينلام الشيخ، لو گال ايلعّب الفلح. اكو فلاح يسمع هيچ عيشه بالدنيا وما يصير بأثنى حال؟!

اجابه الملا: ستكون مهمته اصعب من مهمة (زميله) ابن الاقطاعي الذي رجع من اميريكا بلا شهادة بعد اثنى عشر عاما من الدراسة.. وتلقفت احدى الصحف البغدادية خبره.. فما كان منه الا الهرولة في شارع الرشيد، وشراء النسخ التي صادفته، وعاد الى الفندق يتبعه حمال بمئات الجرائد. وقال لصديقه:

- اشتريت كل الجرايد، حتى لاتوصل وحده للشاميه ويشوفها ابوي. عاد ولا حسبة ابن مهلهل.. لازم ايچسر كل راديوات العالم ويحرج كل الكتب ويهدم كل المدارس.. حتى لا توعى الوادم !

*　　　*　　　*

لم يجد الجالسون في ربعة الملا كلمة مناسبة تقلل من مخاوفه، على مصير ولدى اخيه. وكلهم عليم بما يحمل الشابان من افكار مناهضة للسلطة. وما داما يتدخلان بالسياسة، فانهما ولا شك في قلب المعمعة.. وسمعوا استنتاجات ملا نعمة، وهو اكثرهم دراية بالسياسة: (اليوم بغداد تغلي مثل جدر الماشوّه) ولو كان الامر خلاف ذلك لما تسلم الجيش زمام السلطة.

وحالما اذيع بيان يطمئن الشعب الى هدوء الحالة واستتباب الامن، التفت خلف الى الملا وقال:

- خوش. خوش.. يا نعمتك ياربي- مادام بيان الحكومة ايگول ماكو شيء، بعد لايضيج خلگك.

اجابه الملا متبسطا:

- شوف عمي. ابو حمزة..

- ولا تشوف ردا..

- اگلك حچايه وخلها ترچيّه بأذنك..

- فوت سالم..

- لو ذاعت الحكومة بيان وگالت الوضع مستقر. گول ترا الحسبه مخيوطه بكراع مطي.. وصايره هيونطه.. ولو گالت الحگومه : قلاقل وخبصات وكذا ماكذا.. اعرف ترا الامور ساكنة وتنسمع بيها رنّة الشامي.

- كون حچي الحكومة مثل حچي الجماعه؟!

- اخس وانگس!

صمت خلف قليلا ثم تساءل بلهجة المتردد:

- عمي ولو انته مالك خلگك- ارد انشدك..

- تفضل ابو حمزة

- زاد فضلك. گلي، هالوادم اللي اتهوّس ابغداد شتريد؟

- الوادم تريد عدالة. وهاي الحكومة ظالمة.. ولها السبب اتصير الهوسه..

- ارد انشدك.. لا تزعل مني.. همه ياهم ذوله اليطالبون بالعدالة؟

- آنه وانته وحمزة وسويلم وكزار...

- ابگع عبا؟! ابگع عبا ما يسوي شيء.. هاي ينراد الها صماخات..

كتم انزعاجه من رد خلف وقال بهدوء لا يناسب الاجابة:

- الصماخات ليش تتحرك وتهوس؟! راضيه بالوضع.. واامورها ماشيه على اربعه وعشرين حباية.. اليهوسون اولاد الخايبه.. الماچلين حرها وبردها..

لايدري احد بماذا فكر خلف، وكيف تداعت افكاره حين تساءل :

- فالح بن سعدون عد اهله يو ابغداد؟

اجابه ولده فرهود، معابثا:

- بويه انته موش غشيم. چا هالطلايب والحرايب المعتلجه.. والحكومات مخبوصة ليش؟ غير ابن مهلهل ابغداد وخابصها خبص!

ثم اتبع ذلك بترديدة معروفة، بدت في غير موضعها، بالنسبة لملا نعمه في الاقل:

گح دحلوس وبغداد ارتج

اشهد بالله مازليّتي!

اذاع راديو بغداد نص الارادة الملكية بتأليف وزارة يرأسها الفريق نور الدين محمود رئيس اركان الجيش. فأعلن ملا نعمة حال سماعه النبأ، انه قرر السفر الى بغداد ليطمئن على ولدي اخيه..

* * *

تهامس الفلاحون، اثناء غياب الملا، بخبر مريب مفاده، ان شخصا غريبا حملته سيارة الشيخ الصغير، ضاري بن فالح، في عتمة المساء، وانزلته بربعة عبيد المنتاز، سركال قرية مويلحة، واكد عبيد نفسه، فيما بعد، ان الرجل الملثم هو معاون الشعبة الخاصة، في لواء الكوت، جاء يتحقق بنفسه من صحة التقارير السرية المرفوعة عن المنطقة.. واشار المنتاز، من طرف خفي الى تدخل ملا نعمة بالسياسة.

واتبع تلميحاته بعبارة ذات مغزى:

– حكومة. هجم بيتها، ما يخفى عليها شي، تعرف حتى اليئام وي مرته!!

وروى فلاح من قرية مويلحه: لقد اثار فضولي مجيء الرجل، على ذلك النحو المريب.. فهو لم يدخل ربعة عبيد الا بعد ان اخرجنا منها. وحين تسللت من بيتي، حاولت ان اتبين وجهه على ضوء الفانوس، ولكنني دهشت حين وقفت بمواجهة باب الربعة ووجدتها مظلمة وظللت اتابع المسألة، اترصد الداخل والخارج، فعجبت لمغادرة الرجل بصحبة عبيد، بعد تناولهما العشاء.. وكانت وجهتهما نهر البترا.. ولم يعودا الى الربعة الا بعد ساعة او تزيد.

لم يكن تصريح عبيد، وكشفه لهوية معاون الشعبة الخاصة، من قبيل الثرثرة الفلاحية، بل كان تدبيرا محكما من داود ابو البينه، وتلقين الشيخ الصغير..

فلقد ازعجت الشيخ الكبير فالح بن سعدون (قلاقل) بغداد و (خبصاتها) فتعكر مزاجه، وقرر العودة في وقت غير متوقع، ولم يبلغ اهله تلفونيا بمقدمه، الا بعد وصوله مدينة الكوت، واستراحته في محل الچلبي..

وساعتها استبدت الحيرة بولده (ضاري) وتبخرت نشوة ليلة ونهار امضاها مع (سعوده). واخيرا اهتدى الى نفس الطريقة، التي ابتكرها داود، واوصل بها سعوده الى القصر. رواها داود بنفسه لعبيد المنتاز حين رافق معاون الشعبة الخاصة، ليوصله الى قرية مويلحة:

(اراد ضاري ان آتيه بسعوده، ليلة امس، حاولت اقناعه بصعوبة الطلب، نظرا الى ان سيارة الجب لا تحجب امرأة بصورة كاملة، وحتى اذا تجاوزنا هذه الصعوبة، فأن نزول امرأة من السيارة في باب القصر ودخولها لابد ان يثير القيل والقال وللشيخ الكبير عيون وارصاد.. ولكن (ضاري) اصر وعاند عناد السكران.. فأهتديت اخيرا الى فكرة اخذ (قاط كامل من القندره للعگال) من ملابس (ضاري) والبستها لسعوده فبدت كأنها شيخ المشايخ (شوفة عينك!) ولم يثر دخولها القصر اية شبهة، ولا يشك من رآها في ان زائرا صديقا من اولاد الشيوخ الكبار قد حل ضيفا عزيزا في قصر ابن مهلهل. ولكن (ضاري) لم يكتف منها بليلة واحدة.. اراد بقاءها ليلة اخرى.. وقبل ساعة فوجئنا بمكالمة الشيخ التلفونية..

خشينا ارجاعها الى المدينة، فقد نلتقي مع الشيخ على الطريق و (تعال يا عبيد شيّلني!!) ولهذا قرر ضاري تشريفها لربعتك العامرة تحت اسم معاون الشعبة الخاصة، ريثما تتاح لنا فرصة اعادتها بسلام..)

لحظتها تحلب ريق عبيد، تلمض، وبلع ريقه، وقد تمطى بداخله عفريت الولاء للدولة ممثلة بمعاون الشعبة الخاصة، وانتظر بفارغ الصبر نضج الدجاجة التي جاء بها، عصر ذلك اليوم، مريض شفي ببركة سيد سراب، فنذرها للقيّم (عبيد المنتاز) ومعها نصف دينار . وحالما تناول (المعاون) عشاءه، تعجل عبيد المنتاز مغادرته الربعة ليثبت اخلاصه للدولة والملك، فانسحبا الى جدول البترا متلاصقين.

* * *

اخذ بعض الفلاحين على انفسهم ابلاغ ملا نعمة بهذا الخبر المريب، وتفاصيله الغريبة، حال وصوله قرية العلوه، ليتدرع بالحيطة والحذر: فالذي تدبره الشعبة الخاصة لابد ان يكون موجها ضده.. ومن يدري، فلربما نصب المعاون جهازا سريا للالتقاط، والا فما معنى تجوله في ظلمة الليل؟

لم تقف تحذيرات الناصحين حائلا بين ملا نعمة وبين روايته لما سمع ورأى في بغداد: في اليوم التالي لاعلان حكومة نور الدين محمود عن تسعير الفواكه والمخضرات وردت برقية الى مجلس الوزراء موقعة بأسم عمال مدينة النجف جاء فيها: (فخامة رئيس الوزراء. تسعيركم الشلغم اثلج صدورنا سيروا الى الامام ونحن من ورائكم).

لم يجد الفلاحون في البرقية شيئا يستحق الاهتمام، وعجبوا لماذا يرويها الملا؟!

لاحظ اهمالهم للنكتة فروى غيرها.

- نكاية بالاقطاعيين الذين يسارعون لارسال برقيات التأييد، عمد اهالي بغداد الى اطلاق مجموعة حمير في الاسواق، جللوها بقماش ابيض كتبت عليه العبارة المألوفة في راديو بغداد:

(انا وعشائري نؤيدكم سيروا الى الامام واللّه ينصركم).

ضحك الفلاحون ملء افواههم. ما لبث بعضهم ان كفكف اطراف ضحكته، مستشعرا الخطر.. نادما على الضحك، لهذه النكتة بالذات، فهي ليست سياسية وحسب، بل شتيمة مقذعة للشيوخ- والحكومة على حد تعبير عبيد المنتاز (تعرف حتى الينام وي مرته!)

كفرّ حمزة الخلف عن ضحكته، بنصيحة لملا نعمة: ان يكف عن التدخل بالسياسة فليس وراءها غير وجع الرأس. وقال حمزة لنفسه: لئن بلغت الشيوخ ضحكتي سوف تبلغهم نصيحتي ولن تتأثر فكرة تنصيبي سركالا بسوء.

وقال فلاح ينصح الملا باخلاص:

- كون اتريد تسمع اذاعة موسكو، فك الراديون نص الليل. ولا تخلي حسّه يطلع ورا البيت - گص راس موّت خبر!!

ضحك ملا نعمة وقال:

- واحد نشدوه ليش راسك امشيب؟ گالهم من السباع. گالوله وين شفت السباع؟ گالهم واللّه ما شايف اسباع لكن اسمعهم ايسولفون عليها بالگهاوي!!

ثم تساءل بلهجة تأنيب: اي صنف من الرجال نحن؟! لمجرد نزول

شخص غريب في احدى القرى يراد منا عدم سماع الاخبار من الراديو..
في حين ان الشباب هناك، في بغداد، يقتحمون الرصاص...

وروى لهم هجوم المتظاهرين على مراكز الشرطة ومركز الاستعلامات الامريكي.. وبعض حوادث قدّر وقوعها تقديرا، مع قليل من المبالغة. فأدار حمزة الخلف كفه في الهواء وقال:

– هاي وين وذيج وين؟!

ثم التفت، كأنما يبحث عن ابيه واضاف:

– لو الشايب اهناه، وسامع هاي سوالفك، چان گال: بعد شيبي.. يوهيچ.. يو متنراد الزلم . وچان هوّس لك هوسته المابنساها:

كل حي بالدنيا اعليه موته!


الفصل الرابع

لوّح ملا نعمة بذراعه، وادارها مع الافق، لتبلغ اشارته كل الفلاحين المتحلقين حوله، وقال بصوت جهوري:

– سامع الصوت عليكم. اليوفي ديونه ويطلب سنده. صدگ عايل على الشيوخ؟!

واعلن ملا علي كاتب الشيوخ، وسط حلقة من الفلاحين و (الشحاني والموامير) المتجمهرين حوله: ان هذه بادرة خطرة.. وهي تعني من بين ما تعنيه نزع الثقة من بيت مهلهل. وأومأ بأصبعه نحو الفلاحين، الذين طالب الملا باسترداد (سنداتهم):

– تشكوّن بالشيوخ؟ ما تصدجون بالوصولات النكتبها الكم؟ اتخافون من بيت مهلهل يستبطلون ويشتكون بالاسناد مرة ثانية؟!!.

تصدى له ملا نعمة موضحا: اذا كان كل واحد منهم مدين بأربعين دينارا، فأنا اعتبر نفسي مدينا بمائة وعشرين لانني سركالهم، ولانني وقعتّ (السندات) كفيلا.. وكل كلام معهم لا معنى له. انا الطرف الاول في هذه المسألة.

ثم حاول ملا نعمة تلطيف لهجته واضاف:

..الامر لايحتاج تعقيدا وتخريجات عن الثقة وانتزاعها.. انهم مدينون للشيوخ، يريدون تسديد ما عليهم ويطلبون الاوراق التي وقعّوا عليها. اما الوصل الذي توقعه انت فأظنه يتطلب صيانة في مكان امين لا تطاله عاديات الزمن . . والفلاح لا يملك (قاصة) يحفظ بها الوصولات..

حرّك كاتب الشيوخ يده استغرابا وسخرا ثم قال:

– اشلون نگدر نشتغل بعد !! اذا يحچي بالقاصات؟!

كان هذا كافيا لاستفزاز ملا نعمة، واخراجه عن الهدوء الذي التزم به. صرخ بوجه الكاتب، وقد اتسعت عيناه:

- ليش ما احچي بالقاصات؟! چنت راعي بغنم ابوك؟! لا اتوازيني واحچي الموزينات!

قدّر كاتب الشيوخ ان الاخذ والرد على هذا المستوى ليس لمصلحته، وقد يجر الى عواقب وخيمة. فهو وان استمد قوته من قوة الشيوخ، لكنه لا ينتسب الى العشيرة، وملا نعمة بين اخوانه وابناء عمومته: وقد يجيء العقل بعد العواطف.. وتجيء الفكرة بعد السكرة!

استدار على عقبيه، وانصرف الى كوخ (الشحاني) في طرف (المحله) الغربي..

ردد الفلاحون بعد انصرافه:

- بعد حلگي حلگك يا ملا نعمه

- واللّه يحچي ذهب..

- والحگ وي ملا نعمة..

- سكتّه.. نعل والديه

قال احد الفلاحين الثلاثة مستغيثا:

- وتالي؟ ياجماعة انظل محبوسين؟ بيش يطلبونّا.. انريد انوفيهم وانشيل.. انولي.. انولي!

اندفع ملا نعمة نحو صريفة الشحاني، مشيرا الى الفلاحين الثلاثة ان يتبعوه..

تبعه حمزة الخلف مسرعا فأدركه قبل وصوله الصريفة. وهمس له بضع

كلمات على عجل سمع الفلاحون طرفا منها:

لا اتخليّ الزعل يغلبك.

دخل الملا صريفة الشحاني، وخاطب كاتب الشيوخ بلهجة هادئة:

- القضية ما تحتاج انطولها وانعرضها.. اترجاك اتفضها.. وتخليهم ايشيلون.

- آنه اعتبر هالقضية، قضية شرف، معناها انتم ما تصدگون بكلام شرف ايگولونه الشيوخ..

- كلام شرف؟! الحسبة حسبة سند، بيه طابع، وماضي عليه الفلاح وآنه الكفيل، كلام الشرف التگول عليه وين طابعه.. ووين حبره؟!

تغامز الفلاحون المحيطون بالصريفة. مد احدهم اصبعه ودغدغ صاحبه. غمز آخر بحاجبه. اخرج ثالث لسانه.. دار في اذهانهم ان ملا نعمة يعرض بشرف الكاتب.. ويشير الى العلاقة المفضوحة بين زوجته وبين الشيخ فالح بن سعدون . اصطنعوا نشوة انتصار موهومة على كاتب الشيوخ الممقوت، الذي ركب بغلة العناد، واعلن ان (حواصل) هؤلاء الفلاحين لن تجري قسمتها، حتى يعود الشيخ من اوربا، بسبب من ان السندات التي يطلبونها في خزانة لا يملك مفتاحها الا الشيخ نفسه.

جاهر ملا نعمه بقرار خطير: سوف اقسم (حاصلاتهم) بنفسي. وابيع حصتهم من الحبوب، لاودع المائة والعشرين دينارا عند احد (وليكن حمزة الخلف) يدفعها للشيخ، حين رجوعه، ويتسلم السندات.

اجاب كاتب الشيوخ بتهور: ان الذي يتجاسر، ويعبث باموال بيت مهلهل، لم تلده امه بعد!

انتفض ملا نعمة، كأن جمرة سقطت بين ثوبه وثديه، وقال:

– هسه رايح اجسم الطعام، واشوف ياهو اليمنعني؟! انچان بالگوه والمجاوير انعل والديه.. وانچان بالحكومة مستعد امشي للمحكمة...

تزاحم الفلاحون، دونما قصد محدد، يقتفون خطى الملا السريعة..

شق حمزة الخلف طريقا بينهم. حاذى ملا نعمه واسر اليه بضع كلمات. التفت بعدها الى الفلاحين واعلن انه استمهل الملا لبعض الوقت، ريثما يجد حلا معقولا للازمة.

ثم اعتلى فرسه، واطلق لها العنان، ووجهته قصر الشيوخ.

لم يطل الانتظار بالفلاحين . شاهدوا جدارا من التراب يرتفع ويستطيل بدايته في قرية الشيوخ وتقترب نهايته من (المحلة).

انجلى اخيرا عن سيارة الشيخ الصغير (ضاري)..

فأتسعت حوله الحلقة، لحظة نزوله من السيارة، وراح يصغي بأنتباه لاقوال ملا نعمة ولما سكت الملا، التفت (ضاري) الى الكاتب وقال بلهجة امر:

– شكو بيها؟ روح جيب سنداتهم.

بوغت كاتب الشيوخ بالطلب.

فتردد في الاجابة لحظات.. حتى اذا التقت عيناه بعيني ضاري غمزه بعين واحدة واجاب:

– السندات اكثرها بالقاصة الچبيرة.. ومفتاحها عد الشيخ.. السندات موش كلها عندي..

شعر ضاري بحراجة موقفه امام الفلاحين فقد افلتت منه عبارة

(الامر).. وها هو يتلقى غمزة الكاتب ويزعم ان اكثر السندات في القاصة الكبيرة . . ووراء الغمزة ما وراءها . . والاعتذار يخفي شيئا ما . ولابد من حركة تحفظ (ماء الوجه).

اشار الى الكاتب ان يصعد معه السيارة معلنا للفلاحين:

– اروح ادور السندات بنفسي..

وحين انفرد الكاتب بالشيخ انهال عليه بملامة، هي بالتقريع اشبه، واختتمها بنصيحة وتحذير:

– لو انطيناهم سنداتهم ينفتح علينا باب ما ينسد.. ابوك ما يرضى اطيّ سند لكل فلاح يوفي..

– بس هالمرّة.. سوها على احسابي..

انحرفت السيارة الى بيت ملا علي، كاتب الشيوخ . وقفت عند باب الحوش الموارب . لمح الشيخ الصغير (زينة) بنت ملا علي وهي تعدو مسرعة لتختفي وراء الباب، وقد ابرز الثوب الشاف مفاتن جسمها، الذي اوشك على النضج.

فأستاء ضاري من غفلته، وعاتب نفسه: كيف اهملتها من قبل ولم اتبين فتنتها.. وما اكثر رواحها ومجيئها للقصر.. انها استحقت اسم (زينة) بجدارة..

اقترح الكاتب على الشيخ الصغير تأجيل تسليم السندات الى الغد، لاظهار الصعوبة امام الفلاحين الذين قد يطالبون مستقبلا بسنداتهم عند تسديد الديون. فوافقه ضاري دون مناقشة.

*   *   *

يئس الفلاحون من عودة الشيخ وكاتبه الى المحلةّ. تأكدوا من ضياع يوم جديد. بعضهم لم يلامس الماء جسده منذ اسابيع وبعضهم لم يلتق بزوجته طيلة ايام الذراوه..

كان هذا اول موسم يفرض فيه الشيوخ نظام قسمة المحلّة في يوم واحد.. وبمقتضى التعليمات لابد ان ينتهى دراس كل البيادر وتذرية كل الحبوب، ويوارى التبن بالتراب. ثم تجري القسمة..

شاء بعض الفلاحين ان يحول النقمة ضد ملا نعمة حين اعلن:

- شنهي الغبضناها من ورا غوانين ملا نعمة؟ ضاع علينا يوم جديد..

فصادف كلامه منبتا خصبا عند فلاح آخر، اجاب بسخرية اكثر:

- ملا نعمه حسباله العرك بالبطيخ!!

- عمي هذولة بيت مهلهل صاروا مثل الصخرة، ان طحت فوگها تنچسر وان طاحت فوگك تكسرك.

- تعاركن الحصن من فگر السايس!

- كل البلاوي من الملالي!

* * *

عبّر الفلاحون، الذين اموّا ربعة الملا، لشرب قهوة العصر، عن مخاوفهم على مصيره، بسبب موقفه المتصلب ازاء الشيوخ، وغمزه لكاتبهم بعبارات مبطنة:

- يا ملا نعمه ابو المثل يگول ايد الما تشابچها بوسها!

- يا ملا. هذولة بيت مهلهل صار حيلهم من حيل الحكومة..

- يا ملا ما ينرادلك اتوجف الشفرة وياهم!!

حرك ملا نعمة رأسه، وانشب ضرسا في شفته السفلى . ثم التفت الى الناصحين، وتساءل بجرس حزين:

- احنا هم زلم؟!

صمت لحظة.. واضاف:

- ينراد نتلمس ارواحنا!!

بدا تساؤله غريبا. والكلمة تستمد اهميتها، احيانا، من اهمية قائلها.. وملا نعمة في نظرهم لا يلقي الكلام جزافا، وقد ورث الحكمة عن ابيه.. وتعلم مالم يعرفه ابوه: القراءة والكتابة والكلام في السياسة. والاصغاء الى الراديو.

وهاهو ملا نعمة يشكك في رجولتهم، ويمتحنهم ساخرا: فليتحسس كل نفسه ان كان له ما للرجال.. سؤال غريب حقا.. انكروه على الملا، لكن احدا لم يجاهر بما دار في خلده .

فعاجلهم ملا نعمه باستخراج مظروف، من جيبه، وخاطبهم فيما كان يسوي طيات الرسالة بعناية:

السجناء السياسيون، في سجن الكوت، لم يحتملوا هضم حق من حقوقهم . . وانكروا على الادارة تصرفاتها.. عبروا عن ارادتهم، وهم عزل من كل سلاح، الا من رجولتهم، وتصرفوا كما يتصرف الرجال.

اما نحن هنا . اذا ما طالب المدين بالسند الذي وقع عليه، بعد تسديد الدين، اعتبرتم المطالبة تطرفا، وانهالت نصائحكم تطلب الاعتدال (وايد الماتشابچها بوسها!) هل نحن حقا رجال؟!

ثم انصرف الى رسالة صديقه، المعلم مهدي:

- وصلتني البارحة.. هاي الرسالة من صديق كلش ثقة اقراها الكم، كلها، بلكي تتحرك يا صخر!!

(الكوت في ٤ ايلول ١٩٥٣)

تجاوز التحية التقليدية وبعض عبارات خاصة . وشرع يتلو بصوت واضح: (مذبحة سجن بغداد التي استشهد فيها الحاج بشير وموسى سلمان واحمد حسون واصيب بها مائة وخمسون سجينا بجراح، استفزت مشاعر السجناء السياسيين في الكوت، فأعلنوا اضرابا رمزيا وقدموا احتجاجا الى السلطة، بواسطة متصرف الكوت، يستنكرون فيه مذبحة سجن بغداد، ويطالبون بمعاقبة مدبريها ومنفذيها. غضبت الحكومة من هذا الاحتجاج واعتبرته تحديا لها، وتصرفا يستوجب العقاب. فقررت نقل بعضهم الى سجن نقرة السلمان، وراحت تستفز الباقين وتضيّق عليهم الحصار وشدد المشرفون على السجن ارهابهم. ثم اشاعوا في مدينة الكوت ان السجناء عصوا سجانيهم، وخرجوا على اوامر السجن، واعلنوا التمرد على الحكومة.

لكن المواطنين الشرفاء في مدينة الكوت فضحوا هذه الاكذوبة، حين قاموا بتظاهرة كبيرة، وارغموا متصرف الكوت على زيارة السجن. وذهب المتصرف ولكن ليعلن على السجناء : ان المجلس العرفي ببغداد يطلب احضار (١١٨) سجينا منهم للمحاكمة، وكان الغرض الحقيقي من وراء هذا الطلب، اخراج السجناء من سجن الكوت وارسالهم الى نقرة السلمان..

فلم يوافق السجناء على مغادرة السجن.

وكان جواب الحكومة تشديد الحصار على السجناء. وكسر خزان المياه الخارجي.. ثم امتنعت ادارة السجن عن تقديم الطعام المخصص للسجناء.

استمر الحصار شهرا ويومين عاش السجناء خلاله على الطعام، الذي كان يصل من ذويهم قبل بدء الحصار. اما مشكلة الماء فقد حلوها بحفر بئر داخل السجن، بالادوات البسيطة التي بين ايديهم.

حاولت الشرطة ان تمنعهم.. هددتهم بالقتل، ان هم واصلوا الحفر . ولكنهم استمروا تحت وطأة العطش حتى بلغ عمق البئر اربعة امتار، ونبع ماؤه، فأستقوا منه وان يكن شديد الملوحة.

اسقط في يد السلطة . فقررت الشروع بخطة: بدأت بشتم مقذع، ارسل عبر مكبرات الصوت، ثم بعثت ادارة السجن بعض الجواسيس لاستفزاز السجناء.

استغاث السجناء من هذه المعاملة. ونظرا لوقوع السجن وسط مدينة الكوت، كانت استغاثتهم تسمع بوضوح. فألتجات الحكومة الى خطة معاكسة وذلك بتكليف افراد الشرطة بأن يمسك كل منهم صحيفة تنك فارغة ويقرع عليها باستمرار، لتحول دون وصول استغاثة السجناء الى مسامع اهالي مدينة الكوت. ثم ضاقت ادارة السجن بهذا الحال فأمرت بتوجيه الرصاص من بروج المراقبة وسطوح السجن، فقتل من قتل واصيب آخرون بجراح

خطيرة. كان ذلك قبل نصف شهر تقريبا.

لم تجد الحكومة جريمتها هذه كافية، فطلبت القيام بحملة تفتيشية، وبعد ممانعة ومفاوضة، اعلن السجناء موافقتهم على التفتيش. فبدأ من قبل مدير السجن، وبأشراف وتوجيه المدير العام لادارة السجون، وبعد هذا التفتيش المرهق، وتجريد السجناء من كل حاجة نافعة، اخرج المدير ثلاثة من المسجونين العاديين، وطلب اخراج خمسة عشر سجينا سياسيا لنقلهم الى نقرة السلمان، بيد ان المساجين السياسيين امتنعوا عن مغادرة السجن. فهيأت الحكومة حوالي مائة شرطي، كانوا يقفون في الجهة الشمالية من ساحة السجن يحملون البنادق والرشاشات وعددا من حاملي (الدونكيات).. وفي الساعة الرابعة من صباح امس انهمر الرصاص المجنون بخسة وغدر.. واسفرت المذبحة عن سقوط ثمانية شهداء ومائة وثلاثة جرحى من السجناء السياسيين(١)

١- عن قرار محكمة تمييز العراق المستند على وثائق التحقيق والتقارير الطبية في حينها . عند نظر المحكمة في تمييز الدعوى التي اقامها صادق الدجيلي والد الشهيد رؤوف الذي كان من بين ضحايا مجزرة سجن الكوت.

وكانت محكمة البداءة قد حكمت لوالد الشهيد بتعويض عن الضرر الذي اصابه من مقتل ولده، مع تحميل وزراء المالية والداخلية والشؤون الاجتماعية مصاريف الدعوى.

انهى الملا تلاوة الرسالة..

اعادها الى المظروف. ظل الصمت مخيما على الديوان، قطعه صوت خلف وهو يتذكر شيئا بعيدا استحضره من زوايا الذاكرة وقال:

- ايباه!! هذولة السولف عليهم عبيد، گبل سبع طعش سنه. عفيه زلم.. لهسه ما فضت اطلابتهم وي مدير السجن؟ گال عليهم عبيد: عصوا وما اشتغلوا بالتراب. ايباه اشلون اطلابه.. اشطولها.. اشعرضها؟ سبع طعش سنة وما فضت!! لاكن يا جماعة.. گال عليهم عبيد

چانوا ثلاثة.. هسة صايرين بالميّات.. ايباه!! بلابوش دنيا..

قال فلاح يعقب على الرسالة:

- يا ملا هذا المذكور بالمكتوب صعب علينا.

هوّس فرهود الخلف، دون تعليق:

- اخذيني ابسدّج يا خاله!

ادرك حمزة ما عناه فرهود بالهوسة وقال:

- عمي هذولاك امفتشين.. ويدرون شيريدون ومتعمدين الخطر.. واللي يتعمد الخطر ايگل خوفه.. احنا ناس امغمضين.. ونگولها من صدگك.. اخذيني ابسدّج يا خاله.

عجب الحاضرون لانطلاق كزار الصگر وقوله بحماس:

- عمي صدگ مثل ما تفضل الملا.. احنا خنّكر لا نثيه ولا ذكر..

لو بينا خير چان حچينا بيوم اخذوا گاعنا.. احنا اخذوا ديمتنا واطوها لنسيبهم صلال.. وذاك (رحمة روحه!) بهاي اذني سمعته وجدام هذا خلف.. گال كلام شرف گاعكم الكم.. قابل اطي گاعكم للغريب؟! وخلف

غشمره بزناد واخذ ديمته وظلينا ساچتين مثل عيون الخزر.. صدگك احنا موش زلم! احنا خنّكر!

لم يكن مبعث العجب قول كزار بل لان كزار نفسه يبادر للكلام دون سؤال، وهو الذي يقول عنه حمزة (حچي كزار بالتموين تطيّه بطاغه يطيك چلمه!)

واقتحم ذهن الملا دون بحث أو تدبير قول الجواهري:

انا حتفهم الج البيوت عليهم

اغري الوليد بشتمهم والحاجبا

وساءل نفسه:

ها هم يشتمون- ثم ماذا؟ يشتمون حيث لاتبلغ الشتيمة مسامع المشتوم. كواهلهم تنوء بحمل ثقيل من المذلة والخوف. كف قوية.. اين الكف القوية تسقط هذا الحمل الرهيب. اما من كف تسقطه..؟ ومتى يسقط؟ قالوا اسقطنا عرش فاروق هل سقط الحمل عنهم؟ اريد ان ارى بعيني- اريدها كفّا تسقط عرش مهلهل وعرش فيصل- اليس بينهم من يحمل في جوانحه مثل هذا الحقد؟. ولكن يا (هريب) ما هي حكاية صاحبك الجندرمة؟. كان يحب الدجاج واللبن بشراهه عجيبة- تذبح له الدجاجة وتملأ طاسة وثانية وثالثة باللبن (يجازيك يا هريّب) وحيثما كانت مأموريته يعرج على بيت هريّب يأكل الدجاجة ويشرب طاسات اللبن (يجازيك يا هريّب.. صاحبي انته يا هريب) وكانت مأموريته التالية جلب هريب على عجل- لوح بالقرباچ- اچراك- حسبها مزحة ولكنها مزحة سمجة- اچراك- صرخ هريب.. وتسارعت ضربات القرباچ حتى سلخ ظهر هريب. اوصله الى

(القلغ).. خرج من التهمة بريئا. كان ثمة خطأ.. ثمة تشابه في الاسماء. جاء الجندرمة وعلى وجهه امارات حزن وندم (هرّيب لا يلومني جندرمة عقله بلابچينه) لم يفهم هريب معنى لاعتذار صاحبه ولا قوله عقله بلابچينه . كيف يكون عقل المرء في حذائه؟!

. هريب لا يلومني- جندرمه عقله بلابچينه.. يسمع طقطقه يصير قاز ماز.. يسمع جزجزجز يسلطن!

اسمع هريب انته لو يلبس لابچين طق طق ينتفخ طق طق يلزم قرباچ طق طق يضرب صديقك.. يضرب اخوك. جندرمة عقله بلابچينه.

اراد التكفير عن خطيئته وضع المسألة على هذا النحو: اخذ هذا لابچين مالي زايد حتى يجرب حتى لا يلومني.

كان الناس هنا في الريف حفاة اذكر ذلك جيدا في قرية تعداد بيوتها مائة بيت ربما لا يوجد اكثر من حذائين. حتى سعدون بن مهلهل كان يستعير حذاء والدي- يوم سافر الى بغداد استعار كلاش احميد ابو البينه..

وفي صبيحة يوم ممطر دخل الربعة هرّيب ينتعل لابچين صاحبه الجندرمة. اثار انتباه الحاضرين. كثرت تعليقاتهم: هاي شنهي؟ چنك حصان شارد بحديده.. چنك دجاجه امكلشه بالطين.. اشصار بيك لابس هالهوله. تجرأ احدهم وقال: چنك حضريّه لابسه غبغاب. استشاط هرّيب غضبا. امسك عصاه. وقبل ان يشج بها رأس ابن عمه. تذكر:(.. هرّيب انته لو يلبس لابچين يصير مثل جندرمه عقله بلابچينه طق طق ينتفخ طق طق طق يلزم قرباج طق طق يضرب صديقه يضرب أخوه).

الفصل الخامس

بالغ فرهود في وصفه للمظاهرة:

- اولها يم دكان يونس، وتاليها بسوكك السراريج..

فاستبد الفضول بخلف وسأل ولده:

- شيريدون؟

- نوري سعيد امسوّي حلف وي تركيا وباكستان وايران...

- وي الترك؟

- ايه وي الترك..

هتف خلف بسرور مفاجئ:

- ويردّون الترك؟! الف الواه على حكم العصملي..!

سأل حمزة معابثا:

- امواعدينك لو ردّوا ايعينونك غمندار؟!

قال الاب مستخفا بسخرية ولده، زاهدا في اجابته:

- ينراد الها بخت لو ردّوا الترك.. چان خربّوا كل ترتيبات الانگريز..

قال حمزة كأنه يخاطب نفسه:

- يا ترتيبات! يا صخام! يا الطام! احنا وي العرب ما شبعانين خبز.. وي الترك انشاء اللّه نشبع كليجه!

حرك خلف رأسه، وقال بلهجة من يضمر اكثر مما يظهر:

انته بعدك غشيم، ما تعرف الامور!

ابتسم حمزة واجاب متهكما:

- تمام! على ما عدّيت. آنه موش مثلك منطلع بالسياسة! هاي شغلك،

كاضي بيها عمر!

تجاوز خلف تعليقات حمزة، وتوجه الى فرهود يأمره:

- اريدكم انوب تطلعون لي اداعة الترك..

سأله حمزة متصنعا الجد:

- نطلعها الك وهي تذيع بالتركي؟

رد الاب بنتر:

- لا تصير سفيه! الترك لازم عدهم اداعة تحچي بالعربي، مادام لنده تحچي بالعربي. الانگريز والترك اگران، ما يصير واحد يزود على الآخر.

اجاب فرهود بأشفاق:

- ميخالف بويه ميخالف . اندور لك اداعة الترك، ولو ما لگيناها ننشد ملا نعمه عليها..

شرع حمزة يكلم نفسه بصوت مسموع :

- دشوفوا فگر حمزة!! انوب گلبت الحسبه على الترك. صاروا محبوبين انشا اللّه! ما عولّنا نخلص من محبته لبيت مهلهل (الذهب التيزاب) طحنا بالترك!

التفت خلف ناحية حمزة وسأله:

- ولك شتگول؟

- هيچ منطرف الترك..

وردد هوسة، لا تمت بصلة للمناسبة، بل لمجرد انها تحوي اسم الترك:

تبنيه ونهدمه بتركينا!

*   *   *

تطلع خلف جهة الغرب، فقدّر ان بين الشمس ومغربها مثل الذي بينه وبين مقام سيد سراب، فشّجع نفسه على التجوال: في الوقت متسع لمشوار لابد منه. هذه المرة تبدو قاب قوسين او ادنى (اجتّك يا خلف اتخط برسنها) ليست كأحلام اليقظة التي شغلتني قبل اعوام..

توشك الريح ان تهب (ترس الشراع) ما معنى التحالف.مع الترك؟ التحالف مع الترك يعني..؟ يعني.. التحالف مع الترك! ولن يغفروا للانكليز ما فعلوا بهم.. بهذلوهم .. جعلوهم مضغة في الافواه ومضربا للامثال.. (چنهم طابور ترك شارد)، اللّه يرحمك يا حسين (اتراك أسرى امشگگه يا خاتها) وها قد حان الانتقام من الانگليز وكل ما هو انگليزي- ايه يا خلف (الماله اول ماله تالي) هاتوا مستنداتكم التركية.. عفارم عفارم! هنيئا لمن احتفظ بقصاصة ورق ممهورة من الترك.

لحسن الحظ.. احتفظت بكل اوراق ضرائب الديمة.

يحلو للسفيه حمزة قوله (موصهن واشرب ما يهن.. حتى اتروح منك دوخة الراس!) غشيم!! انظر هذه فائدة الاوراق التي احتفظت بها عشرات السنين. ولا اشك في اعتذاره وقوله: (يا بويه اشمدريني يفتر دولاب الفلك.. ويردّون الترك ؟!)

يا حضرة القومنسار.. القومندير القولچي اغاسي- هذه مستنداتي ممهورة بمهر (الصندوق اميني) ايام حكمكم العادل.. لكن الانگليز تواطأوا مع ابن مهلهل.. وهو انگليزي ابن انگليزي حتى الجد الثامن.. اما صلال الخبيث فهو انگليزي ابن انگليزي حتى الجد السابع عشر. ولو لم يكن

الامر كذلك لما منحهما الانگليزي مضخة لكل واحد منهما.. وكانت المضخة يومها بجناح نسر.. ميخالف ميخالف شيخ خلف. لا. حجي خلف. ولا حجي. ميخالف خلف. عفارم عفارم. عنفصلري.. اخذ ديمه مال انته هبسوير..

ديمتي بكل حدودها.. لقد مددوها. وكأنها (دالوچه) عجين بيد خبّازة ماهرة.. وسعوها الشياطين.. نصّبوا حمزة سركالا على نصفها الغربي وصار نصفها الشرقي يتبع سركلة ملا نعمة الشيء الردئ في هذه العملية انهم رحّلوا الملا الى طرف العلوة الشرقي وحرموني من شرب القهوة. اللّه يرحمك يا حسين. لن انسى ذلك اليوم وقد اجهدنا البحث عن فرس اشنين المسروقة.. واذكر اننا كنا بالقرب من الصويرة.. ولم نجد احداً في البيت.. قدم لنا الصبي طبقا يحوي خبزا وانائين في احدهما دبس وفي الآخر سمسم مقشور. تغامزنا لاندري كيف نغمس. اشار الى الصبي ان يقترب.. اجبره على مشاركتنا. ثلم الصبي لقمة وضعها في الدبس ثم قلبها على السمسم. اللّه يرحمك يا حسين لن انسى قوله للصبي:

- گوم گوم تعلمنا اشلون انغمس.. وهكذا فعلوا مع الحاج محمد. ترسخت اقدامهم وعرفوا السبيل فجاءوا بالچلبي وطردوا الحجي بلابوش حجّاج!

وماذا يهمك يا چلبي؟ اسمع يا چلبي. كنت شريكا لبيت مهلهل. منك المضخات ومنهم الارض- كنا نصيح ايام الطفولة: (ابو الدواب منك الحليب ومني الخبز) اسمع يا چلبي عادت لي ارضي.. ولا يهمك. ان كانت رقبتها مملوكة لفالح بن سعدون او خلف.. وانت يا ملا نعمه يا سركال المشروع

الجديد.. تبقى مكانك فقد اصبح المشروع ضمن ديمتي.. خذ ٢٠٪ سركله بدلا من عشرة.. انك تستحق اكثر من هذا. يا ريحة حسين. خذ (نص ملاچه) بلابوش سيارات.. ولابد ان تكون بلون سيارة ابن مهلهل ويقودها حمزة. لا. فرهود. لا حمزة. وعلي نذر ان تكون اول سفرة الى النجف وهي بجانبي: (ديري بالچ على فراش السيارة.. مرحوم والدچ چان ما شبعان من رچب المطايا..) وواحد مثل لوريهم الذي نقل الطعام وقال العنبري:(مال الگوم يترابد.. چنه احوار طارحينه للچوي!) وتساءل الفلاحون ان كانت (الكفه) تعطى لخليفه العنبري، فلأن طعام الشيوخ تنقله الابل.. اما وقد نقل الشيوخ حصتهم باللوري.. فلماذا يأخذون كفّة (العنبريه)؟ وقال الشيطان ملا علي:(ياهي مالتكم؟! جان ياخذها العنبري هسه ننطيها للفيترچي!)

لن آخذ من الفلاحين اية (كفّه) ولا رسوم ٥٪ . . ولابد من واحدة مثل التي استأجرها الچلبي لشق جدول مضخات العلوة.

وقال عنها سويلم الصگر : (مال البلابوش! كل لگمه تعادل ميتين شلةً مسحاه).

يقول السفيه موصهن واشرب مايهن!!

ويومها اقول له بلهجة أمر حازمة: تعال يا سفيه يا حمزة.. ما الذي تفيده من (النهوه)؟ اسمع كلامي.. وكف عن النهوه.. ياله من اجر عظيم عند اللّه، اطلق سراحها من سجن النهوه.. كنت اعرف مقاصدك يا حمزة.. انت طامع بالميراث حين يموت جوده وليس له وارث غير سكونة.. انت طامع في وسخ الدنيا. تف على وصخ الدنيا..

وتعال يا فرهود خذني لـ (جماعتك) الذين تتحدث عنهم: اهلا وسهلا ابو

فـرهـود (دويـات اشكـال وارنـاگك.. مـواچيل اشكـال وارنـاگك.. گول اشيوجعك؟).

اشويه ظهري.. ورجليّ توجعني.. ونومي بالليل موش راحه.. وصار شوفي موش مثل الاول.. ومن فضلك يا دختور تعال اشاورك- حتى لا يسمعنا هذا الشيطان فرهود- ها ها ها.. ميخالف ميخالف بسيطه!!

قبلّ حائط سيد سراب مرتين وخاطبه:

الآن حل الوفاء بالنذر.. اصبحت في وضع يمكنني من بناء مقامك.. سأبني لك قبة مثل قبة ابو الرايات.

تساءل خلف، بعد العشاء:

- لگيتوا اداعة الترك؟

اجابه حمزة:

- لگينا اذاعة محيرجه!!

* * *

قال فاضل لعمه، بمزاج رائق: اريد تقريرا شاملا عما جرى وما هو جار وما سيجري الى يوم يبعثون!

لقد مر وقت طويل لم نلتق فيه. وبالمناسبة، صرت اشتاق لرؤياك، وتلك حقيقة مرة، واذا جازت لي المبالغة فهي كارثة وطنية، وقد تصبح قومية! ويا للهول اذا تحولت الى كارثة انسانية..!!

شرع الملا يحدثه، بعد انخفاض موجة الضحك:

مع وصول اخبار المتظاهرين، الذين رشقوا سيارة عدنان مندرس بالبيض الفاسد والقاذورات، اثناء زيارته لبغداد، حدثت مظاهرة في الحي. وحوصرت سيارة الاقطاعي.. فتقدمت نحوها احدى المتظاهرات، وجللت الشيخ وسيارته بطبق رماد...

- جيد جدا..

ومع اذاعة نبأ كسر مصر لاحتكار السلاح، قرر اهالي الحي كسر احتكار التراب.. فشكلوا وفدا يحمل عريضة جماهيرية..

- بلا جماهيرية.. ارجوك !

عريضة وحسب، يطالبون المسؤولين بهدم السور، الذي يفصل المدينة عن اراضي الاقطاعي، ويحول بينهم وبين اخذ التراب لاغراض البناء..

- جيد ونص جدا..!

واكتشف الاطباء، ان شيخنا فالح بن سعدون مصاب بمرض القلب..

- اكتشاف خطير! كنت احسب ان القفص الصدري وتجويف البطن في اجسام هؤلاء تملأهما المعدة وحدها!

وبناء على نصح الاطباء، اكتفى الشيخ بممارسة مهامه الوطنية، كنائب في مجلس الامة، وترك امور المزرعة لولده (ضاري) وقد استهل نشاطه، وحقق اول انتصارته بترحيلي من تلك الدار، جوار بيت خلف، ثم صار يحرض الشرطة ضدي، ويتكرم من آن لآخر، فيرفع تقريرا شفويا لمعاون الشرطة عن نشاطي السياسي..

- بداية تبشر بالخير!!

وكان على ملا نعمة، ان يجعل باكورة نشاط ضاري، اول انتصارته- لو

يعلم- انتصاره الخاطف على (زينة) بنت كاتب الشيوخ.. حين دفعتها شقيقته، بتدبير محكم، لحمل طبق (المزّه) الى غرفته، وقد تصنّع وعكه خفيفة، منعته من مغادرة غرفة النوم.

ادركت زينة بعد فوات الاوان، واحكام الباب بقفله، انها وقعت في المصيدة . صحيح انها كانت تبادله النظرات الشرهة خلسة، لكن الاصح منه طموحها لجعل الزواج نهاية لتلك الرغبة، فكانت حذرة، تفر من حبائله، تغالب عواطفها للظفر بما هو ابقى. والآن (طاح الفاس بالراس) فقد ارتعدت مبدأ الامر.. جلست في مواجهته على كرسي وثير.. وبدافع تأجيل وقوع الزلزال رضيت بذلك الكأس المليء بالسائل الاشقر، عله يمنع حدوث الزلزال. شربت في ثوان ما ينبغي شربه خلال ساعة. تهاوت بين يديه. نزعت قناع الزيف، فبدت محُبة ولهانة، اكثر مما هو. هدهدها بوعود خلاّبة فسلمته الشيء الذي حلمت بتسليمه ليلة (الزفه) مع زغاريد (الحبايب والگرايب) ودوي اطلاق الرصاص وقرع ((الدنابك)).

اما جدك خلف فقد استقطب آماله واحلامه حلف بغداد: كاد يطير فرحا يوم علمه بتحالف نوري السعيد مع (الترك) على اساس ان الترك- اذا ما رجعوا لحكم العراق- يلغون جميع التشريعات التي اصدرها الانگليز واعوانهم، وتبعا لذلك تعود له (الديمة) التي اغتصبها ابن مهلهل (الذهب التيزاب!). ضحك فاضل بشدة، وخبّط على ركبته، ثم هتف بطريقته المعهودة، حين يصفو مزاجه:

- مدهش. رائع. مزعج رائق. بديع شنيع. مذيع رقيع....

واتبع ذلك بصيحة موجهة الى زوجة عمه:

– الغدا. الغدا. بالعجل الغدا، حتى امشي لبيت خلف.. احچي له عن الترك.. واعلمه اشچم حچايه تركيه!!

التفت الى عمه وتساءل: وماذا بعد هذا يا خليفة المسلمين؟ اتحفنا بما عندك..

اجابه الملا: هذه اهم الاحداث التي جرت وتجري اليوم...

اقام فاضل ظهره، ورفع رأسه بميل، ثم تساءل: اذا كنت تسمي هذه احداثا، فما هو الاسم المناسب الذي تختاره لانعقاد مؤتمر باندونغ وتأميم قناة السويس واعدام آل روزنبرغ بالولايات المتحدة الامريكية، واسقاط الجنسية عن توفيق منير وكامل قزانچي، وارتفاع سمعة جيش التحرير الجزائري.. وهجوم الانصار على قاعدة ديان بيانفو.. ونشوء جمهورية فيتنام الديمقراطية، بقيادة هوشي منه– وما اروعها انشودة شعبية نرددها ساعة صفو المزاج وتبادل الانخاب..

ونقر فاضل بأصابعه على علبة السكاير، ثم نغّم الانشودة:

انچان اتريد عيشة فرطنه
وشكّه سعيّه ومرننه
اتحزّم مثل هوشي منه
واطرد حرامي بيتك

رفع كفيه عن علبة السكاير وخبط على صدره، مرددا المقطع الاخير، على ايقاع (لطمية) نسوية مألوفة (واطرد حرامي بيتك.. واطرد حرامي بيتك)

ضحك الملا مبتهجا، ثم اخرج قلما وورقة، وراح يكتب الانشودة..

قال فاضل بعد ان فرغ الملا: قطعت عليّ سلسلة (سرد) احداث العالم، وما كان ينبغي (حدوث) هذا الامر.. ولكن لابأس، أضف الى ما سبق حدثين هامين، الاول، كتابتي لقصة قصيرة جدا.. ورائعة جدا، عنوانها، حامل اختام الملكة.. ونظمي لقصيدة ليست طويلة جدا ولا قصيرة جدا ولكنها فاخرة جدا جدا!! اما الحدث الثاني فهو انتساب (الاخ) كامل للحزب الشيوعي العراقي، ومذ تسلم اشعار القبول في الحزب، صار يخاطبني وكأنه يكبرني بواحد وخمسين عاما ونصف! بلابوش دنيا!!

بوغت ملا نعمة بهذا التصريح، وقاطعه متسائلا: وماذا تكون انت؟ حسبتك عضوا في الحزب منذ سنوات.. اما الآن فقد تكشفت عن شيء آخر، غريب الى حد ما، تبدو وكأنك تسخر من كامل..؟

اجاب فاضل مبتسما: لا تدفع الامور الى حافة الهاوية، ولا تقصر الالوان في العالم الى (ابيض صاجل واسود حنچوچي!) وهما ليسا بلونين، على اية حال!، حذار من التسرع واطلاق التسميات الجاهزة. كل ما في الامر انني لا اطيق التنظيم الحزبي. ولكي اعفيك وتعفيني من (السين والجيم) انا اكره كل قيد يحد من حريتي، وباختصار، وهذا من اجل راحتك، كي لا يرهقك التفكير، وتتعبك التخريجات، انا اقبل من الشيوعية كل شيء.. الا الضبط الفولاذي والدسبلن!)...

انصرف الملا الى نفسه: يقول انه حر، لقد صدق المرحوم في قوله.. ومن واتته البراعة أوهم الناس بأنه كان مهاجما وليس هاربا.. ما عقدّ الدنيا الا الكذب. انه حر!. هل حقا هو حر يا ايها الحر الرياحي؟ انت وحدك الحر،

وقد انطبق الاسم على المسمى، وفي لحظة الاختيار كنت حرا فآثرت الموت مع الحسين وتركت جيش يزيد. وهذه هي الحرية الحقيقية.. يا ايها الحر. اين حريتك المزعومة؟ شرب كأسه وانتشى واعجبه ان يحاكي احد الوعاظ الذي يذيع احاديثه من راديو بغداد. فتصدى له متدين متعصب وادمى وجهه. وسمع الملك يقول: شعبي العزيز فأختار ان (يعفط) للملك.. وكان ثمن العفطة ثلاثة ايام في التوقيف وشفاعة من صديقه المقاول عند صديق متنفذ... ويقول انه حر...

سحب الشرطي ربطة عنقه الحمراء: يا احمر!! وقاده الى المركز ومع ذلك فهو حر.. ما عقدّ الدنيا الا الكذب.. ومن واتته البراعة. بأي جانب من جوانب هذه الحرية تتمسك يا سيد حر؟! قالوا انه لا يقتني الا الحمام الابيض. لابد انه من انصار السلام. وذبحوا حمامات السيد الحر!

بدأ فاضل يتلاعب بالالفاظ، ويعبث بمخارج الحروف، بطريقة كاريكاتورية، ليغير وجهة الحديث، بعيدا عن الجد. قال كلمات غريبة، اكثرها غير مفهوم.. ثم توقف فجأة وتسائل:

ماذا اردت ان اقول؟ اردت ان اقول: وبأعتباري فنانا، فالحرية للفنان- حتى فنان (اللنگات) كالماء للسمكة. وفي رواية اخرى، كالماء (للشبوط). ويذهب بعضهم الى ان الصحيح كالشبوط في الماء!! ويقال والعهدة على من قال وتقوّل كالشبوط في النهر او النهر يضم شبوطا . و (الاخ) كامل يصوغها على هذا النحو: المناضل الثوري والجماهير كالسمكة والماء، لايمكنه ان يعيش ويعمل خارج صفوف الجماهير.. بلابوش دنيا!

قهقه عاليا وقرّب كفيه من وجهه بموازاة انفه وصفق مرددا!

- هيا الى خلف..
الى خلف بالتركي..
يحيا خلف بالتركي..
يسقط خلف بالتركي!!

تهامس خدم القصر وحراسه، وقد تزاحموا خلف الباب الموارب، ورؤسهم مثل عنقود عنب تفرط اكثره:

- هكذا؟ كلما استبد به الطرب فعل مثل هذا؟..

- ابدا.

- ويخالف نصح الاطباء.. ألم يحرموا عليه الافراط في الشرب والاجهاد العضلي؟

- انظر. الا يفوقها في تحريك الردفين وارتجافة السرة؟

- هذا مع كاولية مبتذلة فما الذي يفعله مع بنات الهوى في بغداد؟.

- طيلة خدمتي في القصر لم اره هكذا ولا مرة واحدة.

- ينطبق عليه المأثور (مثل الگطينه كلما تكبر اتخف)

* * *

- اس.. ولك!

- حگ وياه.. لو آنه بمچانه هم چان ركصت وي المنعولة الوالدين الحلوه..

- ولك انته ياهو وتحط روحك وي الاوادم.

- عدّوا الولايات وعدوا خرنابات!

- مثل الخنفسانه جابو الخيل ينعلونها مدت رجلها..

- اشمالك مثل ام حذّوني؟!

اطبق الشيخ فالح بن سعدون السبابتين وحركهما

- اسمع واللّه ايدگ اصبع حسبالك مطر اللوز!

- اس!

هتف الشيخ.. متقطع الانفاس:

- ولك داود اترس لي بيك.

خلص نفسه من مخاصرتها. وقف عنها مبعدة ذراعين هز جذعه على ايقاع سريع. تعمد قارع الدنبك ان يطيله. افرغ الكأس في جوفه دفعة واحدة:

- انوب، انوب، بيك..

* * *

- لبيك عبدك بين اديك
- اس. استغفر اللّه.
- متديّن..
- ابن النعال صاير متديّن..
- ترا اروح اگل للشيخ امتيه القصر.. وجاعد يتنوّع للكاوليه
- خايب اكل تبن.. چا اشعليه القصر.. اشحدّه اليتجاسر ويوصل للسور.
- چا ليش يطوّنك معاش، وامعينينك حارس؟
- ما يفتهمون!! مثلك..
- اس. كلشي ولا هذا الشغا!

كان ضاري يتخذ غرفة المطعم مجلسا له، يشرب بهدوء، خلافا لوالده، الذي اجهد نفسه في الرقص وافرط في الشرب.

صاح الشيخ:

- ولك داود شوف لي لندن.. شوف لي الاخبار شوف اخبار لنده.

*   *   *

- هز لندن ضاري وبچاها..
- اللّه يرحمك يا حسين..
- اشنفعه فهمه وشعره؟
- اشلون خايب!؟
- حتى ماراح الشيخ لفاتحته..
- طاح حظك.. چا هاي بيها عيب عليه؟
- چا اشلون؟
- ولك.. الحسين ذاك ابن رسول اللّه ظل مطروح مدري اشچم يوم محد غسلّه.. كون هم بيها عيب على الحسين..
- استخفر اللّه. استخفر اللّه- هاي وين ذيچ وين!
- خايب موش اگلك انته سليت.. ما عرفت مگصدي..

*   *   *

دخل داود يحمل كأسا واوجز تقريره:

- محفوظ اتگول لنده بعد شي قليل وتسقط مصر!

صفق الشيخ فالح، امال جذعه جانبا. اشار للكاولية ان تفعل مثله ردد بأيقاع، ذكرّ المتلصصين بصوت المضخة العتيقة:

- هچع هچع. طاح ووگع. مال الوجع هچع.. الگاع. الگاع!

*   *   *

- انا اخوك.. گامت تعلس بجلالها المهلوبه!
- اس!

- خوش عرب!
- ياهي مالتك؟
- طلع صهيوني اصلي..
- إكل تبن..
- تاكل تبن انته وابوك!
- ترا اصيح امتيه القصر وجاعد اهناه..
- هيه شنهي كشمره؟ طيحان حظ!

*　　　*　　　*

اردف داود ليمزج الفرحة بدعابة:

- وتاليها ايصير حكم عبد الناصر مثل شيخة امعيجل.. يوم وضحويه!

ضحك الشيخ حتى اختل توازنه. ارتمى على الكرسي. احتقنت شرايين رقبته، ثم طلب اعادة النكتة.

*　　　*　　　*

- عوينت ابيّك ذاك ابو المطايا
- لا يسمعنا احد..
- متن معيجن!! ابن السليت..
- اس!

ابو اللگم.. ابو الـ.. اللّه ينعل الشيطان.

*　　　*　　　*

استراح عازف الربابه. وضعها قارع الدنبك جانبا..

صاح عازف الرباب:

- العطش العطش..

صاح الشيخ فالح:

- ويسكي.. جبا على احساب عبد الناصر.

شربوا كؤوسهم دفعة واحدة.

*　　*　　*

- لا يا مناعيل والدين..

- هذوله اشعليهم

- بهيج ليله..

- خايب لا اتساوج.. همّه اشعليهم.. إن شرّكت وان غرّبت.. عسى تغرك عسى تحترج.. ايريدون يگضون ليلتهم ويمشون..

- ما تحچي على شيخك الطلع صهيوني

- لا تلوّص!

*　　*　　*

كان مقدرا لجوق الكاولية ان يحيي الليلة حفلة عرس. لكن الشيخ اجبر داود على ان يأتيه بكاولية من السماء اذا تعذر وجودها على الارض: انها ليلة ولا كل الليالي.. ازف موعد سحق الجمهورية المصرية. اقتحمتها قوات بريطانيا وفرنسا واسرائيل: في الحق لم اكن اعرف خطرها الى هذا الحد. لكن الباشا وهو العالم العليم لخص القضية بعبارة واحدة (الباب اليجيك منه ريح سدّه واستريح).

امر الشيخ بمعاودة الرقص- قال لعازف الربابة:

- الليلة راوينا شطارتك.. الليلة ليلة..

والتفت الى (الدنبكچي) وقال:

- ولك ما تدري الليلة اشلون ليلة.. شكو عندك شطاره اطلعها!

تحركت اصابع الكاولي بخفة ورشاقة، ليس لأنها (الليلة ليلة) ليلة قصف مدينة بورسعيد.

اصابعه اعتادت الحركة هكذا.. وغدت تداعب الآلة الموسيقية على نحو ميكانيكي.. كما تتحرك عضلات المعدة تمددا وانقباضا.. زوجته تخاصر الشيخ. يرتطم كرشه ببطنها.. يجهل اين تكون بورسعيد ولماذا تضرب.. يضمها الشيخ بقوة.. اوشك ان يسبب لها ارتباكا في انتظام الخطوات.. لا شهادة مولد ولا جواز سفر في جيبه. دغدغت الشيخ تحت ابطه.. نظر الى زوجته دون اثر للغيرة في عينيه.. ادرك عازف الربابة غمزة صاحبه. فهمت زوجته ماذا اراد بطرفة العين..

* * *

- يا منعول والدين كون احط اصابعك بين الهاون وايده..

- خايب هذولة ياهي مالتهم..

تراخت عضلات الشيخ . لم يعد بوسعه الرقص وقوفا- جلس مكتفيا بهز الكتفين.

همس ضاري ثانية بأذن داود:

- خايب ما اتدير له حتى يسكر وينام.. الليلة اتخبّل اذا ما الگفها هالمنعولة الوالدين.

* * *

اثرت في اهل العلوة كآبة ملا نعمة. شاركوه الاصغاء باهتمام لنشرات

الاخبار. لم يره سويلم الصگر باكيا هكذا: مرة واحدة فقط، يوم رجع من كركوك.. استقبله ابوه صارخا (وين ناصر ينعمه؟) اجهش بالبكاء دقائق معدودات، ثم تغلب على ضعفه.

قال كزار الصگر:

- يا ابو سعد.. لا تاذي روحك. اشصار بيك؟ بموتة مرحوم ناصر ما بچيت هيچ.. امّك وابوك ماتوا ما بچيت عليهم..

قال ملا نعمة بصوت متهدج:

- ناصر شخص واحد وانكتل بيومه، امي وابوي گضوا وطرهم بالدنيا وماتوا. لكن يا كزار هذا شعب كلهّ امعرض للموت.. تدري الليلة اشلون ليلة.. الرشاشات تحصد بشعب مصر ازغار اكبار.. مثل حصاد المناجل بالشعير. الهضم يا اكزار الهضم.. والشماته ما تنحمل.. اسمع اذاعة بغداد اشلون اتغني البوصطچيه!!

* * *

ارادها الشيخ فالح بن سعدون المهلهل افراحا مستمرة تتوج بحفل ضخم، اذا سقطت جمهورية مصر: بشارة يسيل لها اللعاب اذا جئتني بالخبر يا داود. كان الشيخ لا يطيق سماع نشرات الاخبار كاملة. رجع داود مقطب الحاجبين، تنضح الخيبة من زوايا شفتيه ومايلي الجفنين:

- هاولك؟

- انلاصت امحفوظ!

- اشلون ولك؟

- السوفيتي..

- اشبيه الچبيحي؟

- السوفيتي انذر. گال ترا اضرب لنده بالصواريخ يو تطلعون عن مصر!

- لا هلا ولا مرحبا .. حط روحه بالطلابه!

- حط روحه وانلاصت!

- انلاصت من صدگك.. وروح مهلهل!!

*　　　*　　　*

هرول فرحان بن سويلم الصگر ليبلغ دعوة عاجلة لآل خلف وحمود بن شنين. وتأكيد من ملا نعمة: ان يجلب حمود معه (الدنبك).

اشتهر حمود بميله لحضور مناسبات الفرح، ولا يتحّرج من اصطحاب دنبكه، ولحظة ينتشي حمود ويبلغ الفرح منه حدا معينا، يقف على رجل واحدة. يحصر الدنبك بين الركبة والساق من الرجل المرفوعة ويخبط عليها بسرعة عجيبه وايقاع يقول عنه خلف (ايكوّم المكسور) ويتحتم على الجالسين مراقبته، فقد يبلغ به الطرب الى الحد الذي يمسك الدنبك بيده ويهشمها على رأسه.

عجب حمزة من الدعوة المفاجئة، المقرونة بطلب الدنبك ودعوة مطشر بن حمزة.

قال فرهود لأخيه:

- يمكن عرفت سببها..

*　　　*　　　*

وجدوا الربعة تغص بالمدعوين. تدور فناجين القهوة بلا انقطاع. وقواري

الشاي لا ترفع عن الوجاغ، الا ليجدد تخدير الشاي.

علائم البشر تطفح على وجه ملا نعمة.. تحرر من وقاره المعهود، خلع العقال واليشماغ .. عرفوا المناسبة. انها مناسبة اندحار العدوان الثلاثي بعد الانذار السوفيتي .. سأل الملا حمودا:

- تعرف دكّة صد وصحت ياستّار؟

حرك حمود رأسه ايجابا، فيما كان يرقّق الدنبك من وسطه بأصبع رطب .. نقر عليه . استعذب صوته . خبط بقوة .. استقام الايقاع.

طلب الملا ان يردد المدعوون لازمة (المربع).

- صد وصحت ياستار-

تناغم التصفيق مع الترديد مكملا ايقاع الدنبك. انشد ملا نعمة:

والمعتدي صار افرار   لمن سمع بيها انذار

صد وصحت ياستّار

اتقن الحاضرون ترديد المطلع الجديد. انتشى حمود بن شنين. وقف على رجل واحدة. اخذ الملا يتلو قصيدته الجديدة مستوحاة من الانذار السوفيتي. تلفت حمزة الى كل جانب. اطمأن تماما، ليس بين الحاضرين واش ولا نمام يسعى الى شيوخ . امسك عصاه من وسطها وخطر راقصاً وسط الديوان. ثم قال للملا:

- لو تدري الشايب اشكال..

واشار بأبهامه من وراء ظهره ناحية الشيوخ:

- لمن كالوله جايين كاوليه.. فرحانين بضرب مصر.. حچى أشكال وارناگك.. من هذا اليعجبك!

* * *

ارغى الشيخ فالح بن سعدون وازبد . مهددا متوعدا ملا نعمة.. ذكّره ملا علي، كاتب الشيوخ، بوصايا الطبيب: لا يرهق اعصابه.. لا يتعب جسمه.. لا يشغل ذهنه:

- محفوظ لا اتخالف امر الطبيب.. وهاي الحسبة كلش بسيطة .. يتكلفها ضاري اللّه يحفظه.. كل المسؤولين باللوا وبالقضا جماعته.. هسه اتشوف اشلون ايأدبه وينتقم من جماعته.

* * *

وجد الملا ضرورة لأطلاع فاضل على ما يتعرض له من متاعب. فكانت سفرة كزار الى بغداد فرصة مواتية لتحميله الرسالة، مع التأكيد على سريتها.

استهل الرسالة بمقدمة شاملة.. اشار الى رد فعل خيبة الحكومة بعد فشل العدوان الثلاثي.. حتى هبّت (جماهير) الحي. اجتهد الملا في البحث عن عبارات بديلة عن (المد الجماهيري) و (المد الثوري): قال بلا جماهير، ومرة (دخيل اللّه ودخيلكم عبارات اخرى غيرهاالكلايش) ما هو البديل الذي تقترحه؟ لست معنيا بالبحث عن بديل. يتعين عليكم ايجاد عبارات ارق!. نحن لا نجدها ثقيلة على الاسماع . اما انا احسها اثقل من جبل حمرين ! (ايطبّك مرض). (ايطبكم مرض!) وانت ممن تكون؟ منكم ولكن متحرر من الكلائش!

تعمد ملا نعمة ان لا يظهر في الاحداث، في رسالته وكأنه مؤرخ رصد الحوادث بعد خمسين عاما:

.... حتى هبت جماهير الحي تشارك الشعب مظاهراته واضراباته، وتتالت في الحي الاضرابات والمظاهرات والاجتماعات (الجماهيرية) وكانت الحكومة والاقطاعيون يتحينون الفرص لضرب المدينة والانتقام منها.

عمدت الحكومة الى خطف بعض الوطنيين واعتقال البعض الآخر عند سفرهم خارج المدينة. في ليلة ١٧- ١٢ جيء الى المدينة، تحت جنح الظلام بقوات اضافية، عندئذ انكشف للأهلين ان ثمة خطة لعدوان مدبر. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة بدأت السلطة تحرشاتها، فراحت تنتهك حرمات الدور، تعتقل وتعتدي على النساء والرجال. هاجمت احدى الدور مستعملة الرشاشات لفتح بابها، فاستيقظ سكان المحلة وذعر الاطفال...

اعلنت المدينة اضرابها مشاركة لأضراب البلاد العربية الاحتجاجي على محاكمة القادة الوطنيين من قبل حكومة نوري السعيد. ومنذ الفجر كانت قوات السلطة قد احتلت سوق المدينة ومناطقها الهامة وشرعت ترغم الاهالي على فتح حوانيتهم. ولكنها اخفقت فدفعها الحقد الى القيام بحملة اعتقالات جنونية مما ادى الى اعلان الاضراب ثانية احتجاجا على فظاظة الشرطة وارهابها وكثرة الاعتقالات.

استمرت السلطة في حملة الاعتقالات مستعملة الرشاشات والبنادق لارهاب (الجماهير).

وهاجمت احد المواطنين بالرصاص لاعتقاله فأضطر الى الدفاع عن نفسه ومساندته (الجماهير) وحدث اشتباك مع الشرطة دام ١٥ دقيقة. سقط احد الجرحى فهبت المدينة كلها تتظاهر واستمرت المظاهرات الى ما

بعد العشاء.. في تلك الليلة، وبعد محاولات الشرطة اقتحام المدينة، سهر الاهالي ونظموا فرقا للحراسة.

في صباح اليوم التالي طوقت المدينة قوات كبيرة معها ستة مدافع هاون وعشرات الرشاشات والسيارات المسلحة وسيارات الاسعاف. وشوهدت القوات تتدرب على كيفية الهجوم والتراجع والاختباء، واقامت بعض المتاريس في اماكن هامة.

حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا ارسل ممثلو السلطة في طلب عدد من وجوه المدينة للمفاوضة معهم .. نحو العاشرة والربع عاد الوفد يحمل انذار الحكومة للمدينة: (بوجوب تسليم ٤٠ شخصا في موعد اقصاه الساعة الحادية عشرة قبل الظهر! وعدم التعرض للشرطة التي ستدخل الى السوق وترابط فيه وتعتقل من تريد. والا فان المتصرف سيضرب المدينة).

لم يعين المتصرف من هم الاربعون شخصا واكتفى بالقول (المدينة تعرفهم) .. وهكذا اتضحت خيوط المؤامرة.. ومع ذلك طلبت (الجماهير) ان يعود الوفد الى المتصرف ليستمهله حتى المساء او صباح اليوم التالي. ولكن قوات السلطة منعت الوفد. حاول الوفد ان يسلك طرقا اخرى فلم يفلح. كانت الشرطة تحتل مسالك المدينة .. اخيرا اعتقل اعضاء الوفد فتجلى بوضوح تام ما تريده حكومة نوري السعيد. وصح ما قيل عن وزير داخليته، (سعيد قزاز) انه جاهر امام عدد من مرؤوسيه (حي مالازم).

اندفعت (الجماهير) العزلاء، وعلى عجل تهيء بحماس وتصميم اسباب الدفاع عن نفسها .. وقالت سنجعل من الحي بور سعيد ثانية.

حوالي الظهر زحفت قوات السلطة من كل جانب لاحتلال المدينة وهي تطلق سيلا من النيران، انطلقت ثماني قذائف من المدافع.. بدأت المعركة. المقاومون يردون موجات الهجوم، الف وخمسمائة شرطي مهاجم.. كانت المدافع والرشاشات والبنادق تصب حممها حتى تهدمت عدة اركان من السوق.. طوال النهار والليل كانت المعارك مستمرة.. تزداد شدة وضراوة.. استعملت قوات السلطة في تلك الليلة القنابل المضيئة لكشف مراكز المقاومة ورميها بالمدافع والرشاشات.. تمكنت قوات السلطة بعد ذلك ان تحتل الدور واحدة بعد اخرى.. حتى احاطت بمناطق المقاومة وراحت تصليها بنار حامية.

في احدى مناطق المقاومة، مثلا، لم تبق سوى امرأة ابت الاستسلام للقوات المحاصرة. وكانت ترمي الشرطة بالطابوق.. اخيرا اصابتها صلية رشاش فسقطت مغشيا عليها في بركة من دماء .. وجرها الوحوش السعيديون جريحة الى الموقف دون تضميد.

قبيل الفجر وجد المقاومون انفسهم تحت سيل النيران مباشرة وامست ظروفهم صعبة للغاية.. بعد نفاد عتادهم..

ولم يتحرك جدك خلف فيوجه انذاره الى المعتدين بالخروج من مدينة الحي، كما فعل السوفيت.

وهكذا انتهت مقاومتهم البطولية.

انطلق الوحوش في المدينة يهوسون (كلنا لك سلّم صهيوني!!)

ويطلقون النيران في كل اتجاه، ويهاجمون البيوت ويعتقلون.. حتى بلغ عدد المعتقلين في تلك الايام اكثر من الف مواطن. كما راح الوحوش ينهبون

السوق. والبيوت والناس المعتقلين.. وفتشت الدور، بعضها فتش خمس مرات.. حفروا غرف المنازل هدموا السقوف نزحوا المراحيض والبالوعات، استعملوا جهازا خاصا للبحث عن مخازن الاسلحة والقنابل المزعومة.

اجهضت حوالي السبعين امرأة..

دخلت القوات على المواطن الجريح حميد فرحان هنون وكان مصابا بجراح قاتلة، فضربه معاون الشرطة وداس على رأسه بحذائه حتى لفظ انفاسه الاخيرة..

وطيلة ايام المقاومة.. وما بعدها، كان الاقطاعيون يقيمون الولائم ووزعوا الاف الدنانير على قادة وافراد القوة تشجيعا لهم على الفتك والنهب وابتهاجا بالنصر..

استمرت المدينة مضربة ثلاثة ايام بعد انتهاء المقاومة. فأنذرت الحكومة بحرق السوق اذا لم تفتح الدكاكين ابوابها.. وطالبت بتسليم الجرحى والمختفين، مهددة بان من يعثر في بيته على احد المختفين تحرق داره وتغتصب نساؤه.. وانذرت مئتين وخمسين عائلة من اكراد الحي بوجوب مغادرة البلاد خلال شهر ونصف وسفرت الى ايران احدى عشر عائلة.

كان عليّ ان اصف دعوة الشيخ ضاري لهيئة المجلس العرفي التي جاءت الى الكوت.. واصف رقص الكاوليات والسكر والعربدة. لكنني امتنع عن ذلك لجلال الموقف.

اصدر المجلس حكمه على ٢٢ مواطنا بالحبس الشديد لمدة مجموعها ٢٤٠ سنة ووزع ٢٠٠ سنة على ٦٠ مواطنا وظل العشرات رهن التوقيف.

وفي ٢٨-١٢-١٩٥٦ انتقل المجلس العرفي الى سجن الكوت. ودخل على

السجينين علي الشيخ حمود وعطا الدباس، اشخاص وجهوا اليهما بعض الاسئلة، دون ان يكشفوا هوياتهم.

وفي ٢٩-١٢ بلغ مأمور السجن، لاغيره، السجينين بالحكم عليهما بالاعدام.. حينذاك عرفا ان تلك الاسئلة التي وجهها المجهولون، كانت محاكمة!

واستمر حكام حلف بغداد يصبون على السجينين المقيدين المحكومين بالموت، كل ما تحمله قلوبهم من حقد وضغينة. وبلغ من فظاعة التعذيب الذي لقيه المناضل عطا مهدي الدباس انه لفظ انفاسه الاخيرة وهو في سيارة السجن، في الطريق الى ساحة الاعدام، فشنقوه ميتا.

اما المناضل الشهيد علي الشيخ حمود فقد نقل مع رفيقه يوم ١٠-١-٩٥٧ الى حيث نصبت المشنقة في ساحة (الصفاه) وسط الحي وتحت ظلال المشنقة راح ينشد:

الشعب ما مات يوما وانه لن يموتا

ان فاته اليوم نصر ففي غد لن يفوتا

وبعد ذلك النشيد اجال بصره في مدينته وخاطب اهلها (عشت ثوريا وبقيت ثوريا ولو عدت للحياة لما رضيت الا ان اكون ثوريا). ثم اشار الى المشنقة وقال (لئن تمكنوا من اجسادنا وشنقونا فهيهات ان يشنقوا الفكر الذي اعتنقناه..)

وقال مهوال في احدى المناسبات التي اعقبت اعدام الشهيد:

احنا اولاد واسط ما نريد اشهود

تكول الناس عنّا لو حچينا ابزود

من ينشگك لحدي انوب المبدأ هذا اتمسك بيه.

وانني خجل حتى من وصف جريمة الاقطاعيين:

لقد نبشوا قبر الشهيدين- كان مقام سعيد بن جبير قرب الحي، المحل المفضل للمهرجانات والاحتفالات.. ولذا اوصى الشهيد علي ان يدفن هو ورفيقه في ذلك المكان.. فلم يرع الاقطاعيون حرمة الاموات.

بعثوا زبانيتهم فنبشوا القبر واخرجوا الجثتين..

يا فاضل اني اعيش مع نباشي القبور... اتفهم هذا.. والخلاصة.. لقد استضفت ثلاثة من المختفين.. ويبدو أن كلاب الشيوخ، البوليسية، قد تشممت آثارهم واوصلت الخبر للشيخ ضاري، ولحسن حظي وحظ الجماعة ان الشيخ كلم مدير الشرطة حول المسألة في ساعة سكر وانشراح.. تسنى خلالها لاحد خدام القصر ان يسترق السمع ويبلغني في الوقت المناسب فنقلت الاصدقاء الى محل مأمون وابعدت بندقيتي، و (نظفت) البيت من الكتب ولم يطل الانتظار فقد شرّفوا، ولم يعثروا على شيء. لكنني مع ذلك (اكلت المقسوم) وامضيت اياما في التوقيف. ولم اغادره الا يوم امس الاول (والحچي بيناتنا) ابتعد عني معظم الفلاحين، وامتنعوا حتى عن شرب القهوة في ربعتي.. بلّغ (الاخ) كامل هذه الملاحظة (للمعلومات) فقط، وعطفا على حوارنا (اياه). اخيرا ادعو لي ربك بالفرج القريب، فدعوتك مستجابة ولاشك. (عمك عمك- حب لحيّة عمك).

* * *

بسم اللّه الرحمن الرحيم. من امير المؤمنين ابو الفضل مسلح الدين

الواسطي.

الى عامله على ولاية البترا وضيعة العلوة ودسكرة مويلحة وديمة خلف، ملا نعمة بن حسين المنتسب لعشائر السياح.

اما بعد. احمد اللّه على ان ولأنّي امرك واودع الامين سرك. لقد اجتمع مجلس الشورى المنعقد ليلة امس برئاستي وعضوية (الاخ) كامل، وأمة اللّه نعناعة بنت صگر التي هي في الوقت عينه ونفسه وذاته امي الحنون.

واستقر الرأي على الآتي: خلاصته، يدك في الكتاب ورجلك في الركاب. اما تفاصيله فهي:

(گلي يرحم اهلك انته گاطع مهر على البترا؟)) الا يسعك مكان غيرها؟

(ثانية وبعد- ولو انته ما دارس مدارس- لكن تفتهم، (منطرف الگمگم) قدم له الاعتذار. وخذ اجازة مرضية من دخان البعرور و (چانون المطّال).

ياسيدي (بغير تعلوم لك) تبيع الهوايش والطعامات. اما البندقية فأعرف مبلغ حبك لها، وكذلك فرسك (السبوگ) بوسعك ان تودعهما عند اخوالي بيت صگر. هذا كل ما في الامر. فلا تعقد المسألة.. (انعل ابو السركله لا ابو نص السراكيل حشاك) اقدم الينا يا ابن حسين، فأن الثمار قد اينعت، وقد امنت لك (عمل محترم) عند صديق (خوش ولد.. مثلك ولا ينوف عليك)، (هم وطنچي حيل حيل) اظنك تعرفه، هو صديقي المقاول شوكة بغدادي. اما نوع العمل فهو (تگدر اتسميه سركله، بس على عمال موعلى فلح) وعلى اية حال فالاخ كامل مؤمن بتحالف العمال والفلاحين. ولو انه اصيب بخيبة امل حين قرأ رسالتك، وملاحظتك الموجهة له!!

ليس ثمة ما يحملني على الاعتقاد بأنك تملك حجة واحدة للمماطلة في

الرحيل. ولمدة اسبوع واحد اذا لم تأت (بالحمل والزمل) نضطر كامل وانا للمجيء، وان كنا نفضل عدم المجيء في هذا الجو المسموم.

تحياتنا للجميع وفي الطليعة منهم الجد خلف (بلابوش دنيا.!).

فوجئ ملا نعمة بالعرض الذي يحمل كل اسباب قبوله. اضناه التفكير بما سيقال عنه: اوقف مرة واحدة فهرب. ترك اولئك الذين ورطهم:

اذهب انت وربك وقاتلا (حبلها وذبها الگيلاني) ويتطاوس القرد داود: (يابه شفت اشلون.. يعني احتلها لچنا قلعه.. قشمرهم) ويجيبه الذبابة القذرة: (معلوم راد يگضي شغل بروسهم) ولكن ايها البائع قلمه وعرضه من قال لك اني هارب؟ من قال اني رفعت الراية البيضاء؟ العراق كله ساحة نضال. (ها هاء ها.. يعني حبلها وذبها الگيلاني.. گل له للسفيه فرهود) ارادكم جسرا فلما اجتازته قافلته احرق الجسور. (ها يابه داود، الأخ راح يناضل ابغداد يضرب باميا) ولم لا اناضل؟ التحول من خندق الى خندق ليس هزيمة يا (ابو گرون).. (ها يابه.. عبيد.. الاخ سواها افلح من غبش.. قشمرهم ما اتگلله لعوده الكبر وحمود بن شنين) اعرف نفسك القصير يا عوده ولا استبعد ان تقولها. اذا هرب كل مناضل من موقعه عند اول زخة رصاص ستخلو المواقع حتما. لا تتعجل. فالعراق كله ساحة نضال. ولكن يتعين عليه الانتظار طويلا حتى يألف المكان ويعرف مشاكل الناس، وهذا تجميد لنشاطه وهذا ما يريده العدو. هذا حق. ولكن اليس وقوعه في اسر العدو سببا كافيا لتحوله من خندق لآخر؟ قد يصبح هذا مبررا لكل من تعرض لصعوبة.. وقد تكون سابقة. كل من واجه صعوبة قال ابعدوني عن موقعي كي لا اقع في الاسر. لكنني لم اطلب هذا. وما

الفرق؟ قبلت اول عرض للهزيمة. ليست هزيمة. هذا من وجهة نظرك. حسن فليكن. لست عدو نفسي- واثق من نفسي. لن ابحث عن ثغرة، لن اسلط الضوء على ما هو سلبي واتجاوز كل ما هو ايجابي. قالوا له تحذر ها هو الخنزير مقبل. اركض واجلب بندقيتك قال لهم لن اركض سيقول الخنزير هرب من طريقي. ولكنك يا صديق الخنزير تركض لكي تأتي بالبندقية وتجندل الخنزير. لست هاربا وليقولوا ما يقولون.

* * *

امر الشيخ ضاري، ان يبحث الكاتب جميع اوراق السلف الزراعية، عله يجد ورقة موقعة من ملا نعمة، ليحول دون رحيله بموجب قانون حقوق وواجبات الزراع. كان الشيخ عكر المزاج فقطع على نفسه عهدا امام جمع كبير من رواد القصر: (بشرفي ما اخليه ايشيل سلامات)..

اعتكف الكاتب يومين. لم يعثر على ورقة منسية. والى هذا كان يخالف الشيخ رأيه، راغبا في التخلص من ملا نعمة بأي ثمن: كيف السبيل الى اقناعك يا ضاري- يا من تحولت من حمل وديع الى خنزير برّي. قال السيد علي اللّه يرحمه: ان من بين اسباب تحريم لحم الخنزير على المسلم كونه يورث من يأكل لحمه بعض طباعه. وانه لولوع بأكل اللحوم المعلبة ويقال، ان اكثرها لحوم خنازير. واحسب انه يبحث عن ثغرة في اعمالي. صار يستمتع بأذلالي. اسكره الجاه المفاجيء والسلطان الذي وافاه قبل الاوان. ما الذي حل بقلبك يا فالح. ان لك جسم ثور كيف اهتدى الطبيب الى قلبك وقرر مرضه؟ مرض القلب في قلب طبيب القلب وهكذا سلمت (الخيط والعصفور لهذا الزعطوط) افسدوه. لقد افسدته الشرطة، من

مديرهم الى مفوضيهم. يطبطبون على أكتفافه (ذبولة ارغيف وهز ذيلة) لمجرد شربة وسكي ورقصة كاوليات (عمه يعميكم). عن اي شرطة تتحدث ايها الملا العتيق. ألم تسجل بقلمك هذا العام وحده الف تغار حنطة والفي تغار شعير- وهذه الاسعار الخيالية. ولا حتى هذا ومازلت تتحدث بعقلية (ألف بي زبر أن.. بيش دو زبر أن) انتهى وقتك من انت اذا كان القائممقام نفسه يعرض نفسه للخدمة. يوم لم تطلق يد ضناري بعد. سافر فالح الى اوربا واعتمد القائممقام وكيلا على مزارعه.. فصار يتجول ليلا ويتجسس على الفلاحين مثل اي (شحنة لگام..) وجد فرس السيد عزوز ترعى في البيدر، فكسر الخيزرانه على ظهر السيد. وحين عاد الشيخ من اوربا اعجب بعمل القائممقام وسعى له عند وزير الداخلية فعينه متصرفا..

قال السيد عزوز: (ابيك وانا اخو سكنه... شاره نگديه حسباله اتفوت بچيسه.. عثره جدي) ولكن كيف يا سيد؟ اين موضع الشاره؟ لقد عين متصرفا وكان قائممقاما. (يابه دروحوا.. جسبالهم آنه غشيم.. چان قيممقام الحي يگرگك من كبر اليشان هسه صار متصرف ذايه مدري وين ماوين). هذه هي القضية يا ملاّ (دو زبر أن) .. اذا كان القائممقام يرضى ان يصبح وكيلا في مزارعهم فمن انت يا دوبيش اون؟ ياملا (لگن)! ويخيل الي ان عداوة ملا نعمةوكلماته المسمومة قد اثرت على مركزي- رغم كرهه الشديد لملا نعمة وافكاره- لكن كلمة العدو مجلجلة رنانة ان لم تقبلها شغلت بها وقد تجد لها منفذا في جدار التفكير وقد تسمم ينبوع القلب- الخلاص الخلاص من ملا نعمه ولكن من يقنع هذا الزعطوط الذي شاخ في ليلة وضحاها من يقنع الحصرم الذي تزبب فجأة؟ (ياميم لام بيش مل

لام الف لا) ومركزك على كف عفريت ولم تعثر على ورقة مما يريد ولو كان غير هذا الشيطان ملا نعمة لزورت عليه ورقة.

وكان علي ان لا اطمئن واجمع اكثر مما جمعت وقالوا عنهم بحق (صاحبهم مثل سايس السبع.. بس يخمل عنه يصطره) اريد البقاء سنتين.. ولو سنه واحدة لكي (اطلع القضى والمضى).

وجاء يقصر الخطو: سيثور ويعربد.. (حلفت بشرفي انعل ابو شرفكم.. آنه ما اعرفكم اشلون اشراف! ايباه.. عجنتكم على ايدي.. هم علي بابا زنگو) احتمله مهما قال ومهما فعل لابد لك من سنة اخرى ومع عدم وجود ملا نعمة تساوي عشر سنوات اعرف كيف اتصرف.

دوخته المفاجأة. الشيخ تلقى الخبر ببرود.

(ما لگيت سند).. (ما لازم) ليس هذا وحسب، فقد أضاف (دوختك.. اهوايه تعبتك). طمع في تسامح الشيخ: رأيي ان نتخلص من هذا المشاغب بسرعة. رد الشيخ يقول وبلهجة ودية:

(بكيفك) ماذا جرى لهذه الدنيا؟ لم يتركه الشيخ ضاري في تيه الحدس والتخمين. لكل شيء ثمنه- للشدة ثمنها وللتسامح ثمنه. بادره الشيخ يطلب يد ابنته (زينة) لخادمه داود. قطع من قبل عهدا لاخيه ان يزوجها لابنه: العهد وكل العهود بگشر بصل. ستبقى في مكانك، وبلا ملا نعمة في المنطقة.. لو اردت زينة وامها:

- امحفوظ احنا خدامك التريده ايصير..

عبر الشيخ عن امتنانه بأبتسامة. اردف الطلب بآخر:

ان يكون الزواج عاجلا، فللتأخير آفات، وثمة اسباب اخرى. اسرت اليه

زينة ليلة امس: تدابيرنا ليست محكمة.. لقد زرعت جنينا في احشائي.. تدبر امرك قبل وقوع الكارثة. هوّن عليها الامر:

– ولا ايهمج.. ضام لج رجل لگطه.. اسمك رجل يگعيم عن وحشة الليل. وسوف نكون اكثر حرية بعد الزواج.. تقيمين هنا في القصر، زوجة لخادم الشيوخ داود ابو البينه.

تمدد داود على الارض وقبل حذاء الشيخ ومرغ به وجهه. لم يحلم بزينة ابدا ابدا: (التعب ما يضيع وياكم يا بيت مهلهل).

افهمه الشيخ ان تزويجه بمثابة (جبرة خاطر) له بعد وفاة المرحوم والده، سلمان ابو البينه، ولا داعي لانتظار اسابيع حتى ينتهي الحزن، فللتأخير أفات. غدا آخذكما معي الى بغداد.. تزوج في الكاظم، شأن كل من يريد الزواج بلا افراح.. لا تفكر بالبيت وشؤونه اتخذ لك غرفة في القصر (هاه؟ خوش؟!)

* * *

جلس الشيخ ضاري وراء عجلة القيادة وبجانبه داود. احتلت المقعد الخلفي زينة وامها. حالما انعطفت السيارة الى الطريق العام رفع غطاءها. لما تزل الشمس عاليه. بواكير الخريف لطفت الجو. يحلو له شرب البيرة المثلجة مع قيادة السيارة. باشر داود مهمته، يسقي الشيخ. سمح له ان يشرب هو الآخر. التفت الشيخ الى وراء، والكلام شركة بين العروس وامها:

– كل احنا بخدمة داود ما دامه عريّس!!

عاودته الرغبة للقيادة بسرعة، خفقت عباءة العروس، وعباءة الام صدر

عنهما صوت ذكر الشيخ بصوت الدربك يقرعه الكاولي بمهارة و (حمريه) مثل الغزال. نقر بأصابع كفه اليسرى على باب السيارة من الخارج اوشكت السيارة على الطيران. تكورت ام العروس مرعوبة في ركن المقعد الخلفي: يا حافظ يا حفيظ.. الحافظته امه.. حافظتها امها. الشبه كبير بينهما لا يخفى على اقل الناس ادراكا.. جاء على ابيه حين من الدهر جن بي.. لم ينقطع عني حتى بعد ان حرمت زوجته دخولي الى الحوش. يا ساتر. وعلاقتهما تبدو واضحة اعرف هذا يا ساتر.. دشوفوا ابليس المنعول مالگى غيري يلعب عليّ.. كان لا يأتي الا وهو سكران هذا يعني.. (لا هذا حچي.. عفوك يا مانع الردى). المانع حديث الاستعمال.. يا مانع الردى يا اللّه- (المنعول ابليس مالگى غير هالساعه يلعب عليّ-..) الم يكن لي زوج؟ (بأذانا گطن. لا. زينة بت ابوها وچاد بت ابوها) بسم اللّه الرحمن الرحيم.... قال الشيخ لداود:

- مو ضروري اتسوي دخلتك باچر، سويها الليلة، شنهو الفرق بين الاربعاء والخميس؟

التفت الى وراء:

شتگولين ام حسن؟

- محفوظ بكيفك وصايفك..

اوقف السيارة جانبا وترجل، فتبعه داود. بال الشيخ واقفا- فعل داود مثله- تحاشت كلاهما النظر ناحية الرجلين. اشعلت الام سيكارة على عجل: اخفوا رأس الجاموسه بغطاء.. وبعد ذلك رمى الفحل نفسه في الشط ولم يظهر حين تكشف له فعله...

الدنيا لا تسير عبثا كيفما اتفق كل شيء بتدبير حاول الملعون ابليس ولكن تعسا له. اغتنمتها فرصة وحولت نظرها: ومع ذلك فلا زال هناك امل حين (ينصمط) ابوه. وما الفرق؟، سخافات.

عاود قيادة السيارة بسرعة. التفت الى داود يصل حكاية مقطوعة:

- بالعكس ابغداد قضيته اسهل..

- معلوم معلوم محفوظ.

توقفت السيارة عند بوابة القصر ترجل داود فقرع الجرس. هرول خادم القصر ناحية الشيخ تناول اطراف اصابعه وقبلها. امر الشيخ بأعداد مائدة فاخرة. التفت نصف التفاتة وقال:

- بعد شتريد ام حسن؟ ناخذها للكاظم اتزور.. وانشوف مومن يگطع المهر..

اوقف السيارة في الساحة المواجهة لباب الصحن ناحية القبلة، وقال لداود الذي انصرف لمساعدة ام العروس على الترجل:

- سووا زيارتكم خفيفة.. رحم اللّه من زار وخفف!

لمح كهلا يعتمر نصف عمامة، يحمل صرة تحت ابطه، في مشيته اقرب الى الهرولة. ولما حاذى السيارة سأله الشيخ ضاري ان كان بوسعه ان يجري عقدا سريعا لعروسين. اجاب الكهل الذي يعتمر نصف عمامه:

- لا عيني مو شغلتي..

لوح الشيخ ضاري بورقة من فئة خمسة دنانير وسأل:

- واذا بيها ابو الخمسة؟

توقف الكهل. دقق النظر جيدا: خمسة دنانير؟

الجهد لا يساوي خمسة فلوس (يا حجي شيطي) اتكون الورقة عملة مزيفة؟ ومع ذلك.. حتى لو كانت مزيفة فلست مغبونا:

- ميخالف شيخ بأمرك!

استمهل الرجل ريثما يتم العريس وعروسه فروض الزيارة. عجب الرجل الذي يعتمر نصف عمامة: ان تتم اجراءات عقد الزواج في السيارة وسط الشارع العام. على اية حال ذلك اسهل (وكفى اللّه المؤمنين الروحه والجيّه) ولن يأخذوا من وقتي سوى دقيقتين والجهد لا يساوي فلسين ولتكن الورقة مزيفة. لابد ان في الامر لعبة. ولتكن (نعلة ابو الجوگ من تحت ليفوگ) وهل يتعين علي اصلاح العالم ولم اصلح باب الدكان والبزازين داخلة خارجة. واذا كان في هذا الزواج لعبة (نعلة والديهم.. قابل احط الها ركعه)

جلس الكهل بجانب الشيخ ضاري، لوى رقبته ناحية العروس، فغم انفه عطر ساحر، قرب رأسه منها اكثر من اللزوم:

- المحروسة شسمها؟

- زينة

- ما شاء اللّه.. ما شاء اللّه..

تنسّم بقايا بخور علق بالثياب. سألها اتقبلين يا زينة...؟ اجابت بنعم بعد السؤال الاول. قرصتها الام. كانت تريد (النعم) بعد السؤال الثالث على مذهب العرائس في القرية. لكنها خرقت المألوف: بنات هالوكت مستعجلات. وما فائدة التنبيه بعد الـ (نعم) والمثل يقول لا ينفع المرأة الف (لا) بعد (نعم) واحدة.

*   *   *

ترجل الشيخ في باب القصر. صعد داود مكانه ليضع السيارة داخل الكراج. رتب الشيخ ما ينبغي عمله في ثلاث كلمات: ام العروس تنام في مشتملات القصر، بعد الزفة. العروس وعريسها تعد لهما احدى غرف النوم في القصر. الزفة بعد الشراب والطعام.

امر الشيخ خادم القصر ان ينوع مائدة الشراب:

- اذا ما نفرح بعرس داود اشوكت نفرح؟!

شرب داود بعض كؤوس البيرة (مكحلة) بالوسكي. تناول الشيخ زجاجة عرق ولوح بها لداود:

- شتگول؟ غير هذا ما ايفيدك!؟

- فدوه اغدي لك- صدگك- هذا الگولد ابو الحصان.. وما عداه كلها طرقات!

كحل البيرة بالعرق.. ثم صار يكحل العرق بالبيرة كلما غادر داود الى دورة المياه.

خطر لداود ان يتمدد على الارض عند قدمي الشيخ تعبيرا عن الامتنان. ثم عدل عن رأيه: (اخاف يگول سكران.. صدگك آني سكران؟.) اختلط الامر على داود ايهما رجله وايهما يده: ونشرت عليها عباءتي.. كان جسمها.. اوف!! واتيت بها الى ابيه.. (شعلي بأمها؟)

صار منظره بشعا تدلى رأسه فأستقر على مسند الكرسي.

سأله الشيخ، فلم يجب.

امر الشيخ ان تغادر ام العروس، ليزف العريس. اقفل الباب وراءها. قال

وهو يتملى زينة وفراشها:

- چنه فراش عرس من صدگك!

تأثرت بعض الشيء. سرعان مازايلتها الكآبة.

امضيا الشطر الاول من الليل سوية. تعاونا على سحب داود وتمديده فوق فراش العرس. افهمها الشيخ بلزوم معابثته واشعاره انه بين يديها.

افاق داود تنشق عطر عروسه. حاول استعمال حق من حقوقه كعريس. كان سكره شديدا. نام في منتصف الطريق، وارتفع شخيره. ازاحته عن صدرها وفكرت: ذلك يكفي. من ذا الذي يملك تلك القدرة. ويتمتع بالذكاء الحاد ليميز آثار القتيل في معركة.. ان كان مقتله وهو يستقبل الاعداء ام يستدبرهم- فاراً ام كارا..

اوحت اليه بعبارات ذكية، غداة غدا، لقد كنت فظا قاسيا لحظة اقتطاف الثمرة المدخرة. كان هذا ثناء يكفي لنفخة غرورا. حاورت نفسها بأنتشاء: لقد نجحت الخطة نجاحا منقطع النظير.

ابتسم الشيخ ضاري، حين رأى داود، وكان قد امضى ليلة مع زينة، حتى مطلع الشمس. حاور نفسه مزهوا ببراعته:

مهمات داود المتشعبة لاتنتهي فهو خادم متخصص في خدمة الضيوف الكبار، والافندية خصوصا، وسائق لسيارتي، ومأمور يجوب المزارع.. وبأختصار يمكن (دفعه) بسهولة ويسر. واروع ما في المسألة انه وزوجته يسكنان داخل القصر.

* * *

حاول جودة ان يحرك رأسه عن الوسادة عبثا، صرخ:

- يا يمّه.. يا يمّه.. ايريدون ياخذون حلالي وآنه عدل! زم حمزة شفتيه. زايله الاشفاق الذي الم به لمنظر عمه، فرد عليه:

- يا عمي انته بيا حال.. وينك ووين الحلال.. رجليك تتلولح بالگبر، وبعدك عاظ الدنيا بضروسك!

لم يرق لفرهود هذا التأنيب. بدا عاطفيا، شديد الضعف لمرآى ابنة عمه وهي تجفف دموع الانكسار، وحسرة على عمر اوشك ان يضيع.

تجمع عدد من الرعاة المقيمين في هور (المصندگ). جاءوا الى بيت جوده للتعرف على الفارسين. تهامسوا بعطف:

- اولاد اخوه

- ايه.. العنده گرابه بالشام ما ينضام...

- چنهم اولاده.. لكن هوه ما يفتهم، تخارب وياهم.

- اولها وتاليها الهم.

- ايه.. الماعنده ولد ايصير بخت الورثيه.

عاونهما الرعاة، اداءاً لحق الجيرة، على توثير ظهر الحمار، وضعوا عليه جوده. اوكل امر العناية به الى ابنته سكونه. حملوا امتعة البيت على ظهور الحمير، وسار بها حمزة، وتقدم قطيع الغنم فرهود يعاونه ارهيف الراعي.

استقبلهم خلف الى ابعد مسافة امكنه قطعها. اجهش بالبكاء وهو يرى شقيقه نصف ميت فوق ظهر الحمار.

جلس بجانبه، بعد ان سجي في الربعة، واخذ يعاتبه:

- يا خايب الحلال وصخ. مايسوا امگافاه وتخشن خواطر يا خايب ابن آدم اشياخذ وياه للگبر، غير وصلة الچفن، حتى غافل اطاه التومين وصلة

چفن.

اختنق بصوته. بكى جوده، مستشعرا دنو اجله، وهو يسمع نعيه على لسان اخيه. قال حمزة، ناصحا:

- بويه هسه موش وكت عتب. اتشوفه مريض وكلساع تنخلب روحه.. خلّه يستراح.

اقترح حمزة على عمه، ان يأتيه بسيارة تنقله الى الطبيب. رد المريض بصوت واهن:

- السيارة اتريد فلوس اهواي.. والطبيب ما يشبع من الفلوس..

انفجر خلف غاضبا:

- ولك المن اتريد الفلوس؟ انعل ابو الفلوس اللي ما تنفع راعيها..

ثم سأله خلف عن مقدار المبلغ الذي اودعه عند الحاج حنون واذا كانت له ديون بذمة آخرين.. واين يحتفظ ببقية نقوده..

اخرج جوده كلماته من وراء شفتين مطبقتين:

- ما عندي.. ما عندي.. بعدني عدل.. لا اتظنون اموت!! بصق خلف على الارض وصاح:

تف على فلوسك يا رذيل.. وتف على كلمن اله نفس بحلالك.. ولك لهالحد وبعدك ذاك انته؟

صاح حمزة بعصبية

- شنهي الطرگاعه؟ عتب؟ عركه؟ ما اتخلي المريض مستراح.

لما انتصف الليل، استيقظ خلف على حشرجة جودة. صاح يدعو اهل بيته. تجمع الرجال والنساء والاطفال. قربوا الفانوس من وجهه. كانت

عيناه تستديران، لم يبق في جسمه عضو ينبض بالحيوية مثلهما، وحالما استقرتا على وجه سكونة، كف عن تحريكهما. حاول ان يتكلم. ارهفوا السمع. لم يطاوعه لسانه، ومات سره في صدره.

توافد الفلاحون على ربعة خلف، يقرأون الفاتحة.

اظهر حمزة كرما غير اعتيادي، في اعداد طعام الفاتحة.

قال حمود بن شنين، لنسيبه فرهود، وقد كلف بذبح خروف كبير:

- لو مرحوم عمك ماچل هذا الخروف بحياته چان تأجلت موتّه خمس اسنين- العباس كفيلك!!

الفصل السابع

عاد الشيخ فالح بن سعدون من اوربا وقد نضج في ذهنه مشروع زواج ولده ضاري، فزفت اليه كريمة خاله هلال الصلال.. بعد مضي ثلاثة اشهر، شعرت زوجته ان ثمة امرأة اخرى في حياته.. بلغ الاحساس مرتبة اليقين، ساعة ضبطته بالجرم المشهود مع زينة زوجة داود، على نحو لا يحتمل التأويل.

هددت بترك البيت ونشر الفضيحة، مالم تبعد زينة ليس عن الحوش وحسب، بل عن القرية كلها.

طلب ضاري من داود ان يشيد مسكنا جوار بيت خلف. وقطع عهدا لزينة، ان سيعيدها بعد اشهر، ريثما تسكن الزوبعة.. ولن يبخل عليها بالزيارات هناك.

لم يمر الحادث دون همس، بين حوشية الشيوخ، تسلّوا به عدة ايام، ثم اضيف الى ما سبقه.

اخذ داود مبرر ترحيله مأخذ الجد: وهو ان يكون هناك عينا ساهرة، لا يغفل صغيرة ولا كبيرة. فالدنيا لم تعد كما كانت، الفلاحون بحاجة الى رقابة وضبط حديدي، لا يحسنه سواه.

سببت جيرته المتاعب لآل خلف: تعين على حمزة ان يراقب اباه، كي لا يفرط بكلمة ضد الشيوخ. وتحتم على فرهود ان لا يستقيل احدا، ممن كان يستقبلهم في بيته علانية..

استطاع حمزة، بتخطيط ذكي، ان يكسب داود الى جانبه ويجعل منه صديقا... انتزع منه سرا في لحظة تعاطف، وجاء يهمس بالسر لأخيه فرهود: الشيوخ على علم باتصالاتك المريبة، مع بعض الفلاحين، واستقبالك

للرجل (الحيّاوي).. ويعرفون كل شيء عن استضافتك للهاربين من اهالي الحي.. ويعرفون حتى متابعتك لاذاعة موسكو. وانا اوافق داود على رأيه ونصحه بأن تبتعد عن السياسة.

ركب حمزة وهواس من رقابة الشيوخ.. وعدم انصياع فرهود لنصائحه.

انصت داود مرة.. سمع حمزة يدعو فرهودا للقيام بعمل.. رد عليه فرهود:

- عندي شغل مهم.. ابوك معجبة اليوم يطلع سجاده النبي الحافظها السلطان.. واضاف يشرح دعابته:

- الزناد.. زناد ابن مهلهل.. اطانياه انظفه واترسه بانزيم. كانت لهجته ساخرة وهو يذكر ابن مهلهل فتوعده داود في سره:

- ما عاجبك ابن مهلهل ديّوس؟. آنه الك!

التقى خلف بداود ذات مرة فأنفجر يعاتب بيت مهلهل بشخص داود: هكذا يتنكرون بسرعة وبكل صلافة فيرحلون ملا نعمة بن حسين.. وكأن شيئا لم يكن بين سعدون وبين حسين.. بلابوش دنيا!

ثم ما هذه الرسوم الجديدة التي يبتدعونها كل عام ليسلبوا الفلاحين لقمة عيشهم.. لقد عاشوا دهرا من فضل خير العشيرة وها هم يصبون النقمة على العشيرة.. اهذا هو الوفاء؟

واذا اغتفرت كل هذه المساوئ.. هل تغتفر لهم جريمة احضار (تياترو) ترقص في مضيف (مهلهل).. وينفقون عليها الف دينار.. الف دينار، بلابوش دنيا! وكنت استدين له ربية واحدة من احميد ابو البينه اذا استدعي الى المدينة...

حنق داود: هذا العجوز المخرف من اين له هذه الكلمات، رسوم وترحيل.. وتياترو.. ولا يكتفي بهذا بل يقول امامي (احميد ابو البينه) وكأنني لست حفيده، وكأن كنية (ابو البينه) ضربا من العار؟! (آنه الك ديوس فرهود)

* * *

مرقت سيارة الشيخ ضاري، وقفت عند باب داود. امضى الشيخ هناك بعض الوقت، لقيه خلف، حين غادر البيت، فتحدر بعتاب وتقريع:

– ابن بن سعدون اتخلي ربعتي وتفوت! لا سلام ولا كلام، ما يعجبك غير بيت ابن ابو البينه، ياما چنت آخذ الذبيحة من جده لمضيف جدك عين تضحك وعين تبچي.. وياما وياما..

عندما عاتب داود حمزة. تساءل الاخير بحيرة:

– شنهو الاسويه يا داود.. رجال چبير وما ينفع وياه الحچي والوصايا..

– يعني هذا عيب.. يعني اتخلونه يشتم الناس؟

قال فرهود بحدة:

– چا قابل نحبسه؟!

انفجر داود غاضبا. تراشقا بكلمات قاسية.

* * *

في أمسية تلت الحادث جاء فرحان بن سويلم الصگر واسر لفرهود: تؤكد المعلومات المتوفرة لدينا ان الشرطة تعتزم القيام بـ (زرگه) لبيتك. اخفى فرهود بندقيته وبعض المنشورات.

جاءت الشرطة في الليلة الثانية، طوقت بيت خلف، استبد الذعر بحمزة، فنسي اخفاء مسدسه. أجرت الشرطة تفتيشا دقيقا فلم تعثر على شيء. اشار المفوض الى حمزة، يامره بخلع المسدس، فتدخل داود في اللحظة المناسبة، وزعم ان المسدس له، وداود ليس نكرة بالنسبة للمفوض، فأعيد المسدس، لحظتها تذكر حمزة بندقية فرهود: لابد انها بيد الشرطة. ولكن ياللعجب كيف تسنى له اخفاءها؟

تشاجر الاخوان بعد ذهاب الشرطة وتصايحا بصوت مرتفع، تدخل الاب، فلم يلتفت اليه احد منهما، فأمسك حمزة من ذيل دشداشته وسحبه:

– ولك اگعد سولف لي، شنهي الطرگاعة؟ صايره سلبه بالدرب وتاهمين بيها فرهود؟

– لا. فرهود متهوم بالشيوعية.. وهاي الطلايب كلها من وره شيوعية فرهود!

– ولكم هيه غير اجتنا من الراديون، ذبّوا الراديون اكفونا شره.. ولا تتعاركون..

احتدم النقاش بين الاخوين، فبكى خلف وصاح بصوت متهدج:

– ولكم خلوني لما اموت يالله تتعارگون.

لما اختلى فرهود بأبيه اوضح له:

– الشيوخ يتهموني احچي عليهم واحيل الفلاليح ضدهم. وهاي الطلايب من الشيوخ والزرگه بأمر الشيخ...

قال خلف لنفسه بعد يومين من الحادث:

باءت محاولاتي بالفشل ولم اوفق بين ولدي.. ولكن شروط حمزة قاسية:

ان لا يذهب فرهود الى قريتي (العلوة ومويلحة) ولا يستقبل في بيته كائنا من كان.. ولا يتحدث بالسياسة.. ولا يسمع من الراديو الا اذاعة بغداد. أهو محق فيما يريد؟ أهو صادق في اقواله:

اصبحت مكلفا بقطيع ضخم من الغنم- ارث جودة- وقد يمنعه الشيوخ من الرعي في مقاطعتهم اذا ساءت علاقتي بهم. وقد يسحبون مني (السركلة) وهي ليست بالشيء اليسير، وما هو اهم من ذلك لست على استعداد لدخول السجن، ونقل (هزز) التراب كالتي وصفها عبيد المنتاز او أقتل في السجن مثل جماعة ملا نعمة. لم يجد فرهود في شروط اخيه واحدا ممكن التطبيق. فكلها مذلة ومهينة لا يمكن قبولها اطلاقا.

ذهب فرهود الى السيد حسن الكربلائي.. اتفق معه على فلاحة وحدته الاستثمارية الممنوحة له بمشروع اللطيفية. وقرر الرحيل الى هناك.

اعلنت الام انها لن تفارق فرهودا وسترحل معه.

وقف خلف مشتت الافكار، لا يدري ما الذي يفعله:

اما انت ايها الشايب الذي اثقلت السنون كاهله.. وتدلت قدماه في حفرة اللحد، اما انت،اتعس الجميع، لم تتخذ قرارك مثل الآخرين هذا آثر المرعى الجيد لقطيع صار- اويوشك ان يصير- ملكه وسركلة تمنحه بعض الجاه وترفعه درجة فوق الفلاحين.

وذاك اختار كرامة وشيئا آخر لا ادريه- يختزنه في دماغه- وهي لم يصعب عليها الاختيار فأما العيش مع الاكبر او الاصغر، واختارت الاصغر، وليس على اختيارها اي غبار- اما انت ايها العجوز الذي كتب عليه ان يكون شاهدا على مئات وآلاف الاشياء، من ذا الذي يشهد عليك؟

لم يقف في صفك احد، ولا حتى متفرج عليك.. اعرف ان لها قلبا ينبض وتعرف ان لي مثله لكنها بالغت في الامر وحملتني اكثر مما احتمل- هل ارحل معها واموت هناك- فيحملون نعشي للثواب؟

(رحم اللّه والديه من ساعد على غسل الغريب ودفنه) لا..، هنا. وتركت عكازته آثارا عميقة على الارض: هنا تهتز الارض تحت اقدام الرجال وهم يشيعون جنازتي ويقول شاعرهم شيئا كما قال يوم تشييع جنازة حسين:

جبل حمرين هذا الشايلينه ارجال

يا سيل العرم يلما يرد لو سال

وينشرن الشعور نادبات وتردد الشاعرة كما رددت في مأتم حسين:

ابو ناصر سبع يا حيد يسنافي

يا هدمة جرف يلتخبط الصافي

ولئن كانوا يختلقون للميت بعض الامجاد او ينفخون في الصغير منها ليكبر، فأن لي منها الشيء الكثير ولطالما شهد لي حسين وحتى مهلهل ومن بعده سعدون. ويشق الرصاص سكون الافق ويتساءلون من بعيد لمن؟ هذه جنازة خلف. هذا شيء لن اتنازل عنه ولن اعدله بملك الدنيا هل تعلمين؟ لقد شهد هذا الثرى حبوي رضيعا ولعبي صبيا.. (ام احچيم واعظيم اللاح.. وهوله.. وحجوه). وحب لا اظنك نسيتيه. آه يا عنفوان الشباب بمتعك وسخافاتك.. وما احلى ايام الكهولة والمعشر الحلو لولا ان لوثه سعدون بخبث ما كان له ان يلطخ به سمعته، لقد تركها للوارثين يبددونها على الكاوليات ومثلما احتل غافل ذراعين للقبر احتل هو ذراعين. بلابوش دنيا..!

اما انت يا حسين يخيل الي ان هدوءك وموتك المستريح.. آه يا حسين لازلت اذكر كيف اطبقت جفنيك. يخيل الي ان هدوءك بسبب من انك قررت الاختيار. عرفت دربك وليس مثلي ما الذي كنت تعنيه بقولك (يا خلف انته محد يعرفك) ثم تستدرك وتقول: (لولا كلبك كلب طفل) يا حسين اني اتعذب لصعوبة الاختيار، قلبي معها، قلبي مع فرهود.. ولكنني هنا يا حسين اطمع في ان تهتز الارض تحت اقدام الرجال كما فعلوا يوم جنازتك. ما اصعب الاختيار. احسب ان غافلا لم يتردد وان يكن اختيارا ذليلا وتبعية اشبه بتبعية الكلاب.. لا. انه ليس اختيارا.

اما انت ايها العجوز والموت البغيض يترصدك بعين لص طال انتظاره لغفلة صاحب البيت، لابد ان تقرر لابد من اختيار ترتاح اليه ليس بلسانك ليس بقلب متردد. فليكن اختيارا تستقر عنده، تتعكز عليه مثل هذه. وتركت عكازته مرة اخرى آثارا أعمق.

* * *

عجزت اعصابه عن تحمل الازمة، بعد رحيل فرهود، وارتمى طريح الفراش، فلازمته سكونة بنت جودة ليل ونهار. كانت الشمس فوق الهامات مباشرة. ولا شيء يشغل الاذهان الا العطش ويتزاحم العطاشى وقد اضناهم الدرب الطويل. بلغ شجرة السدر. هي نفسها. استظل بها في شاطي نهر دجلة القديم- جانبه الشرقي- وتحتها بئر نبع ماؤه بسهولة. وقالوا محذرين. لا يخلو شط الدجيلة القديم من الوحوش المفترسة ولكنه نام تحت شجرة السدر في ذلك الظل الرائع- هي نفسها شجرة السدر- ونفس البئر. ويجلس في ظلها صبوح الوجه يمسك ميزانا نحاسيا لماعا

مثل ميزان حجي حنون. وعن يمينه كوز ماء يترقرق وعن يساره كوز لبن شنين.. وامامه ووراءه اشياء لا حصر ولا عد لها كان يلهث لشدة العطش. ارتمى تحت شجرة (كبر) ليس فيها ظل جيد اشواكها تدمي الظهر لم يعد قادرا على الحركة. جف لسانه تماما. وكانوا يتزاحمون يفصلهم عن الرجل ذى الوجه الصبوح خط رسم على الارض بعناية. ولا يدري كيف تسنى له معرفة (خطة العباس) وتقدم سعدون يتدلى لسانه من شدة العطش. تذكر الكلب الذي صادفه في حر السموم عند شاطي نهر دجلة القديم هكذا كان لسانه.. اشار بيده الى كوز الماء. فحرك الرجل رأسه وقال شيئا قريبا من كلمة (هيدا) اشار سعدون الى كوز الشنين فقال الرجل ذو الوجه الصبوح (برا) وغمغم سعدون: اعطيت السيد الروزخون.. اعطيت.. اردت ان اتكلم.. اعطيت.. ثم مالبث الرجل ان اخرج الزناد هو نفس الزناد، قدحه.. فأشتعل.. قرب لهبة النار الى ثوب سعدون الابيض صرخ وولى هاربا والنار مشتعلة في ثوبه. تقدم رجل نسي من هو.. قال بضع كلمات فناوله ذو الوجه الصبوح طاسة لبن.. ووضع له في الميزان شيئا مثل الطبيخ. وجاء احميد ابو البينه.. وغمغم بكلمات لم يسمعها الا الرجل ذو الوجه الصبوح.. ولم يتحرك الميزان.. رفع احميد صوته وقال: حرمت على اولادي ان يسرقوا وكانت السرقة عنوان رجولة العصر.. ابتسم الرجل وناوله طاسة ماء.. اراد احميد استبدالها بلبن فأجابه الرجل: كل الغنم ما اشبعتك لبن؟!

ثم تحرك الميزان.. وضع فيه ذيل سمكة.. وناوله كسرة صابون. قال احميد افهم هذا يا سيدي فلا يصح ان يؤكل السمك دون تغسيل

بالصابون فيما بعد. اجابه الرجل ذو الوجه الصبوح لا. اغسل بها ثيابك الوسخة ويديك قبل ان تاكل السمك، وبعد اكل السمك انت حر.. ان شئت غسلت وان شئت نمت بلا تغسيل.. كان احميد كعهده وسخ الثياب قذر اليدين والرجلين.

وجاء صكر كما كان شابا ممتلئ الجسم. فحياه الرجل ذو الوجه الصبوح على البعد وقال اهلا بالشجاع ثم ناوله طاسة لبن وتحرك الميزان وراح الرجل يضع اشياء كثيرة حتى امتلأ الميزان.. وتقدم ناصر بن حسين في عنفوان شبابه وقال للرجل لقد وقفت بوجه الظلم قال الرجل اعرف هذا وملأ طاسة الشنين وطاسة ماء وقال امسك كل واحدة بيد وخذ جرعة من هذا وجرعة هذا، انه شيء رائع. جربه. جربه.. وجاء حسين ونفس الابتسامة تشرق على محياه وقد خضب لحيته (بالوسمة) فبدا لطيفا مهيبا.. ونهض الرجل ذو الوجه الصبوح اجلالا لحسين.. وشرع حسين يتكلم نفس الصوت العذب وكأنه ينشد الشعر ولكن مسبحته تتدلى لم يداعبها كما كان يفعل من قبل وقال دعوتهم ان يكونوا رجالا كنت اذكرهم دائما بأنهم بشر لم انقطع عن تحريضهم ضد اللصوص. ويحرك الرجل رأسه اعجابا فيما تتحرك يداه تحمل اشياء.. يضعها في الميزان لمح من بينها بطيخة ناضجة. وملأ له طاستين. اشرت الى حسين بأصبعي، لم يكن بمقدوري الكلام ناولني الطاسه. ولما فرغ كفه جمع السبابة والابهام وحركهما بوجهي معيّرا (بنْ!!! حتى مرتك ابعدوها) شربت ما في الطاسة لم ارتوي. وقف حسين غير بعيد يرامقني. تقدم جودة تمتم بكلمات كثيرة.. ولم تتحرك يد الرجل.. اخيرا قال الرجل ذو الوجه الصبوح: اشفق عليك

لشيء واحد فقط كنت تحترم سكونة وتحبها، وملأ له طاسة من كوز الماء.. واعطاه حزمة دنانير.. قال جودة ما الذي افعله بها.. في هذه الصحراء الموحشة؟ انا جائع اريد بدلا منها- لقمة عيش.. حرك الرجل ذو الوجه الصبوح رأسه نفيا وقال اضفها الى دنانيرك المخزونة. تقدمت وقلت: زرت كربلاء والنجف مرتين.. لم يتحرك الميزان.. اعطيت السيد الكربلائي.. لم يتحرك الميزان.. نصحت حمزة ان لا يحول بين سكونة وبين الزواج، ولكن لا أمر لمن لا يطاع. تحركت يد الرجل وضع في الميزان سمكة.. وغرفة طبيخ وبطيخة وكيس تبغ ولما رأى خلف يرامق الزناد ناوله اياه وقال خذه شياهدا.. ضحك حسين ضحكته المألوفة..

فتح خلف عينيه واستفاق من نومه، كان ثوبه مبتلا بالعرق. جفف العطش لسانه وشفتيه صاح:

- يا هو الهناه؟

ردت سكونة على الفور:

- ها بويه..

- اشوية ماي (الحمد للّه والشكر للّه)

هذا اشلون طيف ايدوّخ!

* * *

زارته العافيه بعد حين، برأ جسمه من العلة العارضة، عاد سيرته الاولى يتسلى بالمشي بعيدا عن البيت، مؤثرا (مقام سيد سراب) على سواه.

استبد به حنين لا يقاوم.. لم يعهده من قبل: لا اتذكر سيئة واحدة طيلة الرحلة المضنية والممتعة والمعقدة والسهلة مع ام حمزة. ليس ثمة ما

تؤآخذين عليه الا هجري في اشد ايام حاجتي لقربك. نعم الحبيبة والزوجة والصديقة والمرضة. كنت قادرا على مغادرة الفراش.. اعفيتني من ذلك.. حملت الاناء مملوء بالرماد: اخاف عليك من البرد، وليس بيني وبين القعود الا اياما.. فمن يحمل الاناء مملوء بالرماد؟ من يرفع القاذورات من تحتي اذا خذلتني قواي؟

قلت عن الارض قسمة ونصيب (لا ابو قليل هلك ولا ابو جثير ملك) اما ان تشتتوا الشمل الذي جمعه اللّه، فذلك مالا تسامح فيه، جعلتم الشقيقين يختصمان وفرقتم الزوج عن زوجتة. الويل لكم من ذلك العطش الرهيب ولقد رأيت لسانه يتدلى مثل كلب يلهث واشعل كفنه بنفس الزناد. وسأعرضه شاهدا على الخداع والكذب.. كنت اكره الكذب كنت احاول ان امنع الناس عن الكذب كنت اصدقهم.. وهذا شاهدي- قال خذه شاهدا لن يضيع شيء ولن يفلت مجرم من الحساب. ولكن يا عجوز يتعلق بذيل حلم في ليلة سلقتك الحمى، ما ادراك بالشفاعة فقد يتوسط السيدان الكربلائي وابو شرارة عند جدهما وشفاعة الابناء عند الآباء مقبولة. وهكذا ينجو بيت مهلهل من العقاب ويبقى الغيظ يأكل قلبي، لا فرق عندي سواء كنت في الجنة ام النار.. فما الذي اصنعه (بنْ-.. حتى مرتك ابعدوها) وقال وهو على المنبر الشجاعة من الايمان.. الجبان عدو اللّه.. ولكن اين هو العدل؟، هذا شاهدي الم تقل خذه شاهدا؟، مد يده الى جيبه واخرج الزناد. تناهى اليه هورن سيارة وضع كفه فوق حاجبيه ودقق النظر:

اهذا انت يا ابن بن الغشاش... ولا تحلو لك الا معاشرة ابن ابو البينه.. أبعدتها وابعدت فرهودا وزرعت العداوة بين اخوين... هاه.. (بنْ.. حتى

مرتك ابعدوها).

جاء مزاج الشيخ ضاري ان يداعب خلف.. لحّن نغما سريعا على الهورن. ارتعشت يد خلف:

- ها انا ابو حمزة...

طيط طيط!!؟ شنهو فرق الطيط طيط عن العفطه؟! تعفط لي يا ابن بن الغشاش!!

ارتطم الزناد باللوح الزجاجي.. تطايرت شظايا الزجاج..

تدفق الدم غزيرا من وجه الشيخ ضاري.. تعذرت عليه الرؤية.. كبح السيارة بقوة. كان خلف قد استجمع شتات قواه ليودعها في تلك الضربة المحكمة.. القى الزناد.. سقط جانبا مغمى عليه. هرع آل خلف وآل اشنين.. وداود.. ظن الجميع بأن سيارة الشيخ دهست خلف..

أرعبهم منظر الشيخ ضاري يسبح بدمه.

أشاع الشيوخ وحوشيتهم بين الفلاحين: جن خلف.. وان اول فعل جنوني، إصابته الشيخ ضاري بجرح خطير.

توقع حمزة اشر انواع العقاب، واستسلم للمقادير. لكن الشيخ، لأمرما، اكتفى بتأنيبه وامره بحبس خلف داخل البيت..

لم تعد ثمة حاجة لحبسه، فقد اجبره المرض على ملازمة فراشه داخل الربعة.

* * *

تهامس الفلاحون شماتة بالشيوخ:

- عاشت ايدك ابو حمزة..

ونصح آخرون: دعوها تجري كما شاعت (جن خلف) فذلك ادعى للطمأنينة على ولده، من غضب الشيوخ وطيشهم.

*　　　*　　　*

صاح خلف يأمر حمزة:

- روح دور ازنادي الگطفته على المنعول والدين!

نظر اليه حمزة.. ثم هز يده وغادر الربعة دون ان يفوه بكلمة. استدعى خلف حمود بن شنين، وكلفه بالبحث عن الزناد.

اجتهد حمود في البحث ولكن لم يعثر عليه.

عقب سويلم الصگر على فعلة خلف:

- وين چان عزمك مضموم؟! هلبت تحركت بيوم اخذوا ديماتنا..؟ فگر صگر چان نايم عليك!!؟

واجابه اخوه كزار الصگر:

- خلف مثل بلم (بيت رصاص) لمن غرگك شال الشراع!!

الفصل الثامن

أحدث وجود ملا نعمة تغييرا في ملامح المنزل، والى حد ما، في شكل العلاقات بين الاخوين.

نقل كامل سريره الى غرفة فاضل، ليشغل الملا غرفته.. فتعين عليهما أن يتحاورا قبل النوم، في كل ليلة.. أحيانا لا يتجاوز حوارهما الجواب على سؤال واحد.

عرفا بالتجربة أن لابد من ثالث، ليكون محورا يحركان الحديث حوله. فان جلسا وحدهما خيم الصمت.

يلتجئان أحيانا لمحاورة الام، اذا ما أحسا رغبة في حديث خال من الكلفة، ومن خلالها يتبسطان في تناول الموضوع المقصود..

عاتب فاضل نفسه أكثر من مرة: لو تخلصت من آثار التربية المتزمتة- بطريقة ما- لقلت ساعتها صرت (أفندي) حقيقي أما الآن فلازلت فلاحاً يرتدي البنطلون..

جعلهما وجود ملا نعمة يتبادلان الرأي باستمرار.. أوشكت آصرة الصداقة ان تربط بينهما، الى جانب آصرة الاخوة..

*　　*　　*

تناول كامل دفتر الشعر. أخذ يقلب صفحاته.. وقف عند قصيدة (الغريب).

ولما فرغ من تلاوتها سأله اخوه:

- ها.. رأيك؟

لو كان الملا بينهما لقال كامل رأيه..اختار اجابة غير واضحة:

- لازم اقراها مرة ثانية..

كانا بانتظار عمهما. وعد بالمجيء حالما يستبدل (دشداشة) العمل ويغسل وجهه من غبار الحصو والرمل وبقايا الجص (فلابد من وقوفه مع كل (لوري) يدخل ساحة العمل، يعد أكياس (الجص) ويذرع كميات الحصو والرمل بالمتر والسنتمتر.

قال فاضل لعمه: هذه (الغريب) التي ذكرتها لك من قبل. وقد احجم كامل عن اعطاء رأيه.

جعل الصفحة في مواجهة المصباح، وراح يقرؤها بامعان.. رفع رأسه. تطلع في وجه فاضل ثم ابتسم وأتبع ذلك بتحريك أرنبة انفه.. وطرف بجفن عين واحدة..

أدرك فاضل أن عمه يتساءل بصمت: هو غير راض عنها بالتأكيد:

- رأيك؟

- المعنى لطيف..

ارتفعت حرارة النقاش بينهم.. أحيانا يلامسون أطراف الجد.. ثم تعود بهم معابثات فاضل الى الهزل..

صفق ملا نعمة كفا بكف، وقال:

- شغلتني (الغريب) عن رواية أهم خبر سمعته.. نويت اعلانه قبل تبديل دشداشة العمل..

- ؟

- خير؟

- ثورة في البترا!!

- ثورة؟

فروى لهما هجوم خلف على ضاري بن فالح وتحطيم زجاج سيارته بالزناد.. واصابته بجرح بليغ- بين الجفن والحاجب..

هتف فاضل بسرور:

- بلابوش دنيا!

ثم التفت الى كامل، ولما يتخفف من ضحكته بعد، وقال بنبرة تهكمية:

- هذا طبعا حادث فردي! يؤدي الى تشديد الارهاب ويعطي مبررا.. الخ الخ!!

- أعرف أين مرمى كلامك، لكن مناقشتنا ليلة أمس كانت على مستوى آخر، ثم التفت كامل الى عمه موضحا:

- يعتقد فاضل ان اغتيال نوري السعيد يدفع نضال الشعب العراقي الى الامام.. وكان رأيي..

قاطعه ملا نعمه بخشونة:

- أغرقتما الخبر الطريف السار بمناقشة جافة.. وكأنه لا يستحق الاهتمام.. وكنت على يقين من انه سيحرك قريحة فاضل لنظم قصيدة او مقامة رنانة لتخليد معركة الزناد!!

أجاب فاضل، بجد لا يناسب جو المرح:

- على العكس. لقد حال هذا الخبر بيني وبين مشروع قصة أوشكت على ارساء قواعدها، وكان مقدرا لخلف أن يكون بطلها.. الآن تبدلت نظرتي الى خلف.. ولم يعد صالحا لبطولة القصة.

نظر اليه عمه، وفي عينيه تساؤل..

فأردف فاضل موضحا:

- كان خلف مثاليا (مسيح من طراز آخر..) لم يعرف الحقد طريقا الى قلبه..

قال كامل مقاطعاً، لينفذ من هذه الثغرة، ويفند وجهة نظر أخيه، قبل فوات الاوان.

- اذا لم يحقد ولم يثر على أولئك الذين اغتصبوا لقمة عيشه، فليس سوى مستعبد رضي عبوديته..

أمعن فاضل النظر في وجه اخيه ثم اكتفى بالقول:

- قد تصبح مناضلا ثوريا جيدا.. وقد تصبح سياسياً بارعاً.. أما كفنان فلا..

وبعبارة أوضح (حسبتك واكفه بالفن!)

ثم التفت ناحية عمه، وبسط وجهة نظره:

- كان خلف يتميز عني وعنك بكونه لا يعرف الحقد- وهذا ما يؤهله لبطولة قصتي مثلا- أما وقد أمسك الزناد وحطم زجاج سيارة ابن مهلهل وأسال دمه، لم يعد في نظري سوى شخص اعتيادي.. يغضب ويثور ويثأر..

والتفت ناحية أخيه وقال بلهجة مناكدة:

- مفهوم أستاذ!؟

* * *

لا يوم جوي من غيوم الاسى منجلي

لاني لهلي ولا لحبيبي ولانه منجلي

رفع خلف صوته بهذين المقطعين من الموال.. ثم أقام جذعه ليستند على

الحائط. كان حريصا على بقية من قوة، حرص الغريب على ثمن تذكرة سفر تعيده لوطنه، بعد طول اغتراب: لقد استجاب لك ربك يا حسين وحقق دعاءك الاثير (ياربي حسن العاقبة) كانت البسمة على شفتيك وانت ميت. لم تتألم. ولم يقعدك المرض. لم يطل بك المرض (ياربي حسن العاقبة) ان كان يعجزك شفائي فيسّر لي حضور زوجتي تتولى امري ساعة اعجز عن قضاء حاجتي خارج الربعة.. فلا حرج ولا خجل منها. لازلت قادرا على الزحف الى خارج الربعة.. لكنني أعاني الكثير حين تخلع سكّونة دشداشتي لتغسلها.. أو تلبسني اياها..

* * *

وجدت سكّونة في تمريضه والعناية بأمره شيئا من السلوان، وشيئا من تحقيق الذات:

انا الاسيرة التي أخضع لارادة حمزة.. ولا أملك من أمر نفسي قليلا أو كثيرا. وليس بمقدوري التصرف بميراث أبي، الظاهر للعيان، لا أعرف عن مستقبلي عشر معشار ما يعرفه حمزة، ومع ضعفي هذا أجد من هو أضعف مني ولا يستغني عن معاونتي..

بالغت في حدبها عليه، فهان عليها ما أدخرته ليوم الشدّة.. وصارت تكلف مطشر بن حمزة بالسفر الى المدينة كل ثلاثة أيام ليشتري الفاكهة والمخضرات لعمها المريض.. وتبتاع الدجاج من قريتي مويلحة والصالحية.. فاعتاد خلف أن يسمع من سكونة:

– اليوم أشتشتهي غدا بويه؟

كان حمزة متردداً.. لا يقطع بوجود مبلغ ضخم، بين يدي سكّونة.. ولكن

انفاقها، الى حد التبذير في نظره، على إطعام أبيه جعله يقرر: صحيح أن عنايتها بأبي واطعامها له بر في مواقعه، ولكن لكل شيء حدود.. وينبغي افهامها بأنها ليست حرة في جميع تصرفاتها، ولابد أن تفهم القاعدة (المرأة وما تملك ملك الرجل) وهي الآن ملك رجل.. فقد قررت تزويجها لولدي مطشر.. أما فارق السن بينهما.. وتلك مشكلة حقيقة.. ولكنها ليست بدعة بين العشائر.. وسوف تتلاشى.

الحل.. هو.. التعجيل بالزواج.

* * *

دخل سويلم الصگر وولده فرحان ضحى، الى ربعة خلف فاستبشر بهما وحاول النهوض، لكن سويلم عاجله:

- بروح حسين تگعد.. لا تتحرك.. وثنى ركبتيه أمام خلف فتعانقا..

عاتبه خلف بود: تنقطع عني عشرة ايام.. وانت عليم بوحدتي وقعودي..

ثم التفت الى جهاز الراديو وقال:

- جزاه اللّه خير! صار سلوتي.. چنّه رازونه اتنوع منها على الدنيا كلها. وأنه جاعد بربعتي..

وراح يعدد محاسن الراديو: انه صديق ولا كل الاصدقاء.. تأمره انّى شئت فيتكلم.. لا يعتذر بتأخر الوقت ولا يشكو سوء المزاج، تسكته حالا وبلا مقدمات فلا يثور لكرامته!!

تتعرى أمامه.. تكشف عورتك فلا تتحرج! انه صديق مريح!

سأله فرحان بن سويلم:

- جدي. تعرف كل حچيه؟

- شنهو شغلي بكل حچيه؟!! بعضه اعرفه وبعضه ما أعرفه.. والاكثر ما اريد اعرفه.. وتساءل بغتة: لم اعرف بالضبط ما هذا القمر الذي يتحدث عنه؟

تعلمون أن صحتي لا تساعدني على الخروج من الربعة ومراقبة السماء ليلا.. فهل رأيتم هذا القمر الجديد؟

اغتنمها فرحان فرصة وأجاب باعتزاز:

- جدي. هذا گمر السوفيت.. ربع فرهود.. هذا گمر صدگان فرهود!

كان هذا كافيا لتقريب القمر من قلب خلف، ومع ذلك تساءل:

- شنهو نفع هذا الگمر؟

تلكأ فرحان في الاجابة- لم يكن يعرف ما هي فائدة القمر الاصطناعي..

اعاد خلف تساؤله دونما انتظار لاجابة فرحان: هل يفيدني بشيء؟ كأن يعيد لي شبابي؟!! او يؤخر موتي؟ هذا ما يثير اهتمامي الان.

لماذا لا توجه هذه الجهود الضخمة التي أوصلوا بها قمراً يدور بجانب القمر الازلي- الذي خلقه الباري عز وجل- لاكتشاف دواء يطيل عمر الانسان؟!

سأله سويلم الصگر عن موعد (زفّة) مطشر بن حمزة على سكّونة بنت جودة، فدهش خلف لانه خالي الذهن تماما من هذه المسألة..

وحين أكد له سويلم قرار حمزة بهذا الشأن، واعلانه في أكثر من مكان. اكتفى بالقول:

- ايه.. يا ابن صگر.. گالوها اهل العگل: الما ينسمع له امر ايكف لسانه

وينثمر!

*　　*　　*

قلبت الامر سكّونة مع نفسها: انه صبي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره. ولا أدري متى تجاوزت الثلاثين؟! فأي شيء يصلح أساسا للزواج؟

قد يكون رأي خلف الذي بسطه اليوم فيه شيء من الصواب: المرأة العاقلة تصنع الرجل كما تصنع رغيف الخبز من (دالوچة) العجين..

*　　*　　*

ونظر مطشر للامر بشيء من الزهو:

انهم يعترفون برجولته. وزواجه بسكّونة يتيح له التمتع بأكلات شهية كالتي تصنعها لجده خلف! وقد تعطيه ما لديها من نقود مدخرة.. ومن مستلزمات العرس (قاط) جديد. وعلى اية حال فليس الزواج قيد يشل حركة الانسان..

*　　*　　*

باشر حمود بن شنين، وكذلك مطشر (العريّس) قرع الدنابك والغناء.. قبل موعد الزفّة بثلاثة ايام، وتجلى صوت مطشر الرخيم، حتى بكت زينة لفراق الحبيب..

وبكى خلف، دون أن يشعر به أحد.

أحست سكّونة بلذعة غيرة، وهي تسمع تأوهات مطشر:

لا يمكن صدور هذه التأوهّات عن فراغ!! وتساءلت: أتراه تعلق بفتاة، وهو في مثل هذا السن المبكر؟

وأجابت بنفسها: من يدري؟!

(اولاد هالوكت!) قد يفعلون أكثر من ذلك!!

*   *   *

فكّر الصبي، رهيف المحمد، راعي شياه سكّونة وهو يمسك شاة للحلب: كنت أرهبها من قبل.. اتحاشى نظراتها. والآن تتزوج صبياً لا يكبرني سنا ولا جسما.. وسوف ينام معها كزوج.

ترى على أية صورة ينام العريس وعروسه؟

ان لها أنفاً يشبه عرنين الخروف الاشقر.. لولا هذا الانف المفرط في الطول والعلو.. ما أجملها.. لقد انجلت سمرة وجهها في الايام الاخيرة لمجرد علمها بخبر الزواج. ما أسهل أن تبدل المرأة بشرة وجهها..

خبطت بكفها على فخذ الشاة ايذاناً بانتهاء الحليب.. لم ينتبه، أشارت اليه بكفها.. لم يفطن للاشارة..

زجرته بنبرة حادة:

- اشمالك ساهي؟ عاشج!!

*   *   *

اختبأ ارهيف المحمد وسط الغنم، ليلة الزفّة، وزحف بخفة الثعلب، يتلصص على العريسين.. شاهد تسواهن بنت حمزة قد سبقته الى الالتصاق بـ (جمّالي) العروس، تسترق النظر من كوة مغلقة.. نهرتها امها بشدة (وكان لها من العمر عشر سنوات) فولّت هاربة، دونما شعور بالخجل.

*   *   *

في صبيحة يوم العرس، ضحى، عاد داود من قرية الشيوخ، فناول

حمزة خمسة دنانير، أعلن انها اكرامية الشيخ ضاري للمناسبة.. أثنى حمزة على لطف الشيخ، وعدم اهماله للمناسبات..

فحدجة خلف بنظرة احتقار، ولم يحتمل السكوت. انفجر غاضبا وقال بصوت اجش:

- گوم (انعل ابوك لابو كلمن ما عنده نفس أبيّه) ، يا حيف تتسمّى ابني، ولك انته عايز للخمس دنانير؟ عايز حلال؟ عايز طعام؟ اتهز بذيلك على اشچم فلس امويهن بيد الطروش! كون يعرفون الاصول چامايجي بنفسه ويتبارك لك بعرس ابنك؟!

ومد فكّه الاسفل، فغدت كلماته مثيرة للضحك بعد قلب الحروف:

- انّه يطون عمنه!.. انّه يخنيه.. ذخن للعشينه!!

تعكر صفو المجلس.. واستاء داود مما حدث، فغادر الربعة حانقا..

استغاث حمزة بالناس وبالملائكة من ابيه. فتعالى صوت خلف بشتم الشيوخ.

تحرج بعض الجالسين من اصغائهم لشتائم الشيوخ.

أسرع احمود بن شنين، فحسم الموقف بقرع (الدنبك)، وبايقاع سريع، طغى على شتائم خلف.. ثم نغم ترديدة مرتجلة:

خربت يحمزة خربت..

دار اللبن علشربت!

وصاح سويلم الصگر:

- دگك ابو طبل دگك..

ترا بس تسكت يثور الطوب ابو خزّامه!

* * *

قال فاضل: لا أبدي اعتراضا ولا أمنح موافقة.. اجهل كل شيء عن هذه الامور. أفضل الاكتفاء برأي عمي. أسأله الليلة..

سأل كامل عمه. فاستوضح ملا نعمة:

- منين الولد؟

- يشتغل وياي بالمطبعه..

- منين هوه؟

- من الديوانية..

- أقصد عشيرته؟

- واللّه ماأدري..

تطلع الملا في وجه فاضل، فكانت تعابيره توحي بعدم الاهتمام.

تساءل الملا بانكار وكلامه موجه لكامل:

- توافقون على زواج أختكم من شخص ما تعرفون عشيرته؟؟!

رد كامل، وفي لهجته اعتراف بالتقصير:

- حگ وياك.. اليوم اسأله.. واسأل الناس اليعرفونه.

سأل كامل زميله، محمود، عن العشيرة التي ينتسب لها، مشيراً الى ان هذه رغبة عمه، فأجابه محمود:

- واللّه ما ادري بالضبط. بس اللي اعرفه.. ابوي اجا من الديوانية.. أني فتحت عيني ابغداد.

رتّب الصديقان جوابا مقنعا. وجاء كامل ليبلغ عمه ان زميله ينتسب لعشيرة الخزاعل. فرد الملا:

- والنعم. والثلث تنعام.

ومنح موافقته على الزواج.

اندهش الملا من سؤال فاضل، الذي أقحمه في هذه اللحظة:

- عمي قريت قصتي (حامل أختام الملكة)؟

- لا.

- ضروري تقراها!

*　　*　　*

مد عنقه، وادخل رأسه من باب الحجرة، ولما يزل جسمه خارجا معتمداً كفه على الحائط..

فرفع فاضل كأسه وهتف:

- صحة العم العزيز. الصديق الصدوق. المؤدب الخلوق. الثقة الوثوق.

- لا أرتاح لهذه (الوقوقة!). وقلبي يحدثني بأنها ستجر الى ما لا تحمد عقباه!

ضحك فاضل وقال:

- فلنستبدل.. وسوف أستهل التحية بعبارة ذي الخلق الدمث.

قطب ملا نعمة حاجبيه وقال:

- حذار من هذه الدمث الملعونة.. أراهن على انها ليست لفظة مديح.. واراهن على انها لم ترد في القرآن..

وربما كانت في الاصل شتيمة، فاستعملت خطأ.. وغدت من الاخطاء الشائعة!

ورفع فاضل ذراعيه وقال:

– اذن، اختر الحرف المناسب؟!

رد الملا مبتسما:

– استأذنك الانصراف اولا، لخلع دشداشة العمل، ثم أعود لنبحث أمر القوافي!

*　　*　　*

نشط ذهن الملا، بحثا عن المناسبة: من أجل شرب العرق لن يعدم المناسبة، ينقب في زوايا ذاكرته وصفحات التاريخ.

حرم على نفسه الشرب، اثر حوادث مزعجة، سببها سكره في الحانات:

أوقف ثلاثة ايام- لتعريضه بالملك- وهتف بحياة الوحدة يوم اعلانها بين مصر وسوريا، فأحاطته الشرطة من كل جانب.. لكن مجموعة من الشبان خلّصته من يد الشرطة.. واوصله بعضهم الى البيت بسيارة تاكسي..

قرر أن لا يشرب في المحلات العامة أبداً. لكن شربه في البيت لم يعد مأمون العواقب. ما أن يتعكر مزاجه، حتى يرفع صوته بالهتاف:

(يسقط سيدنا الوصي) أو (يسقط سيدنا الملك) فان نصحته امه، او عانده أحد، فتح الباب وهتف في الشارع. وبسبب من تكرار هذه المنغصات، التي يندم عليها في الصباح، قرر الامتناع عن الشرب الا في المناسبات.

ألفوا مزاجه المتقلب اثناء الشرب. وصف الملا لياليه: (مثل آذار) ليلة يضحكنا، حد التعب. وليلة يزعجنا، حد توقع مداهمة الشرطة في أية لحظة.

عرفوا بالتجربة أن لياليه المزعجة تبدا من معاكسة صغيرة.. أو نصيحة من امه بعدم التجديف والتعريض بطقوس الدين.

صارت تضمر العتاب، حتى يصحو من سكره لكنه ينكر التهمة ويتظاهر أمامها بعدم التعرض للدين.

بيد أن المزحة تحاصره أحيانا، فيترصدها مساء، ساعة تتوجه الى القبلة، وتستهل صلاتها بأدعية، غدت معروفة له، سمعها مذ كان طفلا ولازالت تكررها دون زيادة أو نقصان:

- امسينا بمساك ونطلب رجاك.

خطّار وسيال عندك يا اللّه.

مسية العافية عليكم يهلنا.

دخيل راعي المسية وفاطمة الزچيه.

فيرفع صوته بكلمات لا تفهمها الام. وحين تسأله:

- شتگول يمّه؟

- دعيات بالانگليزي..

- ليش ما تدعي مثلنا بالعربي؟

- قررت اتعلم انگليزي. ومن شروط تعليم الانكليزية (البركتس).

تعرفين يمّه شنهو (بركتس)؟ معناها (اتچّبش) على حچي الانگريز!

تعترف الام أنها لا تعرف معاني تلك الكلمات، ولكنها تصارحه بأن هذه الالفاظ غير مريحة، اعتمادا على حس لا يخطيء.

ما اكثر مناسباته لشرب العرق؟

حتّم على كامل، ذات مرة، ان يذهب بنفسه لشراء نصف بطل العرق:

المناسبة تهمك بالدرجة الاولى.. انت المضيّف ونحن الضيوف.. انها مناسبة اطلاق اول قمر صناعي سوفيتي..

وأخذ نصف دينار من جيب عمه، ليلة اعلان الوحدة بين مصر وسوريا: هذه مناسبة تهمك.. انت قومي اصيل (على شوية شيوعي).

وقال لأمه في مناسبة دينية: عليك أن تدفعي ثمن العرق.. فأنكرت عليه فعله:

– بمثل هالليلة تشرب عرگك يا منعول!

فأجابها بجد متصنع:

– لانها ليلة رهيبة.. محزنة، ما اگدر اتحمل الهموم، والاحزان بدون ما أسكر!

ولما عاودت تعنيفه. ركض ناحية الباب، وهدد بالهتاف (يسقط سيدنا الملك) فهرولت الام الى المطبخ وجلبت ربع دينار وهي تقول:

– هاك يبعد امّك وعمرها! هاك بس لاتصيح.

وجمع ثمن الشراب و (المزه) بالتساوي، عشية اعلان ميثاق جبهة الاتحاد الوطني:

– عمي ممثل الفلاحين، وكامل ممثل الطبقة العاملة، وآني ممثل البرجوازية الصغيرة (مثل ما يگول الاخ) وأمّي ممثلة المتدينين الوطنيين (أهل اللّه) وام سعد ممثلة الكادحات.. وأيام السنة كلها مناسبات لمن يترصدها على طريقة فاضل:

مناسبة اكتوبر ينبغي أن يشرب المرء فيها ضعفين. أليس كذلك يا أبو سعد؟ انها مولد عالم جديد. أما ثورة العشرين، فباكورة جهاد الشعب

العراقي.. وعيد العمال العالمي.. ويوم الانتصار على الفاشية.. عيد المراة العالمي.. أما الليلة فما هي مناسبتك يا أستاذ؟

أجاب فاضل مع ابتسامة رقيقة:

قلت مناسبة ولم أحدد شكلها ولا مضمونها. واليوم علمت أن (الاخ) كميل شمعون قرر استدعاء القوات الامريكية لتحتل لبنان وتقمع انتفاضة الشعب اللبناني.. فوجدتها مناسبة تستحق الشرب!!

- ولعلها تستحق قصيدة؟

زم فاضل شفتيه، وتلفّت في اركان الغرفة، كمن يخشى الجواسيس، وقال بصوت خفيض:

- تركت الشعر.. الى الابد..

- هذا أجمل خبر سمعته!! ما كان يعيبك الا نظم الشعر!!

تساءل كامل بحذر:

- ما هي دوافع هذا القرار المفاجئ؟

- فكرت كثيراً.. وانتهيت الى نتيجة مفادها ان العراقيين كلهم شعراء! ولن يصبح بينهم من يستحق اسم الشاعر الا الموهوب. اما أنا فلست سوى ناظم.. وحسب! ومع كل الاحتمالات الطيبة.. قد أصبح شاعراً مثل الغالبية من شعراء العراق بعد عشر سنوات.. واذا حالفني النجاح، حتى النهاية، قد اصبح في الصف الاول بعد عشرين عاما.. واشك في أن اكون الاول حتى بعد خمسين عاما!!

- وماذا يعني هذا؟

- يعني ضياع حفنة سنين بأنتظار وهم. اريد عملاً يجعلني في الطليعة.

- هل أكملت ربع العرق؟

- تجاوزته قبل مجيئك!

- وماذا تنوي الآن؟

- سأتحول الى قصّاص!

تذكر ملا نعمة قصته القصيرة، التي اشار اليها ذات مرة، فسأله:

- هل بوسعي أن اقرأ القصة (اياها)..

قال فاضل وهو يسلّم الدفتر لعمه:

- اشك ان ترضى عنها.. ولكن من الضروري أن تقرأها أنت بالذات..

شرع الملا يقرأ:

حامل أختام الملكة!

جعلت المشط بين ثنايا الاوراق. مزقت اثنى عشر، هذا يكفي. وحتى الموسيقى تحول دون التركيز. انه ياباني عجيب التركيز بيديه الاثنتين بلغتين مختلفتين، مترجما عن اللغة الام، التركيز قضية أساسية. ما هي القضية؟ معني بالاحكام التي يصدرها الآخرون. استعمال لطيف يصلح لمائدة الشراب: عن أي قضية تتحدث ياولد؟ قضية كافكا؟ القضية العربية؟ قضية البعثة؟ قد تكون. ما أسرع عودته يحمل شهادة الدكتوراه. في امريكا تستطيع شراءها.. وفي باريس الامر متوقف على (نشاطك) في الحي اللاتيني.. الفخورون بشهاداتهم بلا منازع خريجو الجامعات البريطانية.

- من فضلك.

- لم نتعارف بعد

- اعرفك تماماً ولهذا تعمدت ان نتحاور.

- الموضوعية شرط أساس..

- لو كنت مكانك رفضت هذا المنصب.

- وافقت مبدأ الامر أن تكون الموضوعية..

- اسمع. انه شيء مخجل..

- ما هو العيب في هذا.

كانت تداعب شعر رأسه. ترامقني باشتهاء. لحظ ذلك أوشك ان يبتسم لها.

- اخجل أن يشار الي؟ هذا حامل اختام الملكة، لو كنت مكانك رفضت.

- ولكنني عضو في مجلس الوزراء البريطاني.

- الاسم يخجلني..

- افرض ان الاسم (حامل أختام الملك)؟

- يكون الامر مختلفاً.

- والموضوعية؟

ثم التفت الى الملكة، كانت منحنية أكثر مما ينبغي. ترامقني بنظرات شهوانية.

سألها:

- اليس كذلك؟

قالت: تعجبني سمرة وجهه..

- انهم كذلك.

أزعجني بروده. أهملته الملكة على نحو مخجل. قربت نفسها مني. تشممت رائحة بخور (جاولي). وددت لو يصفعها - البارد -.

سأل:

- قل لي ألا تحمل اختاماً؟

- ابدا.

- ولا حتى أختام الشيخ ابن مهلهل؟

- (اتخسا!)

- أليس هذا واحدا من أختامه؟..

- (اتخسا).

- وهذا خاتم آخر.

- (اتخسا).

واصل ضحكته البارده.

- ما الذي يضحكك؟

- اعتزازك بحمل اختام الشيخ ابن مهلهل.

- الم اقل اتخسى؟!

- الم اقل انها اختام ابن مهلهل..

مد يده على ظهر الملكة، ترك أصابعه تنساب حتى ردفها. برود يثير الاعصاب. سأحطم هذه الاعصاب الباردة. قلت مناكدا:

يا حامل أختام الملكة!

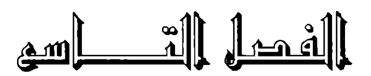
ضحك. طبطب بكفه على ردف الملكة. أخرج سيجارا أشعله. نفث الدخان بوجهي. استأنف ضحكته وقال ببرود:

- يا حامل أختام ابن مهلهل!

فقدت بقايا صبري. جمعت قبضة كفي. لوحّت بها أمامه، لأحطّم وجهك

البارد يا بارد.

انقلب مصباح المطالعة. سقط كتاب كافكا (القضية) على الارض. لم ينته الراديو بعد من تلاوة اسماء أعضاء مجلس الوزراء البريطاني.. استدرك المذيع يقول: بيد أن حامل اختام الملكة يشغل منصب وزير التنمية وكالة..


الفصل التاسع

- فاضل..

- لبيك يا اماه!

- احچ وياي عربي..

- امرچ..

- واعدتني نروح لاخوالك بالعطلة.. وگضى من العطلة شهر.. واشوفك امدغلس!

- وكيف واين ومتى حصل مثل هذا الوعد المزعوم؟

- گتلك احچ وياي عربي!

- امرچ.. يبعد ابنچ وعمره! غالي وطلب رخيص. باچر طگة ابريج احسبي السيارة بالباب، من هاي اليگول عليها الشاعر (ام الغماره) ارد اشرد لبغداد بأم الغماره.. واشبلشچ ياروح بأهل العماره.. ولازم اجيبها احسن من سيارة ابن مهلهل.. ولازم لو اگبلنا على بيت خلف اتدگ هورن مربع طط طط طيط طيط!

قال ملا نعمة لفاضل مداعبا:

- هسه يگولون اهل البترا جاي يستعطي- لان سوًا جيته، هوه وامه، بأيام الجسمه..

- اشگد تتصور يطونا؟

- تحصل لك تغار!.

- گلي اشچم بطل عرگك اتسوي فلوس التغار؟

- تقريبا اربعين!

- واللّه تسوا.. واحد يبيع ماي وجهه!!

شغلت ام فاضل بأعداد هداياها، التي ملأت حقيبتين، ولم ترهق والديها بشراء شيء منها. فقد جمعتها بصبر وطول اناة، على مدى سنوات: ملابسها القديمة وملابس كميلة قبل الزواج، وما استغنى عنه فاضل وكامل.

اصلحت القديم، وابتاعت الجديد الذي وجدت ضرورة لشرائه. لم تنس واحدا من اولاد اخوتها ولا بناتهم ولاخوتها نصيب مما جمعت وابتاعت.

سألها فاضل:

- لا تنسين شي. گولي اخاف محتازه غرض، حتى اشتريه..

- بعد بس چكليت الجهّال. وچاي وشكر لاخوالك..

* * *

هرع آل صگر، رجال ونساء، وقبلهم الاطفال، مرحبين مستبشرين بمقدم فاضل وامه.

بدت ام فاضل في عباءتها الكتان وفوطتها (الجز) وحذائها اللماع (مثل الشيخية وأحسن..)- هكذا وصفتها احدى نساء العلوه.

اسعف فاضل بالماء.. غسل وجهه ورأسه، ثم استأذن الحاضرين فخلع جوربه وغسل رجليه..

ازدحمت ربعة سويلم الصگر باهل العلوة، فأمر ولده (فرحان) بكنس كوسر الربعة ورشه بالماء..

تساءل فاضل، وهو يحرك (المهفة) قرب وجهه، على نحو عصبي:

- كليوم الحر عدكم هالشكل؟

اجابه خاله كزار:

- اليوم احسن من كل الايام.. اليوم نعمه من الحسين.

اراد فاضل ان يقول دعابة ولكن سرعان ما تذكر وصايا عمه: صحيح ان الفلاحين كلهم الآن ضد الاقطاعيين، ولكن حذار من شتم بيت مهلهل في الديوان. فلهم عيون وجواسيس في كل قرية... وثمن ذلك (لو فرطت وشتمت) تمضي ايام الصيف في (نكرة السلمان) ووصيتي الثانية، ولها اهمية خاصة، حذار من التعرض لطقوس الدين.. حتى بين التقدميين من الفلاحين.

* * *

حين غربت الشمس، اقترح سويلم على فاضل ان يخلع نظارته الطبية فتساءل فاضل:

- ليش خالي؟
- چا غير الشمس غابت.
- شنو علاقة الشمس بنظارتي؟
- چا غير لابسهن عن الشمس..
- لا خالي. هذني للقرايه والكتابه.
- معنى، كون واحد يلبسهن يقرا ويكتب؟
- طبعا.
- چا ما تطيني اياهن؟
- وآنه بيش اقرا واكتب؟
- اشتر غيرهن.
- غاليات.

- بيش؟

- اهوايه فلوس!

- يا خالي، والعباس ابو فاضل، ابيع الهوايش واشتريهن.. آنه هوايه مندوم على القرايه والكتابه.

- الهوايش اشكثر؟

- الكبار اربعه.

- اربعه ما يكفن، لكن تگدر تشتري بيهن نظاره بس تكتب بيها!

- لا يا خالي. اريد اقرا واكتب.

- ينراد لك ثمن هوايش!

- يا خالي چا اشلون بيّه؟

اوشكت الصفقة ان تتم، بين الخال وابن اخته، لولا ان تسرع فرحان وافسدها بضحكته.

* * *

ذبح سويلم الصگر عجلا سمينا، ودعا اهل القرية كلهم على العشاء..

قال فاضل لخاله، وهو يتناول حصته من اللحم:

- اتگولون على الحضر: اهل الدجاج. اشو ما ذبحت لي دجاجه؟

- بيك خير واشبع دجاج، من عين باچر، لكن الليلة، معلومك، هاي الذبيحة لوجه اللّه، من شفناك انته وامك.

- اذا الذبيحة لوجه اللّه، معناها وجهي ظل خالي؟!!

ضحك سويلم وقال لفلاح يليه على الصحن:

- اشلون بصرك؟ هذا دارس كل الفنون وآنه عليك يا اللّه. ما اگدر على

لسانه..

رد الفلاح بأقتضاب، مؤثرا الاكل على الكلام:

- عيسى بدينه وموسى بدينه!

* * *

اجتمع شمل العائلة، بعد تفرق المدعوين، نساء ورجالا، بعيدا عن البيت، في الجهة الغربية، وقد تلطف الجو بنسمات باردة، محملة برطوبة شوك البترا و (عاگولها).

تساءل كزار بتحريض من شقيقته، ام فاضل:

- خالي ليش ما تتجوز؟

- يا خالي انته سامع كلشي قسمه ونصيب، بعده نصيبي ما جاي!!

قال سويلم:

- من صدگك ننشدك، موش كشمره.

اجاب فاضل بجد:

- الزواج يا خالي موسهل. ينراد له بيت. والبيت موهين..

ثم تغلب جانبه المرح فأضاف:

- .. ما سامع، بيت اللّه. فلان راح لبيت اللّه.. ويگولون للحجي: وحگك البيت الحجيته.؟

تنهدت ام فاضل وقالت:

- گلبها على الكشمره.. ردينا للسوالف اليخوفن.

ثم تذكرت وصية ملا نعمة، وسألته:

- نسيت وصية عمك؟!

اهمل ملاحظة امه وسؤالها. وراح يعدد متطلبات البيت، مع بعض المبالغة، فبدا لسامعيه وكأن الزواج مشكلة عويصة غير قابلة للحل.

قال سويلم متعجبا:

- سويتها سير وسريده!! حسبالنا مثل بيوتنا وجوازنا: اربع بواري وشدّة گصب، وعجل بليلة الزفّه!!

قالت الام لتحرض عليه اخواله:

- هاي كلها اعذار.. مايريد يتجوز.. مايريدني اشوف اولاده.. وازيح ضيم گلبي!

اعاد رأيا معروفا لامه:

- آنه اگول يتزوج كامل.. وبعدين افكر.

سأل كزار على ذچر كامل: طابعته اليشتغل بيها للحكومة؟

- لا. اهليه..

- خوش يا نعمتك ياربي..

- عجب! اشو بيها يا نعمتك ياربي..؟

- يا خالي، كونها للحكومة نخاف يطردونه.. من حيث هوه هم مثلك، موش جاعد راحه، يحچي على الحكومه!

وتساءل سويلم:

- گلي اشيطبع كامل بطابعته؟

- يطبع حچي!!

- معنى.. هوه ايسوي الحچي؟

- لا. ولالك لوا!! هوه مثل عمتي ام فرحان ايجيبولها الغزل مصبوغ

وتحوكه سجاجيد!!

ابتهجت عمته لهذه الالتفاتة وقالت:

- فدوه اتروح لك عمتك.

* * *

هذا وحده يكفي مبررا لاحتمال مشاق التنظيم وتبدو سخريتي مما يقوله الملعون فرحان كمرثية في ليلة عرس. هي نفس الافكار التي تنساب على لسان كامل- والى حد ما على لسان عمي ملا نعمة تساءل ثانية وهو يهصر الوسادة، رافعا ساقيه الى اعلى:

- وكيف يحل هذا التناقض؟

كرر فرحان اجابته، مضيفا اليها: وليس بالضرورة ان يكون لصالح الشعب. فقد تستغل هذه النقمة.. وتتخذ وجهة غير صحيحة.

لم اصدق عمي- مع كل الاحترام الذي اكنه له- بأن الوعي في الريف قد بلغ هذا المستوى. ولكن هذا التفاؤل بالثورة، الذي يملأ جوانح فرحان، هو ما احتاج اليه.

نده فاضل على ابن خاله:

- فرحان.. فرحان.. اخاف نمت؟

- لا. ولو تعبان، لكن متونس على سوالفك!

- ولك ابو الويو منين لك هالمعلومات؟ منين تعلمت هالسوالف و (المفهوميات)؟!

ضحك فرحان مزهوا، لكنه غلف اجابته بالتواضع: ليس ثمة معلومات ولا علوم.. ان هي الا امور نعايشها صباح مساء.. فأن تيسر لنا

توصيلها لامثالك بدت وكأنها معلومات لا يعرفها الا من اوتي شيئا من العلم والتعليم!!

لست بحاجة الى معلوماته وتعليماته.. فلطالما سمعتها من كامل- على هذه الصورة او تلك- ان الذي ينقصني تفاؤله بالثورة وحتميتها! رغم سذاجة التعبير.. وآثار التلقين في اقواله.

- ولكن كيف تصلكم هذه الاخبار والنشاطات التي تبدو خيالية في ريف متخلف وبين اناس مثل ابيك واعمامك؟

- هذا ابي.. وقد صرت على بينة من كل افكاره ووجهات نظره. هو لاغير، يدفع لي تبرعات شهرية.. يعرف انها تذهب للحزب الشيوعي العراقي..

فما وجه الغرابة اذن؟

لقد كنت على خطأ بين في نقاشي مع كامل..

سأله مرة اخرى.

- فرحان نمت؟ فرحان فرحان..

اجابه بشخير متواصل.. لم يسبب له ازعاجا فيما بعد.

* * *

انهى فاضل فطوره على عجل، واشار الى فرحان بكفه:

- الى بيت خلف سر!

حدثه فرحان، وهما في الطريق، عن تغير خلف المفاجئ، وكيف صارت تطربه الشتائم الموجهة الى بيت مهلهل، وكل الشيوخ. واعتبرها فرحان نتيجة لتصاعد نقمة الفلاحين ضد الاقطاعيين:

وذات مرة تمنى خلف، لو عاد اليه نشاط الشباب لا قضّ مضاجع (بيت مهلهل) او على حد تعبيره: (چنت اصير الهم مثل اسهيل بالماي للاباعر!) ومرة قال، وهي مجرد امنية، لو عاد حسين الى الدنيا ثانية لتبعته في كل ما يقوله ضد (بيت مهلهل) وجعلنا نهارهم اسود مثل (ليلة الحرامية).

تصور لقد صار يسألني كلما ذهبت لعيادته (ربع فرهود- الشوعية- اشلونهم هليام؟)

ثم قال فرحان وهو يتفحص الهدايا:

- اشكبر فرحته لو اطيته هاي الصوغه؟ اكيد يبچي.. ويگول: ياهلا بريحة حسين!

ضحك فاضل وقال:

- گبل چان ايگلي الفهم الك ولاهلك.. هسه يمكن يگول:

الكرم الك ولاهلك!

اقترح عليه فرحان ان يحمل الهدية بيده، حين اقتربا الى ربعة خلف، ويقدمها بنفسه، فذلك ادعى لاعتزازه بالهدية. ثم روى لفاضل كيف ثار خلف على ولده، حمزة، وشتمه حين تقبل اكرامية الشيخ، لمناسبة عرس مطشر بن حمزة، مرسلة مع داود خادم الشيوخ.

اتخذ فاضل من الحكاية اساسا لدعابة عاجلة.. وتخيل (خلف) ثائرا عليه وعلى فرحان وتقمص شخصيته وراح يصيح بصوت مرتفع:

- گوموا.. گشاتله! اطلعوا من ربعتي. حضرته يستنكف ايشيل صوغته بيده.. جايب له واحد ايشيلها وياه.. عود صار افندي.. مية افندي بگشر بصل!!

*　*　*

كما قدر فرحان، وتخيل لحظة اللقاء، بكى خلف بحرقة وردد:

- ياهلا بريحة حسين.. اشم ريحة حسين.

ثم رجا فاضلا ان يخلع نظارته:

- ذب جزازاتك. خلني اشوف وجهك.. چني اشوف وجه حسين بأيام شبابه!

حل خيط (اللفة) فاضل وقال:

- جدي، ابو حمزة، جبت لك صوغه..

قال خلف دون ان يحول عينيه عن وجه فاضل!

- شوفتك صوغه يا ابن حسين..

اخرج الناموسية (جديدة وشفافة)

- هاي كلّه، تحميك من البگ والحرمس بالليل! ثم اخرج قطعة قماش طبي ونشرها بين يدي خلف:

- وهاي تغطي بيها وجهك بالنهار عن الذبان..

ونفض (دشداشة ململ) ووضعها بين يدي خلف:

- وهاي دشداشة خفيفة تناسب حر تموز..

واخيرا امسك قطعة قماش ابيض، بعرض وطول ذراع وقال:

- هاي چفيّه اتحس بيها اديك.

ضحك خلف مبتهجا وقال:

- صلوات.. صلوات. ابيض بأبيض.. كلّه ابيض!

ثم روى حكاية:

منذ عشرات السنين.. لست ادري بالضبط، كم كان عمري يومذاك.. وما عدد السنين التي يفصلنا عن الحادث. لكنني كنت اصغر من فرحان.. ذهبت مع عمي الى الكوت. بعنا ثورين. قال عمي: اعوضك اليوم عن التعب- والركض وراء الثيران بأكلة لم تحلم بها طول عمرك. اشترى تمرا بـ (قران) وملأ وعاء فخاريا بالدبس، اظنه دفع عنه نصف قران.

حملنا غداءنا وجلسنا على شاطئ دجلة، بمواجهة السوق.. ورحنا نغمس التمر بالدبس..

اجتازنا رجل يعتمر (فيسه) (مما كان شائعا ايام العصملي)..

هز يده استغرابا وقال:

(واي واي!! حلو بحلو.. الف سنة العرب ما يطلع بروسكم خير! يغمسون حلو بحلو..)

اضطرب عمي وركبه الخوف.. ولما ابتعد الرجل ذو الفيسة، رمى وعاء الدبس وبقايا التمر بالنهر وقال بأرتباك:

(شويب ميتك.. هذا ابو فيسه اظن راح يخبر علينا الجندرمه.. وياخذونا للحبس.. ويسوون حديد واحدنا وزنه..، ما سمعت شيگول؟ يغمسون حلو بحلو! معناها مارضى علينا..

ولك هاي حكومة، ماينعرف اليرضيها من اليزعلها! واشمدريك ما ممنوع تغميس التمر بالدبس؟!

هربنا بجلودنا.. ولازلت اذكر كلماته، واتخيل صوته المضطرب:

(شويب ميتك حلو بحلو!)

فتح خلف علبة البسكويت، وتذوق قطعة منها، فعاود الضحك ثانية

وقال:

- واي واي.. وهذا هم حلو! يا نعمتك ياربي.. ابيض بابيض والاچل حلو!

*   *   *

ارتفع صوت خلف، حتى طغى على صوت الراديو، تناهى الى العائلة المجتمعة لشرب شاي الفطور:

- جمهوريه.. جمهوريه. ولكم جمهوريه. حيهم.. حيهم..

هب حمزة مذعورا وتكنّى:

- انا ابو مطشر.. يا اللّه دخيلك. ياساتر ياربي. زعم انشخط الشايب!

سمعوا صوت الراديو بوضوح:

- اذاعة الجمهورية العراقية..

رفع خلف ذراعه ولوح لحمزة:

ولك جمهورية! هاي اليريدها فرهود.. يا فرحتك يا فرهود.. يا فرحتك يا فرهود..

وصل حمود بن شنين مهرولا، فكان اول من لاحظ وقوف خلف على رجليه.

لوح له خلف بانفعال:

- ولك يحمود هاي الجمهورية اللي تمناها فرهود! يا فرحتك يا فرهود!

عبث داود بمؤشر الراديو: نفس المكان الذي تبث منه اذاعة بغداد كل يوم. ياللهول!

شجعته زوجته على الذهاب الى ربعة خلف، ليتأكد من جهاز الراديو

الآخر. اندس وسط الحلقه. قال باضطراب:

- هاي يمكن اداعة سريّه!

اتكأ خلف على حائط الربعة. لوح بعصاه في وجه داود وصرخ:

- گوم. اداعة سرية؟!! سرسرية! هيدا روح لشيوخك.. اليوم يتفلش غصرهم على روسهم!

قال حمزة ينصح والده:

- بويه على كيفك.. هسه احنا عرفنا القضيه شنهي ما شنهي. لا اتصير مثل البدّا مايه على السراب!

زجره خلف بنفس اللهجة التي خاطب بها داود:

- كوم. امخنّث! خايف منهم؟ نعلة والديهم ما ايگص الراس غير الركّبه.

*   *   *

اكتض فناء ربعة سويلم الصگر بالرجال والنساء والاطفال.. كان فاضل يصيح:

مظاهرات.. مظاهرات..

ارتقى فرحان بن سويلم (السوباط) وهتف عاليا:

- حيهم.. حيهم.. النشامه سلاحكم سلاحكم.

صاح فلاح آخر:

- البيرغ.. البيرغ.

خلع احدهم يشماغه، ليشد على رمح (فاله) فزجره فرحان:

- لا. لا. هذا ابگع شوفولنا وصلة حمرا..

ردد فاضل من وسط الحشد:

- حمرا.. حمرا.. وصله حمرا..

* * *

تحلق الفلاحون حول فاضل. اشار عليه فرحان بضرورة قيادة الجمع والتوجه الى قصر الشيوخ.

لعلع صوت الرصاص في الفضاء.

تحرك الجمع، نحو بيت خلف، الذي يقع على الطريق المؤدي الى قرية الشيوخ وقصرهم. تذكر فاضل خلفاً، في تلك اللحظة فصاح:

- هوسه.. هوسه على حساب خلف!

تزايد اطلاق النار. دهش الفلاحون وهم يرون خلفا يستقبلهم بخطى ثابتة. تضاعف حماس الفلاحين.. اهتزت الارض تحت اقدامهم. لوح خلف بعصاه.. وتساقطت دموعه: ما اعذب هذا الهدير! ما اروع اقدام الرجال وهي تركل الارض بحماس. هذا ما كنت اريده.. وهذا هو سبب بقائي وشقائي..

ياله من يوم ويالها من فرحة لا يعوزها الا وجودك يا فرهود.

اصر خلف على مرافقة الجمع. لم يكن ذلك سهلا عليه. رجاه فاضل وفرحان، من اجل الثورة، من اجل ان لا يتأخر وصولهم، فليؤجل ذهابه. قال خلف بحماس:

- ردت لي هوسه ابّاب العصر.. وعسى الموت باچر!

* * *

همس داود لزوجته:

- اليوم الفلاليح يذبحون ضاري..

خبطت زينة على صدرها وشهقت:

- يمّه.. يمّه يذبحونه؟!

عض داود شفته السفلى وقال برعب:

- اس. يمعوده، لا يسمعنا احد. اليوم كل الوادم مشخوطة مثل خلف.

* * *

وقف صالح ابو البينه، راعي غنم الشيوخ، على مترب جدول البترا، يراقب بذهول ما يجري في قرى العلوة ومويلحة والصالحية. خمن كل الاسباب المحتملة، فأستقر عند واحد، بلغ في ذهنه مرتبة اليقين. ساوره احساس بالمشاركة، فقال بأشفاق مباغت (يا حيف واللّه يا ابن مهلهل تموت ببلاد الاجانب) ثم ساءل نفسه متعجبا: ولكن كيف اجتاز بيتي رسول النعي، وبلغ اهل العلوة ومويلحة ولم نفطن اليه؟

قدر ان ولده اطال المكوث في قرية مويلحه، اكثر مما ينبغي: هذا مع التأكيد على رجوعه عاجلا، قلت لا تترجل عن ظهر فرسك.. خذ الخبر من اقرب كوخ وعد الي مسرعا، لا يعرف معنى الانتظار والقلق، ليس عبثا قولهم (العاجل ودّه ولا توصيه) اما الجاهل فلا تنفعه الف وصية.. لابد انه في بيت عبيد، مثل كلب جائع، يسترق النظر الى خطيبته ويتلمظ.. لا يهمه ان كنت اتقلى انتظارا..

رأى الغبار، اولا، تثيره حوافر الفرس، ثم سمع وقعها شديدا، حيث كانت الارض صلبة. زفر حانقا، وعض شفته السفلى: يريد التعويض عن الوقت الذي صرفه بجانب خطيبته.. آخ.. من متاعب الاولاد والبنات...

ليتني..

رأى جنيدي منحنيا فوق ظهر فرسه، مطلقا لها العنان. بدا وكأنه يتنشق رائحة المتاعب، ويبصر الشؤم كالغبار المتطاير من حوافرها: لم اقع في الوهم.. ولم تخدعني ظنوني من قبل.. ليس سوى خبر نعي الشيخ فالح وسوف يلحون على اخذ كل (الطليان الهرافي).. من يدري وهذا الولد ضاري جديد على (الشيخه) ويذبح بلا حساب ليثبت انه فاق الاولين والآخرين بسخائه ولعله مأخوذ بشهرة حاتم طي (افلست يا صالح يا ابن الغبرا من صوف العگ)..

اقلع عن الحدس المضنى، ليواجه الخبر اليقين، فهتف متسائلا:

- ها ولك.. شنهي ما شنهي؟

اجابه جنيدي لاهثا:

- مدري شنهي ما شنهي!

- ولك احچ.. وگعت گلبي..!

- ثورة مدري انغلاب مدري ثورة مدري شنهي!

- ولك احچ عدل. سويتها رطونه!

- راح الملك..

- راح الملك؟

- وراحت الحكومة..

- راحت الحكومة.؟

- ايه وراحوا الـ... مدري شنهي ما شنهي!

- ولك انته انشخطت؟! سولفها مثل ماهيه..

- اكلك ثورة..

- ايه وبعد؟

- چا بعد شتريد.. ازود من هالخبر؟

- لاحول.. لاحول.. چا الوادم اشعدها انخبصت؟

- غير ثورة؟

- اهل العلوه ليش علگو بيرغ؟

- چا غير گتلك ثورة!

- حرام.. ان چان افتهمت شي!

- گلنا لك من زمان خلنا نشتري راديون مثل الوادم!

- ولك انته موش صاحي! يمكن انشخطت انوب جايني بسالفة الراديون؟! آنه موش گلت مادام خشمي ايشم الهوا ما ايطب بيتي راديون؟

سمع أزيز الرصاص يخترق الفضاء. لمح (البيرغ) الاحمر يستدير وسط جمع اهل العلوه. تحرك الجمع، باتجاه بيته: هذا غير مفهوم ابدا.. راح الملك.. وما شأن اهل العلوه؟ هل يشيعونه.. ما معنى هذا الرصاص والهوسة والبيرغ والغبار يملأ الافق؟ واهل مويلحة يتراكضون ليدركوا اهل العلوة.. والجو تغشاه الكآبة!

لم تخدعني ظنوني من قبل.

وتساءل بذهول:

- هذا الافندي اليركض جدام الجيمه شنهو؟

- هذا فاضل المعلم.

- ابن ناصر الحسين؟

- ايه.

- شوهاي مدري شنهي ما شنهي؟!

بعث المختار ثانية؟ واهل الكوفة انفسهم يتصايحون: يالثارات الحسين!

ما الذي يريده ابن ناصر؟ هل يأخذ بثارات ابيه وعمه؟

لوح فاضل بذراعه، كالسيف المصلت، وقال مداعبا (ابو البينه):

- خاف يجيك واحد من الشيوخ لا تنطيه ولا طلي!

فأضاف حمود بن شنين:

- ولا عطب صوف!

وتناهى صوت عودة الكبر من وسط (الجيمة):

- ولا بعرروره!!

شد لحيته بعصبية: هل انا في حلم.. أيجثم كابوس فوق صدري؟ ماذا اری وماذا سمعت؟

تضخمت (الجيمة)، عندما التحق بها اهل الصالحية.. تكاثر اطلاق الرصاص في قرية الشيوخ: هل اخذ المختار بثارات الحسين!؟ طال انتظاره، حتى اشتد الحر. اجتاحت البترا موجة من ريح السموم، تشوي الوجوه..

شمل الافق قتام كثيف.. صعبت عليه الرؤيا.. رجع الفلاحون بلا هوسة، يشكلون صفا طويلا يتقدمه فاضل. ولما بلغوا غنم الشيوخ، صاح عودة الكبر معابثا:

- احسبوا الغنم.. هاي صارت غنم الشعب.

حاور صالح نفسه، وقد ارتعشت ساقاه:

الشعب؟ هو نفسه الذي فرهد خيام الحسين وعاد ثانية يصرخ يالثارات الحسين..

تطوع عدد كبير من الفلاحين، وشقوا طريقهم وسط الغنم، ثم راحوا يومئون بالاكف عداً. تبادلوا بضع كلمات، لم يسمعها صالح ابو البينه، بعدها ارتفع صوت فرحان بن سويلم:

- مضبوط.. مضبوط الف وميتين وخمسين..

قال صالح بهلع:

- عمي، دخيلكم ودخيل اللّه، حسابكم موش مضبوط، وهاي موش كلها غنم الشيوخ.. ثانية وبعد..

قاطعه حمود بن شنين، بسخرية ظاهرة:

- هذا الحچي ايفيدك.. ايصير عليك مثل يوم الغيامة وحساب منكر ونكير!

صاح عودة الكبر، ولا اثر للمزاح في صوته:

- لو راح راس من الغنم، ترى حكومة الجمهورية اتودي جلدك للدباغ!!

لعب الفار في (عب) حمزة: اي نوع سخيف من المزاح، هذا الذي يمارسونه، ما علاقة الجمهورية بالغنم؟ ولكن يا حمزة الشاطر! اتكون تقولات الناس عن الشيوعيين صحيحة؟ يستولون على اموال الناس عنوة ويصبح كل شيء (خلط وشْ!) ويصادرون شياهي (وما شفناك يانون لما اخضرّت العيون)؟!

لا تكن غبيا الى هذا الحد.. فليس حمزة الخلف كالشيخ ابن مهلهل. لا

تنسى انك تتدرع بأسم خلف عدو الشيوخ اللدود.. ولك اخ شيوعي عتيق- يشفع لربيعة ومضر لو اراد..

ولكن يا حمزة السفيه.. خربطت.. واسأت العلاقة به.. ومع ذلك فلا خوف ولا وجل.. لابد ان يتحرك الدم ولن يخذلني يوم الشدة.

اقتفت آثار الفلاحين اخبارهم.. وما صنعوا بقصر الشيوخ.. سمعها مهيدي بن صالح مضخمة ورواها لابيه ممطوطة:

- طبوا للغصر.. نهبوا كل مابيه.. وكسروا بگايا الغراض.. ولولا سيد حسن الكربلائي چان ذبحوا بيت مهلهل نسوان وزلم!!

حاول صالح ان يبلع ريقه.. وجد لسانه كالخشبة اليابسة.. استنجد بالنساء محشرجا:

- ما.. ي.. شوية ماي!!

عاودته حكة قديمة، فوق السرة، راح يهرش جلده بقوة.. لم يجد الراحة الا حين ادخل طرف عباءته تحت الدشداشة، ودعك المكان بالنسيج الصوفي الخشن.

لاحظت ذلك زوجته، فأسرعت الى وسادتها، واستخرجت طينة مجففة، بحجم التفاحة، تفل عليها السيد ابو شرارة، فأحتفظت بها العائلة، منذ زمن بعيد، يفيد منها كل مريض، ولشتى صنوف المرض. برت قليلا من الطين في طاسة الماء، وناولتها اياه قائلة:

- اخذ.. اخذ.. هاي من طينة ابو شرارة، داخلين على جده، ادهن بيها جلدك.

تناول الاناء بكف مرتعشة. ادار وجهه ناحية اخرى، مخافة ان تظهر

عورته، فقد آلى على نفسه ان لا يلبس سروالا داخليا.. اعتبر ذلك بدعة وقال اكثر من مرة: فتحت عيني في قرية تزيد بيوتها على المائة ولم ار احدا يلبس اللباس.. حتى سعدون بن مهلهل- اللّه يرحمه- كان يلبسه ساعة يركب الفرس.. ثم يخلعه لحظة ترجله.

مسح بطنه بالماء. التقط طينة صغيرة وضعها فوق مكان الحكة.. وتمتم بأدعية.. ثم رفع صوته مخاطبا السيد ابو شراره على البعد:

- يا ابو شرارة داخلين على جدك، الك نذر طلي گيضي، كون اتخلصني من هالحكه.. وتكفينا شر هالزوبعه.. اللي ما نعرف اولها من تاليها..

توجهت زوجته ناحية الشرق، ولوحت بذراعها الى مقام سيد سراب، ودعت:

- يا سيد سراب، يا ابو الفوانيس، الك نذر ديچ، كون ايطيب ابو مهيدي، ونطلع سلامات من هالحوسه..

تذكر صالح فجأة، انه مدين للسيد سراب بنذر، لا يتذكر ما هو على وجه التحديد: ايكون طليا؟ لا اظن.. لم اقع في ورطة من قبل تستحق نذرا كهذا.. كان الاولى بي ان انذر طليا اليوم الى سيد سراب بدلا من السيد (ابو شراره)، الذي يعيش على مجد غابر لا شاهد عليه الا ضميره- يقول والعهدة عليه- حل الضيوف في ربعتي، وهم في عجلة لمتابعة مسيرهم الطويل. ولم تجد زوجتي نارا لاشعال التنور.. فوقفت بجانبه ونفخت فيه- وحينذاك انطلقت من فمي شرارة اشعلت التنور، ومن هنا كنيت (ابو شرارة) اما فيما عدا هذه الآية فلم نشهد بالعين اية معجزة اخرى! اما

بالنسبة للسيد سراب فالامر مختلف تماما، في كل ليلة جمعة وفي ليالي الاعياد يشتعل فانوس في مقامه، من تلقاء نفسه والى هذا فالسيد ابو شرارة- وانا دخيل جده!- كثير النفاق بين يدي الشيوخ.. يتزلفهم شأن ملا علي وابن اخي داود.

انتفض لهذا الخاطر الخبيث الذي اقتحم ذهنه عنوة، وجعله مطية لوساوس الشيطان. فأستعاذ بالله، وعاتب نفسه: أفي مثل هذا الشبدة اضع نفسي محل الناقد لاعمال السادة اولاد رسول الله؟!

ثم رفع صوته مستدركا:

- دخيلكم كلكم.. زغيركم وچبيركم.. چذابكم وصداگم!

*　　*　　*

كان الشيخ ضاري بن فالح يقف في واجهة المضيف، ممسكا الترانسستور بيد، وحبل المضيف باليد الاخرى، وعن يمينه السيد حسن الكربلائي، وعن يساره ملا علي كاتب الشيوخ. ولم يفطن الى مواعظ السيد الكربلائي، الذي راح يحثه على الصبر ورباطة الجأش.. رأى بوضوح كثرة الجمع، وسمع الهوسات. ومن قبلها اطلاق الرصاص.. تبلد فكرة.. وشلت ساقاه.

اقتربت الجيمة. اوشكت ان تعبر الشارع العام، فهمس له ملا علي:

- روح للبيت.. لبيت العيال..

ايد السيد حسن هذا الاقتراح بقوله:

- اتجنب الاحتكاك بالزعاطيط.. وسيقضي الله امراً كان مفعولا..

ولما عبرت الجيمة شارع السيارات استوقفها فاضل، والقى كلمة

قصيرة، حذر فيها من الانجرار وراء الاستفزازات واوصى بعدم التعرض لممتلكات الشيوخ.

قال عودة الكبر:

- انريد النا هوسه زينة ابّاب القصر اتلعب ابطونهم!

وقال حمود بن شنين:

- حتى استافي الخيزرانه الكسروها على ظهري.. گولو بيش؟

- بيش؟

- ألطخ باب القصر بزهمول طين!

قال عودة الكبر:

- وآنه استافي خيزرانتي، گولوا بيش؟

- بيش؟

- ابول ابّاب القصر؟

رددت جنبات القصر هوسات الفلاحين واطلاق الرصاص.

هوس فرحان بن سويلم الصگر:

(اتصنت واللّه اتصنت هذا اليوم الراده العامل والفلاح).

بلغ الحماس ذروته، حين اقتربوا من المضيف. هوس حمود بن شنين: (يتلفت حسباله انزوره!) لم يشاركه الا قلة في هوسته كان لهوسة فرحان مذاقا طيبا في الافواه.

هتف السيد حسن الكربلائي، وهو في باب المضيف:

- يا عشاير السياح هذا بيت شيخكم ابن مهلهل لا احد يعبث بيه..

التفت اليه حمود بن شنين وقد جفف العطش لسانه، ورد عليه بصوت

اجش:

– اسكت مولانا اسكت.. هذا موش شغلك. انته شغلك ضرب الثريد!!

اختلط اهالي القرية بالجمع. زغردت النساء.. اقتحموا سور القصر.. صاحوا يطلبون الماء.. فتح بعضهم حنفيات حديقة القصر.. دار خدم القصر بأواني الماء البارد.. تمدد معظم الفلاحين تحت ظلال اشجار الحديقة.. دخل بعضهم مع الخدم وهم ينقلون الماء.. صوت فاضل على فرحان.. وسلمه خمسة دنانير ليشتري بها التمر للجيمة.. عاد فرحان وجماعته يحملون گواصر التمر.. واعاد المبلغ لفاضل، معلنا ان بقال القرية تبرع بالتمر تعبيرا عن فرحته بالثورة.. شرع بعضهم بفتح الگواصر..

فأقترح عودة الكبر، ان يأكلوا التمر في مطعم القصر الانيق.. دخلوا قبل ان يسمعوا موافقة على الاقتراح.. تزاحم الفلاحون داخل حجرات القصر وممراته.. صاروا يأكلون التمر ويرمون النوى معابثين، الى كل زاوية من زوايا القصر.

امتدت الايدي الى البوفيه.. فخشخشت بعض الصحون والملاعق.. اجهد فاضل نفسه للحيلولة بين الفلاحين وبين العبث بمحتويات القصر.. كان يدور بين الغرف دون جدوى.. اخفى الفلاحون كل ما يمكن اخفاؤه تحت الثياب:

سمعوا حمود ابن شنين يصيح:

– هلو.. هلو..

وجدوه يمسك سماعة التلفون ويصيح:

- هلو.. من فضلك اريد الباشا.. اتكلم وي الباشا!!

عفط احدهم بقوة..

اقترب منه عوده الكبر وقال:

- فدوه اطني التليفون..

- شتسوي بيه؟

- ارد ابول بيه!

سرى لغط بين الفلاحين.. صاح احدهم:

- هذا زناد خلف..

ركض ناحيته حمود بن شنين وصاح:

فدوه اغدي لك اطني اياه.. حتى اوديه اله.. دورت عليه لما عجزت.. بيوم (العنصريه!)

بحث حمود بن شنين عن حمزة فلم يجده.. كان الاخير قد انسل من الجيمه قبل دخول القصر، مخافة ان يلمحه احد خدام الشيوخ.

غادروا القصر عند الظهيرة فرادى، فتشكل صف طويل، يتقدمه فاضل بادي الاعياء.. ولما اجتازوا غنم الشيوخ في ممراح الظهيرة قال عوده الكبر معابثا:

هاي صارت غنم الشعب!

انتهى الجزء الثاني من الرباعية
يليه الجزء الثالث
غنم الشيوخ

كتبوا عن المؤلف شمران الياسري

* جاء هذا الفلاح المثقف من ريف الجنوب وهو يحمل في قلبه حـــب الوطن و الناس . غرف من الثقافة ما جعله مرجعاً للفلاحين ، يغرس في نفوسهم مشاعر التحدي للظلم ، حـــاملاً همومهم على أكتافه.

لصراحته ضاقت به ذرعاً أجهزة السلطة في عهد عبد الكريم قاسم ، فأقـــفلت الاذاعه ابوابـــها امام برنامجه الاذاعي (احچيها بصراحه يبو گاطع).

د . فائق بطي

كاتب واعلامي

* ان الكورد كانوا ينتظرون اذاعة برنامج (ابو گاطع) كما ينتظره فلاحوا الجنوب والوسط.

فلك الدين كاكه

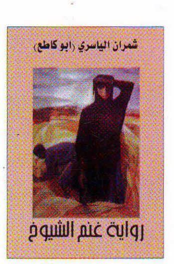
يي

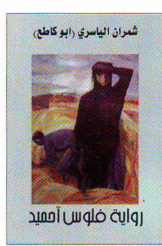
وزير الثقافه في اقليم كردستان

* لازمت المرحوم شمران الياســـري في سبـــعينيات القـــرن الماضي . كانت عبـــاراته .. كلماته ومفرداته بمثابة دروس لي ، وكنت كالطالب في مدرسة هذا العملاق ، كان معلمي الذي أضفى عليَّ الكثير من الدقة والصراحة والحسم في المواقف التي لا تقبل التراجع والضعف . لقد كان ابو گاطع

رباعية ابو كاطع







شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٧

شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية غنم الشيوخ

الكتاب : غنم شيوخ

المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة

والنشر والتوزيع المحدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد



نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط – قضاء الحـــي – ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القـــرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحـــداره من اســـرة علوية (من الســـادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحـــيط الذي يعيش فيه ومنحهُ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياســـري المدارس الحـــكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهُ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حـــفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القــــراءة والكتابـــة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقـــائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ـــــــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ـــــــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحـــيان للأختفاء ، منعته من تحقـــيق هذا المشروع.

ـــــ أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي (احجيها بصراحه يبو گاطع) فقد كان خطاً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

*عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينيه في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأسرته ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

* ومع انغماس (ابو گاطع) في العمل الصحفي ، الاأنه كان يردد بأستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي ..وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

غنم الشيوخ

شمــران اليــاســري

رواية

غنم الشيوخ

الجزء الثالث من الرباعية

الطبعة الأولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت بداعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة .. تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد .

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوكاطع) اديبا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجه الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة والإعلام(سابقاً) لتعضيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو گاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ,١٩٦٣

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطه.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد..

ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغيّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابوگاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..

إن ما تعلّمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفرّد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محض حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزائها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو گاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والربح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنبا" الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القاريء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحمَّيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه إبن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٣.. فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعادت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري ـ ابو گاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنع هائل لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخّلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسري

شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

انحسر الظل أمام شمس تموز، المستبدة المتسلطة، فاضطر خلف للالتصاق بجدار كوسر الربعة.

كان موزع الانتباه بين راديو بغداد، يذيع بيانات الثورة، وبين ترقب عودة "الجيمة" من قصر الشيوخ. ويجد فرصة، من حين لآخر، فيخاطب ولده فرهود، على البعد:

"يا فرحتك يافرهود.. اليوم يومك يافرهود..هاي الجمهوريه الردتها.."

تراءى له "البيرغ" الاحمر، تحت وهج الظهيرة، مثل شرارة انفصلت عن شمس الرابع عشر من تموز..فاجهد عينيه بالتحديق ..

ميز الرجال بصعوبة، يدورون بلا انتظام، في مشارف بيت صالح ابو البينه، راعي غنم الشيوخ.

فسأءل نفسه مستغربا: ولم لا؟ لم تعد الدنيا على حالها..قد يفعلها ابن احميد ابو البينه ويدعو هذا الحشد الكبير على الغداء؟ اتراه يفعلها؟

انه بخيل مثل ابيه ـ هذا شيء مؤكد ـ ولكنه يتميز بالذكاء.

لوكنت مكانه لارغمتهم على تناول طعام الغداء. اذا لم تطاوعك يدك ـ ياابن ابو البينه ـ على ذبح خروفين او ثلاثة من شياهك فما اكثر غنم الشيوخ "فشگ من برا وتفگ من برا والمايرمي..."

ولما تأكد من مغادرة "الجيمه" لبيت صالح، شرع يلوم نفسه:

إنني اهذي ـ دون شك ـ حين تطوعت بالتفكير نيابة عن صالح ابو البينه وهونت عليه ذبح خروفين او ثلاثة ـ متجاهلا ان للجبناء والبخلاء منطقهم ولهم معاييرهم الخاصة!

استاء خلف من مسيرة الرجال مبعثرين، بلا هوسة، يعوزهم الحماس

على نحو لا تخطئه العين: ويرفع فاضل - حفيد حسين - شيئا ما فوق رأسه .. اقرارا بجبروت الشمس واستسلاما للتعب. حاور فاضل في سره: تمشي هكذا يا حفيد حسين؟ بادي الاعياء في مقدمة "الجيمه" بعد مسيرة قصيرة كنت اعتزم قطعها معكم - على ضعفي ومرضي!هكذا تعودون بفتور .. في هذه الساعة وفي مثل هذا اليوم.. وكأنكم جيش "العصملي" ايام هزائمه؟!

اين انت يا ايام الشباب؟ .. لأريهم قدرة الرجال على احتمال المصاعب والمتاعب؟.

اقتحمت ذاكرته حكاية جد حسين، سمعها مرارا من حسين: ولا يجوز الشك في صدق رواياته ابدا.. اردت ان امضي الشطر الاول من الليل قريبا من القرية.. ثم اتسلل لأسرق اهلها.

اعتزمت ان اتخذ من كومة التبن مكمنا.. فاذا الاسد يربض جوار فتاة - وكأنه يستمتع بالنظر اليها. فغم انفي عرف البخور يتضوع من ثيابها.. فازداد عجبي .

حملت "مطركي" ولوحت به - نسيت إنني لص يتكتم - فزمجرت بصوت راعد: "خلها ابو اخميّس خلها".

زأر الاسد وتوثب. خطوت نحوه، حرك ذيله - فتطايرت الاشواك الى اعلى والى كل الاتجاهات.. عشرات الاذرع ودوى الفضاء بهديره.

لم اتوقف –فلطالما شهدت مثل هذه المبارزة. وكانت هي المرة الرابعة التي ينهزم فيها الاسد أمامي.

اقتربت من الفتاة.. فأختلط اريج "المحلب" بعرف البخور. وعلى ضوء

بقية الهلال –رأيت خضاب العرس يزين كفيها وقدميها. وضجت القرية من فرح ودهشة حين اعدت العروس..

قال قائلهم: انت أولى بها.. فلقد اختطفها الاسد من "صريفة" العرس وهي بين يدي العريس.. ومن الانصاف ان تكون انت العريس. قلت هي اختي (على شرع اللّه) منذ هذه اللحظة وسوف اتفقد اولادها كما اتفقد اولاد اخواتي في قادم الايام.

خطا نحو "الجيمة" مستعيناً بعكازته. فبادر حمود بن شنين بالهتاف: – ها ها النشامة.. هذا خلف تلگاكم.. هوسوا.. .. هوسه هوسه، على احساب خلف.

ثم لوح له بالزناد، وصاح بانفعال:

– زنادك.. زنادك يخلف. لگيته بغصرهم!

تحلق عدد غير قليل حول حمود، بانتظار الهوسة، فادار عينيه بينهم، وحين استقرتا على فرحان بن سويلم، خاطبه مستنجدا: فرحان العاشج!.. هوسه على حساب خلف.

اجابه فرحان ضاحكاً:

– اليكسرها ايخش اعليها.. انت الگلت هوسه.. وانت الصحت ها.. ها. دبرّها وحدك!

فتل حمود خصلة من شعر رأسه، متمردة على "اليشماغ"، ثم كرر نداء الانتباه:

– ها ها .. هاها..

اصغى الجميع، والابتسامة على وجوههم، (لان احدا لا ينتظر من حمود

غير المزاح). رفع يده، التي تحمل زناد خلف، و ركل الارض بقدم واحدة وهوّس:

- ازنادك رد لك. كون اتريد احرجهم بيه!؟

فاستجاب الاخرون لهوسته، متصنعين الحماس..

فجعل خلف يتمتم بصوت واهن:

- احرجهم بيه .. احرجهم بيه !

استداروا حوله مرارا حتى استبد بهم الاعياء...

رفع فاضل ذراعيه ايذانا بالاستراحة. حينذاك تسابقوا يبلغون خلفا، مع شيء من المبالغة، خبر هزيمة الشيخ واختفائه بين النساء.. فحرك خلف رأسه وقال بصوت حاقد:

- هاي تسوى عمره! شردته كافي... عليّ نذر لو رحت باچر للچريه، البسه شيلة نسوان واطلعه لمضيفه!!

فهتف فاضل بحياة خلف، وحث الفلاحين على التصفيق والهتاف فتصايحوا:

- يعيش إنشا اللّه..

انشا اللّه يعيش خلف..

وامتزجت هلاهل النساء بهتافات الرجال ...

* * *

أسرّ فرحان لفاضل، وقد اثقل الخجل لسانه:

- انا هم تورطت .. واخذت من قصر الشيوخ بطل شربت.. ثم اخرج الزجاجة من طيات عباته.. فشهق فاضل، مبالغة في الفرحة، وتناول

الزجاجة بلهفة واندهاش، واستكمالا لمظاهر السرور، بدل مجلسه: ثنى ركبتيه كما يفعل المصلي، واخذ يؤرجح كتفيه بطريقة بندولية..

حرك شفتيه، كأنما يتلو دعاء.. ثم رفع صوته مترنما: الهي وانت القادر القدير.. يا من فضلت الحنطة على الشعير.. لقد بعثت الي رزقي رائعا رائقا شيقا .. وانا في اعماق هورة البترا.. لانك تعلم

بأنني حرمت على نفسي الشراب، الا في المناسبات وها هي مناسبتي .. اعظم بها من مناسبة واعظم به من بطل جون هيك! الهي يا من..

امسك به فرحان من ذراعه وقال:

- اشبيك؟ تسودنت!!

وضع فاضل الزجاجة بين قدميه وصفق كفا بكف وقال بلهجة الاسف:

- ولك تنشدني اشبيك ؟ يا حيف والله يا ابن ابن صكًر ! ينشدني البطران كيفك اشلونه....؟

ولك هذا ويسكي..

ويسكي بنص البترا.. وبليلة الثورة!

رد فرحان مهونا:

- ما اتگول هيچ - حتى اجمع لك كل البطاله..

اهل العلوة كلهم جابوا منهن.. بيهن امربعات.. وبيهن امگرنات واكو ملفوفات بحلفا.. اشكال وارناك.

عض فاضل شفته السفلى وقال زجرا:

- دسمعوا ابو گلب الثخين !! انوب اچماله گاعد اگبالي ويسولف!!!

ولك اركض اجمعهن .. الليله نعلگها !

حال مغادرة فرحان للربعة، دخل شاب غريب، ارتاب به فاضل. وحين رجع فرحان، ببعض الزجاجات، تعانق مع الشاب بحرارة، وهنأ احدهما الآخر بالثورة.

ثم همس لفاضل مطمئنا، بان الشاب مراسل الحزب بين القرية والمدينة.. ولديه تعليمات عاجلة..

قاطعه فاضل بمرح:

- لا تگلي مراسل الحزب. عسى يجي الحزب كله... الليله لازم اسكر.

ثم اتبع ذلك بطلب احضار حمود بن شنين ومطشر بن حمزه (وقد سمع عنهما الكثير) لاحياء حفلة بالمناسبة..

ضحك فرحان وجاهر بالقول:

- التريده ايصير ابو عباس..

الليله نعلجها لاخوة موزا..

على كًولة ابو المثل:

كاولي وعرست بتّه !!

* * *

انتشى فاضل بكأس (ساده) شربه دفعة واحدة.. اتبعه بآخر على جرعات. حرك رأسه واصابعه على ايقاع "الدنبك"، الذي عبث به حمود ببراعة فائقة. ورق مزاجه واستخفه الطرب لصوت مطشر. تمنى لو نبت له جناحان، فيحلق فوق بغداد، ويراها كيف تعيش الليلة.

ردد الحاضرون اسم عمه، ملا نعمة، وتمنوا وجوده بينهم في مثل هذه المناسبة، التي طالما بشر بها...

تهامس بعض الشباب.. فعرفوا اسباب نشوة (استاد) فاضل.

تسلل أحدهم الى بيته .. ثقب الزجاجة المخبأة بمسمار، و قطر الويسكي في فمه..

حاول آخر ان يفتح الزجاجة فأستعصت عليه. كسر عنقها بالمنجل .. وشرب منها جرعات متلاحقة ...

تفرق الكهول الى بيوتهم.. لم يبق مع فاضل الا الشباب.. فزال حجاب الكلفة واستبد الطرب بالجميع.

ذهب شابان الى بيتيهما وعاد كل منهما يحمل زجاجته ليضعها بين يدي (استاد) فاضل.

فناول الزجاجة المكسورة لحمود بن شنين وقال له :

هذا مكسور الركبة حصتكم انت والگاعدين بصفحتك..

كل واحد ياخذ له مصه ـ هذا مقوّي للگلب .

اعطى الزجاجة الثانية لفرحان وضيفه"المراسل" وقال:

ـ هذا المزروف الكم اهل هلصفحه ..

چماله فوگ "الخبرك"

صاح حمود بن شنين بعد ان شرب حصته :

ـ والعباس ابو فاضل مثل النمل گام يمشي بظهري وبسدري..

ولكم هذا "مكسور الرگبه" واسمه عليه !

اجابه فرحان، وهو عليم بما يشرب:

ـ ولك دگ! هذا يا نمل يا فجل..

دگ أبو طبل دگ !

ثم عانق (المراسل) بحرارة، دون مناسبة.

*   *   *

قال خلف لولده حمزة:

ـ الباتري صار ضعيف..

اجابه حمزة برقة، وقد اخذ على نفسه عهدا بالتودد لابيه ومعاملته بلطف، مذ اعلنت الجمهورية صباح اليوم:

ـ ايه بويه ..ميخالف.

انشاللّه يمشي طارش للولايه، بعد ما تخلص هالخرابيط.. واودي لك على باتري..

نهره خلف بشدة:

احچ عدل! لا تگول خرابيط. ولك هذا عرس..عرس. انته ما تميز بين العرس والخرابيط.. يا امخربط؟!

*   *   *

فرقع داود اصابعه للمرة العاشرة.. وأعاد تساؤلاته، وكأنها مرثية لبيت مهلهل.

ـ ليش .. ليش ضواكم طافي؟!

الكهرباء ما طفت ولا ليله من يوم نصبتوها لليوم.

عمت عيني.. الليله القصر اظلم.

تلفت الى زوجته، طامعا في مشاركتها.

فاهملته (زينة) ولم تجب بشيء.

*   *   *

اعرب صالح ابو البينه، راعي غنم الشيوخ، عن مخاوفه، ساعة اجتمع اهل بيته على العشاء، ورسم صورة كئيبة للمستقبل:

- گلبي لاسبني من هالطگطاگة !

مادام وصلت ادين الفلاليح لغراض الغصر اخاف توصل للغنم.. ويحترج الاخضر بسبر اليابس؟!

انصرف كل منهم الى نفسه، يتخيل مستقبله بعد ضياع الغنم، وجد مهيدي(الابن الاكبر) نفسه وقد غادر البيت وليس معه سوى زوجة مشاكسة، تفخر بجمالها، وطفلة تحبو. واستبد اليأس بجنيدي (الابن الاصغر)وسأل نفسه:

من اين ادفع المهر اذن؟ أصرّ ابوها على خمسين راس من الغنم.. فما الذي سيطلبه اذا ضاعت الغنم؟

وتساءلت هدية (بنت صالح): كان يطلب مهرا غاليا- وغنمه لاتعد ولا تحصى-فيتردد خطيبي عاجزا عن دفع المهر. فما الذي سيطلبه اذا صودرت الغنم واصبح معدما؟

وتعاود صالح حكة مجنونة، بين ساعة واخرى، فيهرش جلده بقسوة، ويرفع صوته بالشكوى..

فكان ذلك هو الشغل الشاغل لزوجته.

* * *

قال حمزة، وهو يسمع صوت الراديو، فجر الخامس عشر من تموز:

- عفية عليك ياهلشايب.. من امس الصبح لهاليوم مانمت؟!

فردت زوجته باشفاق:

- بطل حيلي. كطع الأجل فردنوب.

صار واهسة بالتتن. ويلهج باسم فرهود: يافرحتك..ياجمهوريتك.

بكرت (سكونة)، زوجة مطشر، لتنقل فراش خلف الى الربعة،

قبل شروق الشمس.

وقفت بالقرب منه، معجبة بدأبه على متابعة مايذيعه الراديو.

حسبته يصغي بانتباه، حين يضع رأسه على هيكل الراديو، متكئا على مرفقيه.

سألته، دون ان تلقي عليه تحية الصباح:

- بويه..بويه.. ليش ماتستعدل بكعدتك؟

ولما اهمل سؤالها اقتربت منه.

دققت النظر في وجهه.

صرخت برعب ..ثم حثت التراب على راسها.

* * *

لقد مات خلف.

* * *

تناهى الصراخ من بيت خلف الى كل القرى المحيطة..

هرع الفلاحون يستطلعون..

وصل اهل "العلوة" كلهم الى بيت خلف. ولما يزل فاضل يغط في نومه ،تحت تأثير الويسكي، الذي عب منه بافراط-ايقظته امه بصعوبة.. واعلمته النبأ. استعاد وعيه وشرع يرتدي ملابسه على عجل. عرضت عليه عمته، ام فرحان، تناول الفطور، فرد بمزاج سيء:

- منو اله خلگ ياكل؟!

حين وطأت قدماه عتبة بيت خلف احس ضيقا، لم يكن حزنا، فقد عرف الحزن من قبل..

شق طريقه وسط الزحام.. وراح يتملى وجه خلف..

ود لو يبكي ويستريح. اشعل سيكارة، وراح يغالب انفعالاته بصعوبة: مع انها الحقيقة الوحيدة المطلقة ولكنها غير مفهومة لي، ولا مبررة حتى مع وجود الجنة..

قطع تأملاته حمود بن شنين، باشارة من اصبعه، الى كفي خلف:

احداهما تمسك المنديل الابيض، هدية فاضل. والاخرى مطبقة على الزناد.

* * *

سمع صالح ابو البينه صراخا، قبل طلوع الشمس، فلم يصعب عليه تعيين مصدره، فالاصوات مميزة وواضحة في مثل هذا الوقت المبكر، حتى لتبدو أقرب مما هي بكثير. عين الصراخ في بيت خلف. لم يتعاطف يوما مع آل خلف.. لكنه وجد نفسه منساقا مع احساس شديد بالمشاركة، لاولئك الذين نكبوا في هذا الوقت بالذات، وانه ليتفجع اليوم لو سمع ذئبا يعوي متألما! اصدر امرا لولده جنيدي بالذهاب، ليستجلي الخبر. سرعان ماعدل عن رأيه وقال:

- لا.لا جنيدي مايروح. امس وديته، جاب لي الخبر الاكشر(خبر الجمهورية) اليوم اللّه يستر شيجيب لي من خبرامصخم املطم !

ثم التفت الى ولده الاكبر، مهيدي، وقال:

- روح انت.. شوف بيت خلف شعدهم.. ماعدهم؟

رجع مهيدي مسرعا، ليعلن نبأ وفاة خلف.

فقال صالح بذهول:

- هذا شماله مات؟!

سكت برهة، ثم عاود القول، وكانه يعاتب خلفا على موته:

- هسة سوّا موتّه ؟! چا موش هاي الجمهورية الچان ايريدها؟ من صارت جمهورية مات!!

فطن الى هلوسته، فاستدرك قائلا:

- الف استخفرللّه ياربي.. ابن آدم صار يحچي وما يدري، نهذي من جور گلوبنا.. ياربي لاتحسبها علينا!!

سحب نفسا عميقا من سكارته ثم قال:

- احسن له مات.. خلوّه يستراح!

أما انت يا صالح ابن الغبرا سوف تبقى تحسد الاحياء بلا هموم وتحسد الاموات الذين تخلصوا من هموم الدنيا.. التفت ثانية لولده يسأله:

- ايه.. وبعد؟

- چا اشبعد؟ غير مات!

- صدگ مات..

- يگولون بساع بساع مات..

- هنياله على هل الموته!

* * *

تلفت صالح يمنة ويسرة، ثم الى الوراء، فأطمأن لوجود ولديه. ولما

اقتربت الخيل تخب وراء السيارات، امرهما بالجلوس، وتبعهما في جلسة خائفاً مترقباً. مد كفه من فوق منكبه وعيناه مسمرتان في الغبار الذي غشي الافق، وقال بنفس مبهور:

- جگارة.. مهيدي لف لي جگاره...

تحركت يد مهيدي تبحث عن كيس التبغ عبثا، كان يتدلى في حزامه فلم يفطن اليه، لحظ جنيدي عملية البحث اللا مجدية، فاخفى ابتسامته، ومد اصبعه الى حزام اخيه ليستل كيس التبغ..

سمع صالح ابو البينه لغط النساء، داخل الخيمة، فألتفت على عجل وقال زاجراً:

- اس.. ولا واحد يتنفس!

ثم عاد يسند ذقنه بقبضته، فتشعثت لحيته وصوبت خصلاتها الى كل الاتجاهات.

تساءل جنيدي بأسف:

- ليش مارحنه بالعراضه ؟ الزينات دوم تفوتنا..

اقترح مهيدي ساخرا:

- عارض الجيمه مناه، واضرب لك مشطين ثلاث فشگ. خيل لصالح ان ولده جاد في اقتراحه، فانكره بقوله:

- ولك المشطين والعشرة، ياهو اليسمعهن، ياهو اليگول أنعم اللّه. يروحن فسوة خروف حدر اليته!

وتساءل بمرارة: ما إذا كان المرحوم سعدون بن مهلهل قد نال مثل هذا التشييع الضخم؟ ثم قرر ان الدنيا بدات تدور"بالمگلوب!" والا فما معنى

تجمع هذا الحشد الكبير من الفلاحين، واطلاق الرصاص بلا حساب، وسبع سيارات خصوصي كل ذلك لتشييع جنازة خلف؟! لاشيء اصلح من قوله هو"بلا بوش دنيا!"، لو انتهت الامور كما بدت.. ومر حادث نهب القصر بلا عقاب فمن يستطيع الوقوف بوجه هؤلاء؟ ومن ذا الذي يحول بينهم وبين تنفيذ رغباتهم المجنونة؟ لقد سقطت هيبة القصر وسلبت أثاثه، والغنم لا تكلفهم مثل هذا الجهد.. واذا استقامت لهم الامور -لاسمح اللّه- فأين هو الخط الواضح الصريح الذي يفصل بين غنمي وغنم الشيوخ؟

توقفت السيارات فجأة، بالقرب من بيته، لتعطي الخيالة والراجلين فرصة اللحاق والتجمع..ليبدو التشيع كما اراد له (المراسل)، تظاهرة سياسية، وعلى هذا الاساس نشط فرحان وعودة وحمود بن شنين لتجميع اكبر عدد ممكن من الفلاحين ليظهروا وحدتهم وقوتهم امام العناصر المعادية للثورة.

نشف ريق صالح، باغتته (الحكّة) منهومة شرهة. نقل عينيه بين الغنم وبين الحشد الفلاحي الضخم وتمتم برعب:

- كل اثنين بنعجة! أيه يخايب يصالح- واحد ياخذ الجتاف وواحد الافخاذ! ايه.. مال الخسيس فطيس. شتگول.. شربن ماي هور بغياب الثريا؟ طاحن بمبزر مال اذره؟.. حتى عيالك ما اشبعتهم خبز.. جرودهم اتدول چنهم مجادية.. هيچ احسن لك يا ابن الغبرا!! بليله وضحويه، ما چنك زارع يابدّه! رفع صوته مستغيثا بمقام سيد سراب:

- يا ابو الفوانيس.. الك ذبيحة نذر لو طلعنا من هلشده!

استدار صوب قرية الشيوخ واستنجد:

- يا ابو شراره الك ذبيحه نذر.. وانت يا مولاي يا سيد حسن

الكربلائي الك ذبيحة نذر لو خلصنا من هالجراد!

تذكر غزو الجراد لزرع الديمة، كان صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره.. رافق والده لمساعدته على نثر "الجروه".. حمل قبضة من تراب، لا يتذكر أي "السادة" قرأ عليها تعويذة ضد الجراد.. او لعلها من ارضية مقام احد الاولياء.. وضعها فوق كومة من تراب استخرجها ابوه من حفرة بلغت ذراعين طولا ومثل ذلك عرضا.. امره ان يمزج "الجروه" فخلط التراب القليل بالتراب الكثير! ثم تعاونا على نثر التراب، في كل ركن من اركان الديمة.. ورحلت ارتال الجراد بفضل "الجروه": آخ.. ليتني امزج طينة السيد ابو شراره بهذا التراب الكثير، الذي حولته الغنم الى ما يشبه الدقيق.. آه ويحمل كل واحد منا، نساء ورجالا، قدر طاقته من هذا التراب الكثير.. ونثره في وجوه أرتال الجراد القذرة!

اجتازه "الجمع" دون ان يصدر عن احد ما يريب: هذا لا يعني شيئا البتة.. ومن الغباء ان اتطامن الى إعراضهم المفتعل عن الغنم.. ومن يدري فربما ارجأوا "الفرهود" الى حين عودتهم... يرافقون الجنازة حتى الطريق العام، ثم يعودون كما عادوا بالامس.. ودعابة سمجة من ابن كبر او ابن شنين، اذا لم يكن المعلم هو السباق، تكفي لتذكيرهم بغنم الشيوخ.. ومن خرق صغير كالذي حدث في سدة البترا قبل اعوام، توسع المياه مجراها.. ثم تتدفق مدمرة لا تبقي ولا تذر. اراهن بعباءتي و"عگالي" ان سيقول قائلهم:

– بثواب مرحوم خلف كل واحد نعجه.. يذبحها ويقرا الفاتحة لخلف.

*　　*　　*

اقترح حمزة، وكان يخفي قلقه تحت ستار من الكآبة: ان لا تتوقف الجنازة في قرية الشيوخ واعطى مبررا لاقتراحه:

- الناس اهلها بعيدة وتصعب عليها الردَة بالليل.

اجابه فاضل، وكان يجلس جنب السائق:

- انشوف رغبتهم.

وقلب الامر حمزة، هو ايضاً له رغبته، بل رغبات تتصارع: تتوقف "العراضة" عند قرية الشيوخ وعلى الطريق العام، تهوّس وتطلق الرصاص، ويراها الرائح والغادي، ويسمعها القاصي والداني على ضفتي الغراف وذلك مدعاة للفخر والمباهاة.. والدنيا صيت و"اعلوم" قبل أي شيء آخر:

فأن تفرقت الان امنت وقوع المحظور. فاقتراب الجموع من قصر الشيوخ ليس اخطر منه قرب البنزين من النار. وليس ببعيد يوم امس. وحينذاك يعتبرني الشيوخ سببا لكل ما يجري. لقد تصرفت بحكمة يوم امس ويبدو ان الجرة لا تسلم كل مرة.. فلم يرني احد من خدام القصر وبوسعي ان احلف اغلظ الايمان بأنني ما شاركت بالهرج والمرج اذا ما جاء يوم الحساب على يد الشيوخ.

اشار فاضل الى السائق ان يتجه في الطريق الفرعي المؤدي الى قصر الشيوخ، واقترح عليه خفض السرعة لادنى حد ممكن، لتنتظم "العراضة" وتبدو مهيبة مخيفة..

ازداد حماس المشيعين، حين انعطفت السيارات في طريق قرية الشيوخ وتكاثر اطلاق الرصاص.

هوس فرحان بن سويلم:

-من عهد البايد مليّنا!

كان الشيخ ضاري وكاتبه، ملا علي، يرقبان "العراضة" من سطح القصر بنظرات حاقدة، ويطلقان زفرات ممرورة. تبادلا نظرات ذات مغزى حالما توجهت العراضة صوب القرية. فألتمعت فكرة ذكية في خاطر الكاتب، سرعان ما وجدت قبولها عند الشيخ.

تعجلا دخول القصر وحملا رشاشتي "برن" جديدتين، ليشاركا ابناء العشيرة في مناسبتهم، وكان القصد الحقيقي كما أوضحه الكاتب:

- خلهم يسمعونهن.. وهسه يشتعل ابيهم.. خاف واحد عنده نيّه مثل امس ويريد إيلعّب ذيله!

كلف الشيخ احد خدمه بملء "الشواجير" وتفرغ هو لاطلاق الرصاص – صليا- في اتجاه العراضة تت تت تت. تتت تتتت تت تت تت تت.

فوجئ الفلاحون بهذا الصوت الراعد، فصرخ حمود:

- عوينة ابو اشنين ايشتمن اتشتم!!

صمتت البنادق احتراما لصوت "البرن" الجهوري المخيف! تت تت تتتت تت تت تتتتت.

نظروا في وجوه بعضهم. قال فلاح بسيط:

- ايباه ولا اثرت بيهم عملة امس.. شوف اشلون شاركوا العشيرة بعراضتها.

همس فرحان لعوده:

- هذا تهديد..

- تخويف، أمبين..

- هاي نار جهنم..

- هذا إشلون سلاح كافر!

راح فرحان وعودة يشجعان الفلاحين على اطلاق الرصاص. بدت البنادق خجولة من نفسها، الى جانب هذا القصف الراعد.. اوشكت ذخيرة الفلاحين على النفاد.

قال حمزة، يغالب زهوه:

- هم زين، بعد عدهم اشوية اصول.. ضربوا للعرضه..

اجاب فاضل بعصبية:

-انعل ابوهم لا ابو اصولهم.. هذا ارهاب. ما تعرفهم اشلون سرسريه!!

قدر فاضل ان تفرق المشيعين الان له ما يبرره فقرع (هورن) السيارة مرارا ولوح بيده.. تحلق حوله عدد من الفلاحين.ولم يعترض احد على اقتراحه بالتفرق.

لقد بدد صوت "البرن" كثيرا من حماسهم..

* * *

اجاب السائق على سؤال فاضل:

- السيارة اللي بيها جنازة ما يسري عليها امر منع التجول.

وسارت الامور كما قدر السائق، لولا كثرة نقاط التفتيش والتدقيق في الهويات..

* * *

لحظة اجتياز السيارة لمفرق الصويرة، بلغ التأثر بحمزة حدا أسال دموعه.. تمنى لو كان المرور بفرهود سهلا..

وساءل نفسه: كيف اعتذر له عن عدم ابلاغه خبر الوفاة؟

(يا فرحتك يا فرهود..) أحس بما يشبه الغيرة: لقد اولاه كل الاهتمام في ادق اللحظات وفي اشد حالات الانفعال. وطغت الذكريات الحلوة على كل ما سواها. استشعر الندم لانه لم يوفر لابيه الراحة في ايامه الاخيرة: كان عليَّ ان اعامله برفق اكثر. اعتاد حمزة في الاشهر الاخيرة ان يسأل "سكونة" او زوجته "اشلونه الشايب" دون ان يكلف نفسه دخول الربعة والاستفسار منه مباشرة: لقد كان نعم الاب ولا اعرف فلاحا عامل اولاده بأفضل مما عاملنا -بأستثناء حسين، ليتني دخلت في مرضاته واغمض عينيه راضيا عني. ليتني لم اطاوع مخاوفي واتسبب في رحيل فرهود. وكيف تستقبل امي نبأ وفاته؟؟

التفت اليه السائق، بعد ان رأى دموعه خلال المرآة وقال:

- كلنا للموت.. يا معوّد.. امسح دموعك.

التفت فاضل فرأى دموع حمزة لاول مرة، فقال مواسيا:

- صحيح الانسان يفقد ابوه مرة وحده بالحياة وهذا حادث ملازم يمر عليه الانسان بدون مبالاة.. لكن اعتقد بان وفاة خلف غير شكل.. ترك اثر طيب وانته لازم تفخر بهيج أب!

قال حمزة بصوت متهدج:

- واللّه يا ابو عباس آنه بچيت على فرهود لان ما شافه...

ثم روى له كيف امضى خلف يوم امس وليلته يصيح بتأثر: "يا فرحتك يا فرهود.. كون اشوف فرحتك يا فرهود.." ولم ير فرهودا ولم ير فرحته.

استبدت بفاضل رغبة للبكاء.. تغلب عليها بصعوبة، وبعد معاناة كانت

السيارة تجتاز شوارع بغداد.

مد فاضل عنقه واخرج رأسه من نافذة السيارة، تمنى لو هتف للجنود.. لم يكن الوقت مناسباً للهتاف، فقد اقفرت شوارع بغداد تنفيذا لامر منع التجول.

كانت اجراءات التفتيش صارمة، ولكنها اعتبرت هينة سهلة بالقياس الى ما تعرضوا له بعد عبورهم جسر الخر. لم تعد نقاط التفتيش تدقق الهويات وتفتح صندوق السيارة حسب، بل كانوا يصرون على فتح غطاء التابوت ومشاهدة وجه الميت.

تساءل فاضل عن اسباب هذا التشديد ولم يتعرضوا له طيلة الدرب بين الكوت وبغداد.. فأجاب آمر نقطة التفتيش بأن الدخول الى بغداد ليس كالخروج منها،وفي مثل هذه الساعات الحاسمة. نوري السعيد ما زال طليقاً.. ولا احد يجهل مخاطر افلاته من قبضة الثورة.

وعند النقطة الثانية، حين صعد آمر نقطة التفتيش ليكشف عن وجه الجنازة، قال فاضل دون ما قصد محدد، بل لمجرد الرغبة في محادثة الضابط الشاب:

- يا استاذ هذا من اعدى اعداء نور السعيد والاقطاع هذا خلف ابو حمزة.

خيّل لآمر النقطة ان اعلانه الجهل بهذا الاسم قد يعني عدم معرفته لكثير من الامور، وربما يدخل في عداد النقص في وطنيته، فنزل على عجل، دون ان يفتح غطاء التابوت وقال بتأثر:

- نتشرف نتشرف.. اللّه يجعل الجنة مثواه..

ثم قدم لهم السكاير وكرر اعتذاره:

-- انتو مو اقل حرص من عدنا على الثورة.. واعتقد تسامحونا.. على كل حال تفضلوا.. اللّه وياكم نتشرف بالوطنيين..

وتكررت الجملة على لسان فاضل عند كل نقطة تفتيش فكانت نتائجها جيدة، ان لم تجلب لهم المزيد من الاعتذار عن تأخر الجنازة فانها لم تسبب لهم مضايقة على الاطلاق.

لمح فاضل على ضوء السيارة جمعا من الفلاحين قرب مزرعة اللطيفية، فأعلن بقلق:

- هاي مو نقطة تفتيش.. بس لا أيكونون سلابّة!

اشار احد الفلاحين بمصباحه، فيما صوب سبعة منهم فوهات البنادق نحو السيارة، سارع السائق يدس نقوده في جوربه. ونشف ريق فاضل من شدة الخوف. وقال حمزة دون مبالاة:

- يا معودين شكو عدنا وانخاف..؟ شايلين جنازه.. حتى لو همّه كفار ما ياذونا..

تقدم ثلاثة من الفلاحين وقال احدهم:

- اخوتنا نرجوكم تسامحونا.. عدنا واجب تفتيش من فضلكم اتساعدونا انريد انفتش صندوگ السيارة والتابوت.

استيقظ شك مفاجئ داخل حمزة. وراح يرقبهم بحذر.

جرت العبارة على لسان فاضل بصوت اقوى ليعبر بها عن رباطة جأش افتقدها منذ قليل:

- يا اخوان هذا من اعدى اعداء الاقطاع ونوري السعيد هذا خلف ابو

حمزة.

صاح فلاح من بين الواقفين على جانب الطريق:

- شسمه؟شسمه؟

- خلف.. ابو حمزه..

تقدم الفلاح، ثم تناول المصباح من يد صاحبه.. وصوبه داخل السيارة.. تفحص وجه حمزه، الملثم، وصاح بتأثر:

- حمزه !

عرف حمزه صاحب الصوت فرد كالمستغيث:

- فرهود ؟

عقدت الدهشة ألسنة الواقفين... ثم تقدم الفلاحون ليعربوا عن تأثرهم ومشاركتهم لفرهود بمصابه، المفاجئ.. تمنوا لو كانت الثورة مستقرة، اذن لأجّلوا مسير الجنازة الى الغد وقاموا بعرضة مناسبة. ثم تدافعوا يقدمون لفرهود ما يحملون من نقود.. اكتفى فرهود ببعضها واجزل لهم الشكر، ثم لم ينس وهو يصعد السيارة ان يلقي وصية، لا لزوم لها:

-اخوتي اخوتي ديروا بالكم زين...

وصاح احدهم قبل ان تبتعد السيارة:

-اوگفوا اوگفوا. هاي فلوس وگعت منكم..

تحسس السائق جوربه، تأكد انها نقوده سقطت حين نزل يفتح صندوق السيارة الخلفي.

قال حمزة يدافع عن نفسه، ولم توجه اليه التهمة بعد:

- ماكو وكت حتى انودي عليك. امس چان كلشي ما بيه والدنيا ما لامته

من الفرح.. ويصيح يا فرحتك يا فرهود. ما ادري هالشايب ولي من اولياء اللّه.. استجاب لكل ما راده.. گال اريد الشيوخ كون امفلكشين مثل عسكر العصملي من شرد ولو يوم واحد اشوفهم هيچ كَبل ما اموت.. وشاف مصيبتهم أمس..

تساءل فرهود عما حدث لهم بالامس، فروى له فاضل ما جرى في القصر باقتضاب، لم يكتم فرهود شماتته بالشيوخ وفرحته بالثورة التي اذلتهم.. وزايله الحزن على عجل فمسح دموعه وحدثهم عن مهمته على الطريق العام مع بقية الفلاحين: قدر اهل الخبرة من الفلاحين، ان افضل طريق يسلكه نوري السعيد هو الصحراء المؤدية الى المملكة السعودية وهناك يلقي الترحاب والود ويبني وكر التآمر على الثورة وانه لن يعدم المساعدة من الاقطاعيين ولهم وسائلهم العديدة في مساعدته على الهرب ولهذا قررنا استئجار باص القرية.. وكلنا امل في ان نحظى بشرف اصطياده!

فكر حمزة : عليّ ان اعتذر لفرهود الان.. عما بدر مني، وكنت السبب في ترحيله.. ولكن كيف اهتدي الى مفتاح مناسب؟.. ردد لازمة خلف صبيحة الثورة:

يا فرحتك يا فرهود. ثم اجهش بالبكاء.

ابتدره فرهود قائلا:

- البواچي ما الها معنى.. خلنا نسمع خلنا نسمع..

وكان الراديو يذيع مراسيم جمهورية بفصل الموظفين الكبار الموالين للعهد الملكي..

واردف فرهود قائلا:

- هنوله الماتوا!هنوله ماتوا من صدگ لازم يبچون على ارواحهم. ابونا كضى وطره بالدنيا ومات خوش موتة. سولف على هالشچولات اللي ما حصلت غير السمعة الوصخة.

غالبه احساس بان فرهودا عناه بقوله"هالشچولات اللي ماحصلت غير السمعة الوصخة" وانه واحد من هذه "الشچولات" نتيجة لمعاضدته الشيوخ وترحيله لاخيه. وها هو يقطع طريق الاعتذار.

اجاب حمزة على سؤال اخيه بصدد الفاتحة:

- جبنا فرحان ومطشر للولاية.. خليناهم يتسوكون غراض للفاتحة. والجماعة غاد يبنون مضيف شعر. وهسة الفاتحة منصوبة. واحنة باچر كبل الغدة عدهم.

الفصل الثالث

تساءل صالح ابو البينة، على نحو مايفعل المتردد، الذي لا يطمع بجواب ينتشله من الحيرة:

- مصيبه! مدري شاخذ لفاتحه خلف؟

فتطوع ولده مهيدي بالجواب:

- مثل الوادم. شوف اهل مويلحة اشكثر يطون...

فتصدى له جنيدي معارضاً:

- الفلاليح يطون فلوس- لكن احنا اهل غنم. لازم نودي ذبيحه.

حدق الاب في وجه ابنه، واطال النظر، كانما يطلب اعتذارا عن هفوة.ثم امسك طرف لحيته، فتل شعرها.. وتكلم محملا صوته تجربة عمر طويل: لو اقتدت ذبيحة لكل فاتحة ولكل عرس لما ابقيت على واحدة من شياهي، خلال فترة، قد لاتتجاوز عمر خروف. اذ ان الناس لاعمل لهم غير الزواج ثم الموت!!

ودعم رأيه ببدهية حسابية، لاتقبل الجدل: ان اصغر ذبيحة تساوي اربعة دنانير.. وان اكثر الفلاحين سخاء واريحية لايجود باكثر من دينار، لمثل هذه المناسبة، فبأي صفة تريدني ان ادفع مقابل اربعة فلاحين-يا حاتم طي آخر زمان؟!!

انبرى جنيدي يدافع عن رايه: بوسعي ان اكتفي بالقول ان (خلف) كان من اخيار العشيرة وكان من شجعانها المعدودين.. لكنني اضيف الى هذا سببا جديدا هو تبدل الامور على النحو الذي رايتموه.. فقد شيع جثمان خلف من قبل الفلاحين، بمهابة اكثر مما شيع جثمان سعدون بن مهلهل.. وتلك بدايات لانعرف نهاياتها، ولاننا من اتباع الشيوخ، شئنا ام

ابينا، ولأن مستقبل الشيوخ على كف عفريت، فعلينا ان نتملق اقرب متنفذ في هذا العهد الجديد –المعادي للشيوخ.

تسرع مهيدي في الرد على اخيه:–

– خلف چان من اجاويد العشيرة.. وچان ينحسب حسابة.. لكن بعد ما فشخ ابن مهلهل.. گالو عليه تسودن. ثانية وبعد....

رفع الاب ذراعه اليمنى وكور قبضته، ثم بسطها في وجه مهيدي كانما يكش ذبابة، وقال بعصبية:

–بس. بس. ياهو العندة خلگ يسمع هالتسربت!!

ولم يعرف الولدان، ماذا اضمر الاب، هل يقتاد ذبيحة ام يعطي دينارا كسائر الفلاحين.

تسلل جنيدي، بعد الظهر، الى المرعى، واتفق مع الراعي، الذي يكن له الود، على امر لايكشف، الا في الوقت المناسب..اختار"طلي هرفي" من غنم الشيوخ، اشقر يسر الناظرين. يتمنى كل غنام لو يحسّن نسل قطيعه.. اقتاده الى فاتحة خلف–ولم يجد صعوبة في العثور على مبرر لفعله، يريح به ضميره.

* * *

تطلع صالح ابو البينه الى كل الاتجاهات، وشمل مضاجع اهل بيته بنظرة فاحصة، فالفاهم نياما، يداعبهم نسيم الفجر البارد، بعد طول تقلب على الجنبين وكفاح لا هوادة فيه ضد الحرمس والبق، وها هي ساعة الهدنة التي تسبق طلوع الشمس، لينعم النائمون خلالها بالهدوء.

ايقظ زوجته بركلة رقيقة، وهمس لها:

- رايح آخذ طلي من غنم الشيوخ للفاتحة لو كعدو الاولاد لاتكولين اخذ طلي.. بس كولي راح للفاتحة..

واقتاده " طلي هرفي اعصم" لاتخطئه العين، وعين الغنام خصوصا. تجنب السير في الطريق العام. اشتط جانبا، ثم عبر جدول البترا ولبد في ساقية عميقة، يلف سيكارة، بعد ان اوثق الطلي بيشماغه. وما ان طلعت الشمس، حتى هبط بيت خلف ، فوجدهم بين نائم ومستيقظ، ومع ذلك استقبله حمزة ببشاشة المستحم المفطر. وعانقه فرهود بود ظاهر، وقد تأثر لمنظره الحزين، وهو يقتاد ذبيحته في مثل هذا الوقت المبكر.

بلغ العجب من حمزة حد الدهشة وساءل نفسه: عصر امس يبعث ذبيحه ويثني اليوم باخرى؟! ان الدنيا بدأت تسير بالمقلوب! هذا هو التفسير الوحيد.

ثم رفع صوتا مخاطبا ابو البينه:

- شنهي هالزحمة يا ابو مهيدي.. الاجانا كفانا..

لم يدقق ابو البينه في كل لفظ قاله حمزة حسبه امتنانا زائدا.. لان الذبيحة تستحق مثل هذا الشكر فقال بتواضع:

- افا عليك يا ابو مطشر! هذا اكليل بحكم..احنا موش چنا بيت واحد؟ نسيت ميانة المرحوم، چان يفوت وياخذ الذبيحة بغير رخصة لبيت مهلهل.. احنا ما بيناتنا، بس الحرمه الله.

شاركهم الفطور، دونما كلفة شرب خمسة استكانات شاي، وراح يدخن من علبة السكاير التي وضعت بين يديه"بغير وجع كلب!"واتخذ مجلسا وسطا، غير متعجل العودة، وذلك امر مالوف، فالمعزي من قرية اخرى لا

يغادر مجلس الفاتحة قبل الغداء.

وجد نفسه بحاجة لمراجعة موقفه، وفحص مسلكه، بعد الذي فعله هذا اليوم: لابأس.. سوف اضع مكان الطلي"الهرفي" واحداً من طلياني"الكيضيات".

لم يلجأ الى هذا الاسلوب من قبل، فالتبادل المؤجل طريقة جديدة، استهلها اليوم. كان يبادل الصغيرة من "طليانه" بكبيرة من" طليان" الشيوخ والهزيلة بسمينة، واحيانا الذكر بانثى. وهو يصدر في ذلك عن قناعة وفلسفة مريحة للضمير: مادامت غنم الشيوخ كاملة العدد فلا يهم ان يأخذ السمين ويضع الهزيل مكانه.. فما سمنت سمينة ولا عاشت صغيرة لولا حدبه ورعايته.

– تحركت شفتاه، يبسمل ويقرأ سورة الفاتحة، حين دخل احد المعزين وطلب تلاوتها. عاود التفكير قبل اتمام سورة الفاتحة: ما اقترفت اثما ولا ارتكبت خطيئة.. حتى لو لم اعوض الشيوخ عن هذا الطلي. لقد تصرفت لمصلحتهم.. فالناس يهددون ويتوعدون بالاستيلاء على غنمهم.. واذا صح التهديد، على نحو معين، فالتقرب من آل خلف يدفع الضرر المحتمل، بعد ان اصبحوا موضع احترام الناس –يفوق احترام بيت مهلهل– وعلى العموم فقد فعلت ما فيه مصلحة الشيوخ..وكأن الطلي اقتيد لمضيفهم.. ولا حاجة بي لوضع"عطب" صوف مكانه.

* * *

لما تأكد داود من بقاء عمه، صالح ابو البينة، في مجلس الفاتحة الى ما بعد الغداء، تسلل ضحى الى المرعى مقدرا انها نوبة مهيدي، وهما على

وفاق تام ابدا.. وصدق حدسه، اذ كان مهيدي يرعى الغنم.

بادره داود بلهجة تقطر مرارة:

- يامهيدي هاي دنيا. وصدگ لو گالوا: الدنيا ام اضريطه ! اتصور آنه داود.. آنه أتسلگن لبيت خلف؟ وادور على الشي اليرضيهم؟!

- ايه .. دنيا!

- طاح حظها من دنيا.. على ماگال خلف: "بلابوش دنيا!"، اريد لي ذبيحة للفاتحة. طلي زين من غنم الشيوخ . كون امور الشيوخ تستعدل اگلهم عليه.. وانتة تدري الشيخ ما ايعز علي شي.. وكون امورهم إتلوص وتظل تمشي ليورا، ايضيع الخيط والعصفور!

تحايل مهيدي على الراعي، بعثه بمهمة وهمية الى البيت، فأقتاد داود "طلي هرفي عوسي -ما ينذبح لبو تيله" تركه في بيته الى ان حانت الفرصة، فأسر بأذن حمزة:

- ذبيحة بالبيت، ود مطشر عليها..

وكان دخول مطشر الى بيت داود، وتسلمه الطلي من يد زينة، سببا لتبادل النظرات بينهما، بعيون فاحصة. تراءى لها مطشر بأستدارة وجهه وعينيه النجلاوين، كأنه حبيبها، الشيخ ضاري بن فالح، لولا سمرته الداكنة. وقال مطشر في سره، مخاطبا الشيخ ضاري: "عوينة ابو اليلومك لو حبيتها.. جنها المعيدية البلصوره.. اليگولون عشكَها الانگريزي ونهبها!!"

* * *

انتقل فاضل من الحديث عن قانون الاصلاح الزراعي بالجمهورية العربية المتحدة الى مشروع قانون "من اين لك هذا.." مؤكدا بلهجة قاطعة: ان

الثورة ستأخذ بمشروع القانون وتضعه قيد التنفيذ: لقد كان مطلبا اساسيا من مطالب الجماهير.. وانه يعني...

اخفى صالح وجهه وراء جاره، متحاشيا نظرات فاضل، مخافة ان يتذكر غنم الشيوخ، ويضيفها مثالا، الى امثلته العديدة، على تكدس ثروات الاقطاعيين.. وربما اتباعهم.. وهو واحد من الاتباع واكون اول ضحية لهذا القانون "ويتعلمون الحجامه بروس اليتاما" ومن اين لك هذا يا "ديوس؟!" يا صالح. من اين لك هذه الغنم؟ ورثتها عن المرحوم والدي. ومن اين لك هذه الدنانير؟ الدنانير؟! هراء. من ذا الذي يكشف امرها. وهي معبأة في قناني زجاجية -ترقد تحت الارض بأمان!؟ ولكن يا سفيه يا ابن الغبرا.. الم تسمع بالآلة "الصاروخة" جلبوها الى مدينة الحي بعد قمع الانتفاضة.. وراحت تفتش عن السلاح المدفون تحت الارض.. ما ان تقترب الى مكان فيه قطعة سلاح مخبأة حتى تصرخ...

صرخت امرأة جاءت تعزي آل خلف، فتشاءم صالح ابو البينه من الصرخة والصاروخة ومن اين لك هذا ومن مقدم ملا نعمة الذي استقبل بترحاب اشبه بالمظاهرة.

انتزع فاضل حزمة الجرائد من يد عمه، وهو مشغول بمعانقة الفلاحين. نشر الصحف بين يديه على عجل وتساءل:

هل تمكن كامل من نشر خبر الوفاة؟ كان فاضل قد عرج على المطبعة، في طريق عودته من النجف، وترك رسالة لاخيه، طلب فيها اخبار عمه ملا نعمة... ورجاه ان ينشر خبر الوفاة: رائع رائع.. لقد تمكن من نشره حتى في جريدة الزمان "توفي خلف العيدان عن عمر يناهز الثمانين قضاه بالبر

والتقوى..." اما في الجريدة التي يعمل بمطبعتها كامل، فقد صيغ الخبر على النحو التالي:

"توفي الفلاح خلف العيدان عن عمر يناهز الثمانين عاما، امضاه في محاربة الاقطاع بمختلف الاسلحة".

ابتسم فاضل. تعجل قراءة الخبر ولكن الديوان لا يزال يضج بأسئلة لا نهاية لها، موجهة لملا نعمة ".. واشلونك بعد؟ واشلون عافيتك؟ واشلون صحتك؟ واشلون احوالك" ويتحتم عليه ان يجيب كل سائل: "اللّه يحفظك.. اللّه يديم كيفك.. اللّه يعزك.. اللّه يوفقك.. اللّه ينصرك.."

استاء فاضل لعدم اعطائه الفرصة. اخذ يتشاغل بمطالعة الصحف، حتى تنتهي اسئلة الفلاحين. فجأة يلمح فاضل اسم خلف، على الصفحة الثالثة، لمحة مؤطرة بعناية، كتبها كامل "اكتحلت عيون خلف برؤية حصن الاقطاع مهدما" ابتسم فاضل وخاطب اخاه في سره: "هو هذا عنوان يا اسطه كامل!؟"

لم يعد يحتمل الانتظار. رفع كفه لوقف "الاشلونات" عند حدها. قرأ خبر الوفاة.. تطلع الفلاحون في وجوه بعضهم مدهوشين. قال صالح بصوت خفيض "ايه.. بالجرايد النوب!!"

عاجلهم فاضل بالمفاجأة الكبرى. قرأ لمحة كامل عن حياة خلف.. طلب بعضهم ان يتأنى في قراءتها.. ورجاه اخرون ان يفسرها اول بأول !

حاور صالح نفسه: "ايه يخايب يصالح صارت عداوة الشيوخ نوماس؟! اليوم اهون باچر ضوگه! جرايد الحكومه تسولف على خلف (البطل!) چيف لنه فشخ ابن مهلهل.. واي واي.. گالها وصدگ: بلابوش دنيا!"

تناول رأس الخيط ملا نعمة، وانطلق بحديث، كأنه مكتوب امام عينيه، وراح يرسم صورة للاصلاح الزراعي المنتظر...

اغتنم صالح ابو البينه، فرصة انبهار الفلاحين بحديث ملا نعمة، فأنسل من الديوان خلسة، دون ان يطلب اعادة الفاتحة.. وكلما ابتعد عن بيت خلف اسرع الخطى وتلفت: بدأت الشباك تقترب من كل ناحية.. وغدا تلتف حول عنقي.. ومن يصغي الي وانا اندب: هذه غنمي وتلك غنم الشيوخ "كلهم عگلهم سود وامنين اعرفه" غنم الشيوخ لاتتميز عن بقية الغنم.. كما يتميزون هم عن الفلاحين!! كلها ترتدي الصوف الابيض ولكل واحدة اربعة ارجل! فأين هو الحد الفاصل بين الحلال والحرام - ومن قال لك ان هؤلاء يفرقون بين الحلال والحرام؟ ومن يكلف نفسه مهمة التدقيق من اجل طول لحيتك، ياصالح يا ابن الغبرا؟

في الحرائق الكبيرة لاتحمي العود الاخضر خضرته. قالوا لماذا تركض هاربا امام الكلاب؟ الم تقل، ذات يوم، بأنك تحمل "فرمان امان السلطان؟" فأجابهم الواوي - لله دره - " تمام عندي فرمان بس اليقراه منهو؟!" ولا اكثر منه حكمة الا الجرذ.. كانو يبحثون عن الابل فولى هاربا مذعورا. سخفوا رأيه وسخروا من هزيمته فقالها حكمة رائعة - لا تنساها يا اثول ياصالح، يا ابن الغبرا - "مناه لمن اثبت روحي جريذي يروح جلدي للدباغ!"

سارع.. سارع.. وانقذ شيئا من هذه السفينة الجانحة.. الآن الآن وليس غدا.. فلقد بعث الف مختار ينادي يالثارات الحسين.. وسيجعلونك من خواص يزيد رغم انفك.

* * *

كل فرد من عائلة صالح، يعرف واجبه ويؤديه على احسن وجه، خبروه قاسيا لا يتسامح. ولا يغفر ادنى زلة. لم يسمح لابنته او لزوجة ابنه ان تذهب بالغنم الى المراعي البعيدة.. ولم يكتم رأيه بهذا الشأن، جاهر مرارا امام زوجته وولديه: "المره وذرة لحم، والگاع متروسه بزازين!" فكان واجب هدية بنت صالح ساعة القيلولة، ان تراقب الغنم المرحة بين البيت وبين البترا، تتفيأ ظلال الشوك العالي. ومن حين لاخر تعتلي مترب الجدول، وتمد البصر ناحية قرية مويلحة..

سقطت حجارة بالقرب منها، فتنبهت، ولمحت رأس حبيبها،عليوي بن زاير محيسن، يلبد في صدر ساقية متفرعة من جدول البترا..تلفتت ناحية البيت اولا، ثم دققت النظر في الطريق المؤدي الى بيت خلف. سارت على المترب حتى واجهت صدر الساقية. خوّض عليوي في الماء والوحل.. استظلا بخميلة شوك.. كان شرها، نهماً في قبلاته ولمساته.. لايريد الوقوف عند حد.. عاجلته بالقول:

ـ مادام اللّه مبتليك بأبو أبخل من ابوي، عندي راي.. استرخت يداه. كف عن لمس نهديها تملى وجهها مستفهما.. اشارت الى ملابسه الرثة وقالت:

ـ البس لك هدوم مثل الاولاد...

استاء لملاحظتها، وغمغم بعبارات غير مفهومة... لم تترك له فرصة تدبير الجواب بل اكملت تقول:

-اخذ لك نعجه من غنم الشيوخ، تنباع بثمن دنانير بالقليل...

لمعت عيناه سرورا، ثم قال مترددا:

- لكن وين اوديها.. واشلون...

قطعت عليه سبيل التساؤلات بقولها:

- الزمها هسه، وچتفها بنهر، وباچر اغبش بيها للولايه، بسيارة الهور...

لم يبق مجال للتردد، فالفكرة رائعة، وسبيل التنفيذ ممهد - طبع قبلة عجلى فوق وجنتها، وردد دون سابق تدبير:

- رزج البزازين على المعثرات!

نهضت تراقب البيت والطريق ثانية، ثم دلت بأصبعها على نعجة شقراء سمينة "تفك المحبوس" كانت تجتر حصيلة مرعاها الصباحي وتستظل بشجيرة شوك عالية. انقض عليوي كالذئب، واقتادها بصعوبة، لا اشد منها الا صعوبة حملها، وتوصيلها الى الجانب الآخر من جدول البترا..

اتخذ الساقية سبيلا، محني الظهر، يقتاد شقراه، وغاب عن ناظريها، فتنفست بأرتياح وقالت في سرها: نفذت جزءا يسيرا من خطة البارحة... وما على الله الا ان يؤجل عملية الاستيلاء على غنم الشيوخ.. حتى ننفذ الخطة بأكملها..

* * *

توقف صالح عن المشي في منتصف الطريق وساءل نفسه: ما الذي حملني على مغادرة مجلس الفاتحة..؟وقد شرعوا لتوهم يتحدثون بما اريد معرفته والوقوف على كثير من اسراره؟ ليس عبثا مأثوراتهم... لابد انها كذلك - تخفي رأسها في الرمال متوهمة ان الصياد لن يراها مادامت هي لاتراه!! كل احاديثهم عن الشيوخ وما يملكون.. وكأن الثورة لم تنفجر الا ضد الشيوخ! فما الذي اغيره بأخفاء رأسي؟! يتعين عليك ياابن الغبرا ان تواجه

الواقع كما هو..ونتصرف بحكمة، صحيح، لن أخرج من هذه المعمعة سليماً معافى ولكن الفرق كبير بين المقتول "والمفشوخ!" ولن يتيسر لي سبيل الاختيار الا اذا عرفت خططهم وما يبيتون..

استدار على عقبيه.. سار بضع خطوات نحو بيت خلف. كف عن السير فجأة، وساءل نفسه: الى اين يا اثول؟ اتريد تطبيق المثل "الچلب ما ايحب الا خانگه!" أي جديد تسمع لو عدت؟ لن تسمع ما يسرك ابدا.. فأما من اين لك هذا ان يجتره فاضل.. وعيناه تستديران وراء زجاجاته كفأرين خبيثين.. واما ملا نعمة يتحدث عن اصلاحه الزراعي.. موغرا الصدور بالحقد.. مطالبا بالثارات..

رجع الى اهله موسعا الخطى: لقد تطامنت الى وهم كاذب... اتظنهم يقتنعون بما تقول.. هذه غنمي وتلك غنم الشيوخ؟ ام حسبت فرهودا يقف مدافعا عنك.. يتذكر الذبيحة التي اقتدتها لفاتحة ابيه؟!

ابدو وكأنني اقل ادراكا من الجرذ ـ ولا املك عشر معشار حسه. فقد حكى المرحوم: ان تجار السفن يبحثون في عنابرها، قبل الشراء، فأن وجدوا بداخلها جرذانا، اقدموا على شراء السفينة.. وان الفوها خالية من الجرذان لم يغامروا بدفع دنانيرهم.. ذلك ان الجرذ يهجر السفينة حالما تصبح في وضع يشبه وضع الشيوخ اليوم.

وها اني اراها، رأي العين، جانحة ولا حاجة بي لذكاء الجرذ وفراسته؟ "والمايشوف بالمنخل عمى العماه".

* * *

كان بمقدوره ان يتبع الراعي الى هناك، وينفذ خطته: ولكن من الحكمة

والذكاء ان تجري العملية على مسمع ومرأى من اهل بيتي، فأصيب عصفورين بحجر: التخلص من الراعي.. وافهامهم بأن عين صالح لا تغفل صغيرة ولا كبيرة.

تعود الرعاة ان يلقوا نظرة على اغنامهم، وهي ممرحة تشكل مجموعات وعوائل، ليسهل عليهم اكتشاف المفقودة ومعرفتها بالاسم والاوصاف.اما عملية التعداد بالارقام فيجرونها على فترات غير منتظمة.

وقف ابو البينه في الطرف الغربي، من "المراح"، وشمل الغنم بنظرة عجلى.. فاسرع الراعي الى التعداد، ليكشف عن المفقود بنفسه. بيد أن ابو البينه بادره بالسؤال:

- ولك وين الطلي الاعصم؟

ارتبك الراعي وقال:

- عمي هسه احسب..

فزجره صالح ابو البينه.

- ولك هيه لعبة جهال؟ هسه تحسب چا وين چنت نايم؟!

قال جنيدي في سره: ان المفقود اشقر وليس اعصم!

ولكن على أي حال ـ الضحية هو المسكين (رويضي). وحاور مهيدي نفسه: انه عوسي وليس اعصم! لقد راح المسكين (رويضي) ضحية مؤامرة نسجها داود ـ اللّه يبلى يومه!ـ وضحكت هدية في سرها وقالت: اصبح لا يفرق بين الطلي الاعصم والنعجة الشقراء. انها بداية تبشر بخير!

اتقن صالح دوره: فشتم اهل بيته، لانهم ثلاثة رجال وثلاث نساء، ومع ذلك يضطرونه لاستئجار غريب، يسبب مثل هذه المشاكل واختتم المشهد

المسرحي بأخراج محفظة نقوده، والمناداة على الراعي:

- تعال.. تعال، بعد لك شهرين ويخلص فصلك. الشهرين ما لازم. وهذا بگايا حسابك..

تسلم رويضي بقية حسابه، وانتحى جانبا، غير آسف على فراق ابو البينه، واثقا من انه سيحصل على اجر افضل: ولكن ما يؤلمني تهمة الاهمال.. اللّه يسامحك يا جنيدي لقد كنت السبب في كل هذا.

فكر صالح بما اقدم عليه.. احس بشيء يشبه تأنيب الضمير! فاخرج محفظة نقوده ثانية، وانتزع منها نصف دينار، ليداوي به جرح ضميره، ونادى على الراعي بلهجة ودية:

- تعال يا ارويضي تعال. هاي اكراميتك.

ولم ينسى -على جاري العادة- ان يستوهبه عن كل فعل وقول اساء له، في ساعة شيطانية..

اشتدت على جنيدي وطأة الشعور بالذنب، أعمل فكره لايجاد مخرج ينقذ به الراعي. استعرض كل الممكنات، حتى الاعتراف بأخذه الطلي: ولكنه سينتقم من الاثنين.. وتتحول القضية من غفلة الى تواطؤ..

اختلى بالراعي ثم عرض عليه المساعدة، بقصد التكفير عن خطيئته: خذ نعجة من غنم الشيوخ في الصباح الباكر. او ظهر غد حين اكون في المرعى.. فرفض الصبي بشدة:

لا. لا. كلشي ولا البوگ. اليبوگ ايدحلب..

وآنه اريد امشي على طولي!

* * *

جمع صالح اهل بيته وحكى لهم ما سمع وما رأى في مجلس الفاتحة، غير متحرج من وضع الزيادات والحواشي: فالاصلاح الزراعي كما يريده ملا نعمة ان يصبح ابن مهلهل، نفسه، مثل بقية الفلاحين.. ويخرج من هذه المقاطعة العظيمة ربي كما خلقتني. وقانون من اين لك هذا، كما يريده فاضل المعلم،الاستيلاء بالباطل على ممتلكات الناس وغنمهم.. وجرائد الحكومة لا هم لها الا الحديث عن خلف، مضفية عليه نعوت البطولة والثورية، لانه تجرأ، ذات يوم، وفشخ ابن مهلهل. وهذا يعني بكل وضوح وجلاء التحريض السافر على الشيوخ. ثم اوجز ما لم يقله بالعبارة التالية:

- والنتيجة هاي مصيبه.. على گولة ابو المثل: السالم مكسور!

تركهم في حيرتهم صامتين، وراح يخطر بينهم وبين الغنم محاورا نفسه: بأي حق يستولون على غنم الشيوخ؟ لنفرض انهم اساءوا للفلاحين.. فما ذنبي انا؟ اين حقوقي في غنم الشيوخ.. اين سهر الليالي الباردة.. ولفح سموم تموز؟ هل أنتظر زبانية ملا نعمة حتى يأتوا وامد الكف مستجديا.. ابصبص مثل كلب جائع بين يدي اولئك الذين لا يساوي واحدهم عطب صوف!؟ لن اقف حتى يسلبوا ثيابي ويأتوا على "السبته" وبعدها اطلق ساقي للريح.. فأكون اضحوكة لكل كسول يستدير مع الظل حيث دار ليشبع نوما وكسلا! ان تعدلت الامور عدلت.. وان ساءت اكون قد سبقتهم.. وانقذت شيئا من هذا البيت الذي تحيطه النيران. وقبل كل شيء وبعده.. الله يعرف مقاصدي -ولا اشك في رضاه عن عملي وانا واثق من مساعدته...

يوم كانت الدنيا بخير لم الطخ ذمتي بعطب صوف من غنم الشيوخ!

كف عن المشي. واجه مهيدي وقال، بلهجة حازمة:

- باچر اخذلك عشر روس من غنم الشيوخ للولاية..

فتساءل مهيدي: هل يأخذ نعاجا ام طليانا وهل يأخذ معهن خروفا..؟ رد الاب، بنفس قصير: لا فرق.. المهم هو الحصول على اكبر مبلغ ممكن. وتساءل مهيدي ثانية: عن البديل الذي يوضع محل العشرة رؤوس.. هل يفضله من "اعواد" غنمهم.. او طليانهم..؟ اجابه صالح ابو البينه، بلهجة توحي بالكثير من الغموض، الذي لا يرقى اليه فهم احد من اهل بيته:

- هاي قضيه محد يعرفها.. آنه مدبرها ومدسترها!

خطر لمهيدي ان يبحث عن ذريعة، فيقترح التأجيل الى ما بعد غد، بيد ان مزاج الاب كان لا يحتمل المناقشة فطمأن نفسه: لا بأس قالوا في امثالهم "لوفاتك يوم الحجة بسطعش".

ثم اوجز الاب خطة العمل:

- من غبشه اخذوا الغنم، وعارضوا سيارة الهور ورچبوهن بيها.

استشعرت هدية دنو الخطر، والوقوع بالمصيدة: فغدا يبكر صاحبها، عليوي بن زاير محيسن، ويصعد نفس السيارة، ومعه واحدة من غنم الشيوخ، لا تخطئها العين، وبنظرة واحدة يعرفها مهيدي: ويرتفع لسان الفضيحة وعواقب مجهولة لا يعلمها الا اللّه فقالت في سرها: يحسن بي ان أوطن نفسي على احتمال زجره واهانته وشتائمه الان.. ذلك افضل الف مرة من عواقب الفضيحة المحتملة.

رفعت صوتها بشجاعة غير معهودة وقالت:

- بويه ولو انته ابو العرفه وابو الراي، لكن عندي حچايه اكولها. لا

تاخذون الغنم بالسيارة، تنفك عليكم العيون..

اصغى الاب مدهوشا ثم حاور نفسه: انها تفتح عهدا جديدا فتعطي رأيا في اخطر قضية.. انه رأي سديد عرضته في لحظة حاسمة -يوم ضاع منا الرأي. ولكن الاهم من ذلك كيف تجرأت؟! اترانا على الطريق الى عهد تحكم فيه "النسوان؟!" من يدري فقد يجيء حين من الدهر نصبح فيه مثل اولئك الاجانب الذين تحدث عنهم الشيخ: تمشي النساء امام الرجال ولربما، حكمتنا ذات يوم امرأة، مثل الانكليز: تاج ملكهم على راس مره"!

لم يجد بدا، من الاعتراف صراحة، بصواب رأي هدية. حرك رأسه، علامة الموافقة، وقال:

- راي بيه سبع احظوظ - ولو گايلين اهل المثل: شيروهن واخلفوهن. لكن صدگ تنفك علينا العيون، لو ودينا الغنم بالسيارة.

عدل عن خطته الاولى، وامر ولده بأخذ الغنم عصرا: امض ليلتك في ضيافة الغنامة القريبين من المدينة، وبكر الى السوق.. تكون هناك مع مطلع الشمس. وحذار من كثرة المساومة.

حاور صالح نفسه:

.. انه آخر يوم من ايام الفاتحة. ولن يجتمع الفلاحون كاجتماعهم بهذه المناسبة.. ودونما حرج يلوكون كل شيء.. وعلى ضوء ما اسمع وأرى.. اعرف موطيء قدمي.. انها مناسبة لن تتكرر.. فليس كل يوم يموت خلف!. بعد ان شرب شاي الفطور واشعل السيجارة الاخيرة، من علبة اخذها يوم امس من مجلس الفاتحة. خطر له ان يجلس في بيت داود، ومن هناك ينصت لما يدور في الديوان.. تذكر بعد المسافة بين ربعة داود ومضيف

الفاتحة.. وقدر ان ليس بوسعه متابعة الحديث على نحو جيد، وما هو اهم، خشيته من ان يراه احد، فتدور تساؤلات ويجلب لنفسه شبهة لا موجب لها: ولكن ارتياد مجلس الفاتحة كل يوم وانتظار الغداء مجلبة للقيل والقال ايضا، فما هو الحل يا اثول يا ابن الغبرا؟

سوف اقدم على خطوة ما جاءها الاولون ولن يأتيها المتأخرون، اخذ ذبيحة ثانية.. فأن ساءت الامور وتدهورت "ياسته سوية الستين" وان تعدلت طبقت المثل المشهور "الياكل ابيره ايزگ امخيّط". الان بدأت تفهم الامور بشكل جيد وتتصرف كما يتصرف العقلاء "ولو صار شغلك عند اجليب سمه حجي چلب" ؟

تبع الغنم الى مرعاها، فأختار"طليا هرفيا" من غنم الشيوخ، اقتاده دون ان يكلم ولده مهيدي، الذي وقف يرعى الغنم بمساعدة زوجته. سار بضع خطوات، ثم حصر الطلي بين ساقيه وعدل قامته، والتفت الى ولده مقررا: لا تتقيد بمجيئي من الفاتحة ـ فربما تأخرت الى العصر، خذ عشرة الرؤوس في الوقت المعين، وامض في سبيلك المرسوم وفقا لخطة البارحة.

لم ينتظر مهيدي ابتعاده،اشار الى زوجته، مقبلا اطراف اصابعه من فرط السرور، وعلقهن في الهواء: لقد نجحت الخطة نجاحا هائلا. وبادلته بمثلها اشارة.. مضيفة اليها غمزة لم يتبينها لبعد وقفتها عنه.

لما توارى صالح ابو البينه خلف الساقية، شرعا ينفذان.... قال الزوج:

- اخذي النعجه هسه، وچتفيها بالنهر، على دربي، حتى لو مشيت العصر، آخذها..

- ناخذ نعجتين..

ـ لا تصيرين طماعه "الماگدرها ايغص بيها".

– لا اتصير جبان .. هاي فرصه ما تحصل بعد..

ـ تنفك علينا العيون..

ـ تنفك للجير والجهنم!

وتوجهت الى نعجتين،من غنم الشيوخ، اوثقتها بقماط ابنها، التي احضرته لهذا الغرض.

وكان جنيدي لحظتئذ، يعقد صفقة مع عبيد المنتاز، والد خطيبته. عرف كيف يدخل صلب الموضوع : سأتيك، بين اونة واخرى، بنعجة او نعجتين من غنم الشيوخ، تأخذها على الحساب من مهر "نجمة" . ولئن كان والدي يرفض اعطاء خمسين رأس غنم، فبوسعك ان تطرح ما اعطيك اياه، وكأنك تنازلت عن جزء من المهر.. وبهذه الطريقة تساعدني مساعدة لن انساها..

لم يجد صعوبة في التفاهم مع (عبيد)، الذي عركته الايام وخبر الدنيا، سجينا وطليقا. رحب بالفكرة وفلسف الصفقة، دون كبير عناء : ما دامت غنم الشيوخ مهددة بالنهب، كما يقول ابوك، فمن الخير لكم ان لايضيع تعبكم.. ولا تنس اني اقبل العرض رغبة في قربك.. لتيسير زواجك من ابنتي..

* * *

عندما اقترب صالح من بيت خلف، استبد به قلق مفاجيء وركبه خوف شديد، من تنبه حمزة ويقظة افكاره الشيطانية : لن يتركها تمر دون تساؤل..وكأني به يقول : ابن احميد "ابو البينه" يجود بذبيحتين لمناسبة واحدة.. وهو الذي قدم ذبيحة واحدة لا غيرها لفاتحة سعدون بن مهلهل

"والـي نعمته"؟ وليس بالامـر ببعيد فقد اعـطى دينـارا واحدا لمناسبة زواج مطشـر ـ فما عـدا مما بـدا.. بين ليلـة وضحـاهـا يصبح "ابـو البيـنه" حاتم زمانه؟!

لقد اصبحت كالجرذ يحفر التراب على رأسه، لم أعد أميز بين النـافع والضـار.. والويل لي ان انـطلقت حاسة شم حمـزة! سيقتفي آثاري ويفضح اسـراري.. لقد اسـأت لقضـيتي من حيث اردت لـهـا النجـاح، يتعـين علي الرجوع حـالا.

رفـع رأسـه، فوجد نفسه غير بعيد عن بيت خلف، وعدد كبير من الواقفين عند باب المضـيف يراقبونه : ماذا سـيقولون لو رجعت؟ "كال له وردت؟ كال له وحلت!" سحب الطلي بعنف وواصل سيره "طاح الفاس بالراس" .

استقبله حمزة بـبشاشـة وإسغراب، والقـى على مـسامعه عبـارات الثناء تمازجها دهشة واضـحة :

ـ هاي شنهي ؟! اشدعوه يا ابو مهيدي.. الوصل منك كبل فوك الكفايه..

وفكر حـمزة بأستغـراب : لا استبـعد ان تمطـر الدنـيـا ذهبا ! بعـد الذي رأيت ومهما يكن السر الخفي وراء كرم ابـو البينه ـ فلا بد ان تغيرا كبيرا قد طرأ علـى الدنيا بـرمتها..او لعل الـرجل قد اصيب بلـوثة في عقله! ثلاثة ايام الفاتحة.. وفي كل يوم يأتي بذبيحـة؟!ثم تفحص الرجل بنظرات مرتابة، وهو يضـع بين يديه علبة سكاير،كما فعل مـع ملا نعمة وفاضل المعلم..

استـاء صـالح من وضـع العلـبة بين يـديه وفكر: سـتجلب انتبـاه الاخرين وتركز الانـظار حولـي.. والشيء بالـشـيء يذكر.. تـتداعى الافكـار ويتذكرون الغنم.. وينفلت الجنون مـن عقاله المؤقت.. ليته لم يمـيزني عن الاخرين بهذه

العلبة الملعونة..

شرع ملا نعمة يروي احداث الرابع عشر من تموز .. مع اضافات متعمدة، ليدخل الرعب الى قلب كاتب الشيوخ و السيد الكربلائي قائلا في سره: أي لذة للمباهاة، واي طعم من المفاخرة اذا لم تكن على مسمع ومرأى من العدو؟! وبهذه اليد اسهمت بسحل الوصي.. ويوم امس اسعدني الحظ، قبل التوجه الى هنا بدقائق، فشاركت بسحل جثة نوري السعيد.. وما يدريني بالذي يخبئه القدر لهذه اليد..اي طاغية آخر، يتحتم عليها سحله!

وصل عبيد المنتاز، سركال قرية مويلحة و"قيم " مقام سيد سراب، ومعه عدد من اهل مويلحة، فلم يحظ بالاهتمام الذي كان يلقاه أينما حل وارتحل. وجلس في مكان "طرف" بجوار داود مأمور الشيوخ.كانا يعقبان على احاديث ملا نعمة، لكزا بالمرافق، وطرفا خفيفا بالجفون، ولم يطق عبيد صبرا حين جاء عودة الكبر ولقي ترحابا حارا من ملا نعمة ومن فاضل المعلم وفرهود الخلف.فهمس عبيد بأذن داود متهكما:

- هذا الولد يمكن عودة بن مهلهل !! موش ذاك صويحبنا الاولي عودة بن كبر؟!!

اجابه داود همسا:

- تالي الحساب يصير عد ابو خضره!

وضع حمود بن شنين دلة القهوة بين اخواتها، ورمى ملا نعمة بسؤال مفاجيء:

- ابو سعد ...اشوكت ترجع للبترا؟

- انشوف...

لم يرق جوابه لعودة الكبر، فقال متعمدا استفزاز اعوان الشيوخ، وكاتبهم:

- لا ابو سعد.. هاي غيرك يگولها.. حسبالنا تجي بيوم الثورة.. يوم السقطوا الاقطاعيين!

أسهم فرهود على عجل وهو يمسك (السماط) استعدادا لتصفيف طعام الغداء، وقال:

- ابو سعد الغضيه غضية واجب وطني.. وجودك اهناه گلش ضروري هليام...

اجابه فاضل بدلا من عمه:

- يابه.. يا فرهود.. هسه الواجب الوطني العظيم تستعجل بالغدا كتلنا الجوع.. بعدين سولف على الوطنيات!

ابتسم كاتب الشيوخ، نكاية بفرهود، الذي تراءى له متعجرفا.. وكأنه واحد من ابطال الثورة.. ثم رمق (عبيد المنتاز) بنظرة.. فشاركه الاخير ابتسامته القصيرة..

* * *

طلب السيد حسن الكربلائي،بعد الغداءمباشرة، احضار شيء يرتقيه كالمنبر، ليقيم مجلس عزاء بالمناسبة، فجيء بـ "جاون" قلب اسفله عاليا، ووضعت فوقه وسادة..

استل موعظته من احداث الساعة.. نصح الناس بضرورة الهدوء والسكينة. وتناول بالتفسير الاية الكريمة "... اطيعوا الله ورسوله واولي

الامر منكم..." على انها دعوة للعشيرة بعدم مخالفة رئيسها - ابن مهلهل - الذي هو بمثابة الرأس للجسم.. وتساءل عن حال الدنيا اذا افتقدت سيطرة اهل الحل والربط.. وما الذي يحل بالناس اذا اداروا ظهورهم لاهل التجربة والعقل ؟ ثم افاض بالحديث عن الحسد ومساوئه: ان تحسد من رزقه اللّه فكأنما تعترض مشيئة اللّه.. وتعصي ارادته.. وبالتالي فهو الكفر بعينه..استغل السيد الكربلائي حصانته فوق المنبر، فتكلم بما يكفي لاغاضة ملا نعمة..

اما صالح ابو البينه، فقد صادفت المواعظ من قلبه موقعا حسنا، وبكى في غير موضع للبكاء، حتى اثار إنتباه الديوان وسخرية بعضهم.

لحظة ترجل السيد عن "جاونه"عاجله ملا نعمة، متمسكا بأضعف الحلقات من موعظته، ليجعل منها محورا للنقاش.. ثم التفت الملا الى الحاضرين "مصوتا".

- سامع الصوت عليكم.. ياهو اللي اختار فيصل ملك.. ونوري سعيد ريس حكومه.. وابن مهلهل شيخ وملاچ للارض؟ امسك الفلاحون اثوابهم، فيما يلي الرقبة،ونفضوها ، مجمعين على انهم لم يختاروا احدا من هؤلاء.

عاد الملا ثانية "يصوت" :

- سامع الصوت عليكم.. اعمال الشيوخ اللي شفتوها بعيونكم.. يرضى بيها اللّه؟

نفضوا ثيابهم، مرة اخرى ورددوا:

- لا واللّه..

- مجرمين..

ـ ماعدهم ذرة من الاسـلام

ـ ما خلوا منكر ما فعلوه..

ـ كل الموزينات سووهن.

فـأخـذ صـالـح ابـو الـبينـة بـالانكمـاش رويـدا رويـدا، وكـأن كلمـات الملا ضربـات مطرقة فـوق رأسه، ليغوص في الارض، او يتـداخل بعضه ببعض. وفي كل لحظة يتوقع الزلزال، كأن الملا يقول، مثلا:

ـ ليش انروح بعيد؟ هاي گدامكم الغنم امنين جابوها ؟!

قدر حمزة ان هذا الحوار، من النوع الذي لا ينسـى.. وقد يجيء اليوم الذي يتعـرض فيه كل مـن سمعه واسهم فـيه للحسـاب والعقـاب فسـاءل نفسـه : ولكن كيف الـسبيل الـى وقفه وهل لـي ان اعتـرض؟! ولا احد يحـزر مجرى الاحداث غداة غد..

نهض من مكـانه. وقف قبالة الـسيد الكربلائي. طلـب منه ان يطوي طرف سجادة، ايـذانا بأنتهـاء مجلس الفاتحـة، وتلك مهمة لا يـصلح لها الا علوي او وجيه محترم.

قام كـاتب الشـيوخ ـ متـوجها الـى فرهـود الخلف.. ناوله عـشرة دنـانير وقال:

ـ الشيخ يعتذر عن الجيه.. وهذني عشر دنانير وداهن للفاتحه.

تـطاوس فـرهود، فـلـم يحرك يـده، فيمـا بقي ذراع كـاتب الشـيوخ مـعلقا بالـهواء. وقال فرهود بلهجة تهكمية:

ـ نـشكر الـشيـخ ـ هوه مـن اهل الـجود ـ لكـن احنا مـا مـحتازيـن فلوسه يوديهن بيد الطروش!

اقسم الكاتب بشرفه، استشهد بالسيد الكربلائي على ان الشيخ مريض.. ولولا المرض لم يتردد في حضور مجلس الفاتحة. فسارع السيد يؤمن على اقوال كاتب الشيوخ مضيفا اليها بعض التوابل والمقبلات:

ـ أُشهد اللّه، كان الشيخ -اللّه يحفظه- بوده يبقى بالفاتحه الى ان تنكف، بلي مولانا... ولكن المرض اعاذكم اللّه.

فجأة امتدت يد فرهود الى مبلغ، حصر الدنانير بين السبابة والابهام، وتقدم الى السيد الكربلائي قائلا:

ـ مولانا هذني الفلوس الك.. احنا ما محتازينهن.

نظر الفلاحون في وجوه بعضهم البعض وقد ارتسمت عليها امارات الدهشة.. وقال ملا نعمة في سره : لقد رفع الغرور رأسه !

ولم يحظ تصرف فرهود برضى احد الجالسين، على اختلاف وجهات نظرهم: اولهم حمزة كان يود اخذ المبلغ على مذهب القائل "شعره من جلد خنزير". وعبيد المنتاز اعتبرها اهانة صريحة لابن مهلهل.. والعملية في نظر حمود بن شنين،ضرب من البطر الذي يزلزل السموات السبع والارضين الست (ـ هكذا كان يقول ثم يوضح: بأن احدى "الارضين " لال السعدون وبيت المهلهل ولذلك يحلف برب السموات والارضين الست!

اما صالح ابو البينه فقد اعتبر تصرف فرهود نذير شؤم بتدهور العلاقة بين الشيوخ والفلاحين.

طوى السيد حسن الكربلائي طرف السجادة وهو يدعو:

ـ اللهم اجعلها خاتمة السوء.. نسأله تعالى ان لا يريكم مكروها..

ولبس حذاءه على عجل.. ثم اوسع الخطى، مؤثرا الابتعاد عن هذا الجو

المكهرب.

قال ملا نعمة لفرهود، حالما ابتعد الكربلائي وكاتب الشيوخ:

- جيت اتكحلها عميتها.. رفضت المبلغ رضينا. هاي الرده التاليه شيسمونها بالخير؟!

فقال فاضل بسخريته المعهوده :

- يدهن زردوم السيد، حتى يدافع زين عن بيت مهلهل.. ايسويهم انبياء، طاعتهم واجبه!

قال فرهود للملا :

- رفيق... ترضى ناخذ رشوه من الاقطاعي؟!

اجاب الملا بنفس قصير :

- اكطع النهبره!

استرعت انتباه فاضل كلمة " رفيق" فلم يتركها تمر دون تعليق. سحب عمه من ذراعه وهمس بأذنه:

- اهلا بالرغيف ! اشلون صحتك رفيقي!!؟

ولما اختلى صالح بنفسه، راجع موقفه ثانية، وتفحص مواطيء قدميه، فرضي عن نفسه واستحسن تصرفاته: حسناً فعلت بتقديم الذبيحة الثانية – لآل خلف، كما يبدو، لهم المستقبل كله! حتى الشيخ نفسه يتملقهم... يبعث دنانيره مع الاعتذار والمثل يقول"صاحب صحيب مرتك على اشچم وكت!"

ثم عرض الى ما دار بين السيد الكربلائي وبين ملا نعمة فوجه الملامة للسيد، لانه لم يحتفظ بالنصر الذي حققه على المنبر:اين ذهبت براعتك في

الحديث.. ما الذي حل بلسانك وقد كان"يگشر العذب" كسب الملا جميع الحاضرين ووقفوا بجانبه صراحة-وذلك بفضل حجته القوية.. لقد تكلم وكانه"حاكم شرع" إنه اقبال دنيا!! مافي ذلك شك.. وصدق من قال"لو جاد حظك باع لك واشترالك، وزين المحتچي بالمجالس حچى لك ولو ردس حظك ياويل حالك" لقد اقبلت الدنيا على الملا وجماعته.. اما بالنسبة للشيوخ وجماعتهم فانه ادبار دنيا (وطيحان حظ!) هذا امر لاشك فيه، والا كيف افسر سكوت السيد الكربلائي وتلجلجه؟

ثم رفع صوته متشائما:

- مچفيه.. برد حيلها!! گامت تعلس بجلالها!


الفصل الثالث

لا متاعب ولا مصاعب..؟ بداية موفقة.

ولم يترسم خطاه فضولي ثرثار؟ انه فأل حسن. وما على اللّه الا ان يديم الحال هكذا...

ثم التفت ابو البينه وسأل ولده ثانية:

- وبعد..؟

- اسكت وخلها..

- شنهي ما شنهي؟

- هيونطه.

- هيونطه؟

- ما ينعرف ساسها من راسها. الوادم اتشتم بالشيوخ على طول حسها..

– معلوم!! لو غاب الگط العب يا فار.

طوى السبعين دينارا، على هيئة اسطوانة، استعدادا لخزنها في "بطل" جديد، يطمره مع اخوانه تحت الارض، ساعة يخلو له المكان – ويأمن عين الرقيب من اهل بيته، وساءل صالح نفسه: ولكنه لم ينفق شيئا من ثمن الغنم..؟ اعفة هي؟ ام ان الخوف حال بينه وبين دخول السوق؟.. وهذا شيء حسن كذلك!

فتل خصلة من لحيته. وضعها بين اسنانه. تذوق طعمها بلسانه.. ثم تركها تسقط، لتتخذ المكان المناسب وسط خميلة الشعر الملتف، المتعدد الالوان.. وقال لولده:

- باجر هم بيع عشر روس من غنم الشيوخ!

أسر مهيدي لزوجته، وهو يضع العشرين دينارا في كفها:
- خمسطعش ثمن النعجتين.. وخمسة كَطفتن من العشر روس..
حاول ان يستجلي اثار الفرحة عل وجهها الجميل، بيد ان الظلام حال بينه وبين الرؤية.
قدران لا شيء يعبر عن الفرحة المشتركة غير دغدغتها في اكثر المواضع حساسية من جسمها..
كتمت ضحكتها بصعوبة. وهمست له:
- اسمع.. اسمع.. وين اضم الفلوس؟
اقترح بعد فترة صمت، للتفكير، ان تلف الدنانير بقطعة قماش، وتجعلها مثلثة الشكل، تماما مثل "الحرز" الذي كتبه سيد حسن الكربلائي لطفلتهما. وخيرها بين تعليقه مع القلادة، او جعله في طرف الفوطة مع "الكتر"..
اعترفت له بصواب الرأي، وحسن التدبير، ثم سألته بفرح طفولي:
-باچر هم تاخذ غنم للولاية؟
- ايه
- ربي جثّر الحروز!!
تملكته نزوة، دفعته للمعابثة دون تحفظ، وهم بالقول: ان هذا النوع من التعاويذ افضل الف مرة من تعاويذ السيد الكربلائي التي لا تغني ولا تسمن. استدرك مستعيذا باللّه من غواية ابليس.. واكتفى بضحكة مكتومة.. ثم شدها اليه بقوة.

* * *

ضحكت (هديه) من هدية حبيبها، وقالت بسخرية لا تجرح:

- حرامي وبيده فانوس!

ثم تساءلت بمرارة:

- ابيت صالح احط ريحه؟! شجاوبهم لو نشدوني منين لج هاي الريحه؟

وكانت تقلب الزجاجة بحذر، مخافة ان يعلق باصابعها شيء من العطر.. فتخضع لاستجواب صارم، يتعذر عليها الخلاص من نتائجه..

اعترف عليوي صراحة ببلادة حسه، وعدم تقديره للامور.. ووعدها بهدية اخرى من النوع الذي لايفضح نفسه بنفسه، حين يبيع النعجة الثانية.

نهضت هدية تراقب الطريق، وتستوثق من خلود اهلها للراحة، ساعة القيلولة، ثم جلست بجانبه مطمئنة، تحت خميلة الشوك..

امتدت يد عليوي الى ابعد مدى. تبين لها بوضوح انه لا يكتفي باقل من التصاق جسديهما عاريين - وكأن بيع النعجة الاولى واعتزامه اخذ الثانية، قد رفع الكلفة وهدم سور التحفظ.. غالبت هياجها بصعوبة، استنجدت بكل الصور المرعبة لنتائج استسلامها للعواطف. قفزت مذعورة من بين يديه، وزجرته بعنف:

- عريّس؟!

ثم رمقته بنظرة غاضبة، حملتها كل ما تملك من قوة الارادة والتصميم على صيانة الامانة، والخوف من عواقب العبث بالمقدرات..

تحاشى نظراتها. حاول ان يبتسم ويتمتم بعبارة تزيل آثار الغضب المرتسم على وجهها، ونبرة الانفعال التي مازجت صوتها وهي تقول، مشيرة بالاصبع الى نعجة سمينة:

- اخذ نعجتك وروح!

*   *   *

اقترح عبيد المنتاز على (جنيدي) خطيب ابنته، ان يضاعف العدد، ويأتيه بأربع نعاج بدلا من اثنين، في كل مرة، موضحا اهمية الاستفادة من الوقت: فاليوم الذي يذهب لن يعود ابدا.. وان الفلاحين سينهبون غنم الشيوخ حتما.. فقد لاحت نذر الشر. ونعق غراب الشؤم في مقاطعة البترا- حين رجع ملا نعمه وعائلته من بغداد.. وشهدت بعيني هرج الفلاحين ومرجهم وفرحتهم الغامرة بعودة رأسهم المدبر لكل فتنة.. وليس بعيدا ذلك اليوم الذي يصدر فيه اشارته للسلب والنهب .. بس أيدگ الهم يرگضون!" بالامس هرعوا من اطراف المقاطعة الى قرية "العلوه" يستقبلون ملا نعمة.. وشرعوا على الفور بعد ساعات على وصوله يعملون بهمة لا تبارى... لتشييد الحوش والديوانية وحجرتي العائلة..

*   *   *

ادرك صالح ابو البينه ان نجم الملا في صعود.. وسيكون هو الآمر الناهي في مقاطعة البترا وما جاورها.. وايقن ان التقرب اليه آت بالفوائد لا محالة: ولا ضرر ابدا -حتى مع تبدل الاحوال- من اهدائه "ذبيحة" بمناسبة رجوعه من بغداد وسكناه الدار الجديدة.

وقع اختيار ابوالبينه على "طلي هرفي" من غنم الشيوخ كانت اليته، اذا مشى بتؤدة، تتحرك مثل بندول ساعة الحائط المعلقة في صالون قصر الشيوخ. تذكرها صالح وتساءل: هل انتزعها الفلاحون يوم اقتحموا غرف القصر؟

سحب الطلي بصعوبة من بين الغنم، ولما اقترب من قرية "العلوه" وجد

نفسه يبتسم ويتساءل: اتراه يعاملني كما عامل الشبلي بك فلاحه؟

كانت سمكة ضخمة لم تقع على مثلها عين الفلاح ابدا. ساعدته المقادير على صيدها في نهر "مريزيجه". استكبر ان تأكلها عائلته وجيرانه.. اتخذ قرارا بحمل السمكة على ظهر حمار والتوجه بها الى مضيف الشبلي بك السعدون مؤملا "الاكرامية" من البك مقرونة بالثناء والمديح.. اعجب الشبلي بالسمكة.. وبدلا من ان يوجه كلمة شكر للفلاح.. قهقه عاليا وقال: "الفضل لمريزيجه يولدي!!" فهل يقول لي ملا نعمه وهو يتسلم هذا الطلي السمين: "الفضل للجمهورية!!" ولا يتكرم عليّ بعبارة ثناء؟

من يدري.. قد يفعلها؟! السنا نعيش بين اليقظة والمنام –في هذه الايام!

قابله ملا نعمه بود واحترام، واجزل لع عبارات الشكر، خلافا لتوقعاته. فحاور نفسه متفائلا: هذا ما يجعل معنى لتضحيات الناس.. انه شيء حسن.

لم يدم تفاؤله طويلا.. فقد عرف عن أي شيء يتحدث الفلاحون:: يا للتعاسة.. صدق من قال: لو قصد الشقي حفلة عرس لضل الطريق وساقته قدمه الى مجلس عزاء "مشلوع الگلب ما ايريحك اللّه.."

انه حديث ذو شجون.. واستمرارهم فيه لا يخلو من المخاطر.. ضج الديوان ثانية، شماتة بالمتهمين، حين ردد حمود بن شنين عبارة، تلفظها على نحو قريب من لهجة الشهود..

حرك عوده الكبر رأسه.. وكأنه يصغي لوقائع المحكمة وقال:

- يهدر مثل السبع.

وعاد حمود يكرر عبارة الشاهد:

ـ سي سي سيدي.. ما ادري!

لا يا منعول والدين.. هسه صار ما يدري.. گبل جان الفهّام الفهيم!

التف عوده الكبر الى ملا نعمه، يصل ما انقطع من حديث سابق:

ـ تهمة هذا شنهي؟

اشترك بضرب المظاهرة.. جا اشعجب افعال الشيوخ ما تنحسب جرايم سياسية؟

اجابه ملا نعمه:

ـ كل حسبه تگدر اترد اسبابها للسياسة لكن لوردنا ناخذ برايك لازم الحكومة اتسوي مية محكمة سياسية.. وتقدم كل الشيوخ والملاليج للمحاكمات: لانهم اشتركوا كلهم بظلم الفلاليح...

نهض عوده الكبر، ورفع ثوبه، فبدت على ظهره اثار مطبوعة وقال بحنق:

ـ هاي. اتشوفها يو لا؟

هاي مچانات خيزران الشيخ صار الها اسنين وبعدها ما راحت..

ونهض حمود بن شنين وكشف عن ظهره.. ثم تبعه محمد.. وآخرون..

صاح ملا نعمه، وهو يضحك:

ـ شنهي القضية؟! عندي حمام؟ كلكم نزعتوا هدومكم!

عض فرحان بن سويلم شفته السفلى، وزمجر قائلا:

ـ اوف.. اوف.. كون يوگَف ضاري بمحكمة الشعب واسمعه يبلعم ويتمتم.. يع.. يعني اشتقريب يعني!

فاطلق عمه، كزار الصگر، زفرة من منخريه وقال:

ـ امه! وآخذ بثار الدبسا الكتلوها..

وقال فلاح آخر:

ـ وآنه آخذ بثار البكَعا!

وصرخ عوده الكبر ثانية:

ـ جا هيه السياسة رطونه؟!

هاي الجرايم سياسة ونص!

جف لسان صالح ابو البينه، ونشف ريقه: هذا ما لم يكن بالحسبان. لقد قتلت بقرة بأمر الشيخ وقتل المرحوم سلمان خمس بقرات.. اما داود فلا تعد ولا تحصى ضحاياه..

وكلنا ننتسب لحميد.. وجاء يوم الحساب على البقر! "ايه يخايب يصالح يا ابن الغبرا.. اتخيّطها من هان تنفتج من هان!"

لو تساهلوا معي ولم يوقفوني متهما..لابد من وقوفي شاهدا امام هذا الحاكم الذي يتحدثون عنه ويقولون يهدر كالاسد، من اين لي قلب يحتمل صيحة الاسد؟! ان "عوية الواوي" في هذه الايام تكفي لسقوطك "يا صالح يا ابن الغبرا" جثة بلا حراك. فما الذي تفعله بك صيحة الاسد؟! كان همك الغنم. وها انت تغرق في لجة هم جديد.. محاكم.. وهدير اسود.. و"طلايب وشهود"..

اصغى لملا نعمه، وهو يقنع الفلاحين بوجهة نظره: ان محكمة الشعب تحاكم عهدا بأكمله.. وما الاشخاص الا رموز لذلك العهد و...

استشعر صالح ابو البينه، شيئا من الراحة، حملتها كلمات الملا. حاور الملا في سره وكأنما يتودده: هذا كلام عقلاء.. لم يذهب عبثا تعلمك القرآن.. لابد انها روح القرآن تجعلك هكذا.. تذكر دخول الاولاد في "كتاب"

ملا محسن. قال ابوه يومئذ: كم كان بودي ان تتعلم القرآن.. او يتعلم اخوك سلمان. ولكن اذا تعلم احدكما القراءة سوف يرفض "السروح بالغنم" ليتني دخلت "الكتاب" ـ لكنت في حال اخرى. ولاخترت مهنة غير رعي الغنم.

لم يتركه الملا ينعم بهدوئه، اخذ ينصح الفلاحين باقامة الدعاوى ضد الشيوخ في محكمة القضاء، او محكمة اللواء.. فأستاء صالح من توجيهات الملا، وخاطبه في السر: عدت الى ما كنت عليه، غلبك طبعك الشرير.. ولم ينفع معك القرآن. ما الفرق بين محكمة الحي ومحكمة بغداد؟ كلها محاكم ومشاكل و"طب واطلع.. وصبّح ومسّي بوجه مأمور المركز!!" يا لها من ايام سود "ايه يخايب يصالح" يا ابن الغبرا وين ما نويت ما صولي گعر!"...

ضرب حمود بن شنين جبهته بباطن كفه ـ تذكر شيئا هاما ـ وانبرى لمخاطبة الملا: دعك من ضرب الفلاحين وقتل مواشيهم..ولكن هل نسيت رقص الكاوليات والفرح الكبير الذي اقامه الشيخ عشية الهجوم على مصر.. وفي ليلة قصف بور سعيد بالذات؟ وكنت ليلتها تبكي مثل..

تحرج محمود في التشبيه. فضحك الملا واكمل القول:

ـ مثل النسوان..

گولها لا اتخاف.. انه ما مستحي منها ..

تمنى صالح ابو البينه لويحدث شيء يصرف انتباههم عنه. فينسل من ديوانية الملا. لم يعد يحتمل هذا العذاب: انهم مصرون على ايجاد وسيلة لبهذلة بيت مهلهل ـ اه.. لواقتصر الامر على بيت مهلهل.. فليبهذلوهم "للجير وللجهنم" ولكن ياصالح يا ابن الغبرا "اليگعد يم الحداد يلوحه

الشرار!".

تحول قلقه الى غيض. وجد نفسه حانقاً على ولده جنيدي. الذي يطالب بشراء راديو: هذه نتائج الراديو.. سمعوا المحاكمة مرة بواسطة الراديو الملعون ففقدوا رشدهم. ويريد "ابن الثولا" ادخال الراديو الى بيتي. وكأن مصائبي الاولى لا تكفي. لا بد لي من مغادرة "كورة الزنابير". ويستقبلني اهل بيتي - مؤملين جديدا مفرحا سمعته او رأيته في ربعة ملا نعمه.. ولكن.. لسوء حظي وحظهم حين يكون جوابي مثل جواب كًعود ابن طاهر:

- جبت لك خبر ايزين شيبك وشيب ابوك.

- شنهو الخبر يا ستار؟

- ابوك مات!!

الفصل الرابع

ادرك صالح بعد فوات الاوان. بأن التوفيق لم يحالفه في اختيار الوقت. لمواجهة الشيخ. ولمح على وجه "الشيخيه" كآبة لم يرها من قبل. لاح الحزن في عينيها كالقذى. وعلى شفتيها مثل الشتيمة الجارحة فساءل نفسه: هل وصلتهم اخبار سيئة عن صحة الشيخ الكبير؟.. كانت طلقة المحيا قبل ايام.. بدت وكأنها تستعيد شبابها.. تنفجر طاقة وحيوية ـ مثل مهرة معافاة لم يلامس ظهرها السرج امدا طويلا.. وقالت ان متصرف اللواء اعرب عن اسفه لما حدث في القصر صبيحة الثورة.. واشار على ضاري بأقامة الدعوى على الفاعلين..لينزل بهم اقصى العقوبات.. وقال المتصرف ـ وهو ضابط كبير ـ ان ثورتنا ليست فوضوية ولن تسير حسب رغبات الغوغاء..

اعتزم صالح ان يسأل "الشيخيه" - ام ضاري - عن سبب الوجوم المخيم على البيت. والكآبة المرتسمة على وجهها. شرع يبحث في ذهنه المشوش عن عبارة لبقة تلح للسؤال. فاجأه ظهور الشيخ ضاري من غرفة نومه. متوجها الى القصر. محتقن الاجفان. مشعث الشعر. يمشي بتثاقل وبلا حيوية: كأنه خروف خصي!

هرول صالح نحوه.. وقبل اطراف اصابعه. وتراجع خطوة الى الوراء..

عاجله الشيخ بسؤال. دون ان يلتفت اليه، او يرفع رأسه، اتقاء اشعة الشمس:

- ها ؟ شكو ؟

نسى كل شيء اعده في ذهنه، لا عجب فقد رسم للمقابلة صورة اخرى: كأن يكون الشيخ على مقعده.. وهو بين يديه يجلس باسترخاء على ارض الصالون اللماعة.. ويستهل كلامه بمقدمة، بعدها يدخل صلب الموضوع..

ولابد من نهاية محبوكة..

وجد نفسه خالي الذهن تماما.. فراح يلهوج ببلاده:

- يا امحفوظ الغنم نهبت الحرامية.. الحرامية نهبتها الغنم يا امحفوظ الغنم باكَت اهوايه من الحرامية..

اطلق الشيخ زفرة مسموعة، حرك يده سخرية وقال:

- يا غنم يا ملايكه؟ انعل ابو الغنم لابو اهلها.. احنا وين والغنم وين.. اشلون سخيف انته؟!

واتخذ سبيله الى القصر، مخلفا ابو البينه اسير حيرته، لا يدري ماذا يقول وكيف يتصرف.

ولما توارى الشيخ وراء الحائط الذي يفصل القصر عن حوش العائلة، رجع الى "الشيخيه" وسألها بلا مقدمات:

- ام ضاري شنهي الحسبه يا ستار؟.. وگع گلبي من الخوف؟!

كانت مطرقة. اصابعها تعبث بالارض. اجابته دون ان ترفع رأسها: - الگاع راحت.. ثم اوضحت له: صدر البارحة قانون الاصلاح الزراعي، ينتزعون منا كل الاراضي، عدا الف دونم، لا نعرف اين موقعها.. اذا ما خيرونا فلابد من اختيارها حيث يقع القصر والبستان.. وهذا المكان اسوأ ما في المقاطعة كلها، حيث تحول، الى سبخ منذ سنين.. لم تكن عندي فكرة واضحة عن الارض ومساحتها من قبل.. البارحة فقط، افهمني ضاري: ان هورة البترا وحدها سبعة وعشرون الف دونما.. وان هذه المساحة، التي تبدو صغيرة، بين البترا والقصر، هي ثمانية الاف دونم.. وان مشروع العلوه اثنان وعشرون الف دونما.. والصالحية تسعة الاف.. ومويلحه سبعة

والسرايه الف وخمسمائة..

بعد ان عرفت هذه الحقيقة، وسمعت ان حصتنا الف دونم لا غير، بموجب القانون، بصقت على الالف، وقلت لضاري: اذا جد الجد نرحل الى بغداد، ذلك افضل الف مرة من البقاء هنا، اتعذب برؤية الشيوعيين يعبثون بأرضنا.

رفعت رأسها فجأة، وقد اتسعت عيناها. وكورت شفتيها، وتساءلت بصوت حاد النبرات: ولكن اتظن اللّه يسمح بهذا؟ ويرضى بأنهيار مضيف مهلهل، العامر دائما بتعزية الحسين، والذي لا يخلو من ضيف شريف او عابر سبيل على طول ايام السنة؟ اتظن اللّه يقسو الى هذا الحد؟

نفض ثوبه، فيما يلي الرقبة، حرك رأسه نفيا، وهو يقول:

- حشا وكفى.. حشا.. اللّه ما يرضى بالظلم.. أوجس خيفة من غضبها: قد تبادر بالسؤال عن سرقة الغنم..وهذا هو المزاج السيء الذي لا يصلح للمناقشة.. وهي من نوع النساء الذي يحسب لغضبه الف حساب.. وقد وهبت حيلة ودهاء قدر ما وهبت عافية وجمالا..

سكنت فورتها، وانطفأ غضبها المفاجئ، وعادت ثانية تعبث بالارض، بمفتاح كبير، من بين مجموعة مفاتيح متعددة الحجوم والاشكال. هيأ نفسه للجواب عن عدد المسروق، من غنمها الخاصة.. ومن شياه زوجة ضاري.. ومن غنم الشيوخ الكبار..

سئم الانتظار. ثقل عليه الصمت. كلما طال ترقبه لسؤالها اضاع شيئاً من اجوبته المعدة.

جاءت الطباخة، تطلب من الشيخية فتح مخزن الحبوب والاغذية، فغادرته

الشيخية دون كلمة و سؤال. نهض على عجل - واسرع الخطى. ولما تحرر من باب الحوش تلفت ليستوثق من نجاته. ولا احد يدعوه للرجوع: ولا كلمة استجواب. ابتعد عن الحوش غير مصدق: ابمثل هذه السهولة؟ "اندفعت بگصبه ما احتازت مردي؟!"

واسترجع صالح عباراته التي القاها على مسامع الشيخ والشيخية: قلت ما فيه الكفاية وقد اعذر من انذر. ابلغتكم فلم تعيروني اذنا صاغية، قلت لكم ان اللصوص سرقوا كثيرا من الغنم، فلم تجيبوني بشيء ولم تنصحوني.. وهكذا فتحوا الباب على مصراعيه!

وقت مناسب اختاره لك الحظ - يا له من ذهول رائع اصاب الرجال والنساء على حد سواء. لقد كانت تحاسب على "عطب" الصوف.. تدقق في جلد الذبيحة لتعرف عمرها. الان ادركت ان اللّه بجانبي.. ولن يخذلني ابدا. بعثني اليوم وليس امس لابلغهم الخبر وهم ذاهلون – يا له من ذهول رائع– مضى اسبوعان وانا في حيرة.. متردد من المجيء.. لو جئتهم امس لامطروني بأسئلة لا عد ولا حصر لها. كيف سرقت. وكم عدد المسروق - وبمن تشك. وكيف اختارك اللصوص من بين كل الناس وهم يقولون: لم يبلغ عن حادث سرقة في الريف كله منذ اليوم الاول للثورة وحتى الان. ولماذا تسكت كل هذه المدة ولماذا ولماذا.. اسئلة لا تنتهي ولو تأجرت اليوم وجئتهم غدا فربما افاقوا واستعادوا رشدهم.

ما اروع العمل المناسب في الوقت المناسب وما احسن التبليغ عن سرقة الغنم في صبيحة صدور قانون الاصلاح الزراعي!!

لا تفخر بذكائك يا ابن الغبرا.. ان ما جرى بتدبير العلي القدير.. ينبغي

ان لا اشك لحظة في هذا.. يتعين عليّ من الان فصاعدا تعلم فروض الصلاة.. وابواب التوبة مفتوحة للمسلم حتى لآخر دقيقة من حياته..

خلع كوفيته. رفع وجهه الى السماء. مد ذراعيه الى اعلى ثم دعا ربه في سره: الهي بحق انبيائك واوليائك ـ بحق السادة والاشراف.. اجعل الثورة تراوح في مكانها.. فلا تتراجع خطوة الى وراء وعندها يفيق الشيخ من ذهوله. ولا تتقدم خطوة الى امام فيزداد الفلاحون هوسا. ان هذا الحد الذي بلغته الثورة يحقق النفع لكل العباد. يا رب العباد.

جانب الطريق ليستظل بخميلة شوك عالية.. لف سيكارة واشعلها. زايله الاشفاق الذي ألّم به، غداة الثورة، من اجل الشيوخ. وجد نفسه يوازن بين حسناتهم وسيئاتهم: ان اللّه عادل ما في ذلك شك ـ وقد اخذهم بظلمهم.. لم يكونوا سوى مغتصبين للارض، وقد عادت لاصحابها الشرعيين.. واما الغنم.. فالغنم.. اشتروا الغنم.. ولكن من اين جاءوا بثمنها؟ انها ثمار جهود الفلاحين اولا ـ ثم تكاثرت بجهودي وبتعب وكدح اهل بيتي. لابد ان اللّه ينظر نظرة خاصة تختلف عن نظرتنا للتعب.. يقدره حق قدره.. ولقد تعبت بما فيه الكفاية.. واذا كان الامر كذلك يجوز لي شرعا ان استرد اتعابي.

رفع كفيه بالدعاء، مرة اخرى، ورمق السماء بمذلة، بعد ان توجه نحو القبلة، ودعا ربه بصوت مسموع:

الهي وانت اللي اتدير الكون كله.. ما تغفل عن زغيره ولا چبيره.. انت اللي ترشد الناس والدبش لكن يا مولاي اسمح لي اكول حچايه بغير تعلوم لك. (حاشاك يا رب العباد) لكن خاف شاغلتك مشاغل الكون.. وآنه عبدك وابن عبدك.. اخذها مني ملبلبه.. اريدك تخلي الثورة هيچ كون الاكطاعيين

مـرعوبين مـا يفكرون بغيـر ارواحهم واتخلي الخوف جدام الفلاليح حتى لا يفـوتون زايد وتمتـد اديهم على حلال الـناس وغنمهم! آمـين يا رب العالمين.. آمين!.

شمل الـغنم بنـظرة، وهـي ترعـى في الطرف الشـرقي من هـورة البـترا: حـسنا فعلت بـرحيلي عن تلك الـدار الواقعة علـى طريقهم.. انهـا واحدة من افكـار جنيـدي وتدابيـره. ذكي وشجاع لـولا الحاحه علـى الزواج ومطـاليب اخرى.. راديو.. واصدقاء.

تراءت له الـغنم كثيـرة جدا، تغـطي مسـاحة كـبيرة مـن هورة البـترا: اين يكـون مـرعـاهـا اذا مـا وزعـت الاراضـي علــى الفلاحين..واسـتقل كل فلاح بقطعة ارضه؟..

يـا له من عيش سـعيد –ان يملك المرء قطعـة ارض واسـعة.. يتـصرف بـها كـيف يشـاء.. ولم لا اكون واحـدا منهم.. واملك قطعة ارض؟ لقـد كنـا هكذا.. نرعى الغـنم ونفلح الارض.. ثم صرفتـنا غنم الشـيوخ لكثرتـها عن الفلاحة. ويتعـين عليّ التـوجه مباشـرة الـى ملا نعمه.. اجـس النبـض.. انثـر بضـع كلمات " حلاوه بجدر معطور!".

هيأ عبارات، مـن النوع الذي يسـتطيبه الملا.. بعضـها شتـائم للاقطاعيين: ثم اسأله فيمـا بعد ان يعتبـرني واحدا من الـفلاحين، لأحصـل على الارض. واذا مـا جعل الغنم سببـا لـحرمانـي من الارض اجيبه: "الغنـم ليس عواري" اعيدها لاهلها.. وقد ابيع شياهي.. وانصرف للفلاحة كلية!

وجـد ديـوان الملا مكتظة بـالفلاحين. جـاءوا مـن كل المنـاطق المجـاورة. يـستفسـرون عن مـواد قانـون الاصـلاح الزراعـي فقال مـع نفسه: بلغـت ما

تريد يا ملا.. جاء وقتك لتثأر من قاتلي الحسين.. وتوزع الجنة على التابعين والمريدين..وليزيد واتباعه جهنم وبئس المصير.. فلتضع الشيوخ في موقد القهوة.. لن احشر معهم على اية حال ..اريد الجنة ياشيخ.. فأنا براء من يزيد..عجب من سماحة الملا نعمه. وجوابه المريح بلا مناكدة. ولا اشارة للغنم: سجل اهلك مع اهل "الصالحيه" لتأخذ قطعة ارض اسوة بالفلاحين. هكذا اجابه الملا. واتبع ذلك وهو يضيف : هل نسيت ان الصالحية تحمل اسمك.. وكنت اول فلاح شق نهرها الصغير. واحياها بعد الموت؟!

اغتاظ ابو البينه من نفسه. ولعن غباءه المستديم: كيف نسيت هذه الحقيقة؟ العمى! "عمي چلاب يا اثول" قد عمرناها يوم كانت قطعة صغيرة -لم تتسع كما هي الان. كيف نسيت هذه البدهية؟ العمى يا اثول يا ابن الغبرا.الناس يختلقون الاسباب والمبررات للفوز بغنيمة ما.. وانت تتجاهل الحقائق التي تؤهلك لكسب المغانم؟ العمى!

رجع اللى بيته يحمل بذرة قلق جديد- ولكنه قلق من النوع الممتع اللذيذ- يتشوف بوارق امل في الحصول على الارض- ويخشى تعارض هذا المسعى مع خططه للاستحواذ على اكبر عدد ممكن من غنم الشيوخ : فكل منهما تحتاج لتدبير وتفكير وتنفيذ بارع وذكي.. خصوصا قضية بيع الغنم.. اما الانفراد بالصالحية -اعني حدودها القديمة- فتلك صفقة لا تعادلها كل الغنم.. سوف اضحي من اجلها كل غال وثمين.. مستعد لانفاق الف دينار.

ضاق صدره بما احتواه من اسرار : لا بد من المشورة.. هل اجمعهم..

افضي بكل شيء ؟ علهم ينصحون بما هو اجدى.. اوينبهون الى شيء لم يخطر على بال..لكن هذا شيطان جنيدي سيصحو من غفوة.. ويعاود مطلبه الاول: الزواج من بنت عبيد وسكنى القرية.. وتكون رغبته اشد وبألحاح اكثر اذا عرف بقضية توزيع الاراضي.. وتبدأ سلسلة المشاكل.. لقد وعدت زاير محيسن واقسمت يمينا بالعباس ان اسمح بزواج هديه بعد شهر واحد من زواج جنيدي..وليس الان هو الوقت المناسب.. لدخول غريب في بيتي.. وكيف اتخلى عن جنيدي في هذا الوقت العصيب..ما ان يتزوج حتى يهجر البيت ويأخذ قطعة ارض -لابد من تخديره بوعود خلابة وتأجيل زواجه حتى تنجلي الامور..لا يسعني الاستغناء عنه ابدا..اما مهيدي فلا فائدة من استشارته ومشورته.. فليس له من سديد الرأي ما يعادل بعرورة طلي صغير اثول رخو- لا يشد الظهر ايام المحنة...

فمن ذا الذي استنصحه؟ اخ.. لقد عزت المشورة وندرت النصيحة —ذاك الذي يمكن الركون الى رأيه اخشى يقظته واصراره على شيء لا اريده الان.وهذا لا يقدم ولا يؤخر. ولم تبق الا النساء! لقد كان من اسوء ادعية البدو بالشر على عدو لدود : "عسى شوارتك نسوان وجعايدك رضعان وراحلتك جعدان".

اما ذاك الاخر.. ابن اخي. داود. فأن صحا من سكره جاد بفضلة رأيه على اولياء نعمته.. ومع ذلك أتبع المثل الشائع "اخذ الشور من راس الثور" اقصد ألثور وابحث معه قضية الصالحيه.. ومن الافضل ان اطلعه على جملة مطامحي واكشف له كل اوراقي.

وجد داودا خالي الذهن تماما. من أي فكرة عن قانون الاصلاح

الـزراعي. شـأنه في كل قضـية عامة. لم يأخذ رأي الشيـخ. كأنه يتعمد اغلاق ذهنه. وحـجـب الرؤيا عـن نفسـه. مخافـة ان يتكون له رأي قبل الـوقوف على وجهة نظر الشيوخ!

تنبه داود من غفلته. واستيقظت غـرائزه بعد تبلد احدثته الثورة بصدمتها العنيفة. استعـاد حديث عمه عن هورة الصـالحية وامكانية الاستحواذ عليها. بهذه الطريقة أو تلك : وسـاطـة عند الشيوخ.. دنانيـر للمتنفذين الجدد.. وقد تسود شـريعـة الغـاب فيمسـكون بنـادقهـم ويسـتولـون علـى ارضـهـم التي استحصلوها بعـد بوار. وعلى اية حال "واوي يـسعى احسن من سبع نايم" ولا بد من الحركة وجس اكثر من نبض.

قـال داود لنفسه : ان الـشيوخ يعـرفون عن القـانون مـا لا يعرفه انسـان آخـر.. هذه حقيقـة لا جدال فـيها .ولكن الحد الاعلى الف دونم.. ان لا يملك شخص اكثر من ذلك.. واذا كان الحل هكذا يتعين على الشيوخ ان يسجلوا الالاف بأسمـاء المقربين —وانا اولهم —واذا سمح للنسـاء بتملك الف دونم فقد يسجلون الفا بأسم "زينه" ان مقـاطعتهم تزيد عن الثمانين الفا.. واذن.. فلا بد ان يصيب ملا علي الف دونم وربما عبيد المنتاز..

اسرج مهـرته. وتنكـب بندقـيته. ثم قصـد قريـة الشـيوخ.رجع بعـد الغداء مبـاشرة. وقد فـترت همته. مثـل طائر نتف ريـشه. وقد تراجعـت آماله. حتى تجمعت في "بطلين عرق" سرقهما من خزانة القصر.

سمع عبارة واحدة من الشيخ. جسدت كل المخاوف والقلق :

–اذا مـا تصير چاره لهالحكومه.. احنـا موزينين.. فلم ينقل العبارة داود. بأمانة لزوجته. بل اعاد صياغتها على النحو التالي:

- ايگول الشيخ : احنا كلش موزينين.. ما تصير النا جاره..

اختلجت شفتاها. وابرقت اسنانها الجميلة. حين استوضحته

-اشلون؟

- الشيخ خايف كلش..

بدا وكأنه الشحوب يزيده فتنة. سألته بقلق:

- خايف! ليش خايف؟

- امأيس فردنوب..

تراءى وجهه كالحا مقززا. وهو يروي اخبارا محزنة. غشيتها كآبة عميقة.اختفى مستقبلها وراء ظلمة حالكة : ضاع شبابي.. وخسرت عمري.. كنت امضي ايامي هنا على امل لقائه..وعودة الحياة معه سيرتها ألاولى.. فأذا حرمت منه للابد.. أي معنى للعيش معك ايها الثور الخصي؟!

* * *

لا بد ان اقتنص منه عشرة دنانير. بأية وسيلة. هكذا قرر داود. وهو في الطريق الى بيت عمه. صالح ابو البينه. بادره عمه بالسؤال لحظة ترجله عن مهرته:

- هاه.. بشر؟ (رؤيتك لا تجلب البشائر.. لعن اللّه الثورة التي جعلتني اصطنع لك البشائر).

- خيرات ان شاللّه..

(لابد انك تعني تحسن وضع الشيوخ.اعرفك اثول. الكلب يتبع صاحبه مع الجوع والشبع!)

- شنهي ما شنهي اخبار التصلح الزراعي.. اخبارشيوخنا؟

(لو قلت لك انهم في اسوء الحالات اليأس لادرت ظهرك ولم تمنحني فلسا واحدا)

- لا اتخاف على شيوخنا..

(من قال لك ايها الاثول اني خائف على الشيوخ؟ أتنمنى من كل قلبي ان لا تقوم لهم قائمة بعد اليوم وان لا يفيقوا من ذهولهم..)

- عندك اخبار جديده؟

(لابد لي من اختلاقها –والا فمن يقرضني عشرة دنانير).

تعمد داود ان لا يطيل الفترة فسارع يقول:

- خجلت اداعي الشيخ بماموريتي وآنه محتاز عشر دنانير قرضه.

يعلم صالح علم اليقين ان لداود مكافأة سنوية عند الشيوخ، مقدارها خمسة اطنان، وانه لم يتسلمها بعد. ومع ذلك فكر قبل ان يجيب الطلب.

لو استولت الحكومة على مخازن الحبوب او نهبها الفلاحون من اين يسددون له الخمسة اطنان؟ لا بأس.. لن تضيع.. ان تعدلت امورهم فهو صاحب كلمة مسموعة عندهم.. وان تدهورت افدت منه بقضية الصالحية. وعلى اية حال ستكون هذه العشرة خاتمة السوء. لن امنحه بعدها فلسا واحدا.. وقد يجيء ذلك اليوم الذي اصارحه فيه.. واشفي غليلي من سفاهته: "مثل شحم الچلب.. يلمّه من فطيسة ويموع بجوعه!" لقد كنت تكسب الكثير.. ولكنك ادخرته "عرگ" في جوفك.. وعطرا فاخرا على بشرة زوجتك.. حتى الشياه التي ورثتها عن المرحوم والدك بعثرت ثمنها ثيابا وأحذية لابنة ملا علي.

هذه عاقبة السفاهة "والماكدرها ايغص بيها".

الفصل الخامس

اعتزم داود ان يكسب ود حمزه. فما اشد حاجته للعطف. وما اشوقه الى كلمة ثناء. بين عشية وضحاها تنكر له اقرب الاصدقاء. وجافاه صفوة احبابه. ويرتفع جدار حاجز يزداد سمكا، مع الساعات والايام. يفصله عن العالم كله. حتى راوده احساس رهيب.. ان لا مكان له في قلب زوجته: نظراتها مثل نظرات الفلاحين.. تصمت مثلما يصمتون.. ليتهم يعاتبون على فعل صدر عني في غابر الايام.. ليتهم يحاسبون.. ليتهم.. ان صمتهم اقسى وابلغ تاثيرا من الشتائم.. لكن نظرات حمزة تنكسر على جدار الجسم.. لاتنفذ بالحقد الى الاعماق.. وعليّ ان اكسبه.. وليتني انفعه:

– ابو مطشر..

– نعم..

– اللّه ينعم عليك. افتهمت من الشيخ –اللّه يحفظه– هواي قضايا عن قانون الاصلاح الزوراعي..

– ايه.. شلون بروح والدك؟

– كسر بجمع. يعني. غانون الاصلاح الزوراعي. يعني. بكل "العوراق" معناه الكاع ترد لاهلها..

ومن التلميح الى التصريح: ديمة خلف مثلا لايحتاج اثبات عائديتها الى كبير عناء– حتى الشيخ نفسه بوسعي اقناعه. عليّ الاقرار بأنها كانت للمَرحوم خلف. وغدت من بعده للوارثين. وما الذي يحول بين الشيخ وهذا القرار؟ مادام الاستيلاء هو المصير المحتوم للارض. لم لا يكفر عن خطيئته.. ولا يكلفه التكفير مالا ولا جهدا..؟! انا واثق مما اقول وعندي اساس متين لهذه الاستنتاجات:

تهلل وجه حمزه. امتلأ قلبه باشراقة امل. حاول الاستزادة من داود. ليستوثق ان كانت هي افكاره الخاصة ام انها تستند على واقع ملموس. كأن يكون الشيخ هو المبادر تصريحا او تلميحا. ام انها مجرد احلام وتخيلات؟

تخلص داود بلباقة. ولم يجبه بما يبعث على الطمأنينة الكاملة. فنشط ذهن حمزه. بحثا عن وسيلة تحقق ذلك الحلم الذي اوشك ان يضيع تحت ركام الاحداث والسنين: حلم خلف بديمته. والمياه تتدفق وسطها. وتدفقت فعلا. ولكن بعد استحواذ الشيوخ عليها.

واستكان مرة اخرى الى حلم عودة العثمانين- يحكمون العراق.. فأخرج وصولات الضرائب القديمة ولوح بها: قائلا: "هذا يومهن يا سفيه.. اتگول موصهن واشرب مايهن!! هسة يردون الترك ويبطلون غوانين الانگريز وتردلي ديمتي اللي اخذوها بيت مهلهل بغوانين الانگريز" والان ينفرج باب الدهر ولكن ليس عن سلطة العثمانين. بل عن سلطة فرهود وجماعته.. فأين انت يافرهود ؟ اخذت القضية على علاتها وبحذافيرها يا سفيه!" شلون اترك جماعتي؟" عجبي لهذا الصنف من الناس يصدقون كل مايسمعون- ويتبعون كل ما يقولونه! لابد من استدعائه واحضاره باية وسيلة.. ان وجوده هنا ضمان اكيد لاستعادة الديمة. غدا ابعث مطشر.. انقده مبلغا من المال يكفي لاجور النقل ومصاريف الرحيل. وأبرز وصولات الضرائب القديمة لحكومة الثورة: هذه وصولات.. الديمة.. اغتصبوها بيت مهلهل.. ومن اجل هذا ناضل خلف وفرهود.. وأنا " وأنا؟ " ربما كذبني فرهود.. ويقول الاحمق: متى ناضلت ياصديق الاقطاعيين؟ الم تجبرني على الرحيل

ترضية لهم ؟! هل يقولها الاحمق امام الغرباء ويفسد كل شيء؟، لا اظن. خصوصا اذا كانت القضية تتعلق باستعادة الديمة. وقبل هذا لابد من شطب الماضي ومحو اثاره. ولن اعدم الوسيلة الى هذا الغرض: يافرهود كانت المسألة في اقصى درجات التعقيد..لو لم اتخذ ذلك الموقف. لرحلنا نحن الأثنين.. وكنت ترى عائلة جرارة لامعيل لها سواي.. وكان المرحوم عهد ذاك على فراش المرض.. وعلى العموم فقد كنت مضطرا لاختيار الجانب السيء من القضية.. والان علينا ان نبدأ صفحة جديدة.. ونبذل المستحيل من اجل الديمة.

ان مركزه الممتاز بين الفلاحين. باعتباره شيوعيا. وصداقته لملا نعمه كفيلة باسترجاع الديمة ...

فاجأهما حمود بن شنين. كانه هبط من السماء. او شق جوف الارض. وعلى وجهه ابتسامته الطفولية المعهودة. كما لو رسمت بالطباشير. فوق بشرته النحاسية. فلم يجدا في ضحكته مايدعو للتساؤل انما الغريب ان لايضحك حمود. وينبغي سؤاله. اذا لوحظ الجد على محياه. رمى عبارته بغير كلفة:

-هاه؟ السركال والمامور متجمعين. بغير فلاليح!

قهقه عاليا واضاف:

– مثل حامد النصيري. فرد خيال وياه ويصيح: ريشه ياخيل! افرد اصابع كفه وحركها في وجه حمزه قائلا:

– لا سراكيل بعد اليوم!

لم يكن تركيب العبارة هكذا. انما جوز لنفسه ملائمتها للموقف. سمعها

من ابن عمه. عوده الكبر. قبل ساعات"لاشيوخ بعد اليوم" وهو يشرح قانون الاصلاح الزراعي. في ديوانية عبيد المنتاز. حسب مزاجه وطبقا لرغباته.. يضيف احيانا مواداً الى القانون. ولما اختلى به حمود وسأله: كيف عرفت القانون واخذت على نفسك مهمة شرحه؟ اجابه عوده بصراحة: الواقع انني لم افهم من القانون الا الشيء اليسير. الذي سمعته من ملا نعمه. ولكنني تحدثت للفلاحين عن قانون اصلاح ينبغي ان يكون كذلك. وكرر عبارته التي قالها هناك:

-المهم.. لاشيوخ بعد اليوم!

وجرب حمود حظه. في شرح قانون الاصلاح الزراعي لحمزه ولداود. على مذهب ابن عمه. عوده الكبر.. ثم تطلع في وجه حمزه املا في رؤية علائم السرور عليه..واستعدادا لسماع احدى دعاباته التي يستمرئها حمود.. لكن الصمت ظل مخيما على حمزه وداود سواء بسواء.

شغل حمزه بما سمع.. وليس فيه اشارة الى تحقيق حلمه عن الديمة. وساءل حمود نفسه: اتراه آسفاً لضياع السركلة؟ ياللمغفل.. وما الذي يجنيه من السركلة غير عشرة بالمائة من حاصل عشرة فلاحين!؟ ثم لم يكتم ما دار في خلده. فساءل حمزة بسخرية:

-ابو مطشر يبين مغهور على السركلة؟ چنك موش فرحان اتصير ملاچ.. اظنك مثل الجوال السووه سلطان.. وگال لصاحبه يوم من الايام "اويلاه جواد ياخوي يتذكر ايام الهوش.. من يگول للهوش وحيه يطلع شعر من تريوش!!

ثم التفت الى داود. ولاول مرة يشفق عليه: مسكين فتح عينه خادما في

القصـر.. ثم مامـورا.. وابتلي بـزوجة مبـذرة لم تتـرك له مدخـرا.. "ابتلى؟!" كيف ابتلى يا مغفل ياحمـود؟ انها كنـز يسـاوي البترا والعـودة والسايح!" المابنوش العنگود يكول حامض":

– يـابة انت ياداود –لا اتـدير بال.. هم تـاخذلك وصلة كـا ع.. حالك حال الفلاليح.. وتتعلم على الفلاحة..

اجاب داود بمسكنة. وكأنه سمع لائحة اتهام خطيرة:

– ياحمود غابل السجان اليوگف على باب السجن هو حابس الناس؟ انه يعني اشتقـريب عد الـشيوخ هـالشكل مثل السجـان.. هسـة رديت لاصلي فلاح.. غابل انه يعني شتقريب...

قاطعه حمود. وفي صوته نبرة مواساة:

– ماعلينا من المضى..احنا اولاد اليوم..

*　　*　　*

استعرض داود في ذهـنه. رواية حـمود بن عـوده الكبـر. الف دونم لبيت مهلهل كلهـم. نساء ورجالا : قد يكون الامر كذلك.. فقد رأيت الشيخ يائسا وان لم يجاهر بيأسه..

تـبدد حلـم داود الذي صنـعه من نسـيج عنكبـوت : واذن فلا الف لي ولا لزينه ولا هـم يفرحون !

تفحـص كفيه. وردد في سـره: وداعـا ايتهـا الكف النـاعمـة.. استعدي "لـلمسحاة" والمحـراث لتصبحـي مثل كف عوده الكبـر خشنة قـذرة.. ولبئس عاقبة "المـوامير" !

شرب كـأسه بجـرعتين. تـضاعف احـساسه بـالوحـدة. حاول اسـتدراج

زوجته للحديث –أي نوع من الاحاديث –فلتشتمه. اذا لم تحسن غير هذا. لم ينجح في اغرائها على نزع الكآبة.. ومغادرة الصمت الرهيب الذي لازمته منذ اسابيع.

بدأ الراديو يذيع وقائع جلسة المحكمة.. اعتصر الالم قلبه. كأن كف عوده الكبر تتقبضه بخشونة:- سيأتي الشاهد وملء جوانحه الانتقام ليشهد على الوزير ويكيل له السباب.. وصدى طبطبته بالأمس على اكتاف الوزير لم يغيبها الزمن –هذا شيء اكيد "ما ننسى فضلك يا داود للموت.. انت شريف.. انت ادمي ونص" ويشيح بوجهه عني يوم امس.. ولو عثر حظي ووقفت متهما.. لتطوع بالشهادة ضدي وقال بكل تأكيد: "هذا چلب ابن چلب وغيره سز حيل دوركم اياه!".

اقفل الراديو بعصبية. وغادر مكانه متمهلا. استدار في باحة الحوش: الراحة بالبكاء.. ولن يتحقق هذا الا بسماع صوته الشجي.

تركها وحيدة وذهب الى بيت حمزه. شيعته بنظرة حقد واحتقار. اقتربت من سرير الطفل.. وجدت نفسها تحاور الشيخ ضاري وتقسو عليه بالعتاب.. بعد ان رسم لها مصيرا مظلما : ربط ثقالة في عنقي ورماني في لجة النهر اصارع التيار.. وقد اصبح عاجزا عن تقرير مصير نفسه.. يلبد في قصره مترقبا –يتجرع الخوف دقائق وساعات. "ابني لچ قصر ابغداد" لم اسأله ولم اسائل نفسي بأية صفة اجلس في القصر ولست زوجته.. وما ان لمحت الى ذلك حتى نهرني "لا اتصيرين سخيفه.. الزواج شنهو الا– اتگولين نعم ! المهم انعيش سوا.." واستلقيت على فراشه كأي عاهر لم تحسب لغد حسابه.. "هم تحسبيه رجال؟.. حجرتچ بالقصر ويأي.. بأي

وكت اريد ابعده.. اوديه بشغله يوم يومين ونبقى اني وياج.."وزرع طفله في احشائي.. وهاهو ثقالة اخرى تشد عنقي"..

مسحت جبهة الرجل برفق : ما ذنبك انت يا حبيبي؟ لن يضيرك شيء.. ما كل من حمل اسم اب هو ابنه حقيقة..هكذا علمتني الحياة..

سمعته يناديها عند باب الحوش:

– ام سليمان.. ويای مطشر– افرشي لنا السجاده بباب الجمالي.

دخل وراءه مطشر. دون ان يعطيها فرصة العثور على عباءتها. جلست القرفصاء جوار السرير ريثما يمر مطشر .ردت له تحية المساء ببشاشة.

كرر داود طلبه:

– وين السجاده؟ يابه لا تنخبصين. مطشر مو غريب..

خامرها احساس بزوال الملل. الذي يورثه الانفراد مع داود. تخففت قليلا من وحشتها. استعادت شيئا من نشاطها الذي افتقدته منذ اسابيع.. فأشعلت النار.. وخدرت الشاي بحماس ملحوظ...

تناول مطشر من يدها استكان الشاي. ولم يتم نظرته الخاطفة : انها من صنف النساء الذي لا يمكن التطلع في وجهها بلا كلفة.. الامر يستلزم الكثير من الشجاعة. مرة اختلس منها النظر وهي تقتاد الطلي الى باب الحوش.وشملها في اليوم التالي بنظرة استأثر فيها قوامها بمعظم انتباهه.. وكانت تتحرك بحيوية مثيرة. وهي تساعد اهله على طبخ طعام فاتحة جده خلف: ان في عينيها شعاعا يخترق الصدر وينفذ حتى الاعماق.. ولعلها تقرأ ما يدور في الخواطر..فعلي ان احترس من نظراتها..

شرع يغني استجابة لرغبة داود. بصوت خفيض. قدر له عدم تجاوز

اركان الحوش.رفع صوته بعد بيت الابوذية الثالث. تلاحقت زفرات داود. كتمت (زينه) عواطفها المستفزه..

اقترح داود بعد تجرع بقية كأسه. ان تقترب منهما (زينه) بدلا من جلوسها وحيدة قرب السرير :

- مطشر مو غريب.. صار واحد منا.. يعني اشتقريب..

احدث اقترابها خللا في صوت مطشر..لم يفطن اليه داود لانشغاله بعويل نفسه : .. ياله من سقوط.. سقوط من حالق. لم يدخروا شيئا يركن اليه.. مرة داعبه مدير الشرطة "شيخ ضاري..المصرف مالك بكد ميزانية الاردن!!" ولكن مقابل ذلك الانفاق مائة الف دينار وارد المقاطعة" الفلوس كلهه خليناها بالگاع ياداود" كان معجبا بمبدا حجي حسن في الحياة ويضحك كثيرا لسماعه الحكاية" يملك الحجي الف راس من الغنم.. جاء يستمتع بمشاهدتها.. امضى ليلته في بيت الراعي. حمل الابريق وقصد الخلاء.. اتخذ مجلس الخلاء وسط الغنم. انطلق الريح من جوفه قويا فاحدث صوتا غريبا على الغنم فاجفلت.

ولحظتئذ قرر الحجي بيع الغنم.. ثم اشترى بثمنها قطعة ارض.. وقال للراعي الذي اكثر الملامة والعتاب على بيع الغنم:

لقد استقر رأيي على بيعها منذ تلك الليلة. حين اجفلت من الضرطة.. وقلت لنفسي. ليلتها: بئس الذخيرة التي تجفل من ضرطة.والان هاهي قطعة الارض التي اشتريتها بثمن الغنم. بوسعك ان تضرط فوقها انت وكل"الوحيلات" فلا تجفل حجارة ولا نبته!

ضحك داود وقال. بلسان اثقله السكر:

- ضرطة حجي حثن!

اجفل مطشر. وتوقف برهة عن الغناء. ليتفحص وجه داود. فبادرته زينة باشارة تحمل معنى الازدراء لزوجها. وقالت:

-ابو سليمان صار خرجة!

واقترحت عليه مواصلة الغناء. تجرأ فملأ عينيه. حتى الاهداب. من وجهها المشرق. برغم نظراتها المتسلطة..

رجع داود يصغي الى عويله الداخلي: اكان من الحكمة انفاق ثروتكم كلها على الارض؟ لم تشبعكم هذه المقاطعة الواسعة.. قفزتم الى"البيضا" واشتريتم نصيفتها بسبعين الفا.. ثم طردتم شريككم في مشروع العلوة" ياداود تورطت وتفاصخت وي الچلبي.. كلفتني حصته اكثر من ثلاثين الف دينار" وضعت كل شيء في الارض جريا على مذهب حجي حسن.. وها هي الارض كلها تجفل من ضرطة عوده الكبر!!

ضحك داود مرة اخرى وغمغم:

-..ن كاع..ها..ضرطة عودة الكبـ...

اشارت بكفها ما معناه لاتحفل به.

اطال النظر في وجهها.. غنى بصوت اكثر عذوبة.

واخذ داود يسائل الشيوخ: لو احتفظتم ببعض ثروتكم نقودا. لاسستم معامل وشركات.. وعشت معكم في بغداد.. اما وقد صيرتموها ارضا كلها.. ستخرجون منها كيوم ولدتكم امهاتكم-وانا كذلك. ان قضيتي الخاصة تهون.. فلا يشق علي العمل..اي عمل..سائق سيارة. اوشرطي امن.. او اكتفي بقطعة ارض مثل بقية الفلاحين.. ولكن انتم.. انتم كيف

تعيشون؟

بكى داود.فتعثر صوت مطشر ثم كف عن الغناء. اسند داود راسه الى جدار الجمالي. وبعد لحظات ارتفع شخيره.

احس مطشر بحراجة موقفه: لم يعد وجودي مبررا.. لقد نام زوجها.

نهض على عجل. فقالت زينة. بعد فوات الاوان:

-ابق شوية بعد..

استكبر الامر.. لم يجد في نفسه الشجاعة للبقاء. اكتفى بلفظ "لا" وغادرالحوش مرتبكا.. وفي اذنيه صدى صوتها الناعم:

-هلا بيك-هلا..الف هلا..

* * *

قصد الصويرة صباح اليوم التالي. ليبلغ عمه فرهود وصية ابيه. وتأكيده على ضرورة الرحيل العاجل الى البترا. اخذ يفكر بزينة. استعاد ادق التفاصيل واقلها اهمية.. منذ دخوله الحوش.. وتقديم استكان الشاي.. والنظرة الساحرة: وما معنى"ابق شوية بعد"؟ و"ابو سليمان صار خرجة"؟

اتراها تستهين بي وتعاملني كطفل؟ ما معنى بقائي- وقد ارتفع شخير زوجها؟ هل كانت تريد الاستمتاع بغنائي؟ ايكون الامر هكذا.. وانا الذي حملت المسالة اكثر مما تتحمل يالها من جفون فتاكة. تنغرز حيثما صوبت..

نسي الركاب واغفل ضجيج الباص.. وحاكى طرف جفنها وهي تقول " ابو سليمان صار خرجة" ربما هي تطرف هكذا-دائما.. وبلا قصد معين.. لم ار عينيها من قبل لاحكم ان كان في تلك النظرة واختلاج الجفن معنى

اخر.

في امسية ذلك اليوم شعر. داود بوحشة مخيفة. وكانت اقرب الامنيات الى قلبه حضور مطشر. ليغني له ابوذية. تعتصر الاحزان من روحه فيطردها مع الدموع: طوافة النجاة الوحيدة التي عثرت عليها في لجة الاحزان. شح بها الدهر وغادرني الى حيث اجهل موعد رجوعه. لقد داوى جروح نفسي ليلة البارحة.. واهرقت الدموع بسخاء. فتخففت من احزاني. اين يلتجئ الطريد؟ وبماذا يتشبث الغريق؟ حتى هذا الراديو الملعون ما عاد يقول الا المزعج والمقرف.

اطبق عليه الياس من كل جانب. لا مبادئ يعتصم بها-ولا ايمان يلوذ به. فيستكين الى صلاة ومسبحة.. ولم يعرف حياة الاستقلال ليفكر بخطة تفصيلية.. فتح عينيه تابعا للشيوخ ينفذ ما يطلبونه بدقة. دون وعي ولا ادراك احيانا. فسحة الامان الوحيدة في هذا العالم كأس العرق.. ولكنه يكثف اليأس ويلح في طلب الدموع: لاراحة الا في البكاء.. فاين انت يا مطشر؟ ترجم هذه الرغبة بقوله: لو مطشر اهناه... چان واحد استراح شوية على غناه..

كانت. هي الاخرى. تفكر بمطشر. شعرت بحاجتها الى سماع صوته ورؤية وجهه. كانما تعودت ذلك منذ امد بعيد:.. لو لا غلالات الخجل الملعون.. تدثرك مثل عذراء بين اخوتها واخواتها - وربما هي اقل حياء واكثر جرأة على مخالسة النظر-لو لا هذا فما احلاك وما اشهاك.. ويتعين على ان اكون البادئة-لأمزق تلك الغلالات.. لست ادري كيف تنام مع زوجتك وكيف تضاجعها.. حرام ان تذوي زهرة شبابك الغض بين يدي بنت

جوده-وهما لا تصلحان لغير اعتصار الحليب من ضروع الغنم.

رجع مطشر يحمل ردا من عند فرهود: لا استطيع الرحيل لان اختيار الفلاحين وقع عليّ لرئاسة الجمعية الفلاحية وفيما يتعلق بقضية الديمة يعتقد ان اثارتها على هذا النحو لايخلو من اشعبية مخجلة. وينصح بعدم الركض وراء سراب خادع. فالثورة لم تنتزع الاراضي من يد الاقطاعيين لكي توزعها اقطاعيات جديدة على السراكيل.

استاء حمزه لهذا الرد. واشتد به الهياج. ثم اطلق لسخريته العنان ولذع اخاه بلا رحمة: السفيه يعتقد ان منطقة الصويرة- بعد رحيله عنها- سوف تتقاذفها امواج الرجعية والاستعمار.. وتغرق في بحر الاقطاع الواسع! هو وحده الربان الماهر والسياسي المحنك..اختاروه رئيسا للجمعية.. فرأى نفسه شيئا كبيرا جدا.. جدا.. كما رأت زنوبة ولدها- شرطي المرور-"ابني چبير كلش كلش.. ورتبته عاليا فوگ فوگ.. لو شال وحدة من ايده يوجف سيارة الوزير!!

استبشر داود بمقدم مطشر-وفرح لعودته السريعة. بادرت "زينة" لكنس الحوش بعناية. ورشته بالماء. فبدأ نظيفا رحابا. لم تلحظ سعته من قبل- ولم تعجب باستقامة اضلاعه ونصاعة جدرانه. وكأنها طليت بالجص...

تأوه داود. وهو يفرط رمانة في صحن زجاجي ثم قال:

-اوف لو يشرب له بيك.. چان غنا احسن غنا..

تلقفت الفكرة باستجسان . وامسكت راس الخيط: لقد وجدتها!! لا تمزق غلالة الحياء إلاّ نشوة الشراب.. سابذل جهدي لتجريعه كأس عرق:

- لح عليه..

- لو يشرب ايهيم بغناه..
- بس اتكله يشرب..
- علواه.. اتساعديني عليه..

(بصم التصريح على بياض وسمح لي بالتصرف ومع الرخصة علواه!).

- شوفه انته اول مرة...

رفع ذراعه لتواجه الساعة ضوء الفانوس.. وقال بسأم المنتظر:

-صارت بالثمانية.. كتله لاتتعشى عند اهلك.

اوشك مطشر ان يقرع الباب. لم يستكمل الصورة بعد. رجع من حيث اتى . استدار حول مراحِ الغنم. اهله يصغون لوقائع محكمة الشعب. ابوه قصد ملا نعمه - ليتصرف منذ الليلة.. معتمدا على نفسه بعد ان صدمه جواب فرهود- استحضر صورتها وهي ترامقه "ابق شوية بعد" ولكن.. اما" هلا بيك.. الف هلا.." فذلك من مستلزمات الضيافة: ليته يدعوني لمشاركته الشراب..انني على استعداد الليلة.. جرّبت نشوة الشراب.. قال الاستاذ فاضل "هذا مقوي للكلوب" وخبّط حمود بقوة على الدنبك..قهقه عاليا وصاح "هذا مكسور الركبه واسمه عليه" وهتف فرحان "دگ ابو طبل أي نمل.. أي فجل.."

بلل شفتيه. براهما بلسانه.تحسس وجهه الحليق. حاول ان يفتل شاربه. فكان اقصر من ان تطوله الاصابع. سوى عقاله للمرة الثالثة. اماله قليلا: وارتداء البدلة مبرر.. فقد كنت في سفر بعيد.. والعباءة لاتقل فخامة عن قاط العرس. قرع الباب باصبعه. سمعها تلهوج"كل له اتفضل.. كل له اتفضل "

صاح داود:

- اتفضل اتفضل.

استقبلته عند الباب. القى تحية المساء بجرس رقيق:

- مساچ اللّه بالخير.

- مسية العافيه والصرور.

فرح داود مثل مدمن رأى رسوله يعود بكمية المخدر المطلوبة:

- يا خويه يا مطشر هاي وينك؟ خليتني مثل الجاعد على العبره. امتاني البلم!

تراءى لها بهي الطلعة. في بدلته الجديدة. وحذائه اللماع- اجمل من صورته المطبوعة في خيالها. كشف قميصه الناصع البياض عن سمرته الداكنة اللذيذة. تضوع الحوش بأريج عطر حاد. ينتشر من طيات ملابسه. اجاب على سؤال داود العابث حول العطر:

- چنت ضام شيشه ويه القاط. لگيتها مكسورة ومتبديه..

يا الهي ان فتنته لاتقاوم. هكذا اسرت لنفسها. قال داود بلهجة استجداء:

- ارجوك.. ارجوك الليلة تشرب. ولو نص بيك حتى نتونس ونتعشى سوا.

- اخاف يا ابو سليمان!

اصطنع داود ضحكة ونادى زوجته:

- اسمعي شيكول؟اخاف.. اشرب!

لم تعلق بشيء.. واكتفت بضحكة مسموعة.

اجاب مطشر على ضحكتها:

- كبل ما شارب.. واخاف اهلي ايحسون..

قهقه داود. انتصارا. وقد رفع صاحبه. على استحياء. راية الاستسلام. طلب من زوجته ان تأتي بقدح اخر..

اترعت القدح. بلا رحمة. شجعها داود على الاستمرار في العمل. ناولته القدح بيدها. اخذه بكف مرتجف..

رفع داود كأسه وهتف:

- صحتك..

اجابه مطشر:

- اللّه يحفظك!

ورشف جرعة من كاسه.وثانية.. وثالثة.. لم يبق في كأسه الا القليل.

رق صوته في الغناء. اخذ الزغب بالتحول الى ريش. شعر ان ريش القوادم يستطيل حين تجرع بقية كأسه. رن صوته ساحرا بعد ان جلاه العرق. وغسل بقايا الخجل..

اختل قليلا صمام السيطرة. فرفع صوته اكثر من ذي قبل. فكانت تلك الطبقة اكثر سحرا وعذوبة..

استبدت بداود عواطفه.كرع بقية كأسه الثالثة. ثم تخلى عن خموله. نهض من مكانه. لم يعين هدفا يقصده.استدار في باحة الحوش نشيطا.رفع ذرتعه الى اعلى كأنه يتمطى.وقف امام مطشر. اقسم برأس الشيخ ضاري: ان لم يشرب صاحبه كأسا اخر. قتل نفسه بطلقة من مسدسه. كانت رغبة مطشر في تناول الكأس الثانية لا تقاوم. بعد ان تفتحت عيناه على (زينه).

ولم تعد نظراته مقيدة بالخجل..

اترعت له الكأس الثانية. دون انتظار موافقة: اشرب ايها الطفل الجميل الخجول.. لا.. لم تعد خجولا كما كنت. لقد وضعت لك كمية تحملك على اختطافي من بين يديه.. ان كان لك قلب مثل هذا الذي يخفق مثل جوانحي..

ضاعفت لزوجها كمية العرق في كأسه الرابع: اشرب ايها الثور الخصي.. اريدك الليلة جثة هامدة..

ابتهج داود لتصرف زوجته –كانت تنهره بقسوة اذا ما تجاوز الكأس الثالث: انها لا تريد غير مصلحتي.. تعرف متى ينبغي ان يشرب المرء بلا حدود.ومتى يكون الشراب لا معنى له. يا لك من حاذقة ماهرة..

تناول الكأس من يدها وهتف:

- فلتعيش ام سليمان..

ردد مطشر:

- أي والله اتعيش.

وغنى برقة حسد نفسه عليها. لم يطاوعه صوته من قبل مثلما هو الان طوع اشارته بلا معوقات. شعر ان له جناحين يتصلان بصدره– وان في مقدوره التحليق وملامسة النجوم. احس شيئا عذبا يتصاعد بدفء من صدره حتى رأسه. فيفتح عينيه بلا حرج.. يتفحص وجهها وتلتقي النظرات يلامس بعضها البعض. فيسري خدر لذيذ في جسمه.. وانفرجت شفتاه عن ابتسامة جريئة لامست جفنيها وشفتيها..

تنسم عبير عرس يفوح بقوة فيملأ المكان كله. شرعت ترامقه بنظرات

شهوانية. استأثرت وجنتاه بعنايتها. فقد اصطبغتا بحمرة. هي ليست حمرة الخجل على كل حال. تراءى لها حب الرمان الذي يتناوله "مزة" يترك ماءه في وجنتيه مباشرة.

ضعف داود امام الصوت الشجي. فلم يقاوم اغراء الرغبة بالبكاء.. استسلم لعواطفه.. واضحى لعويله الداخلي. فانخرط بالبكاء...

اشارت عليه بمواصلة الغناء- اشارة مثيرة. بالحاجب والاصابع. اطل من عينيها شيطان مكر شهواني. نثر الفلفل في دمائه..اضطرب تيار عارم بداخله. لم يعد قادرا على تحويل عينيه. صارت الرغبة مثل وشيعة الخيوط في يد كل منهما طرف ينشر منه السدى.. كانت اسرع وابرع.. ادركت مهمتها العاجلة.هي لحمة السدى: مهما كانت آثار الشراب.. فأنه يظل بحاجة الى من يعلمه كيف يحبو ثم يخطو.ثم...

افرغ داود كأسه. نظر الى كأس مطشر. رأى به بقية. مسح دموعه وقال:

- كمل البيك.. كمل..

قدر ان بقية الكأس تقضي على بقية توازنه.. تخيل نفسه مثل داود. متعثرا في مشيته. متلعثما في كلامه.. وقد يفطن اليه ابوه: وربما شهرت بيه سكّونه. فأجاب:

- اخاف اشرب واكّوم اتطوطح!

حاول داود ان يضحك. فصدر عنه ما يشبه ضربات متلاحقة على برميل فارغ وقال:

- لا اتخاف.. يعني اشتقريب.. الطبيب حاضر.. يعني الطبيب...

ونظر الى زوجته. بجفون متشابكة. من اثر الدموع والشراب.. تعذر عليه فتح عينيه. حرك يده ببطء وقال:

- فهميه لمطشر افندي!

شرحت له معنى قوله "الطبيب موجود" : المسأله ببساطة حالما تشعر بثقل رأسك وتراخي جسمك اغسل فروة رأسك بالماء البارد - بطريقة فنية فيزول اثر الشراب- هكذا افعل مع داود احيانا. ولذا سماني "الطبيب".

واستدركت توحي اليه بجرس معين:

- لكن دير بالك لا تعتمد على روحك بالنطاره اليشرب يجيه النوم صنطاوي! عدنا ابو سليمان ورا الشرب تكًدر اتشيله على ظهر دابّة وتوديه لبيت سيد سراب. ولا يدري ولا يوعى كَبل طلعة الشمس!!

ضحك داود. مزهوا بحديث عن حياته الخاصة.. وبدا له ان كلماتها تحمل معنى "التدليل".

سألها مطشر بجد واحتراس:

- بعد غسل الراس ما يضل اثر للشراب؟

اكدت له. بنفاذ صبر. ورمته بأشارة واضحة صريحة.فوضع الكأس على شفته فترة طويلة مترددا بين احتسائه بلا تحفظ. والخوف من افتضاح امره عند اهله..

وثمة رغبة تبديها زينه.. لا يعرف ان كانت تريده ان يشرب لمجرد الشراب او لاغراء داود على المزيد من العرق. سأله داود بمسكنة:

- ياللّه يا خويه.. غن شويه.. حتى نتعشى.

لما انتهى من غناء بيت الابوذية. عاودت داود نوبة البكاء.افرغ كأسه في

جوفه دفعة واحدة. وتناول بطل العرق. صب بقيته في كأسه. ثم دحرجه اليها فارغا وقال:

- احفظيه لعمنا ابو مهيدي.. هليام صايره سولته بالبطاله!

غمرت الحوش نسمة رطبة باردة. فأرتجف مطشر وقال:

- بعد ما اگدر اگعد برا.. خلونا انطب للجمالي..

لم تنتظر امر الزوج او اشارته. طوت السجادة الثانية وحملت الفانوس. وبعد دقائق دعتهما للدخول.

صار الضوء اشد قوة —والرؤيا اكثر وضوحا.. لدرجة تستطيع معها ان تحصي الشعر في رمش عينه: كلاهما ثمل.. ولكن اين الحمامة من الغراب وهل يقارن الخنزير بالغزال —بل هما ثور خصي وحصان اصيل!

قال سطشر دونما قصد خفي:

- والعباس.. صار راسي بثگل اليشان.. يمكن ولا اگدر امشي!

ضحكت بلا حرج.. واشارت بأصبعها الى داود. الذي ارتفق الوسادة مغمض العينين.وبقايا الثريد على شفتيه وكفيه. ثم رفعت سبابتها وصالبت بها شفتيها..

لم يطل بهما الانتظار. فقد اوقع شخير داود.. همست لمطشر:

- گوم اغسل راسك!

ارتعشت اوصاله. تعثر في مشيته. كان التيار جارفا. اشارت عليه بالجلوس فوق طرف السجادة المفروشة خارج الجمالي. جلست قبالته تحمل ابريق الماء والمنشفة. طالبته قبل مباشرتها بالعمل:

- انزع يشماغك. وبالطوگ..ومد راسك..

لم يعد يحتمل التعذيب. خانته ارادته. قرر الاعتراف على جميع "خلايا" جسمه! القى رأسه فوق صدرها بغتة- متظاهرا بفقدان التوازن.

ابعدت الابريق والمنشفة وتناولت رأسه لتجعله في وضع مناسب للتقبيل. اطبقت شفتيها على شفته بنهم. تدلى زلفها برفق ولامس الاخر وجنته. احس رذاذ العطر يرطب كيانه. تذكر مثل هذا العطر.. يوم صحبته زوجته بعد الزواج بأسبوعين لزيارة كربلا والنجف... لم يكن واسع الخيال.. ولا شغوفا بالاحلام. بل هو شديد التمسك بالحقائق المادية والملموسة. ليدخل صلب الموضوع فقد كلفته المقدمة صبرا لا عهد له به.

ارغمته على الاستكانة بين يديها.. خدرته بقبلة طويلة لم يعرف مثلها من قبل ابدا.. التقطت لسانه بشفتيها: لا بد انها الطريقة الفنية لازالة اثار الشراب!!يا الهي أي طعم لذيذ.. لا الدبس ولا العرق ولا حتى القهوة.

كان اغراء جسمها. وقد تحسس نهديها.لا يقاوم ولا يحتمل المزيد من الصبر. انتفض لرجولته "الموقوفه!". اخذ زمام المبادرة. وهصرها بعنف.. كان لصدرها ونهديها. بالذات. شفافية البلور وقوته.

غرزت اصابعها في فروة رأسه وراحة تداعبه.

خاطب نفسه وهو في نصف غيبوبة:

عوينة ابو جودة! هكذا والآ- فلا.. اما بنت المحروك جوده فلا تعرف الا النوم على الفراش -بأستقامة وتشنج.. وكأنها فوق "سدية الطبيب" تنتظر "چرنقه".

تذكر " محاضرة" عوده الكبر . ذات يوم اراد ان يثقفه! "البرجواريين غذرين.." ليتني استطيع الضحك.. يقول ابن المسلوك "البرجوازيه غذره""

هذه اطراف اطراف البرجوازية.. جنة لم احلم بدخولها عمري كله.. ملأ رئتيه من العطر الذي يذكره بزيارة العتبات المقدسة.. ولامس صدرها بشفتيه "البرجوازيه غذره" وهوه النظيف ابن المسلوگ!".

لم يغادرها رغبة في الابتعاد –شأنه مع بنت جوده. ولكن مضى من الليل اكثره: ليتني ادفن رأسي بين نهديها واغفوا حتى مطلع الشمس.

ولما اغلقت وراءه الباب الحت عليه الضحكة:

- البرجوازين غذرين يگول ابن المسلوگ!!

الفصل السادس

اصغى صالح ابو البينه لكثير من الرواة. فتعددت الروايات. واختلفت التفاسير لقانون الاصلاح الزراعي. فكل واحد ينسب روايته لملا نعمه. ليجعل لها قوة التنزيل: سمعت الملا باذني.. وسألت الملا عن معنى تلك المادة وشرحها على هذا النحو..وقال الملا هكذا- ولا بد ان هذا هو التفسير الصحيح. فاعتزم صالح ان يختصر الطريق. باستخدام ملا نعمه لبلوغ مقصده:

جاء الان دور الزعيم ملا نعمه! "بلابوش دنيا- كما قالها خلف" هرب بجلده خوفا من بطش بيت مهلهل.. ثم دار الدهر دورة حقيرة "وانگلب الطابگ طبگ" فعاد ليحتل مركزهم وزياده!. قال ملا نعمه وماذا تقول يا ملا نعمه.. وقد جيء ذلك اليوم فيقولون: "سبحانك ياملا نعمه!"

لم يتقنوا في حياتهم شيئا كما اتقنوا صنعة النفاق والتزلف. وانا واحد منهم -بالطبع- وان تكن بضاعتي اليه مختلفة. هم يتزلفونه بثرثرة لاتغني ولاتسمن:"الفلاح اخو الفلاح.. ويسقط الاستعمار والاقطاع.." اما انا.. "ادهن علباه" بحزمة دنانير واحدها "يذبح الطير" ولست بحاجة الى مقدمات.. ادخل صلب الموضوع مباشرة: اسمعني ياملا.. بدلا من تبديد الدنانير هنا وهناك وانسيابها بين اصابع عديدة -بعضها لا يستحق غير العض بانياب حادة- كاصابع المحامي و "العرضحلچي" ومأمور المركز- هذا الى مصروفات الاقامة في المدينة واجور السيارات ذهابا وايابا..ونفقات لم يحسب المرء حسابها.. اقترح عليك ان تاخذ المبلغ.. وتوفر علي-عناء المراجعات للمطالبة بـ"هورة الصالحية".. وانا عليم بما تحتاجه مراجعة دوائر الدولة. ولن يغيب عن ذهني لحظة قول الناس" ادهن

السير وهو يسير.." وليس من العدل تكليفك مالا تطيق. انا طوع امرك لدفع ما تراه مناسبا.. اربعمائة. خمسمائة.. ستمائة دينار. لاتتردد. ولاتبخل.. اذ ما اعترضتك صعوبة..

ذهب الى قرية "العلوة" مبكرا. فقيل له : ان الملا قصد المدينة يحمل طلبا. وقعه كل الفلاحين. لتأسيس جمعية...

توهم"صالح ابو البينة" انهم يطلبون التجمع في قرية واحدة. فتساءل مستغربا: ولم يتجمع الفلاحون؟ اليس بقاؤهم كل بالقرب من قطعة ارضه هو الافضل؟..

تطوع فلاح. لازالة الالتباس من ذهنه. فشرح مهمة الملا وهي تتلخص بطلب اجازة لجمعية فلاحية.. وان الجمعية الفلاحية تتولى تصريف شوؤن الفلاحين وبعبارة اوضح قيادتهم...

رددها ابو البينه بصوت مهموس" غيادة!" ؟ ثم حاور نفسه متشككا: القيادة؟ لقد تذكرت اقوال الملا.. وصدى كلماته لايزال في اذني-يوم "صوت" على الفلاحين في مجلس فاتحة خلف: من منكم يختار بيت مهلهل ليكونوا" شيوخا" ويملكون الاراضي؟ وها هو ياخذ بصمات اصابعهم.. مقرين باختياره قائدا" غياده" وربما اقرار بملكيته للارض!! والحكومة شاهد على التواقيع..

انها عبودية من نوع جديد. بصمتم اصابعكم ايها الغنم! ولاتعرفون النتائج؟ مثل الغنم تماما.."تعبعب" لها فتسير وراءك! مرة اخرى يقف اللّه بجانبي.. وتخدمني الصدف على نحو رائع.. فلو جئته بالامس لطلب مني التوقيع على صك العبودية..واحرج موقفي.. فالرفض يعني الصدام- وهو

حامل مفاتيح الجنة! والتوقيع معناه الاقرار بالعبودية والحكومة شاهد على ما اقول.فلا انكار ولا تمرد مدى الحياة.. وربما كتب اشياء تخوله حق التصرف بمقدرات اصحاب التواقيع.. مثلا: اقر واعترف-انا الموقع على هذه العريضة بان لا ازوج بناتي الا بموافقة ملا نعمه ولا ازوج اولادي الا باخذ رأيه!!ومن يدري قد تكون المسالة على النحو الذي يصوره داود: هناك في دولتهم الشيوعية يخلع الواحد قبعته.. يعلقها على باب الدار ليعرف الزوج ان زوجته مشغولة مع صديقها!!

وهنا يعلق عوده الكبر"عگالة" على باب الخيمة فاعرف ان زوجتي مشغولة مع عوده الكبر!!"واي واي من هالمال حمل اجمال"!

رجع بخيبة. لم يخفف من شدتها الا شعوره بالنجاة من مصيدة العريضة.. عرج على بيت ابن اخيه "داود" ليستطلع اخبار الشيوخ والاصلاح الزراعي.. واين وصلت مساعيه بشان" هورة الصالحية" وان يكن القنوط من نتيجة مسعى داود هو الاقرب: ولكن لاباس فلأ تابع المسالة على مذهب القائل:" اطرد الخيال بلچي يطيح منة ارچاب".

لسعه وجود مطشر. مع زوجة ابن اخيه. في باحة الحوش-يهم بحمل كيس مليء بالحنطة. سألها بعد ذهاب مطشر: اما كان الافضل قيام زوجك بنقل الحنطة خارج الحوش؟ اجابته بحدة: لقد بكر زوجي بالذهاب الى قرية الشيوخ.. وكان لابد من ارسال الحنطة الى الطاحونة -لان مطشر اخذ الحبوب اللازمة لاهله.. وتطوع مشكورا باخذ الكيس معه..

تراءى له ان حدة نبراتها. وعدم الاحتفاء به يدل على صلابة موقفها.. لو كانت في موقف ضعيف لخفضت له جناح الذل. فاستعاذ بالله من

الشيطان الذي وسوس له بالشكوك:

ومع ذلك لن اتزحزح عن مبدئي:"المرأة شريحة لحم والرجال بزازين!" وهذا"البزون" الاسمر-ذو العيون الثعلبية الماكرة- ابن حمزة- لابد ان يكون اشر بزازين الدنيا قاطبة.. وان هي الا شريحة من"الية" خروف "ودع البزون شحمه". لن اتزحزح قيد شعرة عن مبدئي "والف استغفر اللّه ياربي" :

- مامش عدكم بطل فارغ؟

التقطت زجاجة فارغة. من احدى زوايا الجمالي. وضعتها بين يديه. قائلة بخشونة:

-هاك!

لم تعرض عليه تخدير الشاي. او تقديم شيء من الطعام. فادرك ان ذلك جزاء لسوءاله الجاف. الخالي من الذوق.

وضع ابهامه في عنق الزجاجة. ثم حمل عصاه باليد الاخرى. وقال لها قبل مغادرة باب الحوش:

- گليلة يمر عليك باچر.

لم يسمع جوابها. تذكر انه رأى حمزه في ديوانية ملا نعمه. فلم يعرج على ربعته.اتخذ سبيلا ملتويا الى بيته -ليتفقد المرعى. توقف برهة ليشمل غنم"جوده" بنظرة فاحصة: اضحت "بزگطة عجل" غنم حمزه.. صدق من قال" يا من تعب يامن شگى يامن على الحاضر لگى.." كان (اللّه يرحمه) يضع الجدي الوليد بين ثوبه وجلده في ليالي كانون.. واستكثر على نفسه تدخين السكايرفاحتفظ بـ"السبيل" حتى بعد توفر ورق اللف "يكد ابو گلاش

وياكل ابو چزمة!" وكانت لرائحة ثيابه (اللّه يرحمه) عفونة مراح الغنم.

لئن رست السفينة على شاطي الامان وسارت الامور كما اريد. توجب عليّ – رفع مستوى العيش في بيتي- بئس عاقبة البخل..

وليش عبثا قولهم: "مال المدبر ياكلة كشخان".

* * *

هيأ لنفسه جميع الاحتمالات. وهو في الطريق الى بيت ملا نعمه. صبيحة اليوم التالي: اذا طالبني بالتوقيع على عريضته المشؤومة.. اضحك.. ثم اجيب: ما وضعت ابهامي على ورقه البتة.. فتحت عيني على هذه الدنيا وما كنت بحاجة للاستدانة من احد. ولم اطلب سلفة زراعية من الشيوخ.. وحلفت بالعباس ابو فاضل: لن اضع ابهامي على ورقة مادمت حيا. وفي جميع الاحوال- سواء وقعت ام لم اوقع- فلايشغلكم امري. انا معكم حتى الموت.

وجد الديوانية خالية. وليس في القرية. على كثرة بيوتها. رجل واحد. اجابه سعد بن ملا نعمه: ذهبوا جميعا الى قرية مويلحة.. اختيرت لموقعها الوسط بين القرى المتناثرة.. ليعقد اجتماع فلاحي مهم..

ابتسم (صالح ابو البينه) في وجه الصبي. واستدار على عقبيه محاورا نفسه" ابن الحايچ اينبب" عرف الاجتماع وعرف اهميته.. ابن الزعيم! بلا بوش دنيا.. ماذا سيقولون في اجتماعهم المهم؟ وما الذي يفعلونه؟ "كل واحد يحوز النار لگرصته" ولكل منهم غايته وقد مهد السبيل اليها.. حتى عبيد المنتاز: "لاتضحك يا صالح.. اذ لم تصعد على الاكتاف داستك الاقدام.. ولن تجد من يترحم عليك.. هكذا شيدت الدنيا منذ اول لبنة

وضعت في اساسها..

لاتساورك الشكوك في نواياي ولكنني مضطر للصعود على الاكتاف.. وسوف ترى قفزتي.. وان هي الا اسابيع وتسمع (المناضل) عبيد المنتاز- لاتضحك لاتضحك ياصالح- الم احدثهم قبل سبعة عشر عاما بما سمعت من السجناء السياسين عن ضرورة توزيع الاراضي على الفلاحين؟ حتى ملا نعمه لم يكن-عهد ذاك -يعرف اسم الاصلاح الزراعي.. لقد كنت السباق لنشر مبادئ السجناء السياسين والمبشر الاول بسقوط دولة الاقطاع..

ويغمز الملعون. بطرف جفن عين واحدة ويحرك ارنبة انفه..ويلوي بوزه جانبا.. انه يعرف مايريد وقد شرع بتمهيد السبيل لغايته.. أما انت ياصالح يا اثول يا ابن الغبرا. هل تملك خبث عبيد ومكره؟ او لباقة ملا نعمه ومعرفته؟ وهل وسم ظهرك خيزران الشيوخ مثل عودة الكبر ومحمود شنين؟ فكيف تطمع بلقب "مناضل"؟!

ضحك صالح سخرية من نفسه. حتى قهقه عاليا. وتلفت الى وراء. خشية ان يكون احد على الطريق سمع ضحكته. اطمأن الى خلو المكان. فرفع صوته قائلا:

- المناضل صالح الحميد!!

خلهم ايگولون ابو البينه.. هم ميخالف!

المناضل صالح ابو البينه!!

وعاود الضحك ثانية.

* * *

تعثر في مشيته. حين اقترب من الحشد الفلاحي الضخم. الذي شكل نصف دائرة بجوار ديوانية عبيد المنتاز..

رأى عودة الكبر يراوح بين يديه صعودا وهبوطا. وبين كفيه. قبضا وبسطا. وحذر من شماتة الاقطاعيين واعوانهم. اذا لم يتحمل الفلاحون مسؤلياتهم.وينهضوا بعبء تطهير الجداول:

- لو فشلنا يگولون: الفلاليح بغير خيزران الشيوخ ما يشتغلون...

(هذا هو بيت القصيد يا ابن كبر انك خائف من الفشل وقد يتسبب في رجوع الخيزران.. ولن تتخلص من اثار الخيزرانة اياها.. سيظل لسعها يؤرقك طول العمر.. ويطبع سلوكك وتصرفاتك..)

وانبرى عبيد المنتاز- ليحكي على الربابة مجدا زائفا. لم يكتف بضميره شاهدا عليه. بل تجرأ واقحم اسم ملا نعمه:

- وهذا الملا شاهد.. انشدوه گبل سبعطش سنه سولف السالفه.....

(يا لك من ذئب اجرد.. ماكر وجريء.. تتحدث وكأن الكلمات تصدر عن الاعماق..عجبي لا ينقضي من هؤلاء الناس- صنف عبيد- بل احسدهم على قدراتهم للتلون...)

وتسلم زمام الحديث ملا نعمه. فلم ينفعل مثل عوده الكبر. ولم يتغن بأمجاده مثل عبيد المنتاز. تناول الموضوع بلا مقدمات: لاحظنا بأسف شديد.. ان الكثيرين غير متحمسين لتطهير الجداول والانهر الفرعية.. وفي رأس كل واحد منهم فكرة موءداها: ما دمت غير متعاقد مع الاصلاح الزراعي- حتى الان- فما يدريني اين تقع قطعة الارض..

واصارحكم القول.. اذا سرنا بهذه الروح الفردية حققنا نبوءة الاعداء

القائلة: ان الفلاح لا يعمل بغير عصا الاقطاعي..

تعاقب الفلاحين في ما بعد على توجيه الاسئلة للملا.. راه لاول مرة يغضب على تلك الصورة.. ويرد بقسوة على فلاح اقترح توزيع الارض وفق اسس عشائرية: مثلا هورة الصالحية تخصص لعشيرة بعينها.. ومويلحة لفخذ بمفرده.. وهكذا.. تجنبا لاحتكاك محتمل بين افراد العشائر المختلفة...

اجابه الملا بحزم تجاوز الحد.. واسهب في رده: لا فرق بين فلاح وفلاح.. ينبغي تأسيس العلاقات في الريف على واقع اجتماعي- طبقي.. وليس على التقسيمات العشائرية. ان حكاية العشائرية من مخلفات الاقطاع وكانت الركيزة الاساسية للسيطرة الاستعمارية لا نريد لمفاهيم الاقطاع وقيمه ان تظل سائدة بيننا..ان الفلاحين.. ان العشائرية.. ان الاقطاع.. ان....

ضاق صالح ابو البينه بمحاضرة الملا. وتشاءم من اقحام اسم "الصالحيه" : لم يجد الاثول "ابن زغير" اسما غير الصالحيه مثالا على اقتراحه..وتلقفه ملا نعمه فصيره تكأة لمحاضرته المملة.. لقد اصبح اسمها على كل لسان وربما استصعب الملا طلبي بعد الذي جرى "كلما تهفت ايهيضها الاعيور!! تف على ذاك النصيب".

وهاهو يعتبر العشائرية من صنع الاقطاع.. ومن يدري فقد يصبح الدين عنده من مخلفات الرجعية.. ثم يجيء دور الملكية الخاصة فيعتبرها ركيزة الاستعمار.. وهكذا.. حتى يصلون الى العائلة فيقولون انها سند البرجوازية- تماما كما يقول عنهم داود- يحاربون العائلة وشرف العائلة-

في دولتهم هناك...

انهم لا يتسترون على نواياهم بما فيه الكفاية. هذا اول هجوم على العشائر والعشائرية.. وكأن الملا (اللّه يعلي سعوده!!) هبط الارض على ظهر حصان طائر حمله من السماء السابعة– ولا صلة له بالعشائر. وكأنه لا يستمد قوته من العشيرة ومن كونه رئيس فخذ كبير له وزنه واحترامه!– اسمع يا صالح وابلع.. واستفد من حكمة المرحوم ابن مهلهل "شيگول الصاحب گوًل يس" حتى تضع اوراق الصالحيه في جيبك وحينذاك "اعفط" للملا اذا تكلم!.

لقد ضاع يوم اخر. فليس هذا الوقت المناسب لمحادثة الزعيم ملا نعمه! غدا املأ جيبي بالدنانير.. الوح له بحزمة من "امهات الخمسه" ولنسمع ما يقول.. اهي من مخلفات الاستعمار والاقطاع؟ ام من تركة الرجعية العميلة؟! ليتني اصارحه– لحظة يدس الدنانير في جيبه: هذه من خيرات الاقطاع والرجعية يا حضرة الملا!! وسوف اخطو خطوتي الثانية.. فأشتري بحزمة دنانير اخرى لقب "المناضل" صالح ابو البينه!!

* * *

انسل من بيته مع اشراقة الشمس. يراوده احساس بأن الوقت يفلت من بين اصابعه.. والايام تسبقه. محملة بكل ماهو جديد وغريب: ولا يدركها الا -"فتّاح الفال" وويل لمن تركَ امرا معلقا.. عرضة لتقلبات الايام.. ومشاغل ملا نعمه في تزايد مع الساعات والدقائق وتغدو مواجهته – يوما بعد اخر– اصعب من مواجهة ابن مهلهل (في ايام عزه) ..

طالعته خيبة الامل مجسمة في حشد الفلاحين المبكر. يتقدمه ملا نعمه

بعود زمح طويل. يتحرك صعودا وهبوطا. في تناسق مع خطواته الواسعة السريعة.. وتومض مساحي الفلاحين تحت اشعة الشمس مثل النجوم وراء السحب المتناثرة: لم يكن ابن مهلهل (المسكين!) يمشي هكذا.. وهاهي الارض تسستغيث من مشية الملا.. ولكن يا صالح يا اثول يا ابن الغبرا الما يصبر على المر ما يضوگ الحلو" ويتعين عليّ الانتظام من هؤلاء الذين يلهثون خلفه. ما اشبهني بنعجة ضلت قطيعها فدحرجها القدر بين اغنام الضاعنين. ولا مفر من تجرع كبريائه واحتمال ثرثرة بطانته عن الاقطاع والاستعمار.

شرع الملا بتقسيم نهر العلوه. بواسطة عود الرمح. ومن خلفه فرحان بن سويلم يضع العلامات بين "طرح" واخر.وينزل الفلاحون واحدا اثر واحد لتسلم حصصهم: كأنهم بطيخ من "جوالگ" مثقوب يتساقطون في نهر العلوه.. وفي النهاية لم تبق في "الجوالگ" بطيخة واحدة.. وهاهو الملا بمفرده..

اقترب منه صالح ابو البينه. وحياه مبتسما:

- الله يساعدك.. تعبت اليوم.. اهواي تعبت..
- لا. وانت طيب ماكو تعب.
- صار لي خمس تيام ارد اشوفك.. وكل يوم الگاك مشغول.
- تفضل.. تفضل سولف.

الملا يحسن الاصغاء جيدا. لدرجة شجعت صالح على استنفاذ المقدمة بسهولة. اقترب من جوهر المسألة. لم تعد تفصله غير خطوات....

لكن مشاكل العمل مثل جو اذار وايار. لا احد يدري متى تلبس السماء

لامة حربها.. ويدوي الرعد وتهب العاصفة.. ولا متى يتساقط " الحالوب" ويدمر الزرع- كأنك لم تحرث ولم تسق-.

لقد هبت احدى عواصف العمل. على غير انتظار. وارتفعت الاصوات: بشائر الشتائم تلوح في الافق..

غمرت صالح ابو البينه نشوة مفاجئة. مضحيا بفرصة انفراده مع الملا. وراح يردد في سره شامتا:

"الفلاح اخو الفلاح من حدر!!"

تصايح الفلاحون. حتى ضاع بينهم صوت الملا. فتمتم صالح بسرور:

- هسة يصير طگ المساحي لاخوة موزة!!

تمسك كل فريق برأيه. الاول يصر: ان توزع "الطروح" على عدد افراد العائلة. القادرين على العمل. وحجته ان هؤلاء سوف يتعاقدون على قطع ارض. فيما يصر الثاني على استمرار الوضع الراهن: كل بيت يتكلف حصة واحدة من تطهير الجدول، مهما بلغ افراد العائلة..

ثار ملا نعمه.. وندد بأسلوب الفريقين في مناقشة القضية.. ان القضية...

حاوره صالح في سره: القضية.. يا ملا نعمه هي احتجاب قضيتي وراء غبار معركة سخيفة.. وعزائي الوحيد بطلان احدى اياتك "الفلاح اخو الفلاح" او قل انهم اضافوا عليها عبارة "من تحت!" فتشكلت هكذا " الفلاح اخو الفلاح من تحت!" واكتشفت بتجربتك انك " تغني بالكوز" وهذا شيء حسن يحملك على التواضع. وتستقبلني غداة غد بكبرياء اقل.

الفصل السابع

اعتلى صالح ابو البينه مترب الجدول. فنفذت نسمة صباحية باردة من زيق ثوبه. اهتز لها جسمه وجعلته يتذكر المعطف الذي اعتزم شراءه: شغلتني "الصالحية" عن المعطف وعن سترة مهيدي وحذاء جنيدي وثياب النساء..

شمل الطريق وقرية "العلوة" بنظرة فاحصة: لم يغادرو ابيوتهم حتى الان.. وقد ارتفعت الشمس مقدار- ضيق عينيه وحدق في قرصها ليقيس المسافة- اكثر من رمحين او ثلاثة.. ولازال الزعيم الجديد ملا نعمة (اللّه يعلي سعوده) يغط في نوم عميق ولابد انهم في انتظاره.. كما كانوا ينتظرون ابن مهلهل" نوم المدلل ضحاوي" اذا خرجوا من بيوتهم الان متى يصلون ومتى ينجزون عملهم؟ لست معنيا بامرهم.. كل ما ابغيه ان أتشرف بلقاء الزعيم ملا نعمه ويمنحني شيئا من وقته الثمين على انفراد لاريه حزمة الدنانير..

تحسس نقوده من ظاهر جيب السترة. ثم ضغطها على صدره بالمرفق.

وضع كفه فوق حاجبيه. اتقاء اشعة الشمس. وصوب النظر الى قرية العلوة: ماذا هناك؟ (اليوم يومك ياعلي) بيرق يرتفع؟ (اصبحنا واصبح الملك للّه) وخيل تتكردس؟ (يامانع الردى).

ماذا ارى بيرق (المناضل!) عبيد المنتاز يخفق في العلى.. واهل الصالحية يهرعون.. الى اين؟ ايكون الملعون داود صادقا في قوله: ان هي الاّ ايام ويحسم الصراع وينتهي كل مستحدث لتعود الامور سيرتها الاولى؟ هل يحدث صدام دموي؟

لئن استوثق الشيخ من سقوط حكومة الملا.. سيعتلي قصره ويحصدهم

بنار الرشاشات الكافرة..

يالهم من مجانين.. يتراكضون.. ويمتلئ الافق بالغبار.

هرول عائدا.. وجد اهل بيته يتابعون حركة الجموع الزاحفة نحو قصر الشيوخ. وقد استبد بهم الذعر..

تنشق الهواء وزفره مرارا.. حتى اذا امكنه الكلام امر ولده مهيدي بارتباك ملحوظ:

- اركب فرسك. روح شوف الحسبة شنهي ما شنهي. من بعيد اريدك سريع الردّه. ولا تحط روحك بالوصطه. افتمهت؟

- افتهمت.

- افتهمت زين؟

- افتهمت.

اعتلى ظهر الفرس. بلا سرج. جلدها بسوط اللجام على الجانبين.. فانطلقت عدوا سريعا.. وارتفع خلفها غبار كثيف اختلط فيما بعد بالغبار الشامل الذي يلف البترا والسدور والصالحية ومويلحة..

خطا على مهل. كأنه يقتفي اثار ولده. بلغ الطرف الغربي من مراح الغنم. ثم رجع. حاول ان يلف سيكاره فلم تطاوعه اصابعه.

انصرف لمحاورة نفسه:

لسواد عيون ملا نعمة وابن كبر تهرق دماء العشيرة؟ اذا ما تغلبوا على الشيخ في معركة هدموا قصره وقلبوا عاليه سافله.. بعد ان يقطعوه اشلاء.. او يسحلوه مثل نوري السعيد.. لقد قالها ملا نعمه صراحة (اسهمت في سحل الوصي ونوري السعيد وما يدريني بالذي يخبئه القدر

لهذه اليد.. أي طاغية اخر يتحتم عليها سحله..) وساعتها يرجعون من القصر مثل ذئاب جائعة لنهب الغنم.. اما اذا انتصر عليهم وشتت شملهم سوف يحاسبني حساب (منكر ونكير) ومع ذلك فهذا اهون الشرين.

دخل ربعته. خطر فوق زجاجاته الدفينة. ركل مواقعها باقدامه...

سمع اطلاقات نارية.. فصرخ بصوت مكتوم: "علكت والعباس.. والستار اللّه.."

سيطر الرعب على النساء. تكاثر اطلاق الرصاص في الهواء. زمجر صالح بوحشية:

-ابن الثولة..نسه وصيتي. كتله رد ابساع.

تناهى الى اسماعهم صوت الرشاش مرعبا: تت تت تت تت تتتتتت تتتتتتت..

صرخت زوجته:

- يمة مهيدي.. اشوداك بهاليوم الاكشر..

افتضح رعبه حين جاهر بالقول:

- اويلاخ يمهيدي ضعنا

*   *   *

كان دواد يتابع حركة اهل"العلوة" من كوة في بيته، رأى الخيل تخب والراجلة تسابقها.. وانحرف فرحان بن سويلم عن "الجمع" ووجهته بيت حمزه.. ولما استقبلته الكلاب مستشرسة صاح باعلى صوته:

- حمزه.. حمود..

تعالوا.. تعالوا بالعجل.

انطلق حمود بن شنين مسرعا ليلحق الجميع. توقف فجأة.. والتفت الى اخيه قائلا:

-ولك محمد. جيب لك فاس فاله. ربد مسحاه.. هاليوگع بيدك.. والحگني بالعجل..

ايقن داود انها معركة بين الشيوخ وبين الفلاحين. فلم يكتم مخاوفه بل راح يعبر عنها بتوجيه اللوم للفلاحين.. واسداء المواعظ للشيوخ..

انتفضت زوجته غاضبة. وتحدرت بصوت راعد تعيره بالقعود:

– جاعد وي النسوان ليش؟

البس تفگتك وامش.. شوف الحسبة شنهي ما شنهي..

انته زلمة حالك حال الزلم..

بلع ريكه بصعوبة وندب حظة:

لقد حرضها بختي الضعيف على اتخاذ هذا الموقف فوضعتني امام الامر الواقع.. ولا مفر من الذهاب ولكن... يتعين علي ان اشتط جانبا والوذ بجدول البترا ريثما تنجلي المعركة وتتضح النتائج. كاد ان يسقط مرتين قبل ان يستقر فوق سرج مهرته. شيعته بنظرة احتقار وكراهية . ودعت له بالشر:

– هلبت تكسر رگبتك. وين العباس ابو فاضل.. خروفك امحنا....

وحين سمع مطشر بن حمزه ازيز الرصاص في الهواء استفزت مشاعره، وعندها قرر مخالفة امر ابيه بالبقاء، فتقلد مسدسه واعتزم اللحاق بالجمع.

ساد الذعر في بيت حمزه –وهم يصغون لزمجرة الرشاش– صرخت

زوجة حمزه:

- ليش هيچي يحمزه. انت العاجل الما تهزّك الهزاهز شنهو الطفر بهاليوم الاكثر؟

ولطمت زوجة حمود على صدرها واعولت:

- ويلي ويلي شنهو الودّا يحمود..

- وين اولي.. يتيمه وتايهه..

وصاحت سكونه بوجه مطشر. وقد لحظت توثبه للانطلاق:

- وين؟ وين رايح؟ ابوك شوصّاك؟ ما اخليك تتحرك لو تضربني چيلة..

تنهدت زينة وهي تخطر في باحة الحوش. رمقت السماء بخشوع ودعت: اريدها رصاصة طائشة تكسر باب سجني. لافرق ان كانت من رشاش ضاري او بندقية فلاّح.

خفضت رأسها ثم توجهت نحو الغرب ودعت :"ياالعباس ابو فاضل خروفك امحنا.."

* * *

بلغ حماس الفلاحين ذروته. فحملوا رئيس لجنة الاستيلاء واعضاءها على الاكتاف. ادخلوهم قصر بيت مهلهل في موكب مؤثر.

لم يجد غالبية الفلاحين" افنديا" يحملونه. فاحاطوا عريف الشرطة وسائق السيارة المسلحة ورفعوهما على الاكتاف كذلك.

صاح الشرطي السائق:

- وينهم الشيوخ؟ صاروا غنم!

ضج المكان بضحك الفلاحين وصخبهم.. حتى رددت اصداءه جنبات

القصر.. اجابه حمود بن شنين بصوت اجش:

- أي والله لاعاب حلگك.. صاروا غنم!!

استمرأ الشرطي دعابته. مستمتعا بصعوده اكتاف الفلاحين. فردد‌ها بصوت مرتفع. مع اشارت تهديد بذراعه:

- وينهم الغنم؟ وينهم؟!

تناغمت اصوات الفلاحين معابثة:

- الغنم.. وينهم..

- وين الغنم؟

- وين الغنم؟

- وين الغنم؟

كانت الاصوات مميزة وواضحة تتناهى الى اذن مهيدي بن صالح ابو البينه الذي يراقب بعينيه واذنيه:

مأمور المركز"فَ ْ نفسه" نجمته تلمع تحت ضوء الشمس. محمولا على اكتاف الفلاحين.. يرددها واضحة لا لبس ولا غموض فيها: اريد الغنم اريد غنم الشيوخ.. فما الذي انتظره بعد ذلك؟ اعتلى ظهر الفرس. الهب مؤخرتها بالسوط.. فجاءت تسابق الريح. لا اسبق منها الا رائحة الشر. تشممها صالح ابو البينه على البعد. ولما يزل مهيدي في منتصف "هورة البترا" فقال لاهل بيته:

- گلبي لسبني.. الولد عنده خبر اگشر!!

هرعوا لاستقباله.. فصاح بهم منذرا:

- حملوا.. شيلوا..طيحوا بيتكم..عوينة موتاكم..اجوكم!!

ثم قفز من ظهر الفرس. وتمدد على الارض... متعبا لاهثا.. بدا يتكلم بفم مفتوح على مصراعيه: لجنة الاستيلاء استولت على القصر وما فيه.. وعلى المضخات والجرارات والمحاريث.. والسيارات.. والان تركتهم يبحثون عن الغنم. ومأمور المركز"ف نفسه" يصيح بلجاجة:"الغنم.. الغنم.. وين الغنم.. هسة اريد الغنم" اما اطلاق الرصاص فهو تعبير عن فرحة الفلاحين بمجيء الاستيلاء.. وقد شاركتهم السيارة المسلحة باطلاق صليتي رشاش.

كانوا ينظرون بعضهم مشدوهين.. فصرخ مهيدي فجأة:

-عوينة موتاكم.. لهسة ما طيحتوا البيوت؟!

لحظتئذ استفاق صالح من ذهوله بدأ يصدر اوامره الحازمة بالرحيل..الى"هور المصندگ"

لم تفقده الصدمة دقة ملاحظاته.. قدر ان حوالي نصف"تغار" من الشعير سيبقى بلا راحلة تحمله. فأمر النساء بصب الشعير على الارض. خطوطا مستقيمة.. وامر ولديه باحضار الغنم. موضحا ان الرحلة قد تطول.. وقد لا نتوقف حتى فجر غد.

ازدحم فناء البيت بنحو ثلاثين حمارا. وزعت على ظهورها امتعة البيت..واوعية الحبوب.. والخيام. اعلن بينهم تفاصيل المسيرة بلهجة القائد المجرب:

- جنيدي البس تفگتك. واكسر بيها مشط. وتح للغنم.

مهيدي اطني تفگتك واليرغ.. وامش وراء الغنم.

وانتن هدية وطشاره ساندن الظعن مناه ومناه..

وانتـي ام مهيدي امشي ورا الظعن. وانة امشي بالنص. بين الغنم والظعينة.

قبل الانطلاق بوقت قصير. امر زوجته بان تمسك لجام الفرس. ريثما يحكم"بطان الخرج" المليء بالزجاجات. وامر"جنيدي" بلهجة امر حازمة:

- اسمع. لو صار عليّ امر ووكَعت من ظهر الفرس لا اتخليها تمشي خطوة وحده. طگها چيلة واكتلها بمچانها.. حتى لاتشرد بالخرج.

ثم واصل الحديث مع نفسه:

"فلوسك يا احميد يابوية" لن افرط بهن ولن استهين بجهدك الاسطوري في جمعهن على مر السنين والايام.. لن انساك وانت تجلو"الربيه" وتتغزل "بالليره" قبل ان تدفنها. سوف ازكي ثقتك وابرر اختيارك لي دون اخي سلمان.. ساجعلك قرير العين وانت في قبرك.. "فلوسك ياالحميد يابوية" في يد امينة..

كان موقعه في الظعن. موضع القلب من الجسم. امامه الغنم وخلفه الحمير..والكلاب لا تستقر على حال: مرة تستبق الظعن ومرة تتخلف يشاغلها ارنب او ثعلب. تطارده وبين انيابها يكمن الموت.. اشار بأصبعه قبل مغرب الشمس بدقائق:

-هذيچ المنارة.بعد ساعة ونوصل الدجيلة..

كان يتعجل حلول الظلام بالثواني: لو اسدل الليل ستاره وغيبنا عن الابصار.. لقطعنا الشوط الاكبر في رحلة السلامة.

احسس بعض الطمأنينة. مع عتمة المساء. ولكن القمر فاجأه بعد الغروب مباشرة. وهو كامل التكوين محكم الاستدارة. استاء لطلوعه العاجل. وكأنه

يتسلم نوبة الحراسة من يد الشمس. ولما تمض على مغربها سوى دقائق..

شعر لاول مرة في حياته بعدم الطمأنينة الى القمر المتكامل..وراح يخاطب نفسه: يالها من ليلة مقمرة فظيعة.. هي بالنهار اشبه.. والرؤية تمتد فيها لمسافة غيرقليلة..

تملى قرصه المستدير.. وصورة الارنب التي تغطي وجهه.. فخاطبه حانقا: رأيتك هكذا.. منذ كنت طفلا.. يا ايها الاعور الافاق.. لااحد يدري ماذا تريد وبماذا تستمتع ايها الاعور الافاق!!؟.

اليس هذا هو الوقت المناسب لتبتلعه الحوت؟

شهيتها الليلة مثل شهيتي للطعام! الف استغفر اللّه ياربي.

كانت اخر مرة.. لا اتذكرها بالضبط واضيىء الافق بالمشاعل.. ودق الاطفال على الاواني مرددين" ياحوتة البلاعة هدي گمرنا بساعة.."

وقالوا ان كسوفه يقترن دائما بانتشار اوبئة المواشي. لكن لم الحظ شيئا من هذا-والف استخفراللّه ياربي.. لا تحسبها كفر..

حين بلغوا نهر الدجيلة القديم امر ولديه بالتوقف عند مكان رحب فسيح في الشاطيء. لاتشغله سوى شجرة سدر هرمة تغضن جذعها وتعمقت اخاديده.

نصح ولديه بعدم الجلوس. وحذرهما من الغفلة. فقد خبر المكان جيدا. وعرف انه مليء بالضباع والذئاب والغرير.. رءاها رأي العين.. وثمة حيوانات اخرى مجهولة سمع عنها الكثير.

ساد صمت لايقطعه الا حفيف اجنحة الطيور تخترق الفضاء.. او نباح كلب استغرب المكان. او نهيق حمار-بلا مناسبة

كان مـجلس صـالح بـين زوجته وابنته. متخـذا من "الـخرج" مقـعدا. زيادة في الـحيطة والـحـذر. مسندا بنـدقيته على ذراعـه اليسرى. يسـاوره ندم غير مؤلم: لاول مرة يرون الثروة المخزونة على هذا النـحو المفضوح..

لم يره احد من قبل كيف واين يخفي زجاجاته. ومتى يغير مدافنها. حين كانت الدنيا بخير.. والأمن ينـشر جناحيه على الارض. يتسلل بهدوء فيقتلـع الـزجاجات في الوقت المنـاسب. ليدفنها عند مـشارف الربعة او داخلـها.. او في مكان بعـيد. لم تكـن ثمة قـاعدة مـحـددة لاخفـاء ثـروته. المهم ان لايحس احـد من اهل بيـته: كيف واين ومـتى اخـفاهـا. بيـد ان الزلـزال لايمهل ولا يستأذن.. كمـا حدث هذا اليوم.. فـاخرج كنزه سبع عشـرة زجاجة.. جهارا نهارا امام عشرة عيون مفتوحة شرهة.

انكفأ عـلى وجهه. حتى لامـست لـحيته وجه الارض. مسـتظلا بعباءته كي لاينفذ بـصيص نور مـن سيكارته.. ثم جـاهد ليكتم نـوبة سعال مفـاجئة. لم يتخلص منها الا باطفاء بقية السيجارة واستنشاق الـهواء...

همس بصوت الـخائف يسأل زوجته:

–نايمة؟

– لا. واعيه.

– وانتي يا هدية؟

– واعيه بويه.. واعيه

تململت بنت مهيدي. توطئة للبكاء. فنهر امها بزجرة مكتومة:

– سچتي المشلوعة.. انطيها فردات تمر.

سألته زوجته همسا:

- تندل الدرب؟

عزف على اوتار حنجرته. شيئا اراد به ضحكة ساخرة. واجابها:

- كون اشد عيوني هم اندل الدرب.

اشيتبدل من الگاع؟ غابل هم اتشيب وينحني ظهرها؟!!

ثم ما لبث ان سأل نفسه بقلق:

- ولكن يا ابن الغبرا.. ياصالح يا اثول انسيت مشروع الدجيلة الذي عبث بالارض..وامتدت"شاخاته" جنوبا وشمالا.. حتى تغيرت معالم الطريق؟ ومع ذلك.. لازلت اتذكر بعض "التلول" لو سرنا شرقا منحرفين قليلا الى الشمال نبلغ اطراف الهور مبكرين..ثم نتوغل اكثر فاكثر.. وهناك يضيع صالح وغنم الشيوخ..

اعرف افراد يقتنون اكثر من غنمي وغنم الشيوخ مجتمعة..

سيكون اسمي منذ الغد "علي الگشاوي" ومهيدي اسمه.. اسمه حسن..وجنيدي اسمه حسين..

لازلت اتذكر ذلك المكان وطريقه الوعر. حتى ليصعب على الخيل اجتيازه بسهولة.. ومن هنا.. اتخذنا طريقنا اليه.. وكانت الدنيا تسير بأنتظام حتى بدا المرحوم في مزاج رائق.. نهرني حين رآني اتبول تحت شجرة السدر هذه- هي نفسها ان لم تخدعني ذاكرتي- وقال لأمي:

انها شجرة مقدسة لا يجوز التبول تحتها.. وحرام كذلك اشعال النار في ظلها. او تكسير اغصانها.. وان الشي الوحيد المسموح به للمسلم هو انتزاع ورقها بكمية محددة توضع في ماء غسل الاموات..وقال لها يا سبحان اللّه- هي نفسها لم تتغير رأيتها شابا وها انا كهلا.. وكنت صبيا

ارعى الطليان بالقرب منها.. وكثيرون يؤكدون انها على حالها منذ عشرات السنين. اذهلتها حكاية السدرة فتمنت: ليت لي عمر سدرة!!

ويومها ضحك المرحوم وسألها ماذا انت قائلة لو علمت ان اشجار السدر(هذه) التي تنتشر على شاطيء الدجيل المهجور هي من غرس اناس عاشوا في زمن الحجاج؟!

فأستوضحته: ايكون هو نفسه الذي يذكر اسمه- حين يمزح أحدنا مع علوي ويقول له "حجيج گطعكم يا ساده!!" ؟ فرد بالايجاب واشار الى "المنارة" قائلا: انها بقايا باب سجن الحجاج- على حد رواية الشيخ حسون الروزخون- وكان يحشر فيه الالوف نساء ورجالا في العراء..لا يظلهم سقف- ان صيفا او شتاء. ولا يسمح لهم السجانون بالاقتراب من الظل ساعة الظهيرة.. ايام تموز واب..

وشهقت المرحومة واعولت حين اخبرها بأن جريرة هؤلاء كونهم شيعة يحبون ال البيت.. ولا يتبرأون من علي بن ابي طالب...

ثم جاء مزاحه- انها ايام رائعة- فقال لها.. كان الحجاج يستمتع بمنظر دماء العلويين وهي تسيل على الارض لدرجة (خفض صوته وهمس لها بشيء...) فلطمت خدها..وراح يضحك.. ويخالسها النظر.. وقد عرفت فيما بعد فحوى الرواية من زورخون اخر....

دنيا.. تغيرت.. واصبح العيش قاسيا..

منذ متى كان اخر عهدي بالضحك؟!! حتى الجرأة اصبحت غاية لا تدرك مثل الفرح والضحك.. ولو تشجعت قليلا لبعت اكثر من مائتين. ركبني الجبن واكتفيت ببيع مائة رأس من غنم الشيوخ..

وعرض جنيدي نفسه للملامة والتقريع: مغفل انا. ما في ذلك شك. وإلا كيف اقنعني بتأجيل الزواج؟ لو ادركونا الليلة او غدا واستولوا على الغنم كلها. لاصبح مصير زواجه معلقا على كتفه "بالخرج!" وما اصعب المهر في قلب زجاجة! كان بوسعي ان اثلم "خزلة" من الغنم واضع البندقية على كتفي "واليلحك ياخذ الجوز!".. هدهدني بوعود خلابة وتطامنت الى سرقة غنم الشيوخ.. فلم اخذ غير ثمانية عشر رأسا- اضحت في جيب عبيد المنتاز لا شاهد عليه الا ضميره!

وانصرف مهيدي الى احلامه بمشاريع المستقبل. في المدى القريب.. اما الحلم الاكبر.. ان يغضب ذات يوم ويقول: " تعال اخذ نصيفتك من الغنم".

وكانت زوجة صالح حانقة عليه. بلغ تبرمها حدا كاد ان يدفعها الى معاتبته: مثلما تعامل الاطفال تعاملني سواء بسواء.. تخفي "ذخرك" عن عيني شأنك مع البت الغريبة. زوجة مهيدي. وكأنني لم ارافق تجميعها دينارا دينارا.؟

بخيل وسيء الظن وقاسي في معاملته للجميع..كثير الشكوك بالنساء.. من أي صنف عجيب هذا الرجل؟!

ودعت هدية على نفسها بالشر: شلل لهذه اليد الجبانة.. اما كان الواجب ان اضاعف العطاء لعليوي؟ ثمانية رؤوس فقط؟! شلل.. ليتني اعطيته ثمانين رأسا من غنم الشيوخ. لتكون ذخرا في قادم الايام حين ننفرد ببيت الزوجية..

وركب الوسواس زوجة مهيدي: ها هي الثروة الطائلة تملأ الخرج حتى "قيطانه" لا يعرف مقدارها الا اللّه. واخذ يقرب جنيدي من شهرين "تعال يا

جنيدي.. روح يا جنيدي.. شتگول انت يا جنيدي. وانچب انت يا مهيدي..
غشيم انت يا مهيدي". وقد يضع الخرج كله بين يدي جنيدي ويخرج زوجي
من الثروة صفر اليدين"ام التوم صارت ليبه" وامه تكرهني الى حد الموت
وربما شجعت "الشايب" على جعل الثروة من نصيب جنيدي.. ولا يدري
الاثول بما يدور حوله.. يتعين عليّ ان انبهه الى ما يجري في هذا البيت.
وما هذه الثروة ملك لاحد الاخوين دون الاخر.. انها ارث مشترك بينهما
وينبغي الا تلمسه يد جنيدي قبل موت الشايب اسأل اللّه ان يعجل به.

تذاءبت الكلاب في عوائها. فتطير صالح من صوتها المشؤوم وعصف به
قلق مفاجيء.. ثم امر زوجته ان تطعم الكلاب شيئا من التمر محذرا من
القائه تحت السدرة.

* * *

وجد نفسه في مواجهة ذكرى موت ابيه: صاح غافل"راشده" فلويت عنان
الفرس. وكرر الوصية "الچفن والكافور والسدر" ولكنني فقدت الكافور..
وضع غافل قبضة اوراق الكفن في طرف الكفن ثم غمسها بالماء وراح
يعصر الاوراق في القدر حتى تشكلت رغوة صغيرة على وجه الماء....

وتذكرت حكاية المرحوم عن السدرة.. وان عمرها يقارب الالف سنة.. لو
عاش المرء الف سنة مثل هذه السدرة.. فلا بد له في النهاية قبضة اوراق
سدر تعتصر في ماء غسله.. يالضخامة الاسرار الكامنة بين زوايا جذعها
المنخور.. كم من الاحداث شهدت..وكم طريد مثلي استظل بالقرب منها؟!..
وعلى طول الف سنة تنتصب شاهدا على الايدي التي امتدت لتأخذ اوراق
السدر اللازم لتغسيل الاموات..؟

اشاح بوجهه. وضع كفه على صفحة خده المقابلة للسدرة. خيل اليه ان اشواكها الحادة توشك ان تنغرز في جفنيه ووجنتيه.

عدل مجلسه. ادار ظهره لشجرة السدر. رفع صوته بلا وعي وقال:

– اشها لسوالف الي اتضيج الخلگ! مدري امنين ما امنين تلملمت.. فوگ درد اللّه ضربني بميچنه!

مناسب:

".. اهتزت الارض تحت اقدام الفلاحين وهم يهزجون استبشارا بمقدم لجنة الاستيلاء.." هذا مستهل رائع. انقله حرفيا.." ونحرت الذبائح تحت اقدام اعضاء اللجنة..." عض شفته بقسوة. وقال ندما ما كان ينقص احتفالنا غير نحر الذبائح..

وكان بوسعنا ان "نقترض!!" ذبيحتين او ثلاث من غنم الشيوخ!!.

الفصل الثامن

تراءى ملا نعمه في خطواته الواسعه المتسارعه. وكأنه مع سباق مع عود "فاله" طويل يقيس به حصة كل فلاح من جدول العلوه. ويتحرك العود من اسفل الى اعلى ويهبط ثانية دون ان يترك أي من طرفيه اثرا في قاع الجدول: مثل منقار حجلة يلتقط حب قمح تسلسل من وعاء مثقوب.. و"مسحاة" فرحان بن سويلم "تنكش" خلفه اهلة وانصاف دوائر. في حركة تماثل قائمة حصان معافى. يعدو متمهلا فوق منبسط رخو. ويتخذ كل فلاح موقعه. قبل مناداته بالاسم. فيغرز مسحاته في قلب الجدول. متعجلا انجاز (طرحه) قبل سواه.

عاب ملا نعمه على نفسه تقصيرها..وصمها بالتحلل من عهد قطعه على نفسه مختارا: قلت لهم اكتب عن كل ما يحدث في المنطقة اول بأول. فأي خبر أكثر اهمية من اول عملية استيلاء على اللواء؟ لقد صعد المد الثوري بين الفلاحين.. كان اكثرهم غير مصدق بأن مقاطعة بيت مهلهل تستولي عليها الحكومة. وغدا توزعها بين الفلاحين. ويوم يرى الفلاح قطعة ارضه لن تزحزهه ثورة الردة.. يستبسل في الدفاع عن الجمهورية حتما.. ولكن.. صاح من خلفه فرحان بن سويلم:

- هاي وين ابو سعد؟ خلصت الطروح المن تذرع بعد!؟

وقف حيث نبهه فرحان. القى عود الفالة جانبا.

جلس في مواجهة الشمس يسترد قواه: اكتبه اليوم وابعثه غدا.. استعين على صياغته ببعض الاخبار المنشورة.. ولكن.. ثلاثة ايام لم تصلني الجريدة. ما يدريني ان كانت تأتي بأنتظام مع سائق الباص؟ شغلت عنها بأجتماع مويلحة ومجيء اللجنة.. وها ان تطهير الجدول يستحوذ على

وقتي كله. اعتني بصياغته لاجعل منه ريبورتاجا..

شرع ينسق الخبر في ذهنه: الاصلاح الزراعي جوهر الثورة الـ.. ولكن مالذي عناه بالتشديد. على ان الثورة الوطنية تختلف تماما عن الثورة الاجتماعية- الاصلاح الزراعي جوهر الثورة الوطنية- الاجتماعية؟ لم آخذ على نفسي شق طريق غير مطروق؟ من المؤكد ان الجريدة مليئة بأخبار مماثلة- فهذه ايام الاصلاح الزراعي- ومن تلك الاخبار اصوغ خبري.

مد نظره مع جدول العلوه شرقا. حتى نهاية المرتفع الذي يطوق هورة البترا. ثم تحول ناحية الغرب.. فطن الى خلو المكان من خيم صالح ابو البينه: لا بد انه رحل الامس او الامس الاول بعد حديثنا الذي انقطع فجأة.. لعله اختار منزلا في الصالحيه ليثبت وجوده بين فلاحيها. ويجعل من ذلك سببا للمطالبة بقطعة ارض.. واذن فالدار لم يطرقها احد بعد.. والقهوة بحاجة الى المزيد من الوقود.

توجه الى الدار الخالية. وجد مراح الغنم. كما قدر. مفروشا بـ"البعرور" .. لم تعبث به يد امرأة من اهل القرية.

جمع حزمة شوك. ثم نسقها. احكم لثامه. خلع عباءته. شرع يكنس بحماس.. جمع اربعة اكوام.. ادركه كثير من الفلاحين الذين انجزوا عملهم. فتطوعوا لمساعدته. كان يردد بفرح ظاهر:

- هذا كنز يسوا اعداله..انگوم نوجد بغير وجع گلب..

فأكمل فرحان العبارة:

- بثواب المرحوم ابو البينه الاصلي!!

قال احد الفلاحين لزميله:

- ابو البينه امس. ايگولون امطيح بيوته بالعجل وشايل للهور.
- الهور بيه خوش مرتع هليام.

فتساءل الملا:

- اشعجب شال للهور؟ حسبالي للصالحيه.. چان ايلح عليّ ايريد له وصلة گاع..

قال فرحان بن سويلم:

- شيسوي بالگاع ؟ اشو الغنم طلعت كنز.. يبيعون الطلي بخمس دنانير سته..
- يمكن.. رادها زايد خير..

قال فلاح بطيب خاطر:

- گاع بيت مهلهل چبيرة.. وما ينگصها عقد ابو البينه.

عاد الى التفكير بكتابة الخبر: وليكن وصفا مؤثرا لحماس الفلاحين يوم امس.. وليس مجرد خبر مختصر.. انصرف له بعد الغداء مباشرة.. اتركهم مشغولين بالقهوة وانفرد مع نفسي بالبيت.. الديوانية لا تصلح للكتابة.. ضجيجهم يشتت الذهن.

امتلأت الديوانية بدخان رصاصي اللون. حاد الرائحة. ينفذ بقوة فيسيل الدموع بغزارة. ساعده فرحان بن سويلم على تأجيج النار. آثر ان يحمس القهوة بنفسه. ثم يترك لهم دقها وتخديرها. وضع الحب في المحماس. اخرج الجمر المتأجج من قلب الكانون- وضع المحماس فوقه.. اخذ يحرك الحب بـ"خاشوگه النار" حركات بطيئة سمع السيارة. توقفت ثم تابعت سيرها الى الهور. تلفت في اركان الديوانية. ودقق النظر بعينين دامعتين

وتساءل:

- يلگاها سعد يو لا؟

اجابه فرحان:

- يمكن..

تسارعت حركات الخاشوگة تكفكف الحب من الجانبين. ثم تشطره نصفين. بحركة تنشره على صفحة المحماس. وتعود ثانية تلملم اطرافه. لتنال كل حبة قهوة نصيباً متساوياً من حرارة النار.

تذكر سؤاله لابيه: مالذي يحول بيننا وبين زراعة القهوة؟ فروى الحكاية- وحذرني من تصديقها!!-

بعد ان يحصدون القهوة يجمعون غلتها. يشرف ملك اليمن بنفسه على وضعها بصهاريج مملوءة بالماء. ويأمر جلالته بأشعال النار.. ويغلي الماء سبع ساعات ثم تجفف حبوب القهوة وتصدر الينا- وبعملية الغلي الخبيثة يحقق احتكار زراعتها في بلاده. ومرة قدر لأحدهم ان يسرق حبة القهوة قبل غليها.. وامكنه استنباتها في العراق.. فأينعت شجرة القهوة ونمت في ارض العراق.. وشاع خبرها حتى تناهى الى مسامع جلالة ملك اليمن.. فلبس جلالته جبة درويش ووضع في عنقه مسبحة تعد الف خرزة!. وسمح للحيته ان تزداد طولا على طول. حتى صار يصعب على اكثر الناس فطنة. الشك في هيئته كدرويش. وسافر جلالته متدروشا يقطع الفيافي والقفار.. وبعد عناء ونصب.. بلغ جلالته ارض الرافدين.. واهتدى الى موضع الشجرة بخريطة- وان كنت اشك في قراءة جلالته للخريطة- وجريا على عادة الدراويش بات ليلته بعيدا عن القرية.. مكتفيا من اهلها بالوقود والماء

لغلي الشاي. وبعد ان نامت الانام- وسبحان الذي لا ينام- حمل جلالته ابريق شاي- الذي اوقد تحته كل الحطب الذي جاد به اهل القرية المخدوعة- وتسلل الى شجرة القهوة المنكوبة.. وصب الماء المغلي على جذورها.. فذوت على الفور وتهدلت اوراقها. ولما اطمأن جلالته الى نتائج فعله.. شعر براحة الضمير.. وولى الادبار- ولا بد ان يكون مسرع الخطى..

آخ.. ياملك اليمن "يا حريص" لولا اخلاصك البليد لشعبك السعيد لما تحتم علي ان اشتري الكيلو بسبعمائة فلس!!

دخل سعد وفي يده جريدة منشورة.. وفي اليد الاخرى حزمة جرائد مرزومة. قال الصبي ملوحا بالجرائد:

- اليوم اهوايه.. هذني ثلاثة ملفوفات وعليهن طوابع:

فصاح الملا محذرا:

- اطرحهن لا تلعب بيهن.

نضح الزيت من حب القهوة.. بدأت القشور تنسلخ. تندفع الى اعلا. طافية على اللهب. شاع اريج القهوة بالديوانية وامتد الى القرية- يزعم حمزه الخلف انه يستروح عبيرها وهي في المحماس على بعد خمسة اميال: ترى من بعث الجرائد المرزومة؟ هذا حسن جدا.. ربما ساعدتني الجرائد مجتمعة على صياغة الخبر وجعله ريبورتاجا لطيفا.. لو بذلت عناية اكثر...

صاح فرحان بن سويلم منذرا:

- ابو سعد.. ابو سعد.. يمعود.. احركتها احركتها ..

رفع المحماس على عجل. قلبه في الصينيه. ريثما يبرد الحب. ثم يوضع في الهاون: اخذت نارا اكبر مما ينبغي. ان يسهو المرء وفي يده عود "فاله" لا ينتج عن سهوه ضرر بليغ. اما السهو مع الحب فوق النار فلا يمكن اصلاح ضرره. الاول كأنك شارد الذهن وانت على ظهر فرس- يمكنها السير على الدرب بلا مخاطر- ولكن شرود الذهن- واليد على مقود سيارة يودي الى دق العنق حتما!!

ترك الوجاق لفرحان.. واتخذ مكانا في كوسر الديوانية. مشوقا لرؤية الجرائد المرزومة. فض الطوق عن احداهن:.. التي يعمل في مطبعتها كامل وهذه رسالة منه:

(عمنا العزيز..

لا بد ان تكونوا بخير. ستغمرك الفرحة ولا بد! اذا ما قرأت مقالة فاضل- اتخيلك تطيل النظر في توقيعه. مزهوا به. او لست القائل:

"عمي احنا عشاير.. ما نخلص من عشايريتنا بسهولة..!"

استغرقته. كتابتها. اسبوعيا- ونقحها بأسبوع... وددت لو شغل بها اسبوعا اخر. لكن نصائحي وملاحظاتي ذهبت عبثا. لان حسبتي على حد تعبيره "واكفة بقضايا الفن والادب" وماذا بعد؟ ثمة اخبار قصيرة.

١- غارق في العمل حتى الاذنين.. العمل النقابي يمتص كل دقيقة زائدة عن حاجة المطبعة.

٢- الكتب الجيدة تملأ الارصفة ومعارض المكتبات"هنياله الي عنده الوكت ويقرا" واذكر لك مثال واحد: كتاب رأس المال يطالعك (ولا اقول تطالعه:) اينما تولي وجهك. حتى مكتبة فاضل ازدانت بجزئه الاول "لكن

الحچي بيناتنا.. بعده ولا قاري منه صفحه وحده".

٣- الزمنا انفسنا بعهد. خلال جلسة عائلية مشتركة. ساهم فيها "نسيبنا" محمود الخزاعي.. بأن نقضي عطلة العيد في ربوعكم الزاهرة المزدهرة! كلنا بالحمل والزمل. نساء ورجال. بلا اطفال!

٤- التحيات للكبار والقبل للصغار. ومزيدا من العناية بفرحان.. والى اللقاء

(كامل)

رفع رأسه ليبلغ الحاضرين تحيات كامل. خص سويلم وگزاز بخبر الزيارة المرتقبة. عاد الى الجريدة. مر بالصفحات سريعا. بلغ الصفحة السادسة. فطالعه المقال.."الشعر الحر.. وغدا النثر الحر- بقلم فاضل ناصر الواسطي": ولم هذه الواسطي حسبتها اندثرت مع المقامات. اذا كان لا بد من لقب. اما كان الاجدر انتسابك للعشيرة؟ العشيرة؟!

نضحت ابتسامة من شفتيه. انساب يصره مع اعمدة المقالة: لم يختمها بتوقيعه. في البداية كفاية! تناول الجريدة الثانية. مزق شريط التغليف: نفس العدد هذه النسخة من فاضل دون شك. دقق النظر في الخط. فتأكد له ذلك: ربما وضع رسالة في طيات الجريدة.. لم يعثر على شيء. تناول الثالثة. بدا له الخط غريبا.. العدد ذاته. من بعث هذه النسخة؟ تملى الحروف المبعثرة فوق شريط التغليف: هو نفسه تعمد تشويه الخط. "ابو الويو!" سأحتفظ بالنسخ واوراق التغليف..لا- يا ابو الويو! امسكتك بالجرم المشهود.. نسخة صريحة وثانية متلصصة لم كل هذا؟

انفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة.. فتساءل سويل الصگر:

- هاه.. اشبيها.. كمت تضحك؟

- هيچ

- اللّه عليك گول. بداعة سعد.

- فاضل كاتب مقال "مهم".

- مهم؟!

لهوج كُزاز الصگر:

- اقراه اقراه بروح والدك..

- انتذروني- اخلصه قرايه. واعيده عليكم..

- انصره يا ربي..

ودعا سويلم كذلك لابن اخته:

- وفقه يا ربي "مهم" وبالجرايد.. عل اسعوده يا ربي..

انصرف الملا لمطالعة المقال:

(لا اعتزم الدخول طرفا في الحوار- القديم المتجدد- الدائر بين خصوم الشعر الحر وانصاره. بيد ان الهوامش المخلصة "المحايدة" تلقي مزيدا من الحقائق الموضوعية..)

بدأ الخداع منذ السطر الاول! حماسك للشعر الحر بلغ درجة التعصب. وبراهينك على افضليته لما تزل اصداؤها في اذني.. وحكاية المحراث الخشبي والجرار الميكانيكي- في قطعة الارض الضيقة لن انساها ابدا..

(ان اساليب التعبير الفنية الموروثة. لم تعد قادرة على استيعاب مضمون العمل الفني المعاصر..)

آخ.. من هذه المعاصرة.. مثل كتاب فتاح الفال: شحروت شمروت طارشهم يو بالحي يو بالكر.. منحوس مدحوس اذبح ديچ يا [illegible]س! واني لمن اعترض ان يعترض .. [illegible] يدعي العلم بلغة الجن والملائكة؟!

(والشعر الحر من بين وسائل الفكر. اكثر ادوات التعبير الانساني حساسية. لا يحتمل التجميد والقولبة. فالينبوع لا يتدفق....)

اما استيعاب المضمون "يا ابو عباس" فلا اظن "الغريب" قصيدتك اياها. اصلح لاستيعاب مضمون العصر.. والمعاصرة

- جبة السيد حسن الكربلائي تغطي جسمه وملابسه وبها فضلة لاخفاء خروفين تحت ابطيه..!

لم تستعمل المحراث الخشبي والجرار الميكانيكي في قطعة الارض- الضيقة هذا مفهوم .. لقد كنت تخاطب فلاحا.. وتخاطب اليوم مثقفين- فأخذت الحمامة مثالا.. ولن انسى الرعب الذي اشاعته الشرطة في البيت. صعدوا الى برج الحمام " ان لا يقتني غير الحمام الابيض.. يطلقه في احتفالات انصار السلام السرية وقد انطلق السرب من البستان وحوم هنا.." ذبحوا البعض وسرقوا البقية.. واقتادوك الى مركز الشرطة! وقالت امك: لو اكتفوا بذبح الحمام.. ولم يوقفوه.. لفرحت اذن. كنت اتشاءم من هديل الحمام في الليل.

ابرق ثغره بأبتسامة. لعبور الذكرى. فقال حمزه الخلف. ولما يمض على

حضوره سوى دقائق:

- اشرچنا وياك بالضحچ.. چا غير اتگولون اشتراكيه! احنا حرمونا أهلنا من القرايه والكتابه..وانتم حظكم عدل وتعلمتوا.. ياللّه اشرچنا وياك.. گول ليش ضحكت؟

استمهله ريثما ينتهي فرحان من دق القهوة. حينذاك يكون الجو انسب للقراءة. وانكب على الجريدة مرة اخرى:

فأذا سلمنا بضرورة تطور ادوات التعبير. لتطابق المضامين المتجددة. ومعطيات العصر التكنيكية.. يغدو نثر الغد مختلفاً عما هو متداول الان. فيوم تبلغ خيرات الثقافة اقصى زاوية في المعمورة. ويصبح لكل قرية ومدينة جريدتها اليومية. يحررها جهاز اوتوماتيكي. وليكن اسمه.." الراديو بريس او التلبريس" يحول الكلمات المسموعة الى حروف مقروءة وينقل احداث العالم المثيرة الى صور ملونة مشروحة. وعهد ذاك يكون الشك قد اختفى تماما. ورسخت الثقة المطلقة على الارض. فلا رويتر ولا يونايتيد برس ولا اسوشيتدبرس- كان ذلك ايام زمان.. كان على المرء ان يقرأ الخبر مرتين.. يشطفه ثلاثا.. ويدققه اربعا.. ثم يحك رأسه ويتساءل: اين بقية الدس الرخيص اذن!؟ لقد ولى ذلك العصر الاسود. ونعيش اليوم في عهد الثقة المطلقة- تنتشر على الارض مراكز البث الصحفي. المتنوعة في اختصاصاتها. يوحدها مضمون انساني رائع. مثل النسيم العليل يتنشقه كل ذي رئتين. وعامل فني واحد يتولى تحرير صحيفة القرية. مهمته تحويل مؤشرات التلبرس من مركز لآخر حسب الحاجة والطلب. ويومها تندثر

اسماء الورق المعروفة الان وتحل محلها اسماء جديدة.. حيث تطبع الصحف على رقائق من القيمر والزبدة والجبنة.. ولذلك تراهم يتزاحمون على باب الجريدة. قبل طلوع الشمس. ليقرأ كل منهم محتويات جريدته ثم يطويها مع رغيفه غموسا شهيا "للريوگ" ويقسم خالي. بسويلم الصگر. بالعباس ابو فاضل. بعد تناوله الجريدة:

- چني صرت افتهم.. ولوما اقرا واكتب.. ولكن الحچي المكتوب على الگيمر. من صار ابطني سواني مثل ملا نعمه! ويسألهم حمود بن شنين عن محتويات جريدة اليوم.. ان غالبيته قصائد شعر. وعندها يضحك حمود عاليا ويقول:

- من هذا.. اشوف روحي چني صرت شاعر!

وفي قهوة المساء. يتساءلون عن نوعية ورق الجريدة غدا:

- باچر شنهي جريدتنا؟

- گيمر.

- ليش ما ايسويها جبن؟

فيرد اخر:

- لو بيدي جنت اطلب زبد!

واذا بلغنا تلك المرحلة من التطور الشامل. فهل يستجيب نثر اليوم لحاجات الغد المتصور؟ ان كلمات جديدة. وتراكيب متطورة. سوف تنمو وتزدهر في قلب التلبريس. وتفرض نفسها كما يفرض الربيع دفئه وازهاره.. ومن المؤكد في نثر الغد من الموسيقى والعذوبة ما يحسده عليه

شعر اليوم.

وعهد ذلك يكون الحوار عن الشعر الحر قد صار من جملة تراثنا المجيد الخالد. ويطغى حوار بديع بين مصممي اجهزة البث والاستقبال الصحفي. ولكن ربما تطفل واحد مثلي. لا هو بالشاعر ولا هو بالناشر!. فأقحم نفسه على العلماء. بملحة ولجاجة. مطالبا بتلقين الاجهزة بعض الالفاظ والتراكيب. مستنكرا اسقاط الكلمات المنقرضة مثل: القضية الاساسية. الطموحات. الجماهير المسحوقة. دماثة الخلق. والتواجد واللاتواجد والمتواجدون. الرفض من الداخل. المدود الثورية المعطاءة......

طرح الجريدة جانبا بعد ان انهى قراءتها. واعلن بصوت جهوري:

– طلعت من حگها ابو عباس!

ثم تمطى ليستعيد حيويته ونشاطه. استعدادا لقراءتها ولتفسيرها.

وقبل ذلك التفت الى حمزه وسأله مداعبا:

– گلي بروح والدك.. يا هو احسن بنذرك..الشعر الحر يو الشعر العمودي ؟

ضحك حمزه واجاب:

– احسنهن كلهن الشعير! معلومك هليام الشياه محتازات العلف كلهن. وما يعجبني غير الشعير "الصبر گلان" !

مر سريعا على المقدمة ولاحظ عدم احتفائهم بحكاية الشعر. ولما بلغ معابثات فاضل لاهل البترا. ضجت الديوانية بالضحك.. واستأثرت بأنتباههم جريدة المستقبل.. وغدت مادة صالحة للمزاح. اغتنمها فرصة. وراح يقلب صفحات الجريدة. عن اخبار الاصلاح الزراعي. عثر على خبر

مناسب:

".. اهتزت الارض تحت اقدام الفلاحين وهم يهزجون استبشارا بمقدم لجنة الاستيلاء.." هذا مستهل رائع. انقله حرفيا.." ونحرت الذبائح تحت اقدام اعضاء اللجنة..." عض شفته بقسوة. وقال ندما ما كان ينقص احتفالنا غير نحر الذبائح..

وكان بوسعنا ان "نقترض!!" ذبيحتين او ثلاث من غنم الشيوخ!!.

تنويه

سقط سهوا في ظهر غلاف (غنم الشـــــيوخ) الفقـــرة التالية فقد ارتات شـــــــركة دار الرواد المزدهرة للطباعة ان تعيد طبع هذه الرواية مجدداً لرغبـــــة شـــــرائح عريضة من القـــراء وخدمــــــة لنشر وتعميم الثقافة والادب الملتزم.
لذا اقتضى التنويه

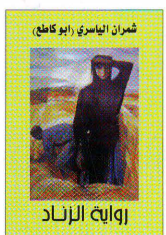
قالوا .. عن هذه الرواية

* يقول الروائي غائب طعمة فرمان : في عام ١٩٦٩ حين عدت الى العراق وبعد غيبة تسع سنين ، تعرفت على (ابو كاطع) في احدى مقاهي شارع السعدون ببغداد ، وبدا وكأن أحدنا يعرف الأخر منذ عهد نوح - وهذا التعبير مستلهم من روح (ابو كاطع) - وعندما افترقنا أسرّ لي (ابو كاطع) بأن لديه محاولة لكتابة رواية، وسالني بتواضع ممزوج بالثقه عما اذا كان لدي الوقت لاقرأ بعض ما كتبه ، وأعطيه رأيي الصريح ، فيما اذا كان من الممكن أن يسمى ذلك رواية أم(خرط) - كلام فارغ - وفي اللقاء الثاني جاء بدفتر سميك . وفي بيتي حين اخذت أقرا الدفتر ، بدأ يتنامى في خيالي عالم متجسد رحب مغمور بأنفاس الريف وأناسه ، صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد ان يقول وحب عارم للوسط الذي يصوره ، ومعرفة مستيقضة بخبايا الحياة الريفية وحنايا سكانها الواقعيين الى حد احساس القارى بانفاسهم تدفئ قلبه.

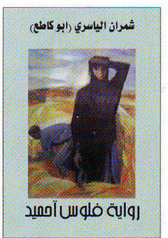
* يقول الصحفي والروائي (زهير الجزائري) : لقد كانت الرواية العراقية قبل (ابو كاطع) وان كان بعضها يتحدث عن الريف ، الا انها لم تكن ريفية ، بل إنها ابنة مدينة ، فالرواد أمثال محمود أحمد السيد ، سليمان فيضي ، جعفر الخليلي ، ذو النون أيوب ، وبعدهم عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي وغائب طعمة فرمان ، جميعهم أبناء مدينة.

* نظراً لاهمية هذا العمل الادبي (رباعية ابو كاطع) الذي يوثق ويؤرخ لحقبة طويلة من تأريخ العراق والحراك السياسي والاجتماعي في الريف في الفترة الممتدة بين عشرينات وستينات القرن الماضي ، فقد

رباعية ابو كاطع



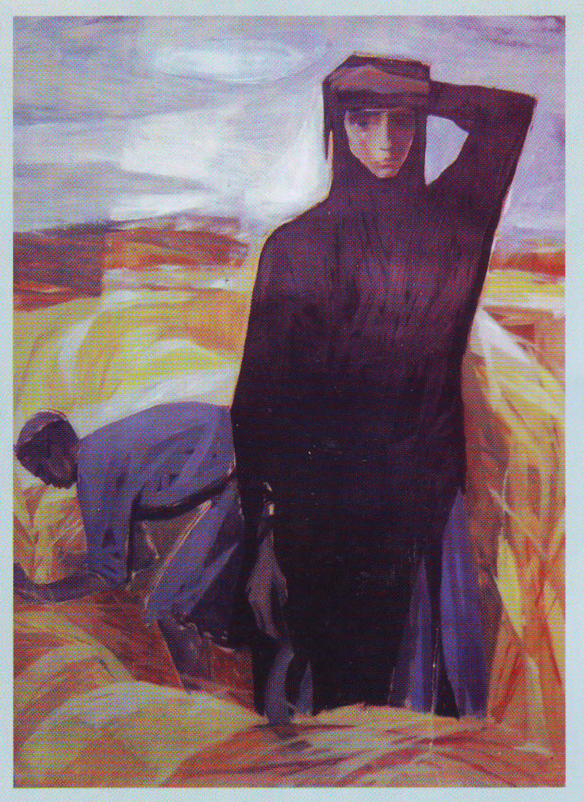




شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ - الطبعة الثانية ٢٠٠٧

شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية فلوس إحميّد

الكتاب : فلوس احميدّ
المؤلف : شمران الياسري
الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة
الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢
الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧
العراق / بغداد / الرواد

نبذة عن حياة المؤلف :



* في بيئة ريفية بمحافظة واسط – قضاء الحي – ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحداره من اسرة علوية (من السادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحيط الذي يعيش فيه ومنحهُ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياسري المدارس الحكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهُ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القراءة والكتابة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ـــــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ـــــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي والصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحيان للأختفاء ، منعته من تحقيق هذا المشروع.

ـــــ أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي (احجيها بصراحه يبو گاطع) فقد كان خطاً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

*عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينيه في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأسرته ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

* ومع انغماس (ابو گاطع) في العمل الصحفي ، الاأنه كان يردد بأستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي ..وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

فلوس احمّيد !!

شمــران اليــاســري

رواية

فلوس احميّد !!

الجزء الرابع من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت براعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثـر من أربعة عقـود، تتطور فـيها سلطـة الاقطاع بـدعم ومباركـة الانكليز والسلـطة التـابعة لهـم، وتلقي بظلالهـا على ريف الـوسط والجنـوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نـشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لهـا عشـائـر الفـرات الاوسط (هـذي ديـة ثـوار الفـرات يـدفعـونهـا لـشيـوخ العشاير بـدجله).. فلقد عاد (ابـن طرفه) يحمل ألف روبية هـدية من الحـاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضيـة الوصـول الى الحـاكم الانكليـزي هاجسه الأعظم، والبـدايـة لنـشوء السلطـة التي خلقـتها الألف روبيـة وتحالفـاته مع أعداء الأمـس.. ثم تعرض الـرواية لوقـائع سقوط الاقطـاع على يـد ثورة تموز المجيدة ونشـوء علاقات اجتمـاعيـة واقتصـادية جـديدة .. تـتجلى خـلالها أخلاقـيات وقـيم المجتمع، وثبات بعضـها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضـع الجديد .

لقد قدمت هـذه الرواية المرحوم (شـمران اليـاسري- ابوگاطع) اديبا عظيما عـرفه العـراقيـون عبـر قلمه الـرائع وبـرنـامجه الاذاعي الهـائل الـذي شـغل النـاس وحاز على اعجـابهم ومتابعتهـم.. وعندما بـدأت جهود نشـر الرواية، وهـي جـهود استمرت لأشـهر لإقنـاع وزارة الثقافة والاعلام(سـابقاً) لتعضيد نشـر الروايـة، ثم اعتـذارها لأسبـاب معروفـة، تـحول الهـدف الى أن يتـولى القراء تمـويل النشر من خلال شـراء الـرواية مقدما.. وهــي تجربة فريدة في زمـن كانـت الدولـة تطبع أوطأ الكتـب قيمـة ولعشـرات الجهلـة من الكتاب وأدعيـاء الثقافـة.. فمثل هذا بحق تحـديا فطريا من الجمهـور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو كاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ,١٩٦٣
كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد..
ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغيّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابو كاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..
إن ما تعلّمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفرّد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محض حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزائها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كَاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هـذه الروايـة، معرضـة عن تفـاصيل الكلفـة واحتمـالات الخسـارة والربح، معتمدة بالـدرجة الأساس علـى حقيقة ان هـذا العمل الكبيـر يجب ان يكون في متنـاول القارئ، للتـذكير بـان الشعب العـراقي. الذي خـاض في الريف معركـة التحرر مـن التخلف جنبـا" الى جنب مع المدينة. بعمـالها ومـثقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضـاله المجيـد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القاريء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران اليـاسري) (الرباعية) بأجـزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحمّيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفـزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديـد شخوصها وأبطالها وهـم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقديـر لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعـة (راديو النـاس) الـتقديـر والعرفـان بعد ان قـررت إعادة عـرض هذه الـرواية بطريقة مبـتكرة فيمـا يسمى (الـكتاب المسـموع).. واستطـا ع الفنان المبدع الاستـاذ (جاسم يـوسف) ان يضـع المـستمعين في أجـواء قريـبة من مقـاصـد المؤلف للـشخـصيـات والاحـداث والـبيئـة.. لانه إبن الـبيئـة وأحـد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمـام غداة سقوط النظام عام ..٢٠٠٣ فـاحتفت به الـصحافـة بطرق مختلفـة.. وأعادت وزارة الثقـافة نـشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري ـ ابو كاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخّلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسري

شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

تأمل (صالح ابو البينة) كسرة خزفية ملونة. قلبها بين أصابعه، متفحصاً ألوانها الزاهية: اللّه وحده يعلم مقدار السنين التي مرت عليها وهي ملقاة على هذه الرابية. عرضة للشمس والرياح والمطر.. ومع ذلك ما تزال ألوانها..

امسك ذيل "زبونه" المقلم، ودقق فيه النظر: تداخلت ألوانه بعضها ببعض واستحالت الى لون التراب.. ولما يمض على شرائه سوى سنتين..

عاد الى قطعة الخزف يتأملها بإعجاب اكثر: الأنهم كانوا يتبطرون في عيشهم -كما يقول السيد الكربلائي- قلب اللّه عالي بيوتهم سافلها؟

ثنى ركبتيه، وطوى ساقيه الطويلتين تحته، ثم جعل كفيه تحت ذقنه المغبرة، وركز مرفقيه على الأرض، فغاصتا قليلاً في تراب الرابية... ومع أنهم ما يزالون يرددون -دعاء بالشر- "اللّه يجلبكم يشان" لكن دعوة نبينا محمد كانت الحد الفاصل -كما يقول السيد-.. فقد خفف اللّه العقوبة عن البشر ولم تعد قراهم عرضة لان تصبح تلولا حين يأخذهم بذنوبهم، معنى ذلك ان العقوبة استبدلت بأخف منها.. اما أنا فأعتقد (وألف أستغفر اللّه) بأنها كانت عقوبة هينة.. فما أسهل على المرء ان يستريح من متاعب دنياه في غمضة عين.. ويصبح البيت وأهله رابية مثل هذه.. ألف استغفر اللّه ربي..

حرك رأسه كما تفعل السلحفاة، دون ان يغير وضع جلسته، وقال لنفسه بثقة: هذه الرابية ليست سوى بيت لواحد منكوب مثلي.. توغل في "هور المصندگ" يطلب المرعى الجيد لشياهه.. او يكون مطاردا من أمثال عودة الكبر وملا نعمة! فغضب اللّه عليه.. (ألف استغفر اللّه يا ربي) أنها

سعـادة وليست عقوبـة.. تحول إلى رابيـة واستراح أما أنـا فما زلت أتجرع عقوبتي على امتداد اللحظات والساعات.

أنشب أسنانه في شفته السفلى وحاور نفسه نادما: استسلمت لضغطهم وأذعنت لمطاليبـهم التافهة.. سكـر وشاي وغالون نفـط.. كان علي ان احتفظ بجبروتي وأبقى مرهـوب الجانب صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في البيت.. لئن خـرجت من هذه الـشدة سـالماً لألـقنهم درسـاً لن يتـجرأو بـعده عـلى ممـارسـة الضـغط.. لم أعـد ذاك الـ"صـالح".. لا بـد أنني ضعـفت دون علم مني! قلتها ببساطة اذهب.. واكتفيت ببضـع كلمات تحـذير..

مد عنقه الـى أمام باتجـاه الطريق، ثم لـوى رقبته ليعين الـوقت من موقـع الشمس في السماء: أين أنت يا جنيدي؟ أعرفك حذرا وجسورا ولكن القدر يغلب الثعلب!.

هكذا يا صالح يا أثول - يا ابن الغبرا- تطامنت إلى وهـم كاذب وخدعت بأقـوالهم: ان الدنيا بخيـر.. فسمحت له بالـذهاب إلى المدينـة..ما يدريني ان كـان الآن في قـبضـة الـشـرطـة.. ومن يقـطع بـأنه لـم يعتـرف تحت وطـأة التعذيب.. ولعله الآن يتقدم الـشرطة على الـطريق -كدلـيل يوصلـهم إلى بيـتي.. وقبل مغـرب الشـمس يتـم الاستيلاء علـى الغنـم دفعة واحـدة- على رأي المثل المعروف: "التجمعه النملة بسنة، يشيله البعير بساعة!".

عدل مجلسه، ثم أخـرج كيس التبغ.. تحـسس ما فيه.. وقـال لنفسه كمن يعترف بـخطيئته: لولا حـاجتي للتبغ لضـاعت محـاولاتهم عبـثاً.. لقد ضـعفت إرادتي حين قالت: "هاي گبصة التتن آخر ما عدنا"..

سئم مراقبـة الطريق. ثقل عليـه الانتظار، المشوب بالخـوف.. سـحب آخر.

نفس من سيجارته بشدة، حتى تجمعت في نهاية المشرب الخشبي قطرة حادة المرارة، نفذت الى لسانه، فبصقها على الأرض، ثم نفخ في المشرب بقوة.. وحين سقط العقب الصغير لف المشرب في كيس التبغ.. ونهض بتثاقل، ليمد بصره الى مدى ابعد. لم ير أي شبح على الطريق... فاستدار ناحية خيامه. شمل الغنم بنظرة حنون وراقبها بمودة وهي ترعى نباتات الهور اليابسة:

يا لها من هموم متصلة الحلقات.. ليت العقوبة لم تستبدل (ألف استغفر اللّه يا ربي..) ليتني وأهل بيتي أصبحنا مثل هذه الرابية بين عشية وضحاها..

* * *

استبشر صالح بمقدم ولده، فراح يخطر عند مشارف خيامه، مدققاً النظر في كل حركة يأتيها جنيدي وهو على ظهر الفرس، ارتاح لمرآه منتصباً متوازناً فوق السرج، شأن كل خيّال فخور بفرسه.

راقب خطوات الفرس بدقة، فأيقن أنها غير مجهدة. ولا مستفزة: هذا يعني ان رحلته عادية ولم يتعرض لمطاردة.. وليس دون معنى عبثه بسوط اللجام المثلث. كما يحرك البطر مسبحته. كلما عدت من رحلة دون متاعب – أيام الشباب– فعلت شيئاً مثل هذا عند مشارف القرية!

حاول صالح ابو البينة ان يتظاهر برباطة الجأش، ويبدو أمام أهل بيته متماسكاً، وكأنه عليم بما جرى، ويجري، وليست به حاجة لسماع أجوبة جنيدي، وعلى أساس من ذلك طرح أسئلته بلهجة لا مبالاة: ويضحك الناس حقيقة؟ يسيرون ولا يلتفتون خيفة؟ ويتعامل التجار بالنقود جهاراً نهاراً؟

ورأيت قطعان الغنم تسرح بأمان قرب المدينة؟...

يرد جنيدي على أسئلة أبيه.. لكن الأم تشاغله بأسئلتها وهي تتسلم الحاجيات من يده.. تصر على ان تكون الكمية كما طلبها الأب.. والنوعية كما أوصى بها:

السكر والشاي والتبغ والدبس.. وحتى إبرة الخياطة. وتفتح غالون النفط، تشم رائحته، وتقيس بالعين فراغه..

لاحظت عدم احتفاء زوجها بالحاجيات فتركت أسئلتها وأصغت إلى ما يدور بين الأب وابنه...

شرع (صالح ابو البينة) يمشط لحيته بأصابعه، شأنه عندما يحدثهم في أمر خطير.

انصرفوا الى أقواله كلية، موقنين ان الأمر الذي يعرضه غير عادي.

قال (صالح ابو البينه) وكأنه يجيب: وأذن فالدنيا بدأت تستقر بعد هياج. وربما بالغنا - أصلا- وتطيرنا دون التثبت من أقوال (مهيدي) لا أريد ان أخدعكم واخدع نفسي فأزعم ان الأحوال عادت سيرتها الأولى – ولكن يتعين عليَّ الذهاب الى (البترا) لأسمع وارى. رب قائل منكم يقول كيف تذهب دون علم بما جرى وما هو جار؟ أعددت كل شيء في ذهني: اسلك طريقاً ملتوية.. انتظر مغرب الشمس ثم اهبط بيت داود متنكرا.. وعنده أجد الخبر اليقين. فإذا استوثقت من ان ظهوري بين اهل البترا لا يثير المتاعب –ذهبت بنفسي الى القصر.. وكلمت الشيخ "والشيخيات" بشأن الغنم وعلفها.. وصعوبة تأمينه ونقله وارتفاع أسعاره وكلفة النقل بالسيارات وما الى ذلك من مشاكل نعانيها... اما اذا وجدت الظرف غير

مناسب، بعثت داود يكلمهم بشأنها..

توقف عن الكلام فجأة، ريثما يستعيد صرامته، ثم توجه إلى أهل بيته بالتحذير –على مدى ساعة سبقت مغرب الشمس، وساعتين أعقبتا المغيب–:

حذار من الإهمال والتهاون بالحراسة.. لن اقبل عذراً من احد.. المسؤولية في هذا البيت لا تتجزأ. لن يشفع لقائل قوله حدثت السرقة في نوبة فلان او أفلتت الهفوة من لسان علاّن. أريد الحراسة ليلاً وكأن البردي والقصب كله أشباح لصوص.. وأريد رعي الغنم نهاراً وكأن الأرض حفرة مغطاة بالقش لا يحتمل سقفها أكثر من نعجة واحدة..

وحذار من الغرباء.. حذار من كل غريب. تخيلوا ان مهمة كل الناس التجسس على غنم الشيوخ.. وأكررها للمرة الألف! أنت حسين وهذا حسن.. وهذه غنم علي الكشاوي.. حتى في حديثكم المهموس. لا يتركن احد بندقيته لحظة واحدة.. النساء والرجال سواء في العقاب.. اذا ما حدث ما يستوجبه.. كلكم متضامنون في المسؤولية.. لن يطول غيابي أكثر من ليلتين.. ولكن المثل يقول: "اليروح بأمره ما يجي بأمره..).

وعاود التحذير قبل شروق الشمس، حين اجتمعت العائلة لشرب شاي الفطور. ومع كل رشفة من "استكانه" يرمي نصيحة او تهديدا..

اعتلى ظهر فرسه.. خطت بضع خطوات، هي بالقفز أشبه، فلوى رقبتها باللجام، وقد تمسك بكربوس السرج، ثم أوجز توصياته السابقة على النحو التالي:–

–هاه.. ما اوصيكم بعد. ما اقبل عذر من احد.. الاولاد صيروا نشاما..

البنات صيرن سبّاعيات.. ام امهيدي عينج عليهم..

أسلس لفرسه اللجام، وضاعف يقظته، مخافة ان يزل حافرها في واحد من شقوق الأرض، التي يتسع بعضها لدخول يد الإنسان حتى المرفق. وازدادت مخاوفه حين لاحظ شقوقاً مغطاة بنبات "السجل".

ساءل نفسه مستغرباً: لقد اجتزنا هذا المكان في ظلمة الليل مسرعين ولم تصب أي من المواشي بسوء؟ هذا يؤكد لي من جديد عناية اللّه بمخلوقاته.

بلغ منخفضاً واسعاً، قدر مساحته: ربما اقل من الصالحية بقليل.. لا يكفيه للمبذار تغار شعير. استاء من كثرة الحفر التي أحدثتها الخنازير، في بحثها عن "السعد" وجذور نباتات الهور الأخرى، فتراءت له ارض المنخفض مثل وجه عدو مجدور.

ولما اجتازه بدت الأرض مستوية، وشقوقها صغيرة أشبه بتجاعيد وجه حزين. قدر ان حافر الفرس يمر فوق أكبرها بسلام.. ثم لاحظ، فيما بعد، آثار الماشية وكأنها خطوط راحة اليد، فأطمأن الى سلامة الدرب. وقرر ان يستحث فرسه على المشي السريع: شد لجامها ولكزها برفق تحت الخاصرتين، فقفزت مستفزة.. وارتفع "شليلها" مثل ذنب العقرب. حركته في الهواء حركة شبه دائرية فلامس شعره الطويل عباءته التي دفعها الهواء فغدت مثل شراع صغير.. ولوت عنقها ثم رفعته إلى أعلى حتى صار رأسها في مستوى صدره.. وراحت تشتط في مشيتها وتزفر الهواء بعصبية، اعتادها صالح في بداية كل رحلة، خصوصاً اذا كان الهواء باردا..

تمنى لو كان الطريق خالياً من النباتات اليابسة: إذن لأطلق لها العنان وبددت شحنة القوة المكبوتة وبعدها تستسلم بين يديه وتستقيم مشيتها. قاربت بين أذنيها ولوت عنقها جانباً ثم أجفلت، احتفظ صالح بتوازنه فوق السرج، وقرر مواصلة أخذها باللين حتى تخف حدة جموحها. رفع صوته كأنه يعيرها.

–وچاد شفتي لچ خط وتصرگعتي!!

التفت نحو المكان الذي أجفلت منه، فرأى كيساً ورقياً ممزقاً، تعبث به الريح فوق شتلة "سجل" عالية. تذكر اصل عقدتها من الورق: كان أول عهدها بالركوب. ليتني منعت جنيدي من أخذها إلى قرية الشيوخ.. لست ادري لماذا اخرج الكيس من الخرج.. وحتى الآن لا اعرف كيف سقط أمامها.. لقد نال جزاء غفلته ورمته على الارض. لو كان "بطان" الخرج قوياً بحيث يستقر تحت بطنها مدة أطول لحدثت كارثة (والعياذ بالله).

راودته رغبة التدخين.. فأخذ يداعب شعر "معرفتها" بيده و"يطنجر" لها بلسانه، فاستجابت لملاطفاته قليلا. ولكن ليس الى الحد الذي يسمح بإخراج كيس التبغ ودفتر ورق اللف –وصنع سيكارة– وقدحة زناد: ليتني أوصيته بشراء علبة سكاير ما أكثر فائدتها لمثل هذه الساعة.

شد لجامها برفق، فتهادت في مشيها. أدارها ناحية الشرق، ليتقي الهواء خشية تطاير التبغ. مدت رأسها الى نبتة "عجرش" فحال "المصراع" بينها وبين النبتة. قربت رأسها من ركبتها وحاولت نزع المصراع، لكنها لم تفلح.. ولقد كررت هذه العملية ألوف المرات على مدى عشر سنوات فلم تنجح مرة واحدة.. ومع ذلك لم تيأس من نزع المصراع ذات يوم.

اجتاز خيام رعاة متناثرة، متشابهة في حجومها وألوانها، كلها مصنوعة من شعر الماعز الأسود، ومر بقطعان غنم، لم ير بينها الاّ الأبيض، ولكنها متفاوتة في كثرتها. فقال لنفسه ممتدحاً فطنته: لقد احسنت صنعاً بالابتعاد عن هذا المكان المألوف. لو كنت بينهم لتميزت ببيتي الكبير.. وفضحتني غنم الشيوخ بكثرتها وسمنتها ونوعيتها المميزة بشيء... لا أدريه -على اية حال- ولكنها لا تشبه هذه القطعان..

لمح في سفح منبسط، لا تغمره المياه الاّ حين يشتد ريح الجنوب، أواسط وأواخر الربيع، سرباً كبيراً من الكراكي يصطف بانتظام بديع، فقدر المسافة بينه وبين مكان الكراكي حين تمنى: لو كانت معي بندقية جنيدي، البرنو، وكان لي ذلك المزاج الصافي لأصبت اكثر من واحد في طلقة واحدة...

نظر الى فرسه وقال كمن يعترف بالجميل: تقف وكأنها هي الصياد حالما تحس ان خيالها يصوب بندقيته. ولكن سرعان ما تذكر عقدتها من الورق.. فقال كالمعاتب: لو تخلصت من عادتها السيئة.. عادة الخوف من منظر الورق على الأرض والخوف من وشوشته بين يدي الراكب.

ولما اقترب من سرب الكراكي لاحظ توثبها للطيران. صاح كركي، كأنه يصدر أمرا بالحركة، فخفقت الأجنحة بهدوء.. وانتظم الرف في طيرانه.. وتناغمت اصوات الكراكي: ان ما يحتاجه بيتي واهل بيتي يقظة الكراكي ونظام حياتها. لا اشك في أن الكراكي وهي تمرح على الأرض تعيّن حارساً ليلياً من بينها ولكن الذي أعجب به -ولست متأكدا من صحته- قولهم أن الكركي الحارس يمسك حجراً صغيراً في "كف" رجله ويقف على

رجل واحدة. فإذا خانته اليقظة وغلبه النعاس سقط الحجر واستيقظت كل الكراكي.. وما يدريني ان كان ثمة نوع من العقوبة تنتظر الكركي المقصر؟!

* * *

لاح له واحد من "جمّاليات" حمزة، فقارن بين الوقت اللازم لوصوله، والوقت الذي تبلغ به الشمس مغربها. أرخى لجام الفرس وسحب "رشمتها" لتقصر الخطو..

ولما غربت الشمس حثها على السير، فبدا له منظر الخرائب المحيطة بحوش حمزة، في عتمة المساء، نذير شؤوم أيقظ مخاوفه. فكر لحظتئذ: لا بيت داود ولا بيت حمود.. وقع المحظور يا "مگرود!" وسقطت في شباك الخبيث حمزة!

كيف أواجه نظراته المتسلطة.. واتقي لسانه الحاد؟!

ازعم السكنى في مكان موهوم وأتهيأ للفرار بعد منتصف الليل.

اقول لهم: لا تنزعوا سرج الفرس.. أنها مبتلة بالعرق وأخشى عليها من "التيبس" –هذا ان وجدته مثل أخيه معادياً للشيوخ.. ومتحمسا كالآخرين لنهب الغنم..

حماقة ما كان عليّ ان ارتكبها.. أسعى بظلفي الى حتفي "عوينته الكتلته ايده!"

ميّزه حمزة، بذكاء مدهش، قبل ان يرفع لثامه، وهتف مرحباً:

–اهلاً وسهلاً ببو مهيدي..

(أهذا جزء من تطمين الصيد المغفل.. الذي سعى بقدميه الى الانشوطة؟! ما أكثر شكوكي بهذه الاهلاً وسهلاً –المشبوهة!)

-وبيكم اكثر.

-يا مية مرحبا..

(مية مرحباً؟! العبرة بالخواتيم.. لن اخدع ولن "اطوف على ماي البلاله!").

رفع اللثام عن لحية تشعثت، وانبسطت خصلاتها متخالفة، وكأنها شتلات قمح عالية، بلغت من النمو غايته، فعبث بها خنزير بري، أكل السنابل وكسر السيقان، وتمدد في اللوح، متقلباً ذات اليمين وذات الشمال!

استغرقهما حديث ذو شجون، عن الغنم ومرعاها، وعن ارتفاع أسعار الشعير، وصعوبة الحصول عليه، فتطامن (صالح) بعض الشيء، وزايله القلق.

المرعى هنا لا يحتمل قطيعاً كبيراً مثل غنم الشيوخ. أحسنت صنعاً برحيلك إلى الهور -هكذا خاطبه حمزة، بود وصراحة.

المرعى هناك خصب. ولكن المشكلة في نقل العلف بالسيارات.. فالأجور تكلف كثيراً وتجعل الشعير بنفس سعر الحنطة. كذلك اجابه صالح.

ألف بينهم حديث الغنم -فتناجيا بحرارة، بخرت شكوك صالح بمضيّفه. وازداد به ثقة، حين كشف حمزة عن خلافه مع ملا نعمة وجماعته، بسبب اقتطاعهم الجزء الأكبر من ديمة خلف.

اما لماذا رحل داود الى قرية مويلحة؟ فأن جواب حمزة عليه: اراد ان يختبئ في "عب" عبيد المنتاز، ذي المكانة المرموقة في الجمعية الفلاحية. وإما حمود بن شنين، فقد استغل قرابته للزعيم الجديد عودة الكبر ورحل

الى قرية مويلحة ليختار أجود الأراضي..."ومعلوماتك يا ابو مهيدي.. العدها حبايب.. أنت موش غشيم.. تدري وتعرف!!".

ضحك صالح ابو البينة، حتى دمعت عيناه، كان عهده بالضحك بعيدا جدا –ربما نسيه، لو لم يكن غريزة.. لاحظ ذلك بنفسه وقال:-

-اللّه ينعل الشيطان.. واللّه حسبالي نسيت الضحچ! ثم سأل صاحبه بخبث:

-تسولف علحبايب.. وانته ابو الحبايب!

قصد (فرهوداً) بإشارته، فأدركها حمزة دون عناء. وأجاب بلهجة تقطر مرارة:

-اخوي؟! طلع لا گلب ولا چلاوي.. ما صابني منه غير الضرر. ما نفعني أبداً أبداً.

* * *

في حين يكتشف صالح مقدرته على الضحك، ويفرح لأنه لم ينس هذه العملية الممتعة.. ويقهقه لأتفه دعابة بقولها حمزة، وكأنما يريد تمرين رئتيه او نفض غبار الكآبة عنهما، كان بيته مسرحاً لأشباح مرعبة، ركبت ولديه، فحركتهما على نحو عابث، وقد أسلم كل منهما قياد نفسه لغريزة جامحة جائعة، فراحا يتخبطان وسط ظلمات الليل والشكوك.

فكر جنيدي وقد تأكد من يقظة أخيه: انه يراقبني ولا شك.. ومن يدري –لعله ينوي التسلل الى مخبأ النقود في غفلة مني.. أنت تحتاج الى الذكاء اكثر من أي شيء آخر. ولئن وجهتك الذئبة –بمكرها وخبثها.. سوف تجد المصيدة في طريقك.

وقف بجوار خيمة "الطليان" ليواجه باب خيمة مهيدي. صفر مرتين.. وسعل مرارا.. ثم أشعل سيكارة.. تأكد له ان مهيدي يترصده. لف عباءته على عمود. خلع يشماغه وطوق به رأس العمود. ثبت العمود جيداً.. جلس على الارض ليوهم أخاه بأنه على وقفته، في ذات المكان. زحف الى مخبأ النقود، في كوسر الربعة، من الخارج: ما الذي افعله لو عثرت عليها مجتمعة؟ لا شيء..أعيدها كما كانت. ولم اذن هذا العناء كله؟ اطمئن عليها وحسب.

لو عثرت على عشر منها وفي كل واحدة مائتان= الفان. مهرها لا يتجاوز ثلاثمائة.. الف وسبعمائة.. تكفي لشراء قطيع لا بأس به. او فتح دكان في المدينة مثل دكان عبد علي الشرامة.. هراء.. لن اعبث بها أبدا. مجرد إلقاء نظرة. مرة وضع اربعمائة دينار في بطل واحد. "عشرة". لا لزوم لكل هذا.

افرغ تراب الحفرة كله، فلم يعثر على شيء. أعاد التراب بسرعة. اجتهد في تسوية المكان رجع الى موضعه حبوا: لاحظت شيئاً من القلق يرتسم على وجهه.. وزوجته مثل ذئب جائع.. ما الذي يتعين عليّ فعله؟ الوقت لا يحتمل التهاون.

حبا بسرعة حول البيت الكبير.. بلغ خيمة مهيدي. ألصق أذنه بنسيجها.. سمع زوجته تعنفه:

- أنت غشيم..
- لا اتخافين..
- ننغلب..

- انطر المچان
- خاف هسه...
- بساع..

ماذا؟ عن أي مكان تتحدث؟ تحرس المكان الذي أخفيت فيه النقود؟

سمع همهمة.. والتصاق جسدين، فشعر بالاشمئزاز وتأنيب الضمير لتلصصه..

رجع الى مكانه مشوش الذهن. استبد به قلق مخيف. وجد نفسه امام تجربة قاسية وامتحان عسير.. لبس كوفيته وعباءته: هل صرت ضحية لمؤامرة نسجت خيوطها الذئبة؟ لطختني بدم القتيل وانا منه براء؟! لن تراوده الشكوك بمهيدي ابدا.. لو نزل جيش من الملائكة وكل يحمل قرآنه لعجزوا عن تبرئتي.. اعرف مزاج أبي ومبلغ شكوكه.

أما انت يا مهيدي وقد سبقتني —فلن تفلت مني قط. اكون ظلك او ثالث الملكين احصي انفاسك.

لف سيكارة.. سمع مهيدي يتنحنح.. وشاهده يراقب النجوم، ليستدل بها على الوقت... ومعرفة نوبته في الحراسة.. ثم رآه يتقدم ناحيته ويقول:

-روح نام، آنه شبعت نوم.

-خوش. بس دير بالك زين.. آنه كلش نعست..

-ما عليك روح نام.

بعد دقائق معدودات، شخر جنيدي ليوهم أخاه. زحف مهيدي الى كوسر الربعة.. اخذ ينبش التراب بخفة الجرذ. انسل جنيدي من فراشه بهدوء. وضع عينه على ثقب في "الفلي": مرة اخرى تبحث في المكان؟ هل تعيد

الزجاجات فارغة؟ لا. انه يبحث وليست معه زجاجة واحدة.. ربما أشارت عليه الذئبة بشيء يحبك المؤامرة...

تحسس جيوبه: كيس التبغ. الزناد. المسبحة. هل سرقت طلقة من عتاد بندقيتي او مسدسي؟ او شاجوراً فارغاً؟ ان مثل هذا الشاهد لا يكذب! سوف أحصي حاجياتي وعتادي. هراء! فما أكثر العتاد والشواجير..

رآه يعيد التراب الى حفرته: مثل قطة تدفن فضلاتها. ترك المكان، وأسرع الى خيمته.. سمع لغطا بين الزوجين لم يتبينه.

ومضى الليل يدب بخطى السلحفاة. أتعبتهما مراقبة بعضهما البعض. لم يتخففا من عناء الترصد الا حين استيقظت الام عند الفجر وتبعتها هدية.. وصرخت بنت مهيدي جائعة تتعجل إشعال التنور. وامتلأ الفضاء بنهيق وثغاء الغنم والطليان.

نهض جنيدي من فراشه مرهقاً. ملأ الإبريق وذهب ليقضي حاجة الخلاء، بعيدا عن البيت. أشار مهيدي الى زوجته بالإصبع، ان تعين المكان الذي جلس فيه أخوه، لتفتشه في وقت مناسب، او لمجرد أظهار فطنته أمامها.

تناول الإبريق من يد أخيه، وقصد الخلاء، بعيدا عن مكانه.. فراح جنيدي يتابعه بنظرات الشك والريبة: ابتعد أكثر من المعتاد: واتخذ من خميلة البردي سترا.. يده تعبث بالأرض.. بوسعي ان اهتدي الى المكان معصوب العينين، لن اذهب اليوم لرعي الغنم، لا اتركه ينفذ جريمته.

-آنه اليوم ماني طيب.

هكذا أجاب أمه، معتذراً عن تناول الفطور، فكان هذا كافياً لجعل الشك

في مرتبة اليقين عند مهيدي: والا فما معنى اعتذاره عن تناول الفطور؟ يريد التخلف في البيت، ليحكم خطته ويهرب بالثروة كلها.

أعلنت زوجة مهيدي انها ترعى الغنم بدلا منه، فهو يشعر بصداع شديد..

ذعرت الام وصاحت:

–يا اللّه دخيلك! اشبيهم اولادي اليوم؟ اثنينهم ما هم طيابا؟!

لما سمع جنيدي بتمارض أخيه، نهضت ظنونه على قدمين، وغدت حقائق لا تطالها الاوهام: الآن عرفتك يا مهيدي ينطبق عليك القول "وجه خروف بگلب ذيب" هل صممت على الفرار بثروة ابي؟ وتتبعك الذئبة الى مكان متفق عليه..؟ لن أيسر لك هذه الفرصة الذهبية "مش بوزك! ".

* * *

تساءل صالح ابو البينة، وهو يشرب شاي الفطور، ان كان بمستطاع حمزة ان يرسم له صورة متكاملة عن الوضع في البترا..؟ فجاءه الجواب مشوشاً، لا يدعو للطمأنينة: هدأت الأحوال نسبيا.. والشيوخ مستقرون، بعض الشي، وان كنت اتحاشى زيارتهم، والتعرف على أحوالهم –لكن هذا لا يعني اختفاء المتاعب وزوال المخاطر الى الأبد، فلا احد يدري متى يصاب عودة الكبر، وجماعته بنوبة هياج "اللّه يستر من تاليها!".

استيقظت مخاوفه، بعد تهويمة قصيرة، واعتزم ان يستطلع الأحوال من مصدر وثيق الصلة بالشيوخ، فعرج على بيت ابن اخيه داود. ولطالما ألح عليه السؤال التالي: ماذا قال عني الشيخ بعد رحيلي المفاجئ؟ هل قدر موقفي.. ام استاء من تصرفي؟

رحب داود بعمه، أكثر مما ينبغي، وبدت عليه إمارات سرور حقيقي، لم يطل انتظار صالح لمعرفة أسباب الفرحة. بادره داود قائلاً:

-واللّه يا عمي سويت عليّ فضل چبير بجيتك..وأضاف موضحاً:

أمروني الشيوخ گبل يومين، اروح للهور، وما قبل الشيخ -اللّه يحفظه- كل عذر، گال اريده منك غرمن ترمن.. وچانت نيتي اليوم امشي- هسه اريدك تبيض وجهي، وتگول اجاني داود.

اوجس صالح خيفة من هذ ا الاستدعاء الفوري، وتساءل بقلق عن أسبابه. فطمأنه داود، بأن كل شيء يسير على ما يرام.. ولك عندهم الذكر الحسن، ويقدرون اسباب رحيلك المفاجئ. وعلى اية حال.. بعد ساعة او ساعتين تعرف كل شيء حين تواجه الشيخ.

استعلم صالح، زيادة في الحذر، ان كان ذهابه الى قصر الشيوخ، في وضح النهار مجلبة للمتاعب او القيل والقال؟ فأكد له داود: ان الشيوخ في طريقهم لاستعادة المجد المثلوم، والامور تجري كما يشتهون.. وان الفلاحين في حالة دفاع عن النفس.. والدائرة تضيق حولهم شيئا فشيئاً: لان اجهزة السلطة في اللواء تقف كلية الى جانب الشيوخ.. وبوسعي التأكيد - أعتماداً على معلومات الشيخ- ان الجمهورية محاصرة الآن في وزارة الدفاع وحسب، ويذهب هلال الصلال الى ابعد من ذلك..

قال صالح لابن اخيه، وهما في الطريق الى قرية الشيوخ:

-شفت هذا جيرانك عودة الكبر اشلون يخنزر علينا من ركبنا؟ چنه عيون ذيب والعياذ باللّه!

-هذا عود ايراقبني -اللّه ايچرم!!- لكن اشحدّه ولا جدّه يگدر عليّ..

ويومه جريب انشا اللّه.. اعلمه على هاي المراقبة!.

لذعته كلمة "مراقبة" تخيل رقيباً يحصى عليه افعاله.. تذكر رواية حمزة لمحتويات المقال الذي كتبه فاضل، تعرض خلاله لصالح أبو البينه على نحو عابث: كيف يجيء بالطلي الصغير ويأخذ مكانه خروفاً من غنم الشيوخ – هكذا رواها حمزة– شياطين.. ادركوا نصف العملية بالحدس والتخمين.. وذكروها على سبيل المزاح.. فلو امسك أحدهم طرف خيط.. لفضح كل شيء.. ملاعين.. ومع أنها دعابة –مجرد دعابة كما يؤكد حمزة– ولكنه أمر سيء للغاية ان يتردد اسمي في البترا.. حسبت أن رحيلي المفاجئ الى الهور وانقطاعي عنهم، قد أسدل ستار النسيان على اسمي وعلى غنم الشيوخ.. في قلب الهور ولم اتخلص من ألسنتهم.. في قلب الهور فعلاً.. يا الهي ماذا لو فاضت دجلة واجتاحت الهور موجة فيضان.. ورحلوا على عجل ولا يعلمون أين أخبئ النقود؟.. يا للكارثة.. تسارعت دقات قلبه. تصبب العرق من جبهته توجه الى داود وسأله:

–گلي هم سمعان بالشط زايد؟

–وين اكو زيادة هسه.. الشط خالي..

صحيح. ان بيننا وبين الفيضان حوالي شهرين. فأي شيطان دفع بفكرة الفيضان الى ذهني وخلع قلبي؟!

قبل كف الشيخ مرتين ثم وضعها على جبهته، وجلس على الارض في مواجهة الشيخ. أنتظر داود ان يصدر الشيخ أمره لصالح بالجلوس على الكرسي... بيد ان الشيخ ظل ساهماً.. يحدق في عناقيد الثريا البلورية. تجرأ داود وأمر عمه:

-أكعد على هذا السكملي عمي..

اجابه صالح بمسكنة:

-لابويه.. هذا خوش أمچيّن.. أهناه اروح لي..

لم يخرج الشيخ عن صمته. طال انتظار صالح للسؤال. او الاستجواب. بدأت الكلمات تتبعثر.. ويرصفها ثانية في ذهنه: "محفوظ اللّه يطول عمرك.. صاب الغنم "وبا" اللّه يعيذك- معلومك غنم عذيه اربات ديره وانكرت الهور" والآن تجيء مشكلة العلف.. اشتريت خمس تغارات.. لا .. سبعة..

اجتر العبارات أكثر من مرة. أسعفه فكره، في لحظة معينة، فنمق بعض التراكيب المقنعة. لكنها سرعان ما قفزت من ذهنه كالارانب المذعورة.. وكلما طال انتظاره للاستجواب، تهاوت العبارات فوق بعضها، وضاع جهد التنسيق عبثاً: لعله يفكر بقضية السرقات المزعومة؟ ربما اكتشف بعضها.. أو سعى اليه بعض "المريبحانيه" الذين اشتروا الغنم.. ومن يدري.. فربما..

التفت الشيخ الى داود يسأله:

-توكف السيارات ورا الكنطرة ويجون مشي؟

-بعيدة عليهم امحفوظ.

-الاحسن نتشاوف اهناك.. چن احنا رايحين للكاوليات

-ايه امحفوظ..

صمت الشيخ. ثم عاود النظر الى سقف الصالون والثريا، بدا وكأنه يعد أقراطها البلورية، لم يعد صالح قادراً على الانتظار، بلع ريقه، وبسط كفيه قبل ان يتكلم:

-محفوظ اشتامر؟! أمودي خادمك داود عليّ؟

-هاه..؟

-اشتامر.. اجيت حسب وصيتك..

-ايه..

-محفوظ مستعجل.. خدامك ما عليهم اعتماد بالنطاره واحنا نازلين بمچان مخطور.. لازم أمشي..

-لا.

-چا اشلون امحفوظ.. اللّه يطول عمرك؟

-انتظر.

-محفوظ ما..

-انتظر.

غمز داود لعمه، وقال:

- إبقَ عمي ما دام الشيخ آمر.

انسل من الصالون بهدوء، كأنه يتلمس طريقه وسط ظلمة حالكة. التقط حذاءه من الممر. دفع الباب الخارجي فلم ينفتح. سحبه فلم ينفتح.. هزه بقوة فلم يتحرك: "وين ما أروح مسدودة بوجهي!".

وقف يفكر بطريقة للخلاص.. خشى ان يتهمه الشيخ بالتلصص واستراق السمع: وكأن أمور الكاوليات تعنيه كثيراً!! ولابد أنه على اعتقاد راسخ بحصانة أسراره عند داود؟! بوسعي أن أشتري جميع أسرارك بدينار واحد.

مد رأسه من الباب. سبقته لحيته. نادى على أبن أخيه:

- داود تعال فك لي الباب ما أعرف له!

غادر القصر يحمل حذاءه بيده، ويهمهم:

- آنه وين وهالطراجيع وين؟!

طلب من أحد الخدام أن يسبقه الى حوش العائلة، بغية السلام على "الشيخية" أم ضاري. اعاد تركيب الكلمات التي تبعثرت بمحضر الشيخ: ربما تسألني بدقتها المعهودة.. "مرصوصة..ما اتطير طيرها بضباب.. اللّه يعيني عليها.. ويثولها مثل ذيج المرّة..!".

استقبلته بفتور، لم يبلغ حد الجفوة، بدت زاهدة في حديث الغنم. سألها عن الشيخ الكبير، زوجها، فأجابت أنه فضل الاقامة في بيروت ريثما تنجلي الغمة. أدرك صالح من ثنايا حديثها، أنهم ربما يبيعون عددا محدوداً من الغنم.. وألمحت الى ان السبب هو تجميد أرصدتهم في البنوك وثمة أمور تحتاج للأنفاق.. وكل شيء يهون من أجل الكرامة: كان يحلو لها استعراض الغنم في فصل الربيع، فيؤتى بالغنم الى الحوش.. تخطر بينها بخفة وحيوية.. تحمل "طلية" جميلة على صدرها.. أو تمسح رأس خروف مهيب..تأمر بتعليق جرس لهذه او تلك.. وصنع "ركّاب" للشگرا و"تميمه للچحلا" –دنيا– بلابوش دنيا!.

لا زالت اتذكرها.. تستزيد من حكاياتي عن الطليان.. وتستمرئ الحديث عن الخرفان.. والان تلفظ عبارة "البيع" بلا مبالاة.. صدق القائل: "لو جاك السيل حط اوليدك حدرك!" وعلى أية حال، فلا أشك في ان البيع يشمل "الاعواد والحيّل" ومع ذلك ففي الحركة بركة.. واحصل من وراء البيع على "لطعة" ولم لا؟ "الگيار.. والگيار هم يلحس ايده!".

* * *

تراءى له مضيف الشيوخ مثل مقام سيد سراب ايام الحصاد، مهملاً مهجوراً، لا يؤمه زائر الا مصادفة والغبار في زواياه مثل الكآبة على وجه الشيخية، أم ضاري، وقد تراخت حباله وتهدل نسيجه، وكأن تجاعيد الشيخوخة وهزال المرض هي التي تشوه منظره، كان شامخاً مثل الصقر على مرتقاه.

وجاء الشيخ ضاري، قبيل غروب الشمس، فدخل المضيف كما يدخل الغريب، على استحياء، ونهض صالح ومعه ثلاثة كهول، هم مجموع رواد المضيف. تذكر ايام زمان: مرة في مثل هذا الوقت من العام الماضي.. حشرت نفسي بصعوبة لشدة ازدحام الديوان.. وثمة عشرات ينتظرونه على باب حديقة القصر.

لما خرج الشيخ ضاري من القصر.. استقبله عشرات من الجالسين في المضيف وانضموا الى الواقفين الاوائل.. فتشكلت حلقة واسعة خارج المضيف.. وتدافعوا حوله كما تتدافع الغنم ساعة العلف- بلابوش دنيا!

وبعد مغرب الشمس بقليل، ذهب الشيخ الى قصره، وانسل الكهول الى بيوتهم، الواحد تلو الآخر.. وتركه الگهوچي وحيدا، فبدا المضيف موحشاً مظلماً.. لا يؤثر في ظلمته شعاع الفانوس الباهت:.. وكان في كل عمود مصباح كهربائي تتحاشاه العين لحدة ضوئه.

"يادارهم چنتي زهيّة.. وچانت فوانيسچ مضيه..! دخيلك يا ربي من العاقبة الموزينة!"

وضع "العبد" بين يديه طبقا فيه ثلاثة اقراص خبز، وصحن مرق. وكان على كتفه "يزار" رماه بجانب صالح وقال:

-لو خلصت أشاك هط الطبگ بالكوسر..وطف الفانوس ونام.. آنه ما اجي بأد..

خاطبه صالح في سره:

-"برد حيلك يا أدبس.. دگيت الگهوة بدارهم.. اليتصابح بوجهك ما يشوف خير..!"

تذكر صالح فرسه.. فنادى العبد متوسلا:

-يا عمي فدوه لهالوجه المبروك، هلبت اتجيب عليجة للفرس؟!

رد العبد وهو يغادر المضيف:

-سدو باب الهوش ماكو شئير بأد!

(برد حيلك يا اطس يا أملس.. هيه هم انسدت على عينك.. مصباح الارنب ولا مصباحك!)

شغله أمر الفرس -فكر بالذهاب الى بيت احد معارفه في القرية ليستجدي لها شعيراً. ثم عدل عن رأيه:

لست بحاجة للقيل والقال.

اكتفى برغيفين لنفسه، وأطعمها الثالث:

لعل هذا هو السبب الذي حمل داود على إعادة فرسه لأهله مفضلا الرجوع الى قرية الشيوخ والعودة لاهله راجلا- في صبيحة غد.

أطفأ الفانوس وتمدد فوق سجادة عتيقة، بعد ان لف جسمه بالإزار.

وجد نفسه محاطاً بجيش لايعد ولا يحصى.. صوبوا بنادقهم نحوه.. تقدم مأمور المركز وصاح:

هذا صالح بن احميد.. وصاح آخر: وهذا مهيدي بن صالح، ودفعوا

مهيدي الى جانبه. قال مأمور مركز آخر: هاتوا حبل كنبار نشنق به "مهيدي ومن بعده "صالح"!! قال مأمور المركز الاول: شتگول شيخ ضاري؟ أشار الشيخ بإصبعه الى "خلف اليميلي" -بياع شراي الغنم- ثم سأله:

- شتگول بخلف اليميلي.. صداگ يو چذاب؟
- يامحفوظ.. خوش ولد.. صداگ اليميلي.. الحچي للبخت..
- اشكثر بعتوا عليه من غنم الشيوخ؟
- يامحفوظ لا. يا محفوظ ايه. محفوظ لا.

صاح مأمور مركز:

-شيخ ضاري لا تتعب روحك.. هسه اجيب الغنم تشهد..

أشار مأمور المركز اشارة موجهة الى السماء.. فانفرج طوق الجنود وجاءت الغنم تتقدمها الشگرا - ام جرس- رفعت يدها، فكان لها -بقدرة الباري- كف انسان، جمعت السبابة والابهام وحركت يدها قرب لحية صالح وقالت بصوت جهوري واضح "بن".

ذعر صالح. استيقظ مرعوبا. استعاذ بالله من هذا الحلم المفزع. فطن الى عبث الرياح الشرقية العاتية بالمضيف. سمع الحبال تعول.. واطراف المضيف تخفق مثل جناحين كسيرين.. تلفع بيشماغه وجلس في باب المضيف. رأى الغيوم تزحف، لم يعد للنجوم أثر يستدل به على الوقت. ساوره خوف على مصير فرسه. أسرع يقتادها الى "رفة" المضيف: وفي الصباح الباكر انظف المكان من الروث.. لاتحتمل هذا البرد مع الجوع.. ولكن ما الحيلة؟ لو تسللت الى مرابط خيل الشيوخ لعثرت على شيء تأكله.

كان عليّ ان اقوم بهذا قبل العشاء.. أما الان.. فالحارس لا يرحم وطلقة في هذا الظلام الدامس "واروح بوله بهوره!".

عصفت الرياح بقوة، فارتج المضيف وتمايلت اعمدته، كأنها في الغابة – لما تقطع بعد– تذكر بيته والغنم: انها نفس العاصفة..اجتازت الهور وجاءت تلاحقني! ربما ختل كل واحد في زاويته... متواكلين خائفين.. واذا تحركت الغنم اكتسحتها العاصفة.. حدث شيء مثل هذا للوحيلي قبل سنوات.. واذا لم يتعاونوا رجالاً ونساء على احكام مرابط البيوت والوقوف بأطراف الغنم ستقع الكارثة –والستار اللّه–.

انخلع اقرب عمود من مكانه، سقط غير بعيد من وسادته، هب مذعوراً متشائماً: "منيه واللّه شگفها" لو كانت وسادتي مقدار ذراع ابعد "چان رحت لا بزگطة ولا بتعنفصه!".

تحسس مكان العمود، خلال الظلمة. أعاده الى موضعه. سرعان ما تمايل العمود منذراً بالسقوط مرة اخرى: اذا لم تحكم الحبال انهار المضيف "المهجوم" على رأسي.. لابد من شخص يعاونني.

شد حزامه، تلثم جيدا. لف جسمه بعباءته، وخرج لينادي الحارس. كان الظلام حالكاً في الخارج واسلاك التلفون والكهرباء ترسل أصواتاً اشبه بعويل الثكالى: ليست بهم حاجة للمضيف لا حارس ولا بطيخ.. ولا مفر من القيام بالعمل..

شرع يشد الحبال، ومغالبة الريح المعاندة، التي عبثت بعباءته وزبونه. استشعر الوحدة، كأنه في صحراء موحشة، لمع ضوء سيارة على الطريق العام: رجع الآن من الكاوليات!! ما الذي يهمه؟ هل يركب فرساً مثل فرسي

الجائعة؟ انطفأ ضوء السيارة. لمح من بعيد ضوء آخر.. كان يراقبه، كلما احكم واحدا من حبال المضيف انطفأ الضوء الثاني قرب مكان الضوء الاول: لو كانت الكاولية بغيته لاحضرها الى قصره.. مثل أيام زمان! ولكنه قال لداود "چن احنا رايحين للكاوليات.. هذا يعني اتخاذ الكاولية ستارا لشيء ما. لا يعنيني الشيء الذي يقصدونه "نعلة ابو الجوگ من تحت ليفوگ" المهم ان اعرف ماذا يريد.. وأن تنتهي هذه الزوبعة "والله يستر على أهلي والغنم بهالليلة الگشرا".

سمع شيئاً كأن جسماً ثقيلاً يسقط في باب المضيف. أجفلت الفرس. ركض الى باب المضيف. رأى شبح سيارة يدب على مهل.. وتبعتها اخرى: بلا مصابيح؟ ما معنى هذا؟ "دس ووس الله يكفيني شر هالملاعيب!"

تكور في مكانه عند الباب، يرقب السيارات.. توهم أنها كثيرة.. سمع فرقعة باب الحديقة.. وأبواب السيارات تغلق بعناية .

جافاه النوم تماماً. جلس في مكان الگهوچي.. احتضن الرماد الدافئ.. راح يلف ويدخن مشتت الذهن. بدا المضيف بظلمته الحالكة، وتقصف أطرافه يوحي بكل شيء الا الطمأنينة..

سمع محرك سيارة يدور.. ومحركاً آخر -زحف الى الباب مرة اخرى. رأى شبح السيارة يدب عائدا من حيث أتى: لا نهاية لهذه المخاوف أبدا. وكل ما يدور حولي نسيج شباك -يلتف حول عنقي -كائنة ما كانت النتائج -الضحية انا- ان فشلت ملاعيبه مسحوا به الارض واستولوا على الغنم. وان نجح - كما يقول داود- تعرضت لحساب منكر ونكير- يا الهي اريدك ان تكون بجانبي.. لا أستطيع الوقوف بمفردي لمصارعة هذا العالم المتآمر

في الظلام..

منحه نور الفجر شيئا من الطمأنينة. اقتاد فرسه الى مربطها الاول، جمع الروث الذي خلفته، وألقاه بعيداً، ثم جلس ينتظر الگهوچي.

أدهشه استدعاء الشيخ له قبل طلوع الشمس: كان ينام الى الظهر.. مرة تغديت مبكرا وجئت لمواجهته فقيل لي لم يستيقظ الشيخ بعد! والان يدعوني قبل طلوع الشمس والفطور بين يديه؟!

– اتريگ وياي..

– طال عمرك محفوظ..

وتعثرت اللقمة في زردومه، رغم نعومتها خبز حنطة "جنّه اذان صخول" وزبد وعسل.. لاينقطع خيطه الملعون –رفع اللقمة عاليا.. ولم ينقطع خيط العسل الرفيع. مد كفه الثانية فالتف عليها خيط العسل "طلعت زغنبوت" لطع كفه على استيحاء. وضع اللقمة في فمه فتشبث طرف العسل بلحيته: "المايعرف البخور يحترج صرمه!" أما هذا فلا يشبه لحم الغنم.. قال مرة – أنهم يأكلون لحم الخنزير تشبهاً بالانگليز. فليكن لحم أفاعي. آه لو يتكلم ويحررني من كابوس الانتظار والقلق.. "اسجيك يا كمّون"!.

وضع الشيخ، استكان الشاي، جانباً وقال:

– صالح.

– عونك امحفوظ..

– ولو الشياه عزيزات عليك.. لكن مع الاسف، مجبورين على بيعتهن كلهن..

(أمن أجل هذا طلبتني؟ وتشفع الطلب بالاسف! لابد ان اللّه وقف

بجانبي فعلا.)

- محفوظ آنه والغنم واولادي وكل عيالي فدوه الك (أقسم بشرفي أنك منافق.. وتهبّل الفرصة لتضرب ضربتك يا ديّوس!).

-أشكرك. هسه المهم بيعة الغنم كلها..

-محفوظ گول. وآنه حاضر.

- لازم بيومين او ثلاثة تنباع كل غنم الشيوخ.

- لكن يا امحفوظ الغنم ضعيفة هسه.. ذاك اليوم خادمك جلب اشچم راس انباع الجوز بعشرة.. واحنا استخيرناهن حايلات.. اسمان..

- ما يهم. بيش ما چان لازم تبيع.

- محفوظ ما اظن تنباع النعجة هيه وطليها -شي على شي ازود من سبع دنانير.

- لا تطول الحچي. گتلك بيع بيش ما چان.

- محفوظ آنه عندي فليسات.. واگدر اتگرض من صدگاني.. وابيع الاعواد والحيّل والطليان الهرافي واشتري من غنم الشيوخ مثل ما يدفع البياع شراي.. خاف يصير بخاطرك شي؟

- گتلك يا صالح- المهم بيعة الغنم- عسى تشتريها انت او يشتريها الگصاب.

* * *

شعر أن صدره لا يتسع لفيض السعادة. وربما ناءت بحمله الفرس: لا تدري فرسي أي شيء حدث في هذا العالم؟ أتدرين من يعتلي ظهرك؟! انه اسعد انسان في الوجود. هل تحسبينها سفرة اعتيادية؟ وربما تتعثرين في

مشيتك؟ لو كان بمقدوري افهامك.. بأن لا معنى للعثرة.. ولا معنى لأي طارئ يعرقل المهمة..ولا معنى للموت ابداً! أتدرين يا فرسي الحبيبة كل الغنم صارت لي وحدي -لا شريك لي بعد اليوم. لا تمييز ولا تفريق كلها غنم صالح ابن حميد.. "والنعم والثلث تنعام.. ابوك يامهيدي.. بكد ذراعه.. اليتعب يلعب!"

انحرف عن جادة مويلحة: ربما لمحني داود.. وله افكار سخيفة وغريبة - لايحزرها المرء.. فقد يدفعه حرصه على أموال "شيوخه" الى مرافقتي ويتدخل في العد والسعر.. ويبدي اعتراضاته السمجة "ابو المال ايبيع والدلال ما يرضى!"

بدأ رذاذ المطر، من حين لآخر، يبلل الجزء الظاهر من وجهه: ان المطر في هذه الايام يضمن ربيعاً مبكراً، ولكن الوصول الى البيت أهم. الهي "الاحسان بالتمام" احبس المطر هذا اليوم. حتى الخير اذا تعددت مصادره سبب بعض المتاعب وتعارضت نتائجه "الهي كمّل جودتك لا تخلي بيها "ان"..!"


الفصل الثاني

التفت "صالح" الى الوراء، وقدر ان الشمس لما تغرب بعد، رغم كثافة السحب، وتزايد العتمة، فامتدح فطنته ودقة تخمينه: قلت سوف اصل بيتي قبل مغرب الشمس مع اني لم اخذ بالحسبان رذاذ المطر المتقطع.. فحمدا للّه على مساعدته.

أشفق على أهل بيته، حين رآهم يصارعون الغنم، ساعة توزيع العلف على"المطافيل فقال بأريحية ، تنتابه من حين لآخر: لابد لي من رفع مستوى معيشتهم.. في المأكل والملبس.. اذا صارت الأمور صعدا مثل بدايتها.. ولا مفر من معاملتهم برفق ابتداء من هذه الليلة..

خلص رجله اليمنى من "ركاب السرج بخفة، وقفز إلى الأرض بحيوية، رغم طول المسافة التي قطعها دون توقف. .

استسلم "مهيدي" لليأس مثل راكب مهرة "عزوم" جمحت بأقصى طاقتها، وعدت مسرعة.. فافلت من يده العنان، ولم يعد بمقدوره عمل شيء الا التشبث بعرفها، منتظرا السقوط في أي لحظة- حين رأى والده يتجه نحوه..

كف"جنيدي" عن صب الشعير في المعالف، وراح ينظر الى أبيه بطرف عين واحدة.. متحاشيا مواجهته وقال لنفسه بذهول: سيدوّي انفجار هائل يزلزل أركان البيت اذا عرج الآن على مخبأ النقود واكتشف أثار العبث..

تناولت"هدية" طرف اللجام من يده وحيته:

- اللّه يجويك بوية..

- هلا بوية هلا.. ميت هلا بوية هلا..

اقترب من زوجة مهيدي، وهي تلوح بعصا طويلة، لتصد "المطافيل" من

غنم الشيوخ عن المعالف، تنفيذا لوصية أذاعها بينهم في بدء موسم العلف:"غنم الشيوخ اسمان ما تحتاز علف.. بس الواجعة كلش، اعلفوها".

فأمرها بلهوجة، وكأنه يردد أهزوجة:

-ابعدي عنهن.. ابعدي عنهن.. كلهن سوا.. ماكو فرگ كلهن سوا..!

وشق طريقه بعناد، وسط الغنم المكردسة حول المعالف. توقف بالقرب من نعجة شقراء، ولدت توأمين في غيابه. رفع صوته مبتهجا بعد ان تلمس التوأمين:

– صلوات..صلوات.. اثنيهن ابهام.. فال خير ..فال خير..

عجبت زوجته من سروره، لان النعجة من غنم الشيوخ وليست من شياهه.

رجع "صالح" ليلقي نظرة على الشعير في المعالف. ضحك عاليا، مثل طفل تدغدغه امه، حين رأى ولده "مهيدي" يدفع نعجة عنيدة بخمول وقال له مداعبا:

– بن! غبت عنكم يومين.. صايرين چنكم صخول ممطورة! حسبالكم صالح ينسد مچانه؟! انا اخو نايفة.. لايزليمات!!

كشف "مهيدي" عن أسنان مصفرة، متصنعا ابتسامة، فيما كانت قسمات وجهه تنبئ بالذعر والكآبة. أحس تخشب لسانه، فقرر مواصلة السكوت.. ثم سأل نفسه بذهول: كيف السبيل الى مواجهة استجوابه الصارم بعد قليل؟.

تجرأت زوجة صالح فتبعته، حين تأكدت من عزمه على مواصلة التجوال بين الغنم، أمسكته من ذراعه، وقالت بلهجة أمر:

- تعال للبيت..تعال هدومك تنگط ماي، وما فاطن لروحك..

طاوعها بامتنان ظاهر، ورمقها بنظرة ود، قبل ان يتقدمها الى البيت.

فكر، وهو يخلع ملابسه، بالطريقة التي يعلن بها النبأ العظيم. لم يعد صدره كافيا لاحتواء الفرحة المتنامية. فضّل ان يذيع الخبر على مسمع ومرأى الجميع، ليغترف من فيض السعادة كل حسب حاجته!

عدل "جنيدي"، فجأة، عن إنكار محاولاته للبحث عن النقود. وقال لنفسه كمن يقرر الانتحار: لا فائدة من الإنكار.. فالتهمة محصورة بيني وبين مهيدي.. سوف اعترف حالما يسألني: نعم لقد حاولت ان اطلع على النقود.. كان إغراء تلك النزوة لا يقاوم..ولكنني - وأقسم بالعباس أبو فاضل- ما أضمرت سوء أبداً.. خطر لي ان اعد ثروتك المطمورة وحسب. بيد انه سبقني واستولى عليها.. تأكدت من ذلك بنفسي، حين استرقت السمع - مصادفة- الى مادار بينه وبين زوجته.

وحاور "مهيدي" نفسه: لقد دفعتني الملعونة في هاوية.. وتركتني اتخبط وسط الظلمات.. لا اعرف نهاية طريقي.. ولا مفر من الاعتراف ابدا، ليس بمقدوري ان اصمد أمام نظراته الحادة ولجاجته من الأسئلة. أُجمل اعترافي بعبارة واحدة: أخرجت تراب الحفرة فلم اجد شيئا.. كانت دوافعي حب الاستطلاع.. ولست أنكر أنها حماقة و.. حين التقت عيون الأخوين على ضوء النار، نهضت الشكوك على قدمين.. وقد ميز كل منهما الآخر ورعبه من خلال قسمات الوجه..

واختلاج الشفاه.

اختار "صالح" وقت العشاء موعدا لاعلان النبأ السار. أذاعه بنبرات

مسرحية.

حدق في وجه "جنيدي" أولا، ثم في وجه" مهيدي" فلم يلحظ أثرا للفرح. قال لنفسه: متخلفون عن مسايرتي في إدراك أهمية الخبر ومغزى نتائجه.. لابد ان المفاجئة أذهلتهم وعقدت السنتهم فحالت بينهم وبين التعبير عن الفرح وإبداء الملاحظات وطرح الاسئلة.. نقل عينيه بين وجوه النساء، فتأكد من اندهاشهن بالخبر. انتظر ولديه لبعض الوقت.. ثم زجرهم بصوت رقيق:

- اشمالكم ساچتين!! ولكم اضحكوا، اضحكوا.. افرحوا.. سولفوا،، ولكم هاي نعمة چبيرة.. هم صدگتوا يجي يوم ولن الشيوخ بايعين غنمهم كلها؟ واحنا نگدر نشتريها بفلوسنا؟ الف رحمة على روحك يحميّد يبوية.

هذا يوم فلوسك!!

باچر من الصبح اذبحوا خروف لوجه اللّه..

اصطنع (جنيدي) ضحكة باردة. حرّك لسانه يستعطف اللقمة ان تمضي في سبيلها.

أحس "مهيدي" بالطبيخ وكأنه تراب يلتصق بزردومه. فاستعان على لقمته بجرعة شنين..

شرع الأب يحدثهم بجد واهتمام ، فكشف لهم عن مشاريع المستقبل القريب:

- من عين باچر يصير وسم الغنم كله واحد.. شياهنة وسمهن شگة يمنى وگطفة يسرى وغنم الشيوخ چانت بس گطفة يسرى.. هسة سوولها شگة يمنى (الف رحمة على روحك يحميد يبوية)...! وعكب باچر "بسلامة"

اخذ الفلوس ....و.....

الفلوس؟

الفلوس!

أين هي الفلوس؟ تعسر مرور اللقمة في زردوم جنيدي.. فطن صالح الى إمارات الكآبة المرتسمة على وجه جنيدي ومهيدي، فتساءل بقلق: ان كانوا يخفون عنه شيئا محزنا، حدث في غيابه؟

انبرت زوجته، تبسمل وتذكر أسماء الأولياء، لتبعد الشر، وأكدت مع القسم ان كل شيء على مايرام.. وان هي الآ مظاهر التعب على وجه ولديها..

تساءل" صالح" مرة أخرى عن عدم احتفاء "جنيدي" بالخبر وهو المشاكس الذي لا يمل الأسئلة والجدل حول أتفه الأمور..

جمع "جنيدي" شتات عزيمته وقال:

– يابوية مادام انت امدبر الحسبة وامدسترها، حچينا لا يزود ولا اينگص..

ابتسم الاب مزهوا لهذا الإطراء وقال:

– ميخالف.. بوية ميخالف.. ولو امدبرّها.. لكن راي عن راي..

التفت، قبل ان يتم تعقيبه على أقوال جنيدي، وأمر ابنته بانشراح:

– هديّة بتّي السبّاعية.. سوي النا چاي زين. چاي زين..

البيت لم يألف الشاي في غير موعده الصباحي. لكن الظرف غير اعتيادي، وبسبب من ذلك، لم يتعب احد نفسه في البحث عن دوافع هذا الطلب المفاجيء..

شرب ثلاثة "استكانات" بتلذذ، وراقب أهل بيته، مبالغا في تصور استمتاعهم بشرب الشاي. بدأ وكأنه يريد استكمال أسباب السعادة للجميع. التفت الى ولديه وقال:

- انتم ناموا.. اخذوا راحتكم.. انه انطر عشونچي.. وانتم اثنينكم مصبحچيه.. الليلة ظلمة، كلش، مالازم نعتمد على ناطور واحد..

مد يده الى حفيدته" طفلة مهيدي" . تلمس خدها باطراف اصابعه وخاطبها مداعبا:

- هاه جدي..؟ چنج بزيزينة ناصبة على حفر فارة!!

* * *

استيقظ مبكرا. فطالعه نور الفجر. احس رغبة في الصلاة، فحاور نفسه: ليتني تعلمتها. لقد ماطلت السيد كثيرا.. على اية حال.. لازال في العمر متسع لتعلم الصلاة.

ثم شغله ثغاء الغنم في مراحها و"الطليان" الحبيسة في خيمتها:

الكل جائعة!!

باشر إصدار أوامره، كقائد فرقة منتصرة، فيما كان الولدان يتحركان بخمول وانكسار، صبغ الشحوب وجهيهما وقلص الخوف على شفتيهما.. وتجمعت كلمات الاعتراف بالذنب وراء الأسنان.. جاهزة للسقوط عند أول صرخة استجواب.

أمر ابنته وزوجة ابنه أن يرعيا الغنم، ولا يبتعدا عن البيت كثيرا. ويمسك (جنيدي) بندقيته. ليقف على بعد مناسب من البيت خشية حدوث أمر غير متوقع. ويقوم (مهيدي) بذبح الخروف وسلخه وتقطيعه. وتنصرف أم مهيدي

لتهيئة الغداء المبكر.

*　　　*　　　*

وضع (مهيدي) شفرة السكين على رقبة الخروف فارتجفت يداه. همست له زوجته:

- لا تجيب شبهه على روحك (خالي بلاش) صير رجّال!!

اعترف لها دونما حرج:

-ما اگدر اذبح الخروف.. أديّه يتراعشن.. و..

رمقته بنظرة ازدراء وأمرته بلهجة قاسية:

- اتنوّع خاف أحد ايشوفني.. وآنه اذبحه.. سودا بوجهي على ذيج الغسمه!!

أقام ظهره وتلفّت الى كل الاتجاهات ثم قال لها:

- ما كو احد يتنوع علينا.. ياللّه اذبحيه.. لكن حطّي لچ عصا.. بين رجليچ.. عن الحلال والحرام..

أهملت طلبه ثم أجابته، بصلافة معهودة، وهي تفرّق الصوف عن رقبة الخروف:

- چا ما نفعك البين رجليك..؟!

حاول ان يتكلم فأفلتت من يده رجل الخروف.

نهرته قائلة:

- الزم لي الخروف زين، لا تفضحنا.. لا تفضحنا!

حركت شفرة السجين بسرعة، على رقبة الخروف، صعودا وهبوطا.. فشخب الدم بغزارة.. وارتفع شخير الخروف، حين بلغت الشفرة فقرة من

رقبته، أتمت ذلك في ثوان معدودات..

اهتز الخروف بقوة وهو يصارع الموت فاختل توازن (مهيدي)وسقط على اليته مقعياً. لايستطيع تعديل مجلسه وقد أرعبه منظر الدم المتدفق.

رمقته زوجته بأستهانة، ثم ألقت السكين بين يديه دون ان تكلمه وغادرته مسرعة لتلحق بـ(هديّة) التي سبقتها الى المرعى تتقدم الغنم.

سمع (مهيدي) فرقعة داخل الربعة.. فتوهّم ان الأب يحشو بندقيته، استعدادا للتهديد. كف عن سلخ الخروف وذهب الى خيمته الصغيرة. حاول ان يتحرك داخلها ذهابا وإيابا، كانت باحتها صغيرة لا تكفي لمثل هذه الحركة. ساءل نفسه، وقد تجمد وسط خيمته: والآن ما الذي اصنعه في مثل هذه الحالة؟ لا شيء سوى الهرب. فقد يطيش اصبعه ويضغط على الزناد.

تناهت الى سمعه خشخشة الزجاج. فأرهف السمع..مد عنقه من باب الخيمة. فتوضح له الصوت:

انه يكسر زجاجة –على عادته حين يستخرج النقود–لابد انه يخفي زجاجات في مكان آخر.. لم يهتد إليها جنيدي..حاول الاقتراب من الربعة، لمعرفة ما يجري، وسرعان ما سخف الفكرة وعاد الى الخروف مسرعاً: لو رآني أتلصص.. واكتشف المسروق فيما بعد.. لاتخذ من ذلك قرينة ضدي..

وطال انتظار (جنيدي) لسماع دوي الانفجار.. او حدوث الزلزال فأعاد ترتيب خططه مع نفسه: لو ركب رأسه وحصر الاتهام بي وحدي.. وافلت (مهيدي) سالماً بريئاً أجدني مضطراً لاستعمال بندقيتي لوضع الامور في نصابها الصحيح. احمل (مهيدي) على الاعتراف بالقوة..

اقترب من الخيمة الكبيرة، وبين شفتيه سيكارة لم تشعل: لو سألني.. أقول جئت اشعل سيكارتي من الموقد..

قطع أنفاسه وتجمّد في مكانه ليستوثق مما يسمع: أنه يكسّر زجاجا.. لقد توقعت ان يوزع نقوده في أماكن متعددة..

خرج الأب من الربعة، ولوح لولديه، بعد اعتكاف ساعة، ونادى كالمستغيث:

–تعالوا.. تعالوا عاونوني..

بهرتهما النقود، مصنّفة، كل فئة على حدة.

أمرهما بجمع الزجاج المبعثر أولا.. وراح يلف سيكارة، متصنعاً عدم النظر الى أكوام الدنانير..

وما ان التقطا آخر شظية على الأرض، حتى أشار بإصبعه إلى مكان الحفرة في كوسر البيت وقال:

– أكو نگرة عتيجة بالكوسر، زيحوا اترابها وادفنوا بيها الجزاز..

حمل (جنيدي) شظايا الزجاج، وكان (مهيدي) قد سبقه الى مكان الحفرة وبدأ يفرغ ترابها: يا الهي أنها نفس الحفرة الملعونة. ود كل منهما لو يقبل أخاه ويلتمس عفوه..

بدأ الثلاثة يعدون النقود.. وأخيرا خص الأب (جنيدي) بالسؤال عن الثمن الكلي لغنم الشيوخ "الاكبار" وثمن شياه "الشيخية"، أم ضاري، وثمن شياه زوجة ضاري.

وحين وجد نقوده المهيأة تقل مائتي دينار عن الثمن الكلي، قال لولده بنبرة موحية:

–؟ گول.. خمسين راس هم ماتن. عشرة من شياه الشيخية. وعشرة من

مرة ضاري.. وثلاثين من غنم الشيوخ واحسب احسابك!!

*　*　*

شغل صالح بالكيفية التي يحمل بها المبلغ الضخم ويجتاز الطريق الموحش. استعاد صورة الدرب، من أعماق (هور المصندگ) الى قرية الشيوخ، واستذكر كل علامة صادفته في رحلته.. أخطرها تلك المفازة التي يتوسطها شط الدجيلة القديم.. لئن رافقني (مهيدي) للحراسة فكأنني اصطحب (هدية) وربما هي اربط جأشاً ساعة اللزوم. انه لا يحزم الظهر — اذا جد الجد— اما ذاك الملعون (جنيدي) فهو شجاع يركن الى بسالته ورجولته.. لكنه سيعرج حتما على بيت "عبيد المنتاز" ويرى خطيبته.. وبنظرة.. وهمسة.. يورق بعد جفاف ذاك الذي يسمونه "الحب!".. وكل ما أريده أن ينساها.. ويبقى بجانبي في هذه الأيام العصيبة. فأي الشرين أهون يا صالح يا اثول يا ابن الغبرا!!؟!

من الخير لي أن اعتمد على نفسي.. أتقلد مسدس جنيدي.. ويصحبني مهدي "حديده عن الطنطل" يحمل بندقيته "للهيبة!" وفي ساعة "اللزوم" أستعملها بنفسي.

جاهر صالح بأفكاره.. وقال لأهل بيته عشاء:

– باچر (بخير وسلامة) نغبش آنا ومهيدي.. دير بالك يجنيدي.. صير نشمي.. لا ننغلب.

*　*　*

ما أن أشرقت الشمس، حتى كان (صالح) ينتصب فوق ظهر فرسه، وقد انتفخ صدره واحدودب ظهره بحزم الدنانير التي وضعها بين ثوبه وجلده.

وتبعه مهيدي راجلا، مهرولا، متنكباً بندقيته المحشوة بـ"مشط" والمهيأة لكل طارئ.

وحين عبرا شط الدجيلة القديم، كانت الشمس تتوسط السماء فأطمأن صالح بعد اجتيازه ذلك المكان، وأحس جوعاً شديداً.

قال لولده كالمستشير:

- شتگول يا مهيدي هذا خوش مچان.. نتغدا اهناه..

ثم ترجّل قبل ان يجيب ولده.

سارع مهيدي يحل بطان الخرج.. وقد تحلّب ريقه لرائحة لحم الخروف المشوي. بسط قطعة القماش ونشر فوقها شرائح اللحم ووضع أرغفة الخبز على الأرض.. فيما كان (صالح) يضع "العليجة" المملوءة بالشعير في رأس الفرس. أكلا ما بين أيديهما من لحم وخبز دون ان يكلم احدهما الآخر. نفض الأب قطعة القماش من فتات اللحم وبقايا الرماد.. ووضعها في جيب معطفه، ثم اخرج كيس التبغ وشرع يلف على مهل.. وقبل ان يضع السيكارة في مشربه الخشبي كان مهيدي قد أتى على نصف سيكارته يلتهم الدخان بنهم.. حاول ان يتذكر رقم الدنانير التي يحملها أبوه والتي عني (جنيدي) بعدها وتفريقها ثلاث مجموعات: قيمة غنم الشيوخ على حدة، وهو المبلغ الاكبر.. ومجموعتين متساويتين، تقريباً، من الدنانير احدهما لأم الشيخ والثانية لزوجته: تسعة آلاف.. ربما عشرة آلاف.. بدا له مبلغ العشرة ألاف دينار أشبه بالأساطير التي طالما سمعها عن الكنوز المحروسة بالجن.

اقتحمت ذاكرته دون مناسبة جريمة صگبان بن حسين الذي أغراه الألف

دونم –ميراث أبيه– فأغتاله.. تأكدت للناس جريمة الابن ولكن أسباب الإدانة لم تتجمع ضده بالنسبة للمحكمة فاكتفت بسجنه سبع سنوات.. وحالما غادر السجن اغتاله أخوه.. يا لها من جرائم بشعة.

فرك عقب السيكارة بين أصابعه فلذعته النار بشدة.. ونهض على عجل وقال لأبيه وهو يتوجه نحو الفرس:

– اذب عليجتها.. حتى نتيسر..

* * *

بلغا قصر الشيوخ قبل مغرب الشمس بقليل.

فسمح لصالح بمقابلة الشيخ، حالما طلب الاذن، فوجده متوتر الأعصاب، قسمات وجه حادة تنذر بالشر فتشاءم صالح، وحاور نفسه: لم تكن مأثوراتهم عبثاً فقد قالوا "صابح المير ولا تماسيه" وها انا اختار المساء بالذات.. "اللّه يستر من تاليها.. اليوم يگطف الچلب بالعميته!".

كان صالح قد رتب في ذهنه بعض العبارات الضرورية يقدم بها المبلغ: اعتبر الغنم كما كانت هي غنم الشيوخ.. واعتبرني واهل بيتي من ممتلكات الشيوخ و...

وجد نفسه اعجز من ان يقول عبارة واحدة والشيخ في مثل هذا المزاج السيئ. اخرج لفّات الدنانير من صدره.. ونهض ثم رفع يديه الى أعلى.. أمال جذعه جانباً وقام بحركات كأنه راكب جمل مسرع لتتحرك لفة الدنانير الكبيرة المحصورة بين ثوبه وظهره.. فأستاء الشيخ من حركاته.. لكنه كتم غضبه..

وضع صالح أمام الشيخ ثلاث لفات وقال:

-محفوظ هذا ثمن غنم الشيوخ..

وهذا غنم الشيخية..

وهذا مال "مرة الشيخ"..

فزجره الشيخ بقسوة:

- گوم! حلگك جايف. امسويها مثل صراير العطار.. هذا مال مرة الشيخ..

ذب الفلوس وولّي.

* * *

ود (صالح) لو يغادر مضيف الشيوخ في عتمة المساء، ويمضي ليلته عند داود -في قرية مويلحة- لكن (مهيدي) بدا مجهدا، غير قادر على المشي.

وضع رأسه على الوسادة، بعد طرد الوساوس التي ألمت به. وقال

- جنيدي ما ينغلب بالنطاره -والناطور اللّه-..

فأجابه مهيدي بفم يملؤه النعاس:

-على ما عدّيت!

صحى مبكرا، فأيقظ ولده:

-أگعد.. أگعد..

نمشي نتريك عد بيت داود. احسن ما انظل نربي اهناه مثل گوّام ابو الذر.. هالمهجوم يخلس من البرد والوحشة!

حين وصلا بيت داود لاحظ (صالح) علائم التطيّر على وجه ابن أخيه.. وقد تدرع بحزام العتاد، والبندقية الى جانبه. ثم فطن الى مهرة داود

مسرجة ملجمة.

-اشعندك يداود؟ اشوفك مزور وجاعد على ريبه؟!

-هيچ ماكوشي..

- گول.. گول. بروح ابوك.

آنه ما يخفي عليّ شي.

قرّب رأسه من عمه وقال هامساً:

-ثورة.. ثورة..

استاء صالح من لفظ "ثورة" وحاور نفسه: في كل يوم ثورة.. هل جاء دور المختار ليقتل على يد ثائر جديد؟! ولابد أنها باسم الشعب كذلك!

وسأل أبن أخيه:

-شنهي من ثورة هاي؟

-هاي ثورتنا..

ازداد غمه وسأل نفسه قبل أن يسأل داود:

بالأمس ثورة الفلاحين واليوم ثورة داود.. وغداً ثورة السراكيل.. اما من ثورة للغنامة؟!!

-وهسه وين وصلت ثورتكم؟

-اللّه كريم.. بعدها موش كلش ناجحة.

تناهى إليهم صوت (عوده الكبر) مزمجراً:

-واللّه باللّه نذبح الرجعيين مثل الغنم.. يو ارواحنا يو ارواحهم.. ما منها چارة!

تلوّن وجه داود فجأة. استحال الى لون التراب. تعثّرت اللقمة في زردوم

"صالح ابو البينة"، وسأل ابن أخيه همسا:

-هذا شعنده يترابد؟

-هالمنعول والدين واجف لي عاثورة. صار لي سچينة خاصرة لكن انشاللّه باچر يو عگبه اخليّه يبول بالتنكه..

أحس صالح بحاجته للتبول، وأنه لا يحتمل البقاء أكثر من دقيقة، تناول الابريق وقصد الخلاء مسرعاً..

رأى خيالاً يطلق لفرسه العنان، من قرية (العلوه)، راقبه حتى ترجّل في بيت عودة الكبر: بعثت متاعبي من جديد "بعرس اليتيمه غاب الكمر!" يوم أصبحت الغنم كلها ملكي.. قرر داود أن يصنع ثورة!!

ويصرخ "ابن كبر" مهدداً متوعداً.. وها هو رسول الشؤم من قرية العلوة.. يتعين عليّ مغادرة "البترا" حالا ليس البقاء لصالحي "اليگعد يم الحداد لازم يلوحه شرار" وقد يعتبروني مساهماً في ثورة داود ويتساءلون: لماذا -اذن- جاء معه ولده.. والاثنان مسلحان؟ وتبدو التهمة في غاية الوجاهة:

-أظن نمشي أحسن؟

فأستحسن داود اقتراح عمه وأجاب:

-ايه احسن. روحوا ساعة گبل.. أخاف يحطّون بجيّتكم شي. لو صارت خرابيط (اللّه لايسوّي شي).

-عز اللّه امشي.. گبل ما يجبعونّي بعليجة فارغة.

-اتوكل على اللّه.. امش. وبعد اشچم يوم توصلك اخبارها وتفرح انشاللّه..

أعرض صالح عن كلام أبن أخيه. وحاور نفسه:

لقد ولّت أيام الفرح وأصبحت في "عرف هدهد" قلبي يحدثني بان أي خلل في هذا التوازن القائم بين الشيوخ وبين الفلاحين هو مجلبة لمتاعبي ومن يدري يا داود لعل يوم فرحك هو بداية أيام احزاني؟!

تشاءم (صالح)، اذ توافق خروجه من بيت داود في لحظة مغادرة فرحان بن سويلم لبيت عودة الكبر.

وأنها لمصادفة مزعجة ان يكون هو فارساً يتبعه ولده، بينما يقتفي آثاره (فرحان) على ظهر فرسه ويتبعه عودة الكبر راجلا!!

حالما وصل (عودة) اعاد (ملا نعمة) تلاوة الرسالة:

"٨ اذار ١٩٥٩

العزيز ابو سعد

تحية..

احسب ان ما يذاع من راديو بغداد يخفي أمرا خطيرا، فلا تسمحوا لعبارات التطمين بتخدير يقظتكم..

يجمل بنا التصرف حالا.. واقترح وضع المنظمة في الإنذار.. واستنفار كل الفلاحين الطيبين.. لتشكيل نقاط حراسة في مفارق الطرق المؤدية الى قصور الإقطاعيين: بيت مهلهل وبيت صلال وال طرفه.

انتظركم بعد مغرب الشمس تحت قنطرة (البترا). والى حين وصول التوجيهات المحددة من المدينة..

استبد الحنق بـ(عودة الكبر)، فضرب جبهته بباطن كفه بذعر:

- راحت الجمهورية! هاي نتيجة التراخي.. وسياسة الملاحس!!

انطلق الفلاحون، بعيد غروب الشمس. واتخذت كل مجموعة مكانها المعين.

جلس "ملا نعمة" ومعلم القرية مع مجموعة من الفلاحين عند مفرق طريق بين مهلهل.

حوّل المعلم جهاز الترانسستور الى محطة أخرى..

ضرب (الملا) كفاً بكف وتساءل غاضباً:

-هذا الحچي اشيفرق عن الحچي اللي تذيعه محطات الاستعمار؟!!

وضع المعلم جهاز الترانسستور جانباً، وتوجه الى الملا بشهية متفتحة للنقاش.. تحول الى شجار.. ارتفعت الأصوات.. فنبّههما أحد الفلاحين الى حقيقة كونهم في موضع كمين وليس في ديوان القهوة..

* * *

مساء العاشر من آذار، احتجبت النجوم وراء السحب الكثيفة وكانت الظلمة حالكة، عندما تسلل كاتب الشيوخ (ملا علي) الى بيت صهره (داود) في قرية "مويلحة"، أمر ابنته "زينة" ان تستدعي (عبيد المنتاز) بطريقة بارعة لا تلفت النظر. وأن لا تذكر اسمه أمام أحد من أفراد عائلة عبيد.

وقف الرجلان تحت ستار كثيف من الظلام في باحة الحوش حاولت ان تسمع شيئا، فلم يتيسر لها ذلك. كان تنفسهما أوضح من كلامهما المهموس، اقترب منها أبوها، حتى صدمتها نتانة فمه، وهمس:

-اطلعي ويّانا.. عدّينا من الچلب.. واوگفي بالباب لما نرجع حتى لا ينبح

علينا الميحوم..

بدا لها الأمر مرعباً. عجبت من مجيء أبيها. على هذه الصورة، ولم يرافقه زوجها. أتت على كل الاحتمالات، فلم يسعفها تفكيرها بالوصول الى شيء.

وازداد عجبها حين تذكرت دخول أبيها إلى الحوش دون ان ينبحه الكلب..

بعد قليل رجع عبيد المنتاز يتبعه أبوها.. وكل منهما ينوء بحمله.. وتكرر الرواح والمجيء.. وفي المرّة الاخيرة جاء معهما داود..

شرع (عبيد المنتاز) ينقل الحاجيات الى بيته ولما اطمأن كاتب الشيوخ الى نتائج مهمته همس بأذن داود بضع كلمات، وغادر الحوش على عجل.

تساءلت (زينة) بذعر عما يجري .. فأجابها زوجها (داود) بصوت يشبه فحيح الافعى:

– هذا سلاح الشيوخ وعتادهم اخفيناه عد بيت عبيد. بيت عبيد مامون محّد ايشك بيه.. من حيث هوه "امين الصندوگ" مال الجمعية الفلاحية..

استفهمت زينة عن أسباب هذه الإجراءات فأجابها داود:

– يمكن تطلع مفرزة إتفتش قصر الشيوخ.. انلاصت الامور!

* * *

صباح الثاني عشر من آذار، وقفت ثلاث سيارات عسكرية في باب قصر بيت مهلهل.. وانتشر الجنود وافراد المقاومة الشعبية حول سور وحوش العائلة..

طلب آمر المفرزة من احد خدام القصر ان يدلّه على بيت (داود). ذهب

الخادم ومعه ثلاثة جنود ومقاوم شعبي، الى قرية مويلحة، واقتادوا (داود). وبعد دقائق وصلت سيارة مسلحة تحمل هلال الصلال مخفورا.. ثم تبعتها سيارة اخرى، فيها حامد بن حسين الطرفه.. فضم اليهم الشيخ ضاري بن فالح المهلهل.. وحشروا جميعاً في سيارة واحدة تحت الحراسة.

* * *

صباح الثالث عشر من آذار اقترح (عبيد المنتان) على الفلاحين المجتمعين في ديوانيته ان يوقعوا التماساً للزعيم.. يطلبون فيه أعدام الشيخ ضاري على عتبة باب قصره، جزاء وفاقا لما اقترفت يداه. وليصبح عبرة لكل متآمر على سلامة الجمهورية..

فصار اقتراحه موضع اخذ ورد.. ولكن الاجماع تحقق على ارتفاع سمعة (عبيد) الوطنية.. ونقائه الثوري.. وجاهر بعض الفلاحين بما دار في خلده:

- صدگ لو گالوا الزلم مخابر ما هي مناذر. اثاري عبيد وطني، حيل حيل، ازود من الكل.. على گولته هوّه: مّناضل!!

واجابه فلاح آخر:

-أي واللّه.. ما چنا انغدّر وطنيته مثل ما هيّه.. طلع مَناضل من صدگ..

* * *

تكرر غياب مطشر بن حمزة عن بيته —وفي كل مرة يجيب على أسئلة أبيه:

-الليلة عندنا حراسة على الجادة، انخاف من المتآمرين..وكان يتسلل، بخفة الثعلب، الى بيت داود، ليجد (زينة) في الانتظار، مرتدية أفخر ثيابها

وقد هيأت الفراش معطراً..

* * *

راقبت الشمس، المنحدرة نحو مغيبها، بعين الصائم الذي يتعجل الافطار. رجعت الى مجلسها في باب "الجمّالي" وعاودت تكسير الحطب، ترصف العيدان في "المنقلة" بعناية، تحاول ان لايزيد العود طولا عن سابقه. بدت العيدان وكأنها تصفف للزينة وتجميل المكان، اكثر منها طعاما للنار..

وفي كوخ المطبخ يتصاعد البخار من قدر كبير، بلغ الماء حافته، والى جانبه "طشت" نحاسي واسع، يتسع لاستحمام شخص سمين!، توسطته صابونة و"ليفة" وبجوار الطشت وعاء معدني، شف ماؤه عن "طين خاوه" ترسب في القعر.. وبجوار الاناء صخرة (مجلفة) وفوقها مشط خشبي "شمشار".

نظرت الى ثوبها "القديفة" الاخضر، المنشور فوق حبل يقطع "الجمّالي"، يستعمل بمثابة شماعة لتعليق الملابس. لم تكن تميز الثوب عما سواه من الثياب، حتى الليلة البارحة.. لكن (مطشر) بالغ في إعجابه بجمالها وهي ترتديه مستدركاً بحسرة: لو كان اطول مما هو عليه قليلا..

شغلت بالثوب على مدى ساعتين، بعد الفطور. فتّقت "ذياله" فوجدته طيتين.. فأزداد طولا أكثر مما قدرت.. وقررت ان ترتديه الليلة: دون ان تلفت انتباهه الى ما طرأ عليه..

استعادت كل لفظ قاله، بعد أن أجهده حملها بين يديه، متسائلة ان كان من فرط إعجاب بجمالها، أو معابثة طرأت له فأوردها دون قصد:

انظر اليك مبعدة أذرع، مقبلة مدبرة، فيساورني إحساس بأنك أقصر

مني كثيرا.. لكن دعينا نلتصق ببعضنا..

أنظري كل عضو في جسمينا يوازي نظيره.. حتى.. (الحتى!!) ولكن شفتيك يبلغان حاجبي بسبب من طول عنقك "الغزالي" انه أمر مثير!

واتخيلك مثل "لعّابة" الاطفال الى درجة التوهم، بأنني قادر على اخفائك في جيبي..

لكنني تعبت جداً عندما حملتك بين يدي!! ان لك جسم منحوت من مادة غريبة وثقيلة الى حد لا يصدق!

قالت لنفسها بتصميم: سأرغمه الليلة على ان يذبح الدجاجة بيديه.. واشترط عليه ان يأكل نصفها.. لابد لي من تعويده على الأكل بين يدي.. فأنني استمتع لمرآه وهو يمضغ الطعام –ولكن ليس بالطريقة التي يأكل بها الآن –أريده ان يقبل على الطعام كما يقبل على التقبيل!

سمعت صراخ طفلها (سليمان) خارج الحوش فركضت إليه، وحين وصلته، كان قد استبدل الصرخة بضحكة، وعاد الى اللعب مع أقرانه.. فأسرت الى نفسها: كلما أكثر من اللعب.. كان نومه أسرع.

تطلعت ناحية الشرق، قبل ان تدخل الحوش، فرأت قطيعا من الحمير، يتقدمه فارس ملثم، ويتبعه راجل، وضع أطراف "دشداشته" في حزامه، فكشف عن ساقين بلون التراب.. دققت النظر فعرفت الفارس: انه صالح ابو البينة.. يا للخيبة. وضياع الآمال! أنهم يتوجهون الى هنا.. يعتزمون المبيت عندي..! أهكذا ببساطة اتركهما يجلسان في الربعة وقد هيأت لقضاء ليلة من ليالي العمر.. ويعبثان بجمر المنقلة المعد لشاي السمر والمناجاة!! وبدلا من همس (مطشر) العذب أمضي ليلتي مصغية لنهيق

الحمير.. وسعال صالح أبو البينة؟!

نشط ذهنها بحثا عن مخرج من هذه الورطة. فجأة أسعفها الذكاء.. فأسرعت تستقبلهما عند مشارف البيت.. متصنعة الارتباك، متظاهرة بالرعب.

وقالت بصوت حمّلت نبراته الترهيب:

- وين عمي؟ وين عمي أبو مهيدي؟ لا ايشوفك احد!

ثم سارعت توضح أسباب التخويف، بلهجة تفقد أشجع الرجال رباطة جأشه:

الحكومة تبحث عنك ليل نهار.. والسيارات المسلحة تجوب المنطقة باستمرار لهذا الغرض.. وبسبب من ذلك ألقي القبض على ابن أخيك (داود) وهو يتعرض الان للتعذيب بقسوة –ليدلهم على منزلك.. وان الشيخ معتقل.. وثمة إشاعات بأنه اعدم.. وقد صادرت الحكومة كل ممتلكات بيت مهلهل، بما فيها الغنم، واني خائفة عليك من عقوبة الاعدام!!

تجمد صالح فوق السرج. تبلد ذهنه تماماً، فقد مقدرته على الحركة والكلام. طال انتظارها لمغادرته المكان.

فعاودت الترهيب بلهجة زجر:

- گبل ما يشوفكم احد.. اشردوا.. اشردوا..

استفاق (صالح) من ذهوله، فأطلق آهة مشروخة وهمس:

- آخ يمّه! فوگ حلاله حل اچتاله؟!.. ولك يمهيدي شنق.. انوب وراها شنق –"هذا الخفت منّه وطحت بيه"!

عود اجينه نشتري شعير علف للغنم، لگينه اخبار الشوم چدامنه..!

لكز الفرس بعقبيه، دون رحمة، والتفت الى (مهيدي) قائلا:

ما يـرد روسنا غير الهور. وراهـا شنق يمهيدي، شجابنه لـديرة الشيوخ، شكو عليه ضـاري، اخذ الفلوس وخلانـي حايـر بالغنم وعلفهن.. ثـم كرر ثانية: شنق يمهيدي، وراها شنق!!

الفصل الثالث

اصطف أهل "العلوه" بجانب ديوانية ملا نعمة، يجيلون أنظارهم في صفحة السماء، حيث غربت الشمس، مؤكدين لبعضهم البعض ان لابد من رؤية الهلال الليلة: فلا غيوم كثيفة ولا غبار، وعدة الشهر قد اكتملت..

- هذاك..

- ما اشوفه..

- فوگ قصر الشيوخ..

قرب إصبعه من عرنين الملا، ودل به على الهلال:

- اتنوّع على إصبعي، اتنوّع عدل.. تحت الغيمة الزغيرونه..

كف (ملا نعمه) عن مراقبة الهلال، وركّز بصره على طريق السيارات (الفرعي) ثم أعلن:

- اجتنا سيارة..

قال فرحان بن سويلم، بعد دقائق:

- ام الجيب..

لوح (فاضل) بذراعه، من خلال شباك السيارة، قبل ان تقف، تحية للواقفين..

فهتف (ملا نعمه) مستبشرا:

- شفنا الهلال بگصتك! عيد المبارك..

ترجّل كامل وقال:

- صدگنا بوعدنا؟ وصلناكم گبل ما تشوفون هلال العيد..

تبعه (محمود الخزاعي) مترسماً خطاه، محاكياً حركاته، خشية الوقوع في خطأ عرفي. لأنه لم يألف حياة الريف، ولا يعرف الكثير من تقاليد

القرية..

ساق فاضل سيارته إلى بيت "سويلم الصگر" بعد نزولهما، فقال (كامل) لعمه:

- احنا مجموعتين: النسوان خطّار خوالي. والزلم خطّار عمامي!

ضحك ملا نعمة، وردد هوسة معروفة:

- يا گصاب البو حسيّن جو..

نص ذوله ونص ظلوا غادي!

ساعد (فاضل) أمه وشقيقته على النزول.. ثم جاء بالسيارة حتى اقتحمت الواقفين، وهو يقرع الهورن على نحو عابث.

أوقف السيارة، ثم أطفا محركها.. ترجل وردد على لحن غير مسموع:

- سيارة وقصر واحضريّه..

- سيارة وقصر واحضريّه..

أشار بإصبعه، قبل أن يعانق المستقبلين، الى سيارة "الجيب" وقال:

- هاي السيارة "أيها الأخوة!"

واما "القصر" فهو بالكرادة "أيها السادة!"

وأما الحضرية (اللّه يستر عليها) جاعدة ابيت اهلها.

"ايها المواطنون!"،

انطلق الضحك، مثل هلاهل الفرح..

لم ينتظر نهاية ضحكهم، بل سارع يسأل خاله (سويلم الصگر):

- وانتم، خالي.. وزعوا عليكم سيارات يو بعد؟!

افرد "سويلم" أصابع كفه اليمنى وحركها في الهواء مع قوله:

- تهي بهي!! انوب سيارات؟!

يا خالي اشيحملنا.. كون كل بيت سيارة! انگوم انعارچ صخره.

خبط (ملا نعمة) على هيكل السيارة، بأطراف أصابعه، وقال:

- اعرفها مثل ما اعرفك! هاي سيارة شوكت المقاول. يا ما ركبت بيها.. ايام چنت سركال عمال -على گولتك-!

حرك (فاضل) رأسه موافقاً وقال:

- حسبالي ما تعرفها.. واكشخ بروس اهل العلوه!! تمام.. طلبتها على گد ايام العيد..

ازدحمت الديوانية بأهل القرية، ففكر الملا مع نفسه: انها مصادفة رائعة.. ان تقترن فرحة الصائمين برؤية الهلال -مع مقدم ولدي أخي وصهرهما (الخزاعي)..

وتخيلت (أم فاضل) بيت شقيقها "سويلم" كأنه يستعد لزفة عروس.. حينما توافدت نساء القرية، من مختلف الأعمار، لتحيتها والتعرف على أبنتها (كميلة) التي تزور القرية لأول مرة، عروس يصحبها زوجها (الخزاعي). ومع تزايد اهتمام النساء بـ (كميلة) وإظهار إعجابهن بفتنتها.. تزايدت مخاوف الأم من عيون الحاسدات. وصارت تردد مع نفسها كلما دخلت البيت امرأة:

"نحيرچ اللّه ومحمد وعلي" وتتلو على نحو موصول دعاءها الأثير:

"عين الحارة باردة.. بردها علي الفحل.. كف يا عين صاد.. كف يا عين صاد.."

لم تغب عن فطنة فاضل خيلاء عمه، وزهوه بالعشاء الفخم، الذي أطعم

رجال القرية جميعا، ورجعت في الصحن الكبير كمية، لا يستهان بها، من الطبيخ.

أحس مشاركة لعمه.. بدا فخورا، أمام صهرهم (الخزاعي) بما للعائلة من مكانة مرموقة بين أفراد العشيرة، فتجلى - بعد العشاء- في جده ومزاحه، مع الكهول والشبان على حد سواء.. وصارت لضحكته وابتسامته نكهة لذيذة..

انصرف (ملا نعمة) لبعض الوقت، يراقب ابن اخيه "كامل"، معجباً برصانته.. سرعان ما استذكر انطباعات الفلاحين عنه، يوم جاء مع فاضل وامضيا ليلتين في (العلوه) قال عنه "حسوني":

"... كامل اللّه يسلمه ضحچته عزيزة.. وحچايته بالمثاقيل.. ما يعرف غير سالفة السياسة.." وقال عنه (عليوي): "...ابن اخوك الزغير زلمه نشمي.. لكن يا ابو سعد ابنادم ايخاف يحچي وياه.. موش مثل اخوه الچبير حچايته اتطب للگلب بساع بساع.. ويسوي ميانه لليسولف وياه بساع بساع.."

ولم يغامر احد من اهل (العلوه) في إصدار حكمه على صهر العشيرة (محمود الخزاعي) فقد اعتبروا سكوته شيئا مناسباً لاصول الضيافة: فليس للغريب ان يضحك دون تحفظ بل ولا يمازح الآخرين، في مستهل حلوله ضيفا..

اندفع كثيرون من شبان القرية، يتسابقون على الاستئثار بانتباه (أستاذ فاضل)، يسمعونه حكايات عن الإصلاح الزراعي.. وعن بيت مهلهل.. وصيانة الجمهورية.. ومتابعتهم لوقائع محكمة الشعب.. كل ذلك طمعاً في

ظهور أسمائهم ضمن مقالة يكتبها عن (العلوة) مجددا، كما فعل من قبل حين ذكر أسماء حمود بن شنين وصالح ابو البينة وحمزة وملا نعمة.

وأخيرا جاهر احدهم برغبته وقال:

- استاذ فاضل.. أخاف تكتب عني بالجريدة آنه اسمي حسوني العبود..

انفجر ملا نعمة ضاحكاً، واستمر في ضحكته، حتى لفت انتباه الجميع.. وحملهم على التساؤل عن أسبابها.. فأجاب:

- الشي بالشي يذكر!

ثم التفت الى (فاضل) يسأله:

- وصلتك رسالتي؟! أكيد وصلتك!

ابتسم فاضل وأجاب بهدوء:

- هم زين ذكرتني.. شنو يابه هالبوكه اللزمتها عليّ.. وتهددني بحفظ الجرايد واغلفتهن؟!

عاود الضحك ملا نعمة، وشرع يحرض (كامل ومحمود) على مشاركته في الهجوم ضد فاضل..

حاول (فاضل) ان يبدو بمظهر الجاد، وهو يفند تهمة عمه: لأنني غمزتك بالعشائرية، اردت ان تلصق بي تهمة الافراط في حب الذات! ودليلك الى هذا انني ارسلت نسختين من الجريدة التي نشرت مقالتي أليس كذلك؟

ولكن دعوني أوضح الأمر.. بصراحة.. انها تجربة يصعب فهمها على كل شخص لم يعش تفاصيلها - على نحو معين-..انني أتكلم بجد..

أرجوكم

والله اتكلم جد..

يوم ظهرت مقالتي، الأولى، في الصفحة الأدبية، غادرت البيت مبكرا – على غير عادتي..

تلك حقيقة لا أخفيها..

نزلت في شارع الرشيد –توجهت إلى أول بائع صحف، اشتريت نسخة.. وقرأت المقالة وقوفاً، جوار بائع الصحف.. اشتريت نسخة ثانية وابردتها إليك..

سرت في شارع الرشيد، أتوقف عند كل محل لبيع الصحف.. اراقب الناس، لعل احدهم يبدأ بالصفحة السادسة بدلا من المحليات..

أتكرهون الصراحة؟!

لقد بدأ احد القراء بالصفحة السادسة، فتسارعت دقات قلبي، فكرت ان أقحم نفسي عليه بلطف: فأعرض مساعدة.. كأن اقرأ له الألفاظ والتعابير

الفلاحية —الواردة في المقالة..

وألقيت النسخة على منضدة مدير المدرسة —خلافا لعادتي– وقد صح ما قدرت، فقرأها المدير وقرأها الزملاء..

غادرت المدرسة. وقفت عند اول بائع —فكرت بجميع معارفي واصدقائي: كيف يقرؤون المقالة.. أي أثر تركت في نفوسهم؟ اشتريت نسخة اخرى —بعثتها لك بالبريد ثانية! قائلاً لنفسي: ان ضاعت الاولى وصلته الثانية..

تمنيت لو أرسل لكل واحد، من سبعة الملايين العراقيين، نسخة من ذلك العدد (وان كانت الجريدة لا تطبع سوى عشرين الفا —والعهدة على كامل) المهم ان يقرأ الناس ما كتبت.

وفيما بعد صحح لي الاستاذ.. (وأشار الى كامل) ان يكون مبدأي هكذا: ليس المهم ان يقرأ الناس ما نكتب وحسب، بل ماذا يقرؤون. فقد نكتب شيئاً يدغدغ العشائرية اللعينة او يتملقها!!

هل تريد اعترافات اخرى؟ نعم. وأحب ذاتي! أي شيء بقي لك؟
عصفت بهم موجة ضحك، شارك الفلاحون فيها، للمجاملة ليس غير!
استأنف (فاضل) حديثه: تخففت فيما بعد، من مرض حب الذات! فقد

ظهر اسمي في الاسابيع التالية، كمشرف على الصفحة الادبية.. ومع ذلك لم ابعث لك نسخة.. وأعفيت نفسي من عناء التجوال بين باعة الصحف..

* * *

هب الضيوف من نومهم مذعورين، على دوي اطلاقات نارية، شديدة الانفجار -خمس اطلاقات (برنو) متتاليات، حسبوها أكثر من ذلك بكثير. ثم أعقبتها زغاريد عذبة.

امتلأت عيونهم بنور الصباح. فأدركوا ان ما حدث جزء لا يتجزأ من تقاليد العيد.. صاح فاضل من تحت الغطاء:

- هاي شيسموها بالخير يا ابو سعد؟ يعني العيد ما يكمل الا طزْ طزْ!!

وانضم إليه (كامل) في هجومه على الملا.. ثم (محمود)، يثأرون لغفوة صباحية لذيذة، أفزعتها الطلقات، فغادرت جفونهم كطيور هجرت أعشاشها مذعورة..

اجمع الضيوف على ان العيد -في نظرهم- لا يختلف عن بقية أيام الأسبوع إلا بكونه عطلة عمل.. فيما يرى (الملا) غير هذا.. ويذهب الى التأكيد بأن الفلاحين -ولا فرق بين شبابهم وكهولهم -يستشعرون بهجة خاصة في يوم العيد: ربما يعود ذلك الى الهدوء وحياة الرتابة المملة التي نحياها طيلة ايام السنة.. ونجد في الحركة والتزاور -يوم العيد- متعة تستحق الاحتفاء.. اما انتم فحياتكم هناك كلها حركة وضجيج، فمن الطبيعي ان لا تشاركونا مشاعرنا هذه..

دفع (فاضل) لحافه بقدميه وقال:

- العنده خلگ ويناقشك عالريگ منو؟!

وتتابع الفلاحون الى الديوانية، ولما يتم الضيوف حلاقة ذقونهم وراحوا يعانقونهم مهنئين بالعيد، مقبّلين خدودهم المغطاة برغوة صابون الحلاقة..

همس فاضل لمحمود: -استعجل.. لا يغمتك واحد ببوسة اصلية وينيّم الموس بوجهك!

ارتفع صوت الأطفال، المتجمهرين خارج الديوانية، حتى طغى على أصوات الرجال في الداخل، وهم يتبارزون (مكاسر) بالبيض المسلوق – تطوع احد الحاضرين يشرح اللعبة للضيوف: يستعد لها الأطفال والصبيان قبل العيد بأيام.. فيختارون من البيض أجوده. وكلما كانت البيضة مدببة أرتفع شأنها.. بعضهم يضيف الشب الى ماء الغلي.. وآخرون يصبغون البيض بالحناء.. والشاطر من اعتنى بدجاجته قبل أن تبيض.. وفي النهاية يتبارزون: من كسر بيضة خصمه، بحد بيضته، كسبها وأكلها هنيئاً مريئاً!

ضحك (فاضل) وقال:

- اما –لعبة برجوازية من صدگ! اتصور علاقات الناس بالمجتمع الرأسمالي..

أجابه ملا نعمة، وهو يحرك دلة القهوة، ليخفف من حدة غليانها:

- ياهو العنده خلگ ويناقشك على البرجوازية من الصبح؟!

- هاي وين، ذيج وين يا ابو سعد.. آني جبتها تازه تلبط.. هاي مالتك ستوك ما اتفيد!!

تدفق الفلاحون من جميع القرى الى ديوانية "ملا نعمة" مثلما كانوا

يبكرون صبيحة العيد الى مضيف ابن مهلهل. كانوا يطبعون القبلات على خدود الضيوف –واحياناً على الجانبين– فهمس محمود لفاضل:

– بيناتهم يتباوسون ويطخون چتف بچتف، لكن ويّانا يسوون المباوس علصفحتين.. ويمصون اخدودنا مص.. ايبين استحلوها!؟

اجابه (فاضل) مبتسماً:

–بالجير والجهنم. هاي الردتوها! اتلحون على تحالف العمال والفلاحين.. حيل وياكم! خلهم ايطبقون التحالف!

تحتم على أهل العلوة أن يخرجوا من الديوانية، لافساح المجال أمام المهنئين الوافدين، من قرى بعيدة.

استحوذ منظر (عبيد المنتاز) على انتباه الجميع، وهو يضع شيئاً ما في طية (عگاله)، لمع تحت ضوء الشمس مثل نجمة الشرطي الهجان، وعلى صدره صورتان للزعيم.. وحالما استقر به المقام، وسط الديوان، توضح ان الذي في عقاله "حمامة سلام" معدنية.. فلم يعد السكوت بمقدور (حمزة الخلف). توجه الى (عبيد) يسأله بجرس معين:

– ابو نجم اشلون صحتك؟

– الحمد للّه بنص الخير..

– زين.. زين كلش؟!

– لاتتلّوف.. أحچيها ابسراحة.. اتريد تنشدني على الصور.. وعلى حمامة السلام.. موش هيچ؟ هذا مگصدك؟

– أي واللّه يا عبيد ما گدرت على روحي!

– تگدر ما تگدر بكيفك. عسى أتطگ راسك بالحايط. آنه من أنصار

السلام.. على ظهر ابو شهبا.. ومن كونك موش لراضي آنه شيوعي ونص.

ضحك الجميع، بمن فيهم الضيوف و(ملا نعمة) وخيّل لـ(عودة الكبر) ان ملا نعمة مسرور للغاية لتصرف "عبيد" وأجابته وفكر: انه ربما غير رأيه بعبيد.. فقبل ثلاثة أيام أعلن (عودة) داخل اللجنة الحزبية ان لديه ثلاثة مرشحين هم: عبيد المنتاز، ومطشر الحمزة، وعليوي بن زاير محسن. وأجابه الملا حينذاك:

- يا معود وين لگيت عبيد بالملاگط؟! هذا مجسّر گحوف الدنيا على راسه.. امعفّص امدبغ.. گلتوا أنريده امين صندوگ للجمعية، گلنا ميخالف.. انوب جايبه للحزب صوغه؟!! هاي شلك بيها يا رفيق؟!

تحرر فاضل من بعض حرج ألم به، نظرا لكثرة الفلاحين الغرباء، فربط فلاش الكاميرا وصوبها نحو عبيد.. والتقط عدة صور للفلاحين الآخرين.

قال عبيد المنتاز:

- هسه رضيت عنك يا أبو عباس.. چنت زعلان منك على الحچاية الگايلها عني بالجريدة..

فقال حمزة الخلف:

- گولها ابسراحة.. منطرف حكة الجرب!

كانت الديوانية على مدى ساعتين، او تزيد، مثل باص مصلحة نقل الركاب، ساعة انتهاء الدوام.. تستقبل أكثر مما تودع.. ويحشر الفلاحون أنفسهم بصعوبة. وقبيل موعد الغداء خف الازدحام، بعض الشيء، فبدأ فاضل يراقب ساعته من آن لآخر، رافعاً صوته بالدعاء:

- يا قريب الفرج يا اللّه!

ويجيبه الملا "بينك وبين فرج الله ساعة" ثم أنقصها نصف ساعة عند الدعاء الثاني. وفي آخر دعاء أجابه الملا: "عشر دقائق"

في تلك اللحظة انحرف عن طريق الهور باص كبير يحمل من المدينة وفد الشبيبة الديمقراطية، جاءوا لتهنئة الفلاحين، بأول عيد يمر والجمهورية في عنفوان قوتها.. هكذا قال رئيس الوفد، بلهجة خطابية..

فأسر فاضل لمحمود:

- تصخمنا وتعزينا!

ايبين متعمدين يضربون الغدا.. شفت هداياهم نزلوها من السيارة..

- اشجايبين وياهم؟

- ما ادري.. بس شفت ثلث علاليگ..

انبرى احد الضيوف الجدد، يتحدث بحماس ثوري عن ضرورة المحافظة على الانتصار وتعميقه.. فخمن فاضل انه طالب ثانوية، ان لم يكن طالب متوسطة –صحيح الجسم معافاه– وفكر:

ربما تأخر الغداء ساعتين.. فلابد من إعداد طعام جديد. تضاعف إحساسه بالجوع، فألتفت إلى "محمود" وهمس بأذنه:

- اليوم راح يصير غدانا نمور من ورق –والمركة حول التناقض–.

كتم "محمود" ضحكته، وتجنب الإصغاء لجاره، مخافة ان يفقد السيطرة على نفسه، فتغلبه ضحكة في غير أوانها.

تحمس شاب آخر لفكرة الكومونات الشعبية، بعد ان أقحم الحديث عنها دون مناسبة، وراح يعدد محاسنها في الصين الشعبية، محاولاً تزيينها للفلاحين وتقريبها من قلوبهم. فالتفت "فاضل" لأخيه وسأله همساً:

- انشا الله قررتوا اتسوون كومونات شعبية بالعراق؟!

فأجابه كامل بجد ظاهر:

- ابدا ما كو هيچ شي. هاي "مبادرات كومونية"!

- زين آني شنو ذنبي.. بطني گامت تدگ ربابة.. يمكن راح ابادر فد مبادرة يمينية.. وامشي لبيت خالي.. أكل لگمة زقنبوت.

- لا. عيب.

- وتالي. فكرك؟ هم جوع وهم كومونات.

اغتنم لحظة صمت فرفع صوته بالدعاء:

يا فرج اللّه القريب.

ضحك الملا وأجاب:

- دقيقتين بعد..

عجب فاضل من صدق الموعد.. ووفرة الطعام الذي فاض عن حاجة الجميع: لابد انها زيارة مدبرة... ولو كان الامر خلاف ذلك لما اعد هذا المقدار من الطعام..

وقال لمحمود وهو يأكل تفاحة، عرف أنها من محتويات الزكائب التي أنزلت من سيارة الوفد:

- هاي الحسنة الوحيدة بجية رفاقنا الشبيبة!

- فاضل اذا ما تجوز من خبثك البرجوازي ترا نهايتك مو زينة.

- مو اسوأ من نهايتكم!

وتناغمت أصوات الفلاحين مع أصوات الشبيبة، ساعة غادروا القرية مرددين "سنمضي سنمضي الى ما نريد.. وطن حر وشعب سعيد".

هتف فاضل لفرحان:

- يابه احنا هم نمضي الى ما نريد.. حتى نشوف اشچم غنّام حر سعيد!

فجدد "كامل" اعتراضه على فكرة الذهاب الى هور المصندگ وأصر "فاضل" على تنفيذها:

- حتى لو وحدي لازم اروح للهور..

اقترح ملا نعمة حلا وسطا:

- الاحسن الصبح تروحون.. لان الطريق ما تطلع بيه غير سيارة وحده.. واخاف يصير عدكم عطل.

- الصبح افضل صحيح.. لكن عندي مشاريع هواية.. واذا ضاع عليّ يوم، ما اگدر انفذها كلها لان وعدت الجريدة بريبورتاجات اهواية وعلى هالاساس انطوني الكاميرا.. فتساءل محمود:

- شنو الغرض من روحتك للهور؟

أوجز "فاضل" اجابته:

ان رعاة الغنم يشكلون قطاعاً كبيراً منتجاً.. ولا نعرف عن حياتهم الا القليل، أريد ان اكشف للقراء شيئاً من حياتهم.. اسألهم عن اثر الإصلاح الزراعي.. ونظرتهم إليه.. وعلى العموم، في ذهني جملة مشاريع لريبورتاجات عن هذا القطاع المهم المهمل..

تدخل "كامل" مرة أخرى وتساءل: هل تعتقد ان من السهل حصولك على معلومات حقيقية من الغنّامة؟ صدقني أنهم يهربون حالما تترجل من السيارة، وشعاع نظارتك يخطف الأبصار، والكاميرا مع الفلاش "يا هي

شخاطة، يا هي حمام، يا هي سامرا!"

قاطعه فاضل بحدة: حين يذهب "جنابك" الى مكان ما تكون المسألة تنفيذا لإحدى وصايا لينين "عش في قلب الجماهير. اعرف الحالات النفسية.. اعرف كل شيء. تفهم الجماهير. أحسن اكتساب ثقتها المطلقة.." اما انا فيعتبر ذهابي للجماهير بمثابة "الخرّوعة!" تهرب الناس من نظاراتي!! أريد ان اعرف ما هو الفرق بيني وبين سيادتك؟

تراءى لملا نعمة ان فاضلا قد هجر المزاح.. وتكلم بحدة.. فأبتدره قائلا:

– المثل يگول يا ابو عباس.. صابح المير ولا تماسيه.. واشوف اتصابح عمك صالح أبو البينة احسن من ما تماسيه.. وباچر يذبح لك قوزي زغيرون على اساس "انتم الافندية تحبون الغوازي.." وعلواه تجيب النا خروف من غنم الشيوخ!

عاد فاضل الى طبيعته ومزاحه وقال:

– صدگ ما اگدر اشلع فد طلي من هالديّوس؟!

– اهنا تبين شطارتك.

– اذا مو بالتي هي احسن.. اهدده بالكاميرا.. بس كون نلگاه.

* * *

وضع فرحان بندقيته في المقعد الخلفي، وجلس جوار فاضل، فقال محمود قبل ان تنطلق السيارة:

– عيني فرحان.. اخاف تحتاجون استعمال البندقية.. لا تعتمد على فاضل.. ترا يدير وجهه ليورا يالله يضرب!

فأجابه فاضل، ويده على "الگير" استعدادا لانطلاق السيارة:

- ومنو الطلع اول بالتهديف.. بتدريبات المقاومة الشعبية.

وجد الشمس في مواجهته تماما، عندما انحرفت السيارة في طريق الهور، فأوقفها ريثما يضع زجاجة ملوّنة، تقيه اشعة الشمس، فوق النظارة. وقال لصاحبه:

- هسه صار عندي ست اعيون!

وانصرف الى نفسه ينسق مشاريعه:.. وهو موضوع بكر بالنسبة للصحافة العراقية.. صورة القطيع اولا.. اطرزه بحكايات عن الرعاة.. اغانيهم وعشقهم! وفلافل وبهارات... الثاني عملية تغطيس الغنم التي تسبق جز الصوف، لن يتردد أبو البينة في ادخال نعجة او نعجتين وسط الماء لالتقط صورة واضحة.. والجْز.. تحقيق منفرد.. وصورة امرأة تغزل وأخرى تبرم الخيوط.. وفي قرية "العلوة" أصور عمتي ام فرحان وهي تنسج البسط والسجاد.. تسبق هذه العملية صبغ الغزول ونشر السدى على النول.. ويرى شطارتي فعلا "راوينا شطارتك.." وأظن سكرتير التحرير مخلصاً في قوله "اذا نجحت بها المشروع نعينك محرر دائم" وثلاثة دنانير عن كل تحقيق.. واهم من ذلك الشهرة.. وولوج عالم الصحافة.. تاكتيكات بمجموعها تخدم ستراتيج التعيين..

لاحظ فرحان ابتسامة صاحبه بوضوح فسأله:

- عليش تضحك؟

- منطرف التكتيكات!

- يا تكتيكات؟

- اللي تخدم الستراتيج!

- يا ستراتيج منهن؟

"وقعت بمن لا يرحم.. سيأخذني طولا وعرضا بأسئلة وأجوبة لا نهاية لها.. ويحول بيني وبين تنسيق أفكاري.. يتعين عليّ ان استخدم معه احد التكتيكات".

- فرحان لا تسولف وياي.. ترا ما أگدر اسوق اذا سولفت.

كف فرحان عن محاورته، فأنصرف "فاضل" ثانية الى نفسه:

ولابد من صياغتها بلغة تختلف عن لغة التحقيقات التقليدية.. حذار من لغة البرقيات والتقارير.. سيكون عنوانها: من.. من الـ.. من.. فيما يتعلق بالسجاد ينتهي في المضيف، ويتركز الكلام على مضيف الأمس في عهد الإقطاع.. ومضيف اليوم.. انه موضوع خصب يحتمل الكثير من حكايات خلف الدواح عن بيت مهلهل.. أما النسيج الصوفي.. يمكن تصوير عملياته في بغداد. اجعل عنوانها.. عنوانها.. لابد ان يكون جذاباً. من الـ.. من ظهر الشاة الى ظهر "الشاه" اظنه لطيفاً جدا "من ظهر الشاة الى ظهر الشاه!"

نضحت الابتسامة من شفتيه ثانية، فسأله فرحان:

- هاه.. هم رديت تضحك. عليمن؟

- على خادمك الشاه!

- إشحدّه. انگص ايده لو مدها على جمهوريتنا!

- والثلث تنعام اخوة عليا!

- تتمزهد.. ما راضي؟ واللّه العظيم انطي الشعب حرية وشوف، ماكو قوة بالدنيا تگدر عليه..

- هجم بيتكم، مثل سالفة المعيدي لمن باس السماور. زغيركم وچبيركم

يچوي.

- احنا ما بينا زغير وچبير..

- لعد شنو؟ گص الگرگري كلكم سوا؟!

- لا. بس اكو رفيق متقدم واكو..

- واكو متأخر؟

- لا، المتأخر موش منّا.

- فرحان يمعود لا تناقشني -ترا يفلت الستيرن من ايدي ويصير عدنا قدر. آني ضعيف بالسياقة.

سكت فرحان على مضض. وعاد فاضل لنفسه بعد ان قدم سيكارة لصاحبه: وسيكون أروع ما في التحقيق "اذا تمكنت من ايضاحه" التأكيد على قيمة عمل الإنسان.. فالصوف الخام، وهو يحوي كمية عمل معينة يباع بثمن.. فإذا تحول الى غزول دخلت فيه كمية عمل جديدة فيرتفع سعره.. وبعد الصبغ يزداد سعره.. وحين يدخل فيه عمل الحائك يبلغ ثمنه القمة.. اذا تمكنت من إبراز هذه الفكرة دون اقحام.. او خطابية.. تصبح التحقيقات نموذجية، بلا شك -كل شيء عديم القيمة ما لم يدخل فيه جهد الانسان- وبصياغة ادبية.. وما أكثر حكايات خلف.. احسب انه واسع جداً. يحتمل عشرات التحقيقات.. وعن اللحم "من الهور الى القدور" او عنوان آخر اكثر جاذبية.. ومن الممكن التوسع فيه بحوار ممتع مع القصاب.. والجزار.. وليكن تحقيقاً خاصاً في المجزرة العامة.. وماذا عن فضلات المجزرة؟ هل تفيد منها الحقول؟ وتحقيق عن الحليب وآخر عن الزبدة وثالث عن الجبنة. انه كنز لا يفنى! ومعين لا ينضب... وأجعل من

المـأثور الشائع "نايم بجزة خروف" أسـاسـا لتحقيق طريف.. ماذا يهم رئيس التحرير لـو استجاب لـرغبتي، وأمـر بترك الحـروف على حـالها، بعد نشر الـريبورتاجات.. أستـاذ.. الا يمكنكم الانتـظار لـعدة أسـابيع.. لـكي اطبع السلسـلة في كتيب لطيف –من مطبوعـات الجريدة– وليكـن اسمه "حكايات عن الغنم" او أي اسم آخر تقترحه.. صـدقني يـا أستاذ.. ان ربـح الكتيب مضمون..

اشار فرحان بكفه الى خيمة لاحت من بعيد:

– هذاك بيت.. بلكي يطلع بيت ابو البينة.

اتجهت السيارة نحـوه، فأعتـرضها قـطيع كبير من الغنـم وفي منتصف الطريق، دل فرحان بإصبعه الى القطيع وقال:

– يمكن هذيچ غنم الشيوخ. خل انروح عليها..

ثم أشـار عليه بإيقاف السيـارة، بعيدا عـن الغنم. جلست إحـدى المرأتين وراء خميلة بردي، وحلت الثانية أزارها لتلتف بالعباءة.

ترجل الاثنان. تناول فرحان بندقيته، وسبق صاحبه. شغل فاضل بإعداد الكاميرا لالتقاط الصور.

جلست الفتـاة وقـد أخفت وجهها بـالعبـاءة.. رمـاهـا فـرحـان من بعيد بالتحية.

– اختي اللّه يساعدچ..

– ......

– هاي غنم صالح الحميّد؟

– لا يا عيني.. هاي غنم علي الگشاوي..

- وهذيج البيوت المن؟
- بيوت علي الگشاوي..
- ما تندلين بيت صالح الحميد.. صالح ابو البينة؟
لا يا عيني ما سامعين بيه..
اقترب فاضل من الفتاة ليصورها، فنصحه فرحان همساً:
- لا اتجرب الها.. خاف اهلها ايشوفونا.. ويسوونّا مشكلة.
التقط عدة صور للغنم، وللمرأتين من بعد غير مناسب، خصوصاً تلك التي لبدت وراء خميلة البردي -لم يظهر منها سوى الرأس
فقال فرحان لصاحبه:
- نرجع بدربنا.. وناخذ چفة الهور الغربية.. لازم نلگي غنّامة وننشدهم على بيت ابو البينة..
لمحا خيمة كبيرة. قدر فرحان انها بيت صالح، اتجهت السيارة نحوها، فراحت تعلو وتهبط لوعورة الدرب. قلل سرعتها الى الحد الادنى.. وبعد جهد شاق بلغا الخيمة.. استقبلهما شاب، حيث وقفت السيارة، فسأله فرحان ان كان يعرف صالح ابو البينة، فأكد الشاب انه لم يسمع بهذا الاسم ابدا..
صاح رجل من داخل الخيمة:
- ولك شيريدون؟
- ينشدون على بيت صالح ابو ألبينة..
- گلهم تفضلوا.. وأنه أدليهم..
كان واضحاً ان الرجل مشغول بارتداء ملابسه. استقبلهما مرحبا قبل

ان يصلا البيت. احس فاضل بشيء من الخجل حين سبقه الكهل الى التهنئة بالعيد.. عاون الرجل ولده على تسوية الفراش، ولما ينقطع عن الترحيب بضيفيه.

– اهلا وسهلا.. يا مية مرحبا.. اهلا وسهلا يا ساعة المباركة.. اهلا وسهلا.

وحين استقر بهما المقام تساءل الرجل:

– عمي.. اشرايدين من صالح ابو البينة؟

قال فاضل بلهجة تلميذ مذنب:

– واللّه عمي.. هيچ. نعرفه.. وردنا ناخذ فد صور للغنم وفد اشياء..و

كرر الرجل سؤاله على هذا النحو:

– ماعدكم شغل وي صالح.. بس الصور؟

– أي واللّه عمي.. بس چم سوآل.. واستفسارات عن الغنم.. ايه معلومك آني صحفي.. يعني اشتغل بجريدة..

– اهلا وسهلا.. أهلا وسهلا.. هاي بصيطة. آنه اجاوبك على كل شي. هالتشوفني بعينك، غنام عتيج. بعد اشويه اجيب لك الغنم اهناه.. واخذ صور على كيفك.. لمن تشبع!

رفع الرجل كل اثر للكلفة، بطلاقة محياه وابتسامته الدائمة، وراح يجيب على اسئلة فاضل بصراحة لا تخلو من دهاء: الثورة في نظره شيء عظيم، لانها حطمت أصنام الإقطاع التي كانت تعبد من دون اللّه– وفيما عدا هذه الحسنة فلا يعتقد (بوصفه غناماً) ان ثمة مكاسب مادية يعتد بها. فتحدث فاضل بطلاقة عن مشاريع الثورة للمستقبل –بالنسبة للغنامة–: إنشاء

المراعي على اسس علمية.. توفير الخدمات البيطرية.. تيسير العلاج الطبي.. قطع دابر اللصوصية.. والرشوة.

رد الكهل الذي أخفى اسمه بصراحة محببة: لست بحاجة الى وعود تقرب الثورة من قلبي.. قلت كلمتي وذكرت السبب، وفيه الكفاية، فإنسانية المواطن كانت مهانة، عهد الاقطاعيين، وهذا وحده يكفي لتعلقي بالثورة. اما هذه الوعود.. المراعي والمراكز البيطرية ووالخ.. ان هي الا كلمات.. لو فرح بها الغنام أمامك فأنه منافق يتملقك.. لأنك أفندي.. ولأنك جزء من الحكومة!- أما الحقيقة، فالناس لايصدقون وعود الحكومة أبدا. ولابد من وقت طويل للقضاء على الشك.

أجابه فاضل، وهو يسجل ملاحظة أخيرة:

- يا عمي انت عظيم.. لو الناس كلهم مثلك بهالصراحة والشجاعة، ما چان گدر يحكم العراق ظالم.

جاء الغداء في وقته المناسب، بعد جوع لم يمر بفاضل طيلة حياته.

ذكره القوزي السمين بدعابته مع ابو البينة (انتم الافندية تحبون الغوازي).

شرع الرجل يقطع اللحم ويضعه بين ايدي ضيفيه، بعد ان صب كمية سمن تزيد عن الكيلو، فوق صحن الرز، وافرد لكل منهما طاسة روبة.. ثم اتبع الغداء بالشاي. ونفذ جملة وعوده: فجيء بالاغنام.. وصور فاضل عمليات التغطيس والجز.

كانت حصيلة الجولة دسمة مثل الغداء: وحديث الرجل يصلح لتطريز غالبية التحقيقات.. ان "حكايات عن الغنم" سيكون لها شأن كبير. ويتعين

علي أن أعرف شيئاً عن سلالات الغنم في العراق.. ونوعية الصوف العراقي.. ولابد من المقارنة مع سلالات اخرى واصواف أجنبية.. اذن، يتحتم الرجوع الى مصادر علمية.. وما يدريني فقد يتطور الموضوع. ويصبح رسالة للماجستير! –التي احلم بها– ولكن.. اذا قيدت نفسي، منذ الان، بالمراجع العلمية، والدراسات المقارنة فلن يقدر للتحقيقات رؤية النور الا بعد مضى عدة اشهر..

أحسب إنني عقدت المسألة أكثر مما ينبغي وتحول الريبورتاج الى أطروحة!! وصار مثل كلب صيد ابي دلامة!.

الفصل الرابع

تكامل نسيج الرعب، سداه الرواية ولحمته العيان، ليكسو "صالحاً" وأهل بيته على حد سواء. فمنذ ايام هربه من قرية مويلحة، تطارده أشباح السيارات المسلحة وظل المشنقة يتحرك أمام ناظريه، ويمتلئ سمعه بصدى استغاثة داود، من فرط التعذيب ليدل الحكومة على بيت عمه (صالح) — هكذا أخبرته (زينة) والخوف مرتسم على وجهها —طوى خيامه وغامر بالرحيل ليلا الى أعمق مكان في "هور المصندگ" وبعد ثلاثة أيام زحفت مياه الهور، تسوقها رياح شرقية عاتية، فركبه الفزع من الفيضان والغرق. رحل ثانية ليستقر في هذه الدار!.. لولا عناية اللّه وشجاعة (هدية) لالتف حبل المشنقة على رقبتي.. الهي اعترف بمعصيتي. أشهدك أني كذبت عليك أكثر من كذبة.. وعدتك بالصلاة فلم اصدق الوعد.. لكنك تعلم إنني في عزلة وليس ثمة من يعلمني قواعد الصلاة.

واعترف أنني وعدتك بخمس ذبائح —نذور— لوجهك ولم اذبح الا واحدة.. ولكنك رحيم يا الهي.. لقد ساعدتني كثيرا ويتعين عليّ الاعتراف بأن ذكائي ليس هو الذي جعلني أقرر رعاية الغنم من نصيب النساء دون الرجال.. بوسع المرأة ان تتنكر وتخفي وجهها ساعة يداهمها الغريب. وهذا أمر مستحيل على الرجل.. وان ما حدث اليوم هو بتدبير منك —ولن أنسى لك هذا الفضل— ولكن اتراهم صدقوا قولها:

"هاي غنم علي الگشاوي؟"

كرر السؤال على (هدية)، بلهجة من يعترف بحسن الصنيع ويحفظ الجميل: —بويه.. يبعد شيبي.. سولفي السالفة مثل ما هيّه. زغيرتها وچبيرتها.. حتى ادبر شغلي زين.. واجدّي دربي.

أجابت هدية:

-مامور المركز –الحاط بركبته المدري شنهو الابيض– أظنه رشاش..

تجدم عليّ.. وچان يصيح عليه ابو تفگه الطويلة:

-لا اتجلبها.. لا اتجلبها..

تمتم (صالح) بكلمات غير مفهومة... واختتمها بالقول:

-ايجلبون النسوان! هيچ وصلت الأمور؟

قالت زوجة (مهيدي):

– حسبالي ايگل له: لا اتعورها.. لا أتعورها.. وأضافت بلهجة المتشكك:

– واظن شفت ثلث ازلام، ظلوا جاعدين بالسيارة..

حرك (صالح) رأسه لا يريد تصديق أقوالها، لانها اتخذت موقفا جبانا، ولولا براعة (هدية) وشجاعتها، لاكتشف اللعبة مأمور المركز. فقال يأمر زوجة أبنه:

– انتي سكتي. ما دام لابده بعيد.. وچاد ما سمعتي ولا شفتي.. عيونچ گامن ايغوشن.. واذانچ يوصوصن!

توجه (جنيدي) برجاء الى شقيقته، ان تتكلم ولا تهوّل وتخبرهم بماذا تهامس الرجلان.. وهل لاحظت عليهما مظاهر الشك فيما قالته؟ أكدت (هدية): بأن الرجل الذي تعتقدانه من أهل (العلوة) كان ينظر الى الغنم بعين الخبير.. وتعتقد كذلك، انه ارتاب في دعواها "هاي غنم علي الگشاوي

جاهر (صالح) بعزمه: الرحيل عند غروب الشمس.. نتوغل ثانية في أعماق الهور.. نوطن أنفسنا على مصارعة مياهه، ذلك أهون الف مرة من مصارعة حبل المشنقة!

لمح (جنيدي)، من بعيد، سيارة الجب تعود مسرعة، مثل أرنب مطارد، غير مبالية برداءة الطريق ووعورته. فأشار إليها بإصبعه، وانذر أهله بسوء المصير.. هرعت العائلة تتابع سيرها بوجل، ولما ابتعدت، استنتج (صالح ابو البينة): لقد تشمموا آثارنا بعد أسئلة وأجوبة هنا وهناك.. ولا أشك في عودتهم مع قوة كبيرة لتطويقنا..

أمر أهل بيته أن يحزموا الأمتعة ويطووا الخيام، استعدادا للرحيل، وراح يردد على نحو موصول "غريج ولا حريج.. غريج ولا حريج!"

ذاب قرص الشمس في عتمة المساء، كما تذوب قطعة السكر في كوب الشاي، وابتلعت الظلمة بيت صالح وغنمه.

رمق الهلال النحيف بنظرة عدائية وحاوره في سره: بئس المهمة أخذتها على نفسك.. التجسس في كل مكان وزمان.. نحيفاً او سميناً.. طول عمرك هكذا.. مثل الملعون مأمور المركز لا يكتفي بالسؤال والجواب –بل يريد تفتيش النساء– ولولا صاحبه..وقد يكون عودة الكبر. وان كنت استبعد عنه نفحة الطيب، لفعلها الملعون وفتش هدية.. ما معنى تفتيش الرجل للمرأة!؟ وما الذي يعقب التفتيش؟!

جعل الهلال على يمينه، وتقدم الغنم مسافة خمسين الى ستين مترا، يتبعه (مهيدي) راجلا، يبسبس للغنم، فيما تولى "جنيدي" حماية المؤخرة.

كان على استعداد للدفاع حتى آخر رصاصة في بندقيته.. كلما اشتدت الظلمة استهان بقوة الحكومة: الليل ملاذ الخائفين.. لو حدثت المطاردة قبل بلوغ نقطة الأمان.. أترجل عن الفرس وأحمي المؤخرة واشاغلهم بتسعين طلقة حتى مطلع الفجر.. ويكون الظعن في أقصى الدنيا حينذاك.

تطلع في الأفق الغربي، رأى الهلال يقترب من مغيبه، وحوله شعاع باهت، لا يفضل شعاع النجمة الزمنية(البايعه امها وابوها بالحسن): ومع ذلك فمغيبه أفضل من وجوده..

حرنت الفرس فجأة، مقاربة أذنيها إلى حد التماس، تحدق الى امام وتشخر، هيأ البندقية للرمي، احنى رأسه ليتبين الشبح الذي افزعها. توثب للنزول: لم يخطر ببالي احتمال الكمين ابدا.. ظننت الخطر وراءنا وحسب..

لوت رقبتها.. تراجعت الى الوراء.. أدركه (مهيدي) ومن خلفه الغنم- أجفلت مذعورة- لحقت بهما الكلاب، فانطلقت إلى أمام وهي تنبح- سمعا نغير خنازير. إنبطح (مهيدي) على الأرض فتحقق من انها مجموعة خنازير، ولت هاربة أمام الكلاب.

في ساعة متأخرة من الليل، أمر بتوقف الظعن، ونصح بأحاطة الغنم من كل الاتجاهات، لتبق دائرتها الى أدنى حد ممكن.

استشعر الولدان قسوة الجوع والبرد، عند هبوب نسمة غربية باردة، كأنها تقتفي أثارهم بأمر الحكومة.. وحركت الكلاب أذنابها بين يدي الرجال والنساء، محومة حول الاثاث وأوعية الحبوب.

فقال (مهيدي):

- ما كو شي للچلاب؟ جوعانات خطيّه..

أجابه (جنيدي) ساخرا:

-گول ماكو شي النا.. احنا الخطيه موش الچلاب!

تذكر (صالح) ان أهل بيته لم يطعموا شيئا منذ الصباح، فأمر زوجته بتوزيع التمر والسمن..

عرضت هدية إلى إحداث يومها، بعد هذا الحل والترحال، وفي كل يوم خطوة جديدة تبعدها عن حبيبها:(والما تشوفه العين يسلاه الگلب) وقد يتعلق بفتاة أخرى.. ينساني ويتزوج.. آه لو كان العقاب لا يتجاوز حدود الغنم.. ثم نرحل الى البترا ونعيش مع الناس.. واتزوج (عليوي).. لو كانت النتائج على هذه الصورة.. اذاً لفعلتها وقلت لمأمور المركز: نعم هي غنم الشيوخ سابقا. وغنم صالح الحميد حاليا.. وذاك بيته ولكن أبي يزعم ان المشانق تترصدنا. الشيطان هو الذي يوسوس بهذه الأفكار السوداء.
استدركت لتطهر ضميرها من إثم علق به نتيجة هذا الخاطر الشيطاني فأعلنت بصوت واضح سمعه الأب من بعيد:

- انشا للّه ما كوشي غير الرحمن.. بوجوههم اللّه ومحمد وعلي.

استشعر (صالح) بعض الطمأنينة من دعائها، لم تكن في يوم مضى كما هي الان، تحتل مكانا رفيعاً في قلبه فاعترف مع نفسه:

لو أساءت التصرف او ركبها الجبن مثل تلك.. أو تعثرت في الاجابة لانتهينا "بشربة ماي ولكنها أنقذتنا بشجاعتها ولن انسى مشورتها -عهد ذاك- بأن لا نرسل الغنم في السيارة.. لئن انجلت الغمة..تركتها تأخذ سبيلها.. ويتزوجها ابن الزاير.. اتساهل معه في المهر الى أدنى حد ممكن.

جاهر بمديحها، على نحو غير مألوف منه، وكرر ترديدة معروفة "كل الخيل للشگرا عليجة!" فابتهجت لهذا الإطراء وقالت لنفسها: يذهب جهدي عبثا.. حتى ولو كان مع إنسان مثل أبي.

حين تبدد الظلام، وشمل الدنيا نور الشمس، ضرب (صالح أبو البينة) كفا بكف، وأعلن الندم على ضياع يوم كامل، حيث لا ينبغي التفريط بدقيقة

واحدة:

الوقت لا يتسع لتأجيل عمل اليوم الى غد.. وانتظار هبوب العاصفة وسط الموج حماقة تكسر الظهر.. الحكيم من أرساها في مرفأ وأحكم المرابط..

أجابته زوجته، مغمضة العينين من شدة النعاس:

-الأولاد وكَعوا من التعب، خلهم يستراحون اليوم..حرك يده ليرسم دائرة في الفراغ وقال ساخرا:

-تهي بهي.. الغاره وين؟ والتچبيش وين؟ تگول خلهم يستراحون! صدگ لو گالوا: اليدري يدري والما يدري گضبة عدس!

تمدد في مواجهة الشمس.. وجد نفسه مع عبيد المنتاز. سمع اصواتاً تقترب. قال لصاحبه:

أدركونا بلا ريب. مزق يشماغه اربع قطع.. وضع كل جزء في فم نعجة.. مخافة ان تثغي. فعل عبيد نفس الشيء مع شياهه. اقتربت الأصوات أكثر. صار يميز وقع خطاهم. كتم انفاسه. تسارعت دقات قلبه.. انبثق الرجال كالجن..

بسم الله الرحمن الرحيم.. لم يعد يرى القصب والبردي تحول كله الى فؤوس وفالات و"مجاوير" صرخ احدهم. هذا من عشيرة سعدون بن مهلهل. تزحزح من مكمنه ليحتمي بعبيد المنتاز.. أخذوهم الى سعدون دخلوا المضيف قال: صحيح.. هما من عشيرتي. غمز سعدون له ولعبيد: تنازلوا عن الشياه.. لأتدبر معهم الأمر.. اخذ سعدون شياهه. قال للجن: الآن خذوهم.. صاح مأمور المركز: اربطوه "بالواسطي" قطعوه بالفأس. أهوى

احدهم بالفأس. صرخ مستغيثاً. صاحت زوجته:

-اسم اللّه. اسم اللّه.. ابو مهيدي اشبيك؟!

فتح عينيه، رأى الشمس تتوسط السماء.. بلل شفتيه، وحكى لزوجته حلمه المرعب. أجابته مبتسمة:

-الطيف بالمگلوب- انشا للّه هانت الشدة.

* * *

بلغوا المكان المقصود بعد منتصف الليل. وعندما أشرقت الشمس رأوا مياه الهور على مبعدة يسيرة، بحيث لا يمكنهم الإفلات من مطاردته لو فاضت دجلة وصادفتها رياح شرقية شديدة.

ارتقى تلاً غير بعيد عن بيته، راقب الهور واليابسة من كل الاتجاهات. شاهد أشباحا يرفعها السراب ضحى.. تخيلها كثيرة جدا، آتية من ناحية الغرب: ربما استعانت الحكومة بالشرطة الخيالة.. فالسيارات لا تقتحم مثل هذا المكان.

نشف ريقه.. أحس دبيبا باردا في ظهره:

اذا حاصرونا في وضح النهار لا مفر من الاستسلام. أعد عبارات تليق باستقبال عريف الشرطة:

"يا بعد چبدي آنه رجال فقير.. ما عندي نية سو.. وما ادري شكو ماكو بالدنيا.. اشتريت الغنم من ابن مهلهل من زمان..". لن انسى ذلك العريف الجلف الذي رافق الجباة.. بدا وكأنه يستمتع بجلد المرحوم.. يوم كانت في القلوب رحمة.. فما الذي يفعله عريف الشرطة في ظل حكم لا يعرف الرحمة؟ انتزعها من القلوب وصار يحرض العشيرة على شيخها ويحرض

افرادها بعضهم على بعض "يا ام حسين چنتي بواحد صرتي باثنين" كنت أحاذر على الغنم ولي فيها جزء يسير. فما الذي اصنعه –بعد حماقتي الكبرى –وشرائي كل الغنم؟! أفي مثل هذه الظروف اشتري غنم الشيوخ؟ شلت يميني التي عدت النقود! كانت خير ذخيرة تصلح لكل زمان ومكان يسهل خزنها ونقلها.. فما الذي دفعني للتفريط بها.. ولا اكبر من ذلك الا حماقة اجترار الندم على فعل مضى وانقضى ولا سبيل لإصلاحه.

ولما جن الليل تلامعت أضواء السيارات التي تجلب السمك من الهور الى المدينة.. فوقف (صالح) يتابع كل سيارة مقبلة.. وكأنها تقصده نظرا لارتفاع الأرض في مواجهة بيته.. ويظل يرقب نورها صعودا وهبوطا، شدة وخفوتا، متوتر الأعصاب واجف القلب: اذا لم يعجلوا بالمجيء قتلني الترقب على قاعدة "اسجيك ياكمون".

عرض الى الماضي والمستقبل على ضوء حاضره، وجد نفسه عاجزا عن الاستمرار في المقاومة: لايمكن إخفاء قطيع يزيد تعداده عن الألف وخمسمائة ويتعذر تحريكه بسرعة عند اللزوم.

استجمع أفكاره، قلب الأمر على وجوهه، توصل الى حل جذري، ولا حل سواه.. بيع الغنم بأسرع وقت ممكن "گص راس موّت خبر" وينبغي ان لا تكون عملية البيع العاجل على حساب السعر.. ووفقا لمذهب القائل "يا مغرّب خرّب" اعرف أي كلام يستهوي تجار الغنم.. وأية نغمة تطربهم.. يتصور قليلو الخبرة أن اعتراف البائع بأقدامه على زواج يجعل المشتري في مركز قوة، فيفرض أسعاره. بينما العكس هو الصحيح. قالها المرحوم وجربتها بنفسي.. ورأيتهم كيف يتزاحمون على الشراء.. وأول شيء يتبادر

الى أذهانهم القول المأثور "ما يرخص الغالي الا الأغلى منه.."

شاع في البيت فرح مكتوم، حين أعلن (صالح) عزمه على بيع الغنم وفكروا جميعاً: لابد ان ينتهي هذا العذاب ويذهب الخوف مع الغنم.

تكلف "جنيدي" مهمة الذهاب الى المدينة للاتفاق مع تجار الغنم، وأصغى لنصائح الأب:

- كلهم أريد أعرس.. لا تگول غير شي.

هسه يجون ركض.. كلهم استخيروا ثلث مية مطفل من غنم إتزود على الألف وخمسمية.

فخاطبه (جنيدي) في سره: وما الذي يمنعك من جعل مشروع العرس حقيقة ملموسة؟ لابد ان احوّل الوهم الى حقيقة عندما نتخلص من الغنم ونرحل الى البترا. واستبشرت (هدية) بهذا القرار المفاجئ وهدهدت نفسها بالأمل: اذا تخلصنا من الغنم لم يعد لوجودنا مبرر في الهور. لقد استجاب اللّه لادعيتي المتواصلة.. وها ان باب الخلاص ينفتح.

وتسابق تجار الغنم، فعلا، للاستئثار بهذه الصفقة الفريدة، فمن بين الف وخمسمائة يختارون ثلاثمائة.. إنها عملية لن تتكرر أبداً.. وفي آخر الأمر اشترك ثلاثة من "المريبحانية" المعروفين، ورافقوا (جنيدي) لرؤية الغنم والاتفاق مع أبيه حول الأسعار..

وصلوا قبل مغرب الشمس، فتجولوا بين الغنم، وجدوها تسر الناظرين، وكل نعجة تفضل أختها.. وما عليهم الا استعمال براعتهم في المساومة.

ارتدى (صالح) وجها بشوشا.. فعجب (مهيدي) لسرعة تظاهره بالمرح ورسم الابتسامة على محياه: حتى ليصعب اكتشاف زيفها على أكثر الناس

فطنة.

استجاب اكبر التجار سناً، وأكثرهم شحماً ولحماً، لرغبة "صالح ابو البينة"، فرسم صورة لما يجري في المناطق الأخرى، مجاهرا بالضيق من مسالك الحكومة ومؤيديها.. معلنا عطفه على الشيوخ وأولاد "الحمايل" الذين يتعرضون للإرهاب والإهانات على أيدي الفلاحين.. مثال ذلك:

إقامة الدعوى على الشيخ (خدام بن فليح) ووقوفه جنبا الى جنب مع الفلاح المشتكي. ويسأله الحاكم عن اسمه وعمره ومهنته.. وكأنه نكرة غير معروف!؟

تشجع (صالح) فترجم ما يدور بخلده، على صورة سؤال عن حال الدنيا وكيف تجري الأمور اذا استبعد الشيوخ عن مسرح الأحداث؟ أجابه التاجر السمين، بسخرية لاذعة: الامر في غاية البساطة، سيأكل القوي الضعيف، وما تبقى من الضعيف تلتهمه المقاومة الشعبية "وتكركد" عظامه، فيما بعد، الجمعيات الفلاحية!

ابتهج (صالح) لأقوال التاجر، وسمعه أهل بيته، لأول مرة،يقهقه هكذا، لم يكتم إعجابه بذكاء التاجر. وجد نفسه في تعاطف تام معه، لدرجة فقد معها الكثير من قدرته على المساومة –لو علم ان فتح باب السياسة والحديث عنها يجعله هيناً ليناً أمام التاجر، لأقفل باب السياسة وختمه بالجهل الأسود–.

وبسبب من ذلك تم الاتفاق بسهولة على ان يكون سعر النعجة وطفلها عشرة دنانير ونصف.

وبكر التجار الى المدينة، لإحضار المبلغ، وتحققت ظنونه من كون الصفقة

مربحة للتجار، حين رجعوا عصر اليوم نفسه، وسلموه النقود كاملة.

وحين وضع لفات الدنانير بين ثوبه وجلده، خطا بذكاء خطوته الثانية، وأعلن بمرح مفاجيء:.. يبدو ان الدنانير مغرية إلى حد يفقد الإنسان مقاومته.. ثم تزحزحه عن إصراره وتمسكه برأيه.. ولذا أصارحكم القول، بأنني بدأت أفكر ببيع الغنم كلها.. واختيار المدينة مسكناً.. فأن ربحتم في هذه الصفقة عودوا ومعكم المبلغ "المطفل بعشرة ونص والحايل والمضرع بستة"ولن أقبل مساومة جديدة ابدا.

وبرغم المطر الغزير الذي هطل عصر ذلك اليوم، فقد رجع التجار بعد يومين يحملون ثمن وجبة جديدة من الغنم.. وبعد أسبوع جاءوا لعقد صفقة ثالثة.. ثم اعلنوا وهم يودعونه:

- جرفتك زينة.. ربحنا من شرواتنا.. وانشالله بالمرة الجاية ناخذ بقايا الغنم "اكراع".

* * *

تسمّر صالح في المكان الذي انطلق منه التجار، يتابع بعينين دامعتين البقية الباقية من الغنم، وهي تسير وراءهم منكسة الرؤوس مسح دمعة تشوش عليه الصورة لن يمحوها الزمن، وتمخط بطرف يشماغه ثم رفع صوته قائلا:

-هجم بيتي على الگلب الجاسي.. هيچ اطيتچن امراضاه؟!

وكتم نشيجه، مخافة ان تسمعه النساء:

كل شيء خطر ببالي الا هذا.. اودعكن بصمت وكأن شيئا لم يحدث؟

أي طعم للحياة بلا غنم؟ وبماذا يمتع الإنسان بصره؟ وما هي الفرحة

وما معناها.. ان لم تكن في استقبال "بهمه" تشبه أمها؟.. ولماذا ينتظر المرء -بفارغ الصبر- أيام الربيع؟ وما الربيع بلا غنم الا دفء يساعد الذباب والبرغوث على التكاثر!

سمع بكاء النسوة في البيت، أصغى إلى زوجته تندب الغنم بصوت شجي مؤثر:

هجم بيت كلبي واشـــكواته

شفت خلو المراح من امهاته

اويـــلاخ يمهيدي يا يمــــه..

فأجهش بالبكاء، دون تحفظ، وجلس في مكانه، حتى تخفف من غلواء عاطفته، ثم تملك زمام نفسه، ونادى زوجته بلطف غير متكلف:

- ما اتفيد البواچي يا ام مهيدي.. ياللّه ورانا مشوار طويل.. هاي الدار اللي اندلّوها المريبحانيّه ما لازم أنبات بيها.

شرعوا يتعاونون على "معادلة" الاحمال فوق ظهور الحمير. وكشف (صالح) لأهل بيته، في ساعة مد عاطفي، كل ما يدور بخلده: وسوف نقطع الصلة كلية بلواء الكوت..ونتوغل جنوبا ما وسعنا الجهد. ثمة مكان رأيته قبل ثلاثين عاما.. كأنني أتخيله الآن.. يصعب بلوغه على الشيطان نفسه.

جمع أهل بيته في الدار الجديدة.. استهل محاضرته بسؤال: أتعرفون ما هو السجن؟ هل يتصور بعضكم حياة السجن؟ ثم أضاف بلهجة الخبير: صحيح انني لم ادخل السجن.. ولكنني رأيت جدرانه الكالحة.. ورأيت السد الترابي الضخم الذي اقامه السجناء حول الكوت.. وسمعت الكثير من عبيد عن حياة السجن.. انها حكايات تشيب منها الولدان!! لباسهم من

الجنفاص وخبزهم اسود (صمون مثل مناصب الجدر) والضرب بالفلقة صباح مساء والشتائم زادهم اليومي! وما هو اسوأ من ذلك كله وجود الحديد في الساقين.. يمشي السجين وينام مقيدا..

كان هذا في ظل حكم الملك.. وهو حكم يفضل هذا الحكم، الذي وصفه حجي مشيري بأنه "حكم زعاطيط" وأترك لكم تصور السجن وحياته في ظل حكومة حجي مشيري.. "حكومة الزعاطيط"والسجن كما تعلمون حد ادنى لعقوبتنا.. اما اذا تشددوا فالشنق مصيرنا جميعاً.

وخلص من أسئلته وترهيبه الى قرار بأن يتقبل الجميع هذه الحياة كما هي، دون تذمر او مناقشة، حتى تنجلي الغمة عن الامة، وزيادة في الحيطة والحذر يتعين على (مهيدي) و(جنيدي) أن يطلقا لحيتيهما.. مبالغة في التنكر.

تراءى له ان أهل بيته يوافقونه الرأي تماما، فلا اعتراض ولا اقتراح. حينذاك طلب إليهم ان يتعاونوا على تذكر الحاجيات اللازمة لإقامة طويلة في هذا المكان المنعزل: ولنضع في الحسبان أسوأ الاحتمالات.. ونفترض الإقامة هنا ثلاث سنوات.. وتذكروا ما هي لوازم البيت لمثل هذه المدة. ولا يلومن احدا الا نفسه اذا نسيتم حاجة ما، فلن اسمح بعد هذه السفرة لأحد ان يغادر المكان مطلقا..

تكلمت زوجته فعرضت أهم الأشياء في نظرها.

– گبل كل شيء اشتروالنا هايشتين حلاّبات ترا احنا على اللبن مثل شاروب التتن ما نگدر انفارجه..

ثم بدأ الآخرون يتذكرون الضروريات.. فقال (ابو البينة) في سره إنها

حاجيات تكفي لفتح دكانين في قرية.. ولا يصلح لشرائها سواي..ولكن كيف اترك البيت، وحفرة النقود معلومة للجميع.. ولم أتدبر أمرها بعد؟

تبادلوا الرأي حول أهم المشتريات: الحنطة والشلب والشعير والبقرات يمكن الحصول عليها من القرى. أما المشتريات من المدينة فهي السكر والشاي والتبغ والنفط والتمر والثياب.

* * *

أيقظ ولديه عند الفجر.. كرر وصايا الليل ثانية: لا تدخلوا وسط المدينة.. ابتاعوا حاجياتكم من اطرف دكان.. ودفعا للشكوك قولوا لصاحب الدكان: اعتزمنا فتح حانوت في القرية.. ولا ينزعن أحد لثامه.. لا تقحما نفسيكما ولا تجادلا في شأن عارض لايهمكما أمره.

وحين ابتعد الوالدان، يسوقان قطيع الحمير، تبعهما راكضا وصاح:

-كلشان.. كلشان.. اشتروا ثلث كلشان!

بعد ان شرب شاي الفطور، مسح شاربيه ولحيته فتذكر الصبغ وقال:

-هاه.. يا حيف والله.. نسيت شيء مهم، نسيت الوسمه صبغ اللحية ايبدل شوفة ابن آدم!

* * *

تسلم الحاجيات من ولديه، فلم يكتم إعجابه بفطنة (جنيدي) لكنه آثر توزيع المديح بين الاثنين.. ونبه الجميع الى انه قرر الاحتفاظ بالحاجيات عنده، وصار منذ الان مدير "تومين" يوزع السكر والشاي والتبغ والنفط والتمر بمقادير محددة.. ثم قال لولديه:

-بعد وراكم سفرة باچر.. تشترون من الگرايا ثلث تغارات حنطة

وتغـارين شـعيـر.. وثلث هـوايش حلابـات وتفگه زيـنه.. وفـشگ اهـواي للتفگات..

*　*　*

ضـج المكـان بنهيق الحـمير، وارتفعت سـحابـة من غبـار، حجبـت قرص الـشمس الغـاربة، بـدت الحمير وكأنهـا لا تعرف مـا هو الـتعب وما مـعنى الهدوء.

فحـاور صـالح نفسه: اعرف أسبـاب هذا.. انه الربيـع الخـارق للعادة.. مرة واحدة شـهدت مثله.. كـان ذلك قبـل زواجي- ولكن الغـنم هي مبـرر وجود الربيع.. وبدونها لا يحسه المرء الا حين تزعجه الحمير بضجيجها!..

اقتحمت علـيه المكان حمارة مطاردة، لتلوذ بحماه، من مجموعة حمير استبد بها هـياج جنسـي عـارم.. أدرك انه عاجز عن حمـايتها: لـو وقفت في طريق الحمير المجنونة لوطأتني بالحوافر وربما مزقتني بأسنانها!

دفـع الحمارة خـارج الربعة وأغلق الـباب بحصيرتـه: اسرار لا يعرفها الا اللّه!! اتـخلص مـن الغنـم.. فتجـود الـسمـاء بمطر غـزيـر وتـسخـو الارض بكـنوزهـا.. ويـنبت العـشب فـوق رؤوس التلال..ولـكنه يـصبح مـن نصيـب الحمير! ان من بـين دلالات هذا عـقوبـة وتعـذيب لي.. ولا يـستعـصي عليّ ادراك الـسبب.. فلقـد وعدته بـالصلاة ولـم اصل ونذرت ولـم اف بالـنذور.. ليتني تعلمت الصلاة وهي خير ما يملأ الفراغ في هذا المكان الموحش..

دخلت عليه زوجته في زيارة غير متوقعة، فانقطع حبل تفكيره، وتطلع في وجهها مـستفهـماً. أفـضت إليه بمـا عنـدها.. فـأنتفض (صـالح) ولكـنه آثر محـادثتها بـبرود.: الم تبق عندك فـضلة عقل فتميزين بين التمرة والجمرة؟!

ألم يكن مفهوماً قولي ان الحكومة تطاردنا.. ولو اهتدت الى مكاننا لوضعتنا في السجن او القبور؟! لقد بلغت من العمر ضعف عمره ولم أطالب أهلي بالزواج.. ثم لم هذا الاهتمام بزواج (هدية)؟ ما الذي يحدث لها اذا تأخرت سنة او سنتين هل يأكلها "البزّون"؟ هذه أفكارك الخاصة ام هي أفكار "جنيدي" و"هدية"؟ من يدري فلربما استغاثت.. وطلبت الزواج بعظم لسانها؟

كل شيء محتمل في هذا الزمان.. وكل شيء أضحى يسير على رأسه.

اغتنمت فرصة انشغاله بلفيفة التبغ، فغادرته خائبة، وانكبت على "مجرشتها" بصمت.

جمعهم بعد العشاء. طلب من "جنيدي" إعادة ما قاله (الحجي) صاحب الدكان، يوم ابتاعوا منه الحاجيات..

تساءل "جنيدي عن سبب هذا الطلب وقد سمعوا الحكاية أكثر من مرة. فقال الأب بلهجة حازمة:

– عندي بيها مگصد.. سولفها مثل ما هيّه..

انطلق (جنيدي) يرويها كالسابق.. وسألني الحجي:

ألم تسمعوا الإذاعة في يوم أول أيار؟ ومع انه لم يصدق دعواي بأننا لانقتني جهاز راديو فقد واصل كلامه وحلف بالبيت الذي حجه. انه سمع الهتاف يصم الآذان "الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي".

سألته وماذا يعني هذا؟ فأخرج رأسه من باب دكانه وتلفت يمنة ويسرة ثم همس: هذا يعني استيلاء الشيوعيين على السلطة.. وسوف يصادرون كل شيء.. ليتساوى الناس في الفقر.. حتى دكاني هذا ودكانكم المرتقب

وكل الدكاكين تصادرها الحكومة الشيوعية..

وأفلت سؤال من فم (مهيدي) عن مصير الغنم، فأجابه الحجي: تؤخذ بلا عوض.. لتذبح في مطابخ المقاومة الشعبية والشبيبة الديمقراطية. ودفعني الاطمئنان، وتوسّم الخير في الحجي، للاستفسار عن الشيوخ.. فأبتسم بمرارة وأجاب: لقد قتلوهم جميعاً داخل السجون.. ونهبوا أثاث بيوتهم.. وسلبوا نساءهم حتى الثياب.

أشار (صالح) بيده، مكتفياً بهذا القدر من الحكاية.. تفحص الوجوه توطئة للكلام.. ثم تساءل بجرس يحمل الوعيد والتهديد: اذا كان الحاج المسكين القابع في دكانه، يترقب الخطر في اية لحظة، وليس له من ذنب سوى كونه يملك دكاناً، فما هو مصيرنا وقد أخفينا غنم الشيوخ ثم بعناها!

رفع صوته مهدداً: اسمعوا.. يتوجب علينا حمد اللّه صباح مساء، لأننا أحياء نتنشق الهواء.. ومن يلقي نفسه وسط النار المشتعلة "عوينته الحركته ايده" لن يجد من يترحم عليه أبدا..

فليكتم كل رغباته الى حين، ويدعوا اللّه بتقريب ساعة الخلاص.

لا تشعلوا النار في هذا البيت، لمجرد نزوة مجنونة تراود أحدكم.. وتطل برأسها في وقت غير مناسب. اسمعوا.. كل شيء يمحوه النسيان –مهما بلغت قسوته– سوف ننسى هذه الأيام العصيبة، وتمحوها من الأذهان ساعة فرح واحدة.. هل فهمتم قصدي؟

* * *

صار رعي البقرات والحمير مناوبة بين (مهيدي) و(جنيدي) وأحيانا

زوجة مهيدي، يود احدهم لو طال النهار ويبقى بعيدا عن البيت الذي حوله (صالح) الى جحيم لا يطاق..

ولا يدري أحد لماذا حرم "هدية" من متعة رعي الحمير والبقرات، وفرض عليها الإقامة جوار أمها. حتى غدت تحلم بأيام الرعي، بعيدا عن البيت تناجي حبيبها على البعد، وتردد بعض ألاغاني الشجية.

أدركت (هدية) تحت وطأة العذاب: ان الشيء الوحيد الذي لا يختزن هو السعادة. وأما استحضار الحبيب على وسادة النوم، وطول التفكير بلحظات حب عارم، فليس سوى مجلبة للتوتر العصبي الدائم ونحول الجسم.

* * *

استبدت الحمى بـ(صالح ابو البينة) فراح يهذي على نحو موصول. فكر (جنيدي) بالثروة، وقد استوثق من ان الأب يخادعهم بوضع النقود جهارا في حفرة وسط الربعة- عرفه هكذا مخاتلا، كثير الشكوك لا يثق بأحد مطلقاً. مرة تعمد إيهامهم وتسلل في ظلمة الليل، وهو عليم بمراقبتهم، فحفر حفرة في الكوسر.. ولم يضع شيئاً في تلك الحفرة: تعود اخفاء النقود بعيدا عن البيت..ما في ذلك شك.. ولو مات فجأة.. انه.. لا.. تضيع الثروة حتما...يتعين عليّ فحص ألاماكن البعيدة، التي كان يكثر الجلوس عندها قبل ان يقعده المرض. مرة وجدت الإبريق كما أخذه لم يرق منه قطرة ماء واحدة وهذا يعني.. تفقده لمواضع النقود المخبأة.

ابتعد عن البيت.. استل خنجره وراح يطعن الأرض في أماكن متقاربة.. وكان (مهيدي) قد استجاب لتحذيرات زوجته- بضرورة مراقبة (جنيدي)

مذ اعتلت صحة الاب واشتد عليه المرض -ولكن النعاس غلبه، فهوم الى جوارها. مد ذراعه لعامل التلقيح ضد الجدري -ذي المعطف الأبيض- والسكين الصغيرة تلمع تحت ضوء الشمس.. شرطي الى جانبه وآخر يحرس الخيمة المنصوبة عند مدخل المدينة.. ارتجف خوفا.. ضحك الافندي -الأبيض- وداعبه قائلا:

"هاه.. لا اتصيح يا يمه مثل الجهال!"

تكلف الشجاعة.. كشف عن ذراعه. لوي الشرطي كفه.. أحس الماء في وجهه.. كانت زوجته تشد شعر لحيته وتهمس حانقة:

-عود انته زلمه؟! نايم تشخر مثل الزعاطيط ومدري شصار ما صار..!

اعترف لها بتقصيره.. نهض من فراشه. غسل وجهه، وجلس في باب خيمته يراقب اخاه: لو استوثقت من حسن نواياك يا (جنيدي) وانك لن تصير مطية لإبليس -اذا اختار اللّه الشايب الى جواره- اذن لرحلت ونزلت البترا مكتفياً بقطعة ارض مع الفلاحين وثلث الميراث، وحتى ربعه يكفيني.. ولكن من يضمن لي الربع؟ لو أعطيتني عهدا على الربع، لغادرت الجحيم الذي نحن فيه منذ الغد..ومما زاد الطين بلة شجارها المتواصل لأتفه الأسباب. تحول الشاي من وجبة يومية الى ثلاثة أيام في الأسبوع.. وبعد ستة اشهر جعله مرة في الأسبوع.. وفي كل مرة تبدأ شجارها معي -وكأنني المسؤول عن هذا! "منعولة الوالدين" ولا تكف لحظة عن إظهار اشمئزازها من لحيتي: "كلشي رضينا بيه.. هاي اللحية شنهي انوب؟! صابون ماكو.. وماي البير اكليل.. وصايره لحيتك مثل زفرة الكوسج!".

طال ترقبه. لم ير أخاه في كوسر الربعة او "رفّة" البيت. زحف الى

الكوسر. أنصت إلى هذيان الأب. رأى شبحاً: انه (جنيدي). وعلى هذا البعد؟ أعوذ بك يا ربي.. انه يجلس على نحو مريب.. كأنه يحفر في الأرض.. هو الآخر لم يصدق مزاعم أبيه: ان الثروة في الحفرة التي ينام فوقها. أيكون على بينة من مخبئها؟ يا الهي ما الذي افعل لو حملها وهرب في ظلمة الليل؟ الهي بحق الأنبياء والأولياء اجعل في رأسه قدراً كافياً من العقل.. لا تدعه يفعلها.. لن اسكت ولن اسمح له بالفرار..

تحسس مسدسه: يا الهي لا تعرضني لهذا الامتحان الرهيب.. لقد تحملت العذاب وصبرت صبر أيوب من اجل حصتي في هذه الثروة.. ولن اسمح له بالاستحواذ عليها.. انه.. كأنه يعبئ النقود.. ربما.. كأنه.. احسبه..

يا الهي سأرتكب حماقة.. ادركنا يا الهي..

زحف نحوه.. ناداه بصوت خفيض:

- جنيدي.. شسوي؟

- ها.. سمعت صفرة. گلت هذوله حرامية تايهين عن ربعهم.. وزحفت..

- وأنه هم سمعت الصفرة..

(عن أي صفير تتحدث يا خبيث! لابد ان الذئبة قد وضعت السرج على ظهرك، مرة أخرى، لتطلقك في ميدان العبث.. صفيرا.. يقول؟! سمع صفيرا!!)

* * *

أفلت من قبضة عزرائيل بأعجوبة. كما تقول زوجة (مهيدي)، في حوار مع نفسها: "طلع المنعول والدين من جعب عزرايين حاد اسنونه على الدنيا".

صار مزاجه في غاية السوء. حوّل البيت الى زنزانة بلا نوافذ، أثار ضجة ذات يوم، واستعمل كل ما في قاموسه من سباب، لأنه رأى (مهيدي) يشعل سيكارته من الزناد والنفط على وشك النفاد، وقد هجروا ضوء الفانوس منذ ستة اشهر. وفسر تصرف (مهيدي) على انه جزء من مؤامرة يشترك فيها الجميع، للقضاء على أرادته وحمله على الرحيل.. وأنهم يسلكون الى غايتهم كل السبل، ومن بينها استنفاد النفط، فراح يصرخ: حتى لو افتقدتم النار، لن ارحل من مكاني هذا.. أرغمكم على أكل الحبوب مثل البهائم.. لن أكون مثل "نطارة العگروگ" يحرس نفسه طول الليل.. ثم يخدعه الفجر الكاذب.. فيتطامن وينام، ليجد نفسه بين أنياب الثعبان. لقد تحملت من العذاب أكثره.. وصارعت الأمواج العاتية ولن أتخاذل واتركها تغرق وبيني وبين الشاطئ بعض أذرع.. سوف أطبق عليكم مبدأ البحارة، الذي يصفه السيد علي، اللّه يرحمه، الميت يرمي للسمك والأحياء يسيرون في سفينتهم بلا تردد. فمن وجد نفسه عاجزاً عن متابعة الرحلة فليذهب الى الجحيم.. محروما من ثروتي.. ثم أمر ولديه بتسليم الزنادين: أشعلوا سكايركم من الموقد..وقد يجيء ذلك اليوم الذي امنعكم فيه من التدخين.. لا ترغموني على اللجوء الى القسوة..

وحاور نفسه بعد أن هدأت ثورته: لقد تصرفت بحكمة ودهاء.. لو تهاونت معهم في امر لأجهزوا على البقية الباقية من ارادتي.. وحملوني على الرحيل لاواجه المصير المجهول.. بدأت افقد شيئاً من عزمي على البقاء يوماً بعد يوم.. ويشتد حنيني الى الناس والغنم والماء العذب.. ولابد ان حنينهم الى تلك الحياة لا يقاوم.. لولا موقفي الصلب لترجم كل واحد منهم

رغباته الى اسباب مقنعة على الرحيل.. وقد تنهار مقاومتي. ان بقية عزمي تكفي لمواصلة الرحلة.. لكنني ربما ضعفت.. وقد لا اصمد اذا هجم الآخرون.. فالشدة معهم.. ومع نفسي كذلك.

* * *

تحتل المرتبة الثانية: من حيث التسلط والتحكم بأهل البيت، طفلة مهيدي، فقد بالغوا في تدليلها على نحو غير معهود.. لقد كانت واحتهم وسط صحراء العزلة يهرعون اليها من رتابة الحياة وقسوتها، لا يتخذ الضحك طريقه الى شفاههم وقلوبهم الا بدعابة منها او سؤال عابث كهذا: اذا كان فقدان النفط هو السبب في هجر الفانوس، فكم يعاني اللّه من مشقة توفير النفط لفوانيسه وتشير بإصبعها الى النجوم.

تسألهم عن الشيخ الذي يتردد اسمه، مقرونا بالرهبة: من يكون هذا المخلوق الذي يخافه حتى جدها (صالح)؟ وهو المخيف المرعب.. لابد انه مثل الخنزير الذي اقتحم الصيرة وأرعب جدها.. ثم تسألهم كيف صعد اللّه الى السماء؟ فلا يهتدي احد الى الجواب ولايجرؤ على زجرها.. وتوغل في أسئلتها، فتسمع أجوبة من ذلك النوع الذي يثير الفضول ويدفع الى مزيد من الأسئلة: ما هي العلاقة بين اللّه وبين سيد سراب والعباس ابو فاضل والسيد ابو شرارة، وتلك هي الأسماء التي تردد عبر أيمانهم.. او في أحاديث الأيام الخوالي.

اثار فضولها هرج اهل البيت، وهم يتطلعون بعد مغرب الشمس الى نيران منتشرة. ألحت على أمها، فصعدت متنها وراحت تراقب النيران معهم —لم تفهم سببا لكل هذا الاهتمام، ولم تدرك معنى لقول جدها

(صالح ابو البينة):

-هذا فريج غنّامه، هم امتدت رجل ابن آدم لهذا المچان. چا بعد وين انولي؟!

اقترح الاب ذهاب جنيدي صبيحة غد ليتأكد بنفسه من هؤلاء الجيران.. يسألهم عن أخبار الدنيا.. ثم استدرك، وسحب اقتراحه:

-لا. لا. خلها عگب باچر..

استيقظت مخاوفه مجددا، وشرع بمراجعة خطة الطوارئ: أضع النقود في الخرج.. احكم ربطه على ظهر الفرس.. انطلق بها جنوبا.. ولكن هل اترك الجميع للسجن او الإعدام؟ الأفضل والأسلم.. وما فيه راحة الضمير.. تسليم الخرج لـ(جنيدي).. واجلس في مكاني اقاتل.. ولكنه طموح وقد يحرم المسكين (مهيدي) من حصته في الثروة. سوف أعطيه للاثنين.. ولكن يا ابن الغبرا هل أنت حمار مهمتك حمل الأثقال؟ هكذا ببساطة اسلم الخرج؟! لا. لن أعطيه لأحد ما دمت على قيد الحياة.. انه قطرات دمي وعرق جبيني.. وكد يميني.. جمعته حقاً وباطلا..لن أسلمه لأحد وفي جسمي عرق ينبض.

راقبوا مصدر النيران في اليوم الثاني، خيل إليهم أنها تكاثرت، بعد ان اشتد الظلام قرروا أنها نيران العشاء.. وان بيوت "الغنّامة" تتجاور على هذا النحو.

سمعت زوجة (صالح)، قبيل الفجر، صياح الديكة، فخفق فؤادها.. حنينا الى الأيام الخوالي.. عهد الصبا والعشق: وتذكرت انها صاغت الحجل من ثمن الديوك، ويوم لبسته لاول مرة، اغتنم الفرصة ومد يده إعجابا.. من ثم

مرر أصابعه حتى الركبتين وما فوقهما، قليلا، وعاد يلمس الحجل ويقول "منه للعرس انشالله": لكن دولاب الفلك دار فجأة.. سقط أخوه قتيلا على يد عبيد المنتاز وزفت له صالحة بنت احميد فصلية.. وشاء احميد ابو البينة ان يخطبني لولده.. ثم وجدت نفسي بين يدي صالح "لا علم ولا خبر" لم اره من قبل ولم يرني..

اعتزمت التوجه الى اللّه بدعاء، أرادت له ان يكون خالصا، لا تشوبه شائبة ولا يحول بينه وبين السماء حائل، فغادرت الفراش مخافة ان يتعثر الدعاء بنسيج الخيمة.. فلا تصل كلماتها الى السماء، على ما هي عليه من حرارة وصدق.

كشفت جبهتها، وأزاحت الفوطة عن صدرها قالت بخشوع:

-يالاهي- يا من لا تلهيك اللواهي. بجاه كلمن اله جاه عندك. تخلصنا من هالسجن الاكشر... وتحط العگل والفكر الرحماني براس هالرجال.. وتسوي لعبادك چاره.

الفصل الخامس

قفز (صالح) من ربعته مذعوراً. تبعته زوجته ثم (هدية) واخيرا زوجة مهيدي تحمل طفلتها.

وقفوا جميعا في رفة البيت، يتطاولون على أطراف اصابعهم، ينظرون الى حيث اشار (جنيدي): ثمة رجلان يقصدان البيت، جاءا من "فريج" الغنامة، واعلن جنيدي بعد قليل:

واحد سيد عمامته سودا.. وواحد مومن عمامته بيضا..

تمتم (صالح) بقلق:

يالله دخيلك.. سيد ومومن؟! شنهي الطرگاعة؟

اوضح (جنيدي) بعد تدقيق النظر:

واحد منهم سيد حسن الكربلائي..

تحول الصوت في اذن (صالح) من نذير الى بشير.

امر ولده ان يستعجل في استقبالهما:

ولك اركض تلگاهم.. لا تگطعهم الچلاب.. ثم تبع ولده مهرولا –وتولت النساء مهمة صد الكلاب– التي بدت متوحشة، كأنها نسيت صورة الانسان وانكرت هيئته.

اوجس السيد خيفة. ارعبه منظر الرجلين، يتسابقان نحوهما.. والنساء تطارد الكلاب.. ورجل ثالث يقصد البيت من الناحية الاخرى عدوا.. التفت السيد لصاحبه، (الشيخ محمد رضا) وقال:

–اولاد المدس راح يسوون هرجة بالچذب ويختلقون عركة بيناتهم حتى يطردونا!

–تمام.. فد مرة سووها ويانا بالرميثة..

اولاد النعل طردونا غير طردة! هم بها الطريقة!

صاح (ابو البينة) من بعيد:

مولاي.. من السما من الگاع؟ الف هلا يا مولاي..

انكب على قدم السيد بعد تقبيل يديه.. انتحب باكياً من فرط تأثر..

فقال الشيخ محمد رضا –بلغة الموامنة*:

(سوش خيدي. سداس ميدي..)(١)

اجابه السيد:

(سنده عيدي.. سوش خيدي.. سلوس فيدي..)(٢)

لهوج السيد بطريقة خطابية:

–ياسبحان اللّه.. يا سبحان اللّه.. هاي اشلون صدفة.. اشلون صدفة طيبة يا صالح.. واللّه مشتاق لك.. واجينا على وجوهنا ما نعرف انته بهالمكان.. يا سبحان اللّه.. اشلون صدفه.. واللّه مشتاق لك.

استبد الذعر بالطفلة، حين اقترب السيد وصاحبه من البيت، لم يفطن اليها احد.. ولم يسمعوا استغاثتها، بفعل الضجة التي احدثتها الكلاب. ولما استقر السيد وصاحبه في الربعة.. سمعت الام صراخ الطفلة فأدركتها.. وكانت تتعجل الرجوع الى البيت، لتسمع شيئا من اخبار الدنيا، وقد بدأ السيد يتحدث منذ لحظة دخوله. قالت الام تطمن صغيرتها:

---

*لست في معرض الحديث عن هذه (اللغـة!) ونشأتها.. لكنني على "اسرارها!" وتتلخص برفع الحرف الاول وجعله في آخر اللفظ مضافاً اليه: "ي" و"د" و"ي" ويحل محل الحرف الاول دائما حرف "س".

(١)خوش مداس.!

(٢)عنده خوش فلوس.

-يمه لا اتخافين.. هذا السيد، داخلين على جده..

-السيد؟

-ايه يبعد امچ وعمرها..

-وهذاك ابو بيذا هم سيد؟

-لا يمه ذاك شيخ..شيخ..

- الشيخ؟

- أي يبعد امچ

- اليخاف منه يدي؟

- لا يمه.. هذا شيخ اللّه.. وذاك شيخ الگاع..

- هذا شيخ السما؟

- ايه..

- هوه اللّه؟

- استخفر اللّه.. لا يمه.. اموديهم اللّه..

- ليش اموديهم؟

حملتها بين ذراعيها. قبلتها مرتين. طلبت منها السكوت لبعض الوقت، لتسمع ما يقوله السيد، وفيما بعد تجيب على اسئلتها جميعا..

اتخذت مكانا ملاصقا للستار المهلهل، لترى السيد وتسمع حديثه العذب،لا تعكره كلمة اعتراض ولا لفتة إعراض.. وينعطف بالحديث، ليؤكد اشواقه لصالح ابو البينه:

- كل ماجي للبترا.. اسأل عنك زاير عبيد..

- زاير؟ زاير عبيد.. يا عبيد هذا؟

فيضحك السيد بمرح ويجيب:

- عبيد المنتاز.. صاير زاير.. راح للرضا(عليه السلام).. زار واندعى لك. ادركته الرحمه.. طلع جوهرة.. شريف.. مؤمن.. عبد صالح..

تحلب ريق جنيدي.. خاطب السيد في سره: لا تقف بحديثك عند هذا الحد.. استمر.. قل أي شيء تعرفه عن عبيد واهل بيته. وماذا عن نجمه؟

ويواصل السيد ثناءه على عبيد المنتاز(زاير عبيد) انه اهل لهذا اللقب.. وهو واحد من القلة الاخيار الذين بقوا على دينهم في مقاطعة البترا.. نمضي ايامنا عنده، معززين مكرمين. واذكر بالخير كذالك زاير محيسن"ابوك ياعليوي" فقد استيقظ ضميره، بعد طول سبات طويل،وهجر التعامل بالربا، وصار يزكي محصوله كل عام..

تململت (هديه) في مكانها.تحاشت نظرات زوجة مهيدي. استعطفت السيد في ذات نفسها: مولاي لا تقطع الحديث عنه- يزكي ام يسرق-لا فرق عندي. هل تعرف شيئا ما عن ولده عليوي؟

أي نعم "يا ابو مهيدي" صار الاخيار يعدون على اصابع اليد الواحدة.. انت لا تدري ماذا حل بالناس، خلال العامين المنصرمين..

مولاي بحلگك شكر. الشيوخ شنهو وضعهم؟

مشط السيد لحيته بأصابعه قبل ان يجيب: لقد اجتازو الايام العصيبة، وخرجوا من المحنة سالمين.. وان تكن الاراضي، حتى الان، بيد الاصلاح الزراعي، ولكن رجوع الشيخ فالح من بيروت ومعاودته الاتصال بالمسؤولين رفعت عزائم انصار الشيوخ.وقد توجه ضاري- اللّه يحفظه- بعد رفع القيود عن ارصدتهم في البنوك،الى اعمال التجارة والمقاولات.. ليس هذا

مقصد صالح من سؤاله. كان يحوم حول قضيته. ود لو يسمع شيئا عن غنم الشيوخ. اتخذ سبيلا اخر لبلوغ غايته فصاغ السؤال على النحو التالي:

- مولاي.. وخادمك داود، ابن اخوي، شنهي اخباره؟ ليست اخباره بمعزل عن اخبار الشيوخ واحوالهم.

هكذا اجابه السيد الكربلائي: اتهموه بأخفاء اسلحة الشيوخ.

اوقف ثلاثة اشهر مع الشيخ ضاري وهلال الصلال.. وقد بذلت جهدي وسعيت لدى السيد- اللّه يحفظه- واستحصلت منه رسالة الى الحاكم العسكري العام، فأطلق سراحهم.

لا فائدة من اللف والدوران. هكذا قرر صالح. وطرح سؤاله بلا رتوش:

- مولاي.. سمعت گالو.. حابسين داود على مود غنم الشيوخ رايدينها منه؟

- ماكو هيچ شي..

تنحنح الشيخ محمد رضا وقال لصاحبه:

- (سوفه خيدي)(٣).

فأستدرك السيد الكربلائي واضاف: صحيح لو ان الامور دامت للشيوعيين، وظلت المقاومة الشعبية على حالها، لبلغت حد الاستيلاء على الغنم، وحتى على النساء!

---

(٣)خوفه

امسك (صالح) طرف هذه الوشيعة المعقدة، وسأل السيد عن معنى قوله "لو دامت للشيوعين".. واين هم الان؟ أليس عبد الكريم قاسم هو الحاكم اليوم؟

ثانية تنحنح الشيخ رضا ونبه صاحبه:

(ستلك گيدي. سوفه خيدي)(٤).

نعم..نعم، لكن بمساعي الطيبين المخلصين، وسعيهم المتواصل، تراجع بعد الكريم قاسم عن موقفه. هكذا اجاب السيد. بيد ان (ابو البينه) لا يكتفي بالعموميات.. ويطلب دليلا على هذا التراجع المزعوم.

فيضع السيد الكربلائي بين يدي سائله جملة ادلة قاطعة:

خذ مثلا الجمعيات الفلاحية.. انتزعها عبد الكريم قاسم من ايدي الشيوعيين، وسلمها للأخيار الطيبين، فصار (زاير عبيد) رئيسا لجمعية العلوة ومويلحه، بدلا من (ملا نعمه) وصار داود سكرتيرا للجمعية بدلا من "فرحان بن سويلم" واصبح "السيد جاسم ابو شرارة" مسؤول الجمعيات في القضاء. و(ملا علي) كاتب الشيوخ سكرتير اتحاد الجمعيات في اللواء. وقد ابعدت السلطات ملا نعمه الى حلبچه..

- حلبچه
- أي نعم حلبچه..
- مولاي.. حلبچه غير الكلبچه؟

---

(٤) گتلك خوفه

ضحك السيد. وعقب الشيخ رضا قائلا:

- (سوش خيدي.. سداس ميدي!)(٥).

ثم نصح صاحبه:

(ساليدي.سخليه تيدي.سبلع ييدي.سيجه ريدي. سوفه خيدي. سوفه خيدي..)(٦).

فأضاف السيد الكربلائي لقوله: لكن هذه المكاسب كلها عرضة للضياع، اذا لم تتظافر جهود المخلصين.. وترتفع رايات الجهاد في سبيل الله ونصرة الحق..

لكلمة الجهاد في ذهن (صالح) معنى لا يتغير، ولهذا يستوضح متسائلا: - مولاي.. الجهاد الاولي انه ما لحگت عليه.. يسولف عليه خادمك المرحوم.. ايگول الجهاد ضد الانگريز..اخذونا للشعيبه وعاركنا وي الترك ضد الانگريز.. هسه هم اكو انگريز؟

انه ليس بالضرورة ضد الانگليز.. فقد يكون الى جانبهم اذا اقتضت مصلحة الدين.هكذا اجابه الشيخ محمد رضا.. ثم اكمل السيد قول صاحبه: يصبح الجهاد واجباً حيثما تعرض الدين للخطر.. والدين في ايامنا هذه الايام عرضة لخطر شديد.

بدا كلامه غير محدد المعاني، فطلب (صالح ابو البينه) مزيدا من الايضاحات:

- مولاي.. اشلون؟ شنهو الخطر؟

---

(٥) خوش مداس..!

(٦) خوفه. خوفه

خذ مثلا، مقاطعة البترا.. لقد عبث الشيوعيين بأفكار اهلها. وشتتوا اذهانهم.. هل تصدق ان قلت لك ان شخصا مثل "حمود" ..حمود بن....

- ايه مولاي.. حمود بن اشنين.

نعم هو حمود بن شنين، يقاطعني وسط الديوان بكلمة قذرة- كنت اتحدث للفلاحين في ديوانية زاير عبيد.. انصحهم بما يمليه عليّ الواجب الديني.. قلت لهم اذهبوا الى بيت مهلهل. استأذنوهم استزراع الارض والصلاة فوقها، والا فأنكم تأكلون غلتها حراما، وكأنها سرقة.. وصلاتكم عليها غير مقبولة عند اللّه، لان الاصلاح الزراعي اغتصب منهم الارض بالقوة.. وما ينبغي لكم مخالفة الشريعة الاسلامية.. وما دام التخلي عن الارض لاصحابها الشرعيين ضربا من المستحيل، في الوقت الحاضر فعلى الاقل استوهبوهم.. خذوا رخصة..

هل في قولي هذا ضرر لاحد؟

- حشاك مولاي.. حشاك..

ومع ذلك "يا ابو مهيدي" يرفع (حمود بن شنين) رأسه وسط الديوان ويقاطعني بقوله "مولاي انته چذاب!" ويأتي بالدليل على كذبي.. كذبي انا؟ تصور! فيقول: لو كنت مخلصاً لدعوتك، لما اقمت المآتم الحسينية في بيوت الفلاحين وتقاضيت اجرك من غلة الارض "المغصوبة" وتضرب الثريد صباح مساء في بيوت الفلاحين، وأنت عليم بأنه من انتاج تلك الارض المغتصبة.

تصور.. هكذا بلغ الحال.. يعيرني حمود بن شنين بأكل الثريد.. نعم. الثريد!!؟

ضحكت الطفلة "حبّابة" لان اسم الثريد يقترن في ذهنها بأشياء تبدو مضحكة لو عومل بها السيد. للثريد عندها صورة محددة: قليل من الحليب يفتتون فيه الخبز.. تأكل، ثم تشرب بقايا الحليب، ولطالما انسكب الحليب على ثوبها وجلدها، فتقتادها الام الى البئر.. تنزع ثوبها وتصب عليها دلو ماء..

وهكذا تخيلت السيد حسن الكربلائي، بقامته المديدة وكرشه الضخم، عارياً قرب البئر يسكبون على رأسه دلو ماء –فقالت لامها:

–سيد سلاب عليان يغسلونه بماي البيل؟!

همس الشيخ محمد رضا للسيد:

(ساح ريدي. سحط ايدي. سلاو كيدي. سراسه بيدي)(٧).

التفت جنيدي الى اخيه وسأله (بلغة الحرامية)*:

(ما معرشاف. محچشيات. مصوشيحب. المسوشيد؟)(٨).

اجابه مهيدي:

---

(٧)راح احط كلاو براسه.

(٨)ما عرفت حچي صاحب السيد؟

(*)لغة الحرامية لايمكن ضبطها بقاعدةدائما، وان تكن في الافعال الثلاثية، خصوصا، محكومة بحروف زائدة متساوية..ومع ذلك لا يصح القول ان لها قاعدة، فطالما استبدلوا مواقع الحروف، او تحريكها، على نحو يعقد الامور على متتبع المتخاطبين وفقا لقواعد.

ولكن هناك الفاظا يمكن رصدها بدقة مثال لفظ "عـرف" فانه تتحول الى معرشاف.. و"وصل" الى موصشال. و"كتب" الى مكتشاب.. ولكن الامر يلتبس على المستمع و"تتلاص" اللغة اذا قال قائلهم "معوجيشب بمنفشيسته" أي انه "متعجب بنفسه" و"ما مريشاد محجشي المصدشيك.." التي هي "ما يريد يحجي الصدك" والعجيب في الامر سرعة تخاطبهم وتفاهمهم بها لدرجة لا استطيع متابعتهم مع اني اجيد التخاطب بهذه "اللغة" وفقا للقواعد التي تعلمتها على ايدي "الحرامية!"

(مهوشيذا. ما محچشي. محرشيميه. مهوشيذا. محچيشي. معلشام)(٩)

فقرر جنيدي بصوت خفيض:

(مگلشيبي. ملوشيسبني. من محچشياته)(١٠).

مهّد الشيخ رضا لكلامه بضحكة ثم قال:

-يا سبحان اللّه.. السيد گبل يومين تذكرك.. لانه شاف لك حلم عجيب..

تهلل وجه (صالح) فرحاً وتساءل بلهفة:

-مولاي.. صدگ؟ بعد چبدي صدگ شفت لي طيف؟

نعم لقد رأيت التقي الصالح (صالح بن احميد) المقبول عند ربه، الموعود بالجنة، الموفور الرزق، رأيته على نحو يسر الصديق ويغيض العدا..

فسّر (جنيدي) طرفاً من الحلم، على انه يعني زواجه -من (نجمة بنت عبيد)- والا فما معنى وجود خيمة خضراء تتوسط المراح يجلس فيها "صالح" و"عبيد"؟ لابد أنها (حوفة) العرس..

استثار الحلم عواطف (ابو البينة)، فانتحب باكياً. قبّل يد السيد ثم يد الشيخ. ومثلما ادخلا الفرحة الى قلبه عجل بما يدخل الفرحة لقلبيهما، فأعلن عزمه على دفع "عادة" السيد السنوية مضاعفة.. ومثل ذلك اكراماِ للشيخ محمد رضا.

وتستبد به اريحية غير معهودة، فيأمر ولديه بذبح العجل السمين هرعت النساء مستبشرات بالحدث العظيم، زاهدات في سماع بقية مواعظ السيد وصاحبه.

---

(٩)هذا موش حجي حرامية- هذا حجي علام..
(١٠)گلبي لاسبني من حچاياته.

وبسرعة لا تدانيها سرعة الذئاب الجائعة، حولن العجل الى كومة لحم.. ودس كل واحد من أفراد العائلة شريحة لحم وسط النار المشتعلة. فامتلأ الجو برائحة الشواء. بلع صالح ريقه.. وغالب لعابه بصعوبة.. واخيرا غادر الربعة بلا استئذان، فانقض على النار المشتعلة تحت القدر والتقط شريحة لحم، لم تنضج بعد. اكلها على عجل.. ثم رجع لضيفيه ونقط الدم، والدهن عالقة بلحيته، مستمتعاً بالشواء الذي نسى طعمه منذ زمن ضاع تاريخه. وقد نسى آخر ما قاله الشيخ رضا عندما غادر الربعة. ولكنه على أية حال كان يتحدث عن الجنة والنار وأنهار العسل والحور العين.

* * *

انتهى العذاب.. وأثمرت المتاعب راحة -لو وضعت همومي قبل اليوم على ظهر بعير لقصمته. لكنني تحملتها بشجاعة. وساعدني الله على اجتياز المحنة. ارأيتم -لابد أن اقولها- ارأيتم عاقبة الصبر يا أولادي؟ لقد رست على شاطئ الامان. وقلت لكم ذات يوم ان جميع الاحزان تمحوها ساعة فرح واحدة.. من حقي ان أخاطبهم مزهوا بحسن تدبيري وشجاعتي ولكن قبل هذا وبعده يتوجب علي شكر الله وحمده -لقد كنت في مركز اهتمامه.. كم أنا محظوظ ليبذل الباري معي هذا الجهد. والان يجيء دور الوفاء بالنذور وصدق الوعود.. اولها واكثرها أهمية تعلم فروض الصلاة.

أعترف للسيد الكربلائي ولصاحبه: بأنه وعد الله اكثر من مرة، ان يتعلم الصلاة ثم أخلف وعده، لكثرة مشاغله.. وحين وجد نفسه بلا مشاغل عز عليه من يعلمه الصلاة.. وها ان الله سبحانه يتساهل معه، مرة اخرى، ويبعث اليه من يعلمه الصلاة في عقر داره.

أجابه السيد بلهجة تناسب وجلال الموقف: آمنت بالله يا صالح انه رؤوف رحيم.. لا تيأس ولا تحزن ولا تحمل هماً لتعلم الصلاة سوف اعلمك اياها.. ويقوم الشيخ الجليل (شيخ محمد رضا) بتلقينك ملحقاتها.. انه واجبنا يا (صالح).. من اجل هذا نتحمل متاعب السفر.. لقد نذرنا أنفسنا لخدمة الدين الحنيف..

تكلم (صالح) بخشوع: لقد استجاب الله لدعائي يوم احاط بي اليأس من كل جانب.. والا فكيف افسر مجيئكما الي في هذا المكان المنعزل؟ تحملان البشارة بالخلاص.. وتعلماني الصلاة.. لقد حق عليّ أن ادفع لكما فدية عن كل فرد من افراد عائلتي... سوف اجزل العطاء –فالرزق كثير– ان خيري كثير ولله الحمد..أنا متعطش للصلاة يا مولاي.. وقد عزمت ان لا ابرح داري هذه الا بعد تعلم الصلاة.. فكم من الوقت يلزمني لتعلمها؟ وأريدها صلاة جيدة.. وليست من نوع صلاة "الغنّامة".

أجابه الشيخ محمد رضا: نعلمك صلاة لا يعرفها فلاح ولا غنام.. نعلمك صلاة العلماء.. مثلما أصلي انا ويصلي السيد حسن –اعزه الله– اما مسألة الوقت فهي وقف على جهودنا.. ومدى استجابتك..

ضاق الشيخ محمد رضا بأسئلة مضيفه، فهمس لصاحبه:

–ستيجه نيدي– سل هيدي– سرط خيدي. سعّست نيدي)(١١).

ثم تمدد على فراشه، وأغمض عينيه، فاغتنمها (صالح) فرصة واطفأ الفانوس.

---

(١١)نتيجة هالخرط؟ نعست

وضع رأسه على الوسادة ليخطط مشاريع المستقبل السعيد بعد ان زالت الغمّة. وكذلك فعل اهل بيته، كل على طريقته الخاصة.. وانها الليلة الاخيرة من ليالي العذاب وآخر العهد بالسجن الانفرادي الطويل.

نهق حمار، فحاكاه آخر، ثم ثالث ورابع.. حتى ضج المكان بنهيق الحمير. استيقظ اهل البيت.. واشتعلت النيران في الموقد والتنور والربعة.. صلى السيد وصاحبه. وقف صالح يمسح وجهه قبالة الشمس، ولمّا تشرق بعد، مرددا دعاءه الاثير، الذي لا يحسن سواه:

-اللهم صلي على محمد والي محمد -أصبحنا واصبح الملك للّه.. اليوم يومك يا علي..

ثم اضاف اليه فقرة مبتكرة:

-اشلون يوم رحماني؟ يا نعمتك يا ربي.. يا نعمتك يا ربي!

قال لولديه بعد الفطور:

- افرشوا للسيد والمومن بالمشراكه..

ولمّا خلت له الربعة، كشف التراب عن حفرة صغيرة، دفن فيها مائة دينار لا غير.. أخذ منها ثلاثين.. ثم اهال التراب على البقية: قد لايتصور السيد انني ادفع له مثل هذا المبلغ الضخم؟! كانت عادته السنوية ثلاثة دنانير.. الافضل ان يستقر المبلغ في جيبه ليزداد حماسة، ويبذل جهدا اكبر في تعليمي فروض الصلاة وملحقاتها..

لمح السيد الكربلائي وصاحبه اطراف الاوراق النقدية بين اصابع (ابو البينة) فتعلقت عيونهما بالمبلغ.. اعد كل منهما مجموعة ادعية.. وعبارات ثناء..

توجه (صالح) الى السيد الكربلائي وقال:

مولاي..

رد السيد على عجل، دونما انتظار لما يقوله (صالح):

-نعم ابو عبدالمهدي!!

-تگولون خر بر عجله.. مدري خير برا عجله..

-تقصد خير البر عاجله..

-أي نعم.. عاجلوه.. آنه هم رايح اسويها عاجلوه.. هاي ثلاثين دينار اكراميتكم..

لهوج السيد وصاحبه، بالتتابع، يدعون بالخير لصالح أبو لبينة واهل بيته:

- ثلاثين دينار؟ اللّه يوفقك..

- ثلاثين..؟ اللّه يزيد خيرك..

- ثلاثين؟ إلك گبالها ثلاثين الف يوم القيامة!

- الك گبالها ثلاثين مليون انشا اللّه..

- اللّه يحسن عاقبتك..

- اللّه يخلّي ولدك..

- اللّه يستر عائلتك..

- اللّه...

- اللّه...!

تجمد الدعاء الاخير على طرف لسان السيد. وتجهّم وجه الشيخ رضا. حين تحققا من ان الاوراق النقدية تحمل صورة الملك فيصل الثاني.

قال السيد بفتور:

- هاي شنو؟

أجاب (صالح) مزهواً بنفسه:

- مولاي.. هاي عطيتكم.. موش چثيرة عليكم.. تستاهلون ازود منها.. بالعافية عليكم..

فقال الشيخ محمد رضا:

- هاي من الفلوس العتيگه..!

ضحك صالح لهذه الدعابة، فطالما سمع الكثيرين يمزحون.. يقسم احدهم للاخر "هذا الدينار ما يمشي" وانه لكذلك. فليست له ارجل ولا عجلات.

قال (صالح) ولمّا تزل الابتسامة تزيّن وجهه:

- مولاي شنهو فرگ الجديد عن العتيچ.. ما دام الكل يگضن شغل!

اجابه الشيخ رضا:

- هاي الفلوس سقطت.. صارت بمكانها فلوس جديدة.

تطلّع في وجه السيد، لايريد تصديق كلام الشيخ رضا.. فحرك السيد الكربلائي رأسه موافقاً على كلام صاحبه وقال:

-صحيح -سقطت العملة اللي بيها صورة الملك- صارت بمكانها عملة جديدة بها شعار الجمهورية..

- مولاي.. انت تتكشمر؟..

ويجيب السيد:

ليس في الامر مزاح.. انه الواقع المر.. لقد سقطت نقودك هذه منذ زمن،

منحوا الناس فترة زمنية معينة لأستبدال نقودهم.. وقد إنتهت تلك الفترة، كما قلت لك، منذ عدة اشهر..

- مولاي گول غيرها..

ويرد السيد:

ان كنت في ريب مما اقول. ها انا اريك الدينار الجديد، اخرج السيد محفظة نقوده وبسط امام صالح ورقتين..

- مولاي.. هذنّي دنانير.. وفلوسي أمّهات الخمسة وامّهات العشرة..

ضاق الشيخ محمد رضا، بهذا الحوار العقيم، فخلع عمامته. واستل من طياتها ثلاثة اوراق نقدية، رماها بعصبية بين يدي (صالح) وقال:

- هاك شوف.. هذا ابو العشرة.. وهذا ابو الخمسة. هذا وين وذاك وين؟ اصلا الدينار العتيگ نسيناه.. ذاك اللي بيه صورة الملك!..

تفحص الاوراق التي بين يديه، ضيّق عينيه لاقصى حد وهو يدقق النظر في الصورة التي تشبه الشمس –رفع رأسه وقال بذهول:

- مولاي.. القضية موش سهلة.

سأله السيد بأشفاق: هل ادخرت ثمن الغنم كله من هذه العملة –الساقطة–؟ ام انك اودعت بعضه عند احد التجار في المدينة؟

رد (صالح) بصوت خافت– كأنه دخل في غيبوبة:

- كلها من هاي مولاي.. كلها من هاي مولاي..

قال الشيخ محمد رضا، امعانا في التعذيب:

- لوتنطي هاي الثلاثين دينار لصاحب دكان، ما ينطيك عوضها جگارة امزبّن.

حاول صالح ان يستعيد بعض رباطة جأشه.. بلّل شفتيه. ثم توجه الى السيد كالمستغيث:

- مولاي.. القضية موش هينه.. القضية چبيرة گولوا غيرها..

مط السيد شفته السفلى وقال:

- اشبيدي يا صالح؟ قابل آني عبدالكريم قاسم..مسؤول عن تبديل العملة؟!

- مولاي.. گول غيرها.. القضية كلش چبيرة.. الغنم كلها.. كل الغنم.

- قسمتك هاي..

- مولاي لا تگول هيچ.. حسبه چبيرة الف.. الوف.. الوف..

اراد الشيخ محمد رضا ان يتأكد من افلاس ابو البينة فسأله:

- يعني ابد ما عندك من الفلوس الجديدة؟

- ابد! ولا فلس!!

التفت الشيخ رضا الى صاحبه وقال:

- (سمشي نيدي.. سار صيدي –سچيه حيدي. سرط خيدي.)(١٢)

عاد (صالح) يردد لفظ مولاي على غير هدى.. وكأنه يهذي فنصحه السيد الكربلائي نصيحة لم تصادف أذنا صاغية: يا صالح ان فقدت ثروتك فلا تفقد عقلك.. احتسبها عنداللّه واصبر. ثم نهض ليشد حزامه وقال:

-عدنا شغل مهم- لازم نمشي.

---

(١٢)نمشي.. صار حجيه خرط..

رفع (صالح) يديه وقال بصوت متهدج:

- مولاي... ما دام ضيّعت كلشي بدنياي.. ساعدوني بلكي احصل شيء من آخرتي..اريدكم اتلعموني الصلاة..

قال الشيخ رضا لصاحبه:

(سله خيدي. سيولي ايدي)(١٣).

ويستغيث (صالح):

مولاي.. انا يائس، اقترفت من الآثام ما يثقل الظهر.. يتوجّب عليّ ان أكفر عن ذنوبي.. ان انصرف الى ربي.. عساني أحضى بشيء من رضاه.. بعد ان خرجت من دنياي صفر اليدين.. أريد ان اتعلم الصلاة لأتشبث بها في لجّة اليأس الخانق..

تمسك بأذيال السيد.. مردداً عبارات الاستغاثة والرجاء..

انتزع السيد جبته من يد (صالح) وانشأ يقول: ان مهمتنا الجهاد في سبيل اللّه، نحفظ الدين من عبث العابثين، وليس بوسعنا تبديد المزيد من الوقت هنا..

تساءل (صالح): الست القائل ان الصلاة عمود الدين ومفتاح الجنة.. وها انا استغيث بك لتضع يدي على الصلاة..

رد الشيخ محمد رضا نيابة عن السيد: نعم. الصلاة عمود الدين ومفتاح الجنة ولكن بوسعك ان تتعلمها على يد كائن من كان. أما مهمتنا فلن ينهض بها سوانا.. وفرق كبير بين أن تنقذ الدين كله..

---

(١٣) خله ايولي..

وبين تعليم مسلم واحد لفريضة من فرائض دينه.

- مولاي.. امشّي عليك جدك.. لا تخليني وتمشي گبل ما تعلمني الصلاة..

رفع الشيخ رضا خرجه عن الارض، ووضعه على كتفه، ثم قال:

- انته ايبيّن جوعان حچي!

تشبّث (صالح) مرة اخرى، بجبّة السيد حسن الكربلائي، وهو متكئ على (الصيرة)، لايستطيع النهوض.. وقال بصوت واهن:

- مولاي.. امشّي عليك اهل البيت كلهم.. ساعدوني علموني الصلاة.. آنه مسلم ومحتازكم..

سحب السيد جبته بعنف، وتبع صاحبه، الذي سبقه بضع خطوات، فصرخ (صالح) بصوت متقطّع:

- مولاي.. صدگ -مثل ما گال احمود بن اشنين الف رحمة على روح اشنين..

توقف السيد -التفت الى (صالح) ليقول شيئا، فسحبه الشيخ رضا من ذراعه وقال:

- خلّه يولّي گام يهذي.. هم مفلس وهم يلغي!

رفع صالح صوته اكثر من ذي قبل وخاطب السيد الكربلائي:

مولاي.. صدگ انته چذاب.. اكبر چذاب.. اثنينكم چذاذبة.. هسّه عرفت حچيكم مثل دنانيري.. اويلاخ يا احميد يبويه.. هذا تالي فلوسك؟ وهذا تالي الحچي السمعناه من الكربلائي! ثم سقط مغشياً عليه، فتراءى لولديه انه فارق الحياة. صاح (مهيدي) مستنجدا بأمه. تجمعوا حوله، لايدرون

ماذا يفعلون..

ركضت زوجته الى البيت وجاءت بمغزل عتيق كسرته عند وجهه. ثم جاءت (هدية) بالمنخل وراحت تحركه فوق رأسه.. كما لو انها تنخل الدقيق مثلما فعلت امها، يوم اصيبت طفلة مهيدي بنوبة صرع. وقال (مهيدي) وهو يفرك كفاً بكف:

- يا ام حسين.. چنتي بواحد صرتي باثنين!

تعال يا من تطلع المطي من هالوحلة!!

الفصل السادس

فتح عينيه بعد غيبوبة طويلة، أعتبر خلالها في عداد الاموات. طالعه وجه زوجته، مبتلا بالدموع. شمل الآخرين بنظرة، فرأى الكآبة تغشى الوجوه:: أهو حزن من اجلي.. ام لضياع ثروة كانت معقد الرجاء؟

قال بصوت ضعيف:

- شوية ماي..

ساعدته زوجته على تقويم ظهره، واسندته حتى شرب الماء. ثم وضع رأسه على الوسادة ثانية، وراح يحدق في الوجوه بعينين خابيتين.

انشأت زوجته تقول كلمات لا تخفف مصابا ولا تعوض عن ثروة ضائعة:

- قسمه.. كلشي قسمه ونصيب.. احفظ عافيتك.. كلشي يهون دون العمر.. الحلال فدوه..

اغمض عينيه زاهدا في كلامها: اقوال تصلح لتسلية الاطفال.. وقد تخدع المغفلين الذين لايعرفون قيمة المال.. أي معنى لعافيتي بعد ضياع ثروتي.. كد العمر كله.. أطبقت اسناني على الحلال والحرام.. ليتني ابقيت صفحتي بيضاء عند ربي.. ليتني لم أدنس ذمتي بالحرام.. ذهب الحلال والحرام.. وبين عشية وضحاها اجد نفسي معدما -كأنني صحوت من حلم وكله يهون ازاء الشماتة. فتح عينيه وتأوه:

- آه يحميد يبويه راحن فلوسك!.. آه من الشماته..!

قالت زوجته بلهجة مواساة: هل يشمت انسان بآخر اذا نزلت به نازلة من السماء؟ اطبق جفنيه وتململ في فراشه: تقول لا يشمت احد بآخر اذا حلت به مصيبة من السماء..! فمن اين تأتي المصائب اذن؟ اذا لم تكن السماء طريقها؟!

فتح عينيه مرة اخرى وقال لزوجته:

- هاي سوالف عجايز.. ما تداوي جرح!

بادرت زوجته، تبلغه قرارا جماعيا، اتخذوه اثناء غيبوبته:

-باچر نشيل للبترا.. حتى تحصلون وصلة گاع وتلحجون على الموسم الشتوي.

نظر في وجهها مستغرباً.. ثم قال:

-انشيل؟! هذا ياهو الگال؟

واضاف جازما: لن ابرح مكاني هذا ابدا.. لن اسعى بقدمي للعذاب- عذاب الشماتة والسخرية.. اغدو اضحوكة لكل سفيه وشبحاً لنظرات التشفي.. وغمزات الشامتين! انا هنا حتى لو بقيت بمفردي.. لست بحاجة لأحد منكم. ومثلما اسقط نقودي عبدالكريم قاسم تجيء حكومة اخرى وتبعث فيها الحياة. ولم لايكون هذا؟ ما دام اسقاط العملة بقرار فلابد ان احياءها بقرار.. انا اعرف ما الذي تقولونه.. وبماذا تفكرون.. اذا لم يكن هذا محتمل الوقوع، جعلته لنفسي املاً، اعيش عليه.. سوف اختلق آمالا لنفسي- تخفف عني قسوة الحياة.. انني افضل عيشة مثل عيشة الخنازير و"الواوية" على مواجهة نظرات الشامتين.. وسماع ضحكات الهزء والسخرية.. لو اقتضاني البقاء هنا -ألهم التراب لفعلت.. ولن أرحل. اتفهمون؟ من فقد صبره فليرحل.. كلكم في حل من صحبتي..

ثم صرخ في وجوههم، بأعلى صوته:

-سمعتوا يولاء؟ لحد يعيد عليّ -سالفة الرحيل.. ترا أحط تفگتي بحضني، وايدي على الزناد!

كفت زوجته عن محاورته، مخافة ان تعاوده نوبة الاغماء، مؤملة سنوح فرصة اخرى، يكون فيها احسن مزاجا- شبكت كفيّها على ركبتيها وانصرفت مع نفسها، تفكر بما حدث.. ولمحات من الماضي البعيد تتراقص أمامها:.. كان املي الوحيد لتكملة ثمن "الخزامة" في دجاجتي الوحيدة – عهد الصبا والعشق- وضعت تحتها عشرين بيضة حتى ضاق جناحاها عن احتضان البيض- قالت الله يرحمها "ثمن اجواز احسن" ورحت اعقد الخيط.. في كل يوم عقدة.. واعيد حساب العقد من حين لآخر.. وانقضت اربعة اسابيع.. وطالعتني الخيبة.. وظهر البيض فاسد كله.. اصيب الديك بعلة مفاجئة- فطنت له بعد فوات الاوان وعرفت انه عاجز عن التلقيح.. ولكن شتان بين البيض والدنانير.. هل كانت دنانيره غير ملقحه؟! اسرار لا يعلمها الا العليم- لعله انتقم لعدالته المهانة.. لئن كان مطلعاً على الاسرار كلها.. فلابد ان نفسه قد أشمأزت من عبث هذا الرجل وخيانته للامانة.. كتمت معارضتي خوفاً من غضبه –مستهينة بغضب الله- ولكنه سبحانه يعلم ان لا حول ولا قوة لي.. ومع ذلك فلا يعفيني هذا من اقتراف الخطيئة.. كان علي ان ابري ذمتي واقول كلمتي. كان ينبغي ان اقول "لا" ألانهم الشيوخ تبيح لنفسك سرقة غنمهم؟!

غرق البيت في صمت كئيب، بقية النهار وطوال الليل، واطل على العالم نهار جديد.. فساءلت نفسها: ان كانت الخيبة قد جعلت مهيدي وزوجته يؤثران الانزواء في خيمتهما على تناول الفطور، فهذا مفهوم، الى حد ما، ولكن ما الذي حال بين الطفلة وبين المجيء. عودتنا ان تستيقظ مبكرة..ترفع الغطاء وتشد شعر رأسي، مطالبة بخبز الفطور.. ثم تملأ البيت تغريداً

وضحكاً.. فهل ادركتها خيبة الامل، هي الاخرى، وعرفت سقوط العملة وضياع الثروة؟!لا اظن هذا ابدا... سأذهب الى خيمتهم..

صرخت الام عند باب خيمة ولدها:

– يبوه.. يبوه.. لا مهيدي ولا مرته.. ولا بته.. هرع (جنيدي) و(هديه).. وتحامل الاب على نفسه..مستعيناً بعصاه. سقط عند باب الربعة، فنادى زوجته:

– ولچ شنهي الطركاعه؟! رحت اموت.. شنهي السالفة گلّولي؟!

اجابته زوجته :

– مهيدي ومرُته وبته ماكو...

اكمل (جنيدي) قولها موضحا:

– ماخذين غراضهم وماشين..

تأوه صالح وقال:

– معلوم يمشون.. معلوم!! بعد ما مش دبک رحل الذبّان.. ما مش دبک

– ما مش ذبّان!!

عض (جنيدي) شفته بقسوة، وحاور نفسه: سبقني الى الرحيل..لقد خمنت من قبل.. انه لا يعرف حياة الاستقلال.. وانه يبقى الى جانب ابيه حتى يقنعه بالرحيل.. اما وقد سبقتني يا مهيدي فقد القيت على كاهلي عبئا ثقيلاً. ولابد انها من تدبير الذئبة..

لو سبقتك لكانت صفة الذباب من نصيبي.. ولبئس الوصف والصورة! وحالما تصل البترا تعلن النبأ فيبلغ مسامع (عبيد)..والله وحده يعلم ما الذي سيقوله؟! وكيف يتصرف اذا عرف امرْ افلاسنا؟! اتراه يعرضها

للخاطبين.. ويبيعها لاول ثري يطلب يدها!

أضحى مزاج ابو البينة في غاية السوء. فصار مثل شظية زجاج مدببة حادة، تتحاشاه زوجته ويبتعد عنه ولده.

اخذ الوقت يتمدد.. تتضاعف ساعات النهار.. اصيبت الشمس بالخدر! تتباطأ في سيرها عامدة.. ويستيقظ كل منهم عشر مرات خلال الليل، ولا تلوح تباشير الفجر.

تسار جنيدي مع شقيقته.. استقرا عند رأي لم يكن جديدا.. فقد سبق لأمهما ان كلمت الاب بشأن الرحيل، فزجرها بعنف، ليس هذا وحسب، بل راح يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن عصاة ليضربها.

وها هما مرة اخرى يلحان عليها لتجديد محاولة اقناعه.. فلم يعد بمقدورهما احتمال هذا السجن الرهيب.

اجهشت الام باكية، معلنة الضعف والقنوط:

- يمه، اكلكم الرجال امسودن! چاهيه شنهي مضمومة؟ امسودن امسودن! شسوي له؟!

نشب الصراع مرة اخرى في اعماق (جنيدي): هل من الحكمة ان استمر على رعي الحمير- وقد عرف كل فلاح قطعة ارضه في البترا؟ ولا اعرف شيئا عن مصير (نجمه)؟

"اخ".. لولا (هديه) لرحلت وارغمته على الرحيل.. مالذي يحول بين (عبيد) وبين تزويج (نجمه) لأول خاطب.. سيما وقد عرف اننا صرنا معدمين..؟!

لا شيء يمنعه سوى وجودي هناك. لا بد من وجودي هناك- قرب

(نجمه) لا بد من مغادرة هذا المكان الملعون. يا الهي لا تحملني ما لا اطيق.. فليس كل انسان مؤهل لأجتياز الامتحان.. يا الهي لا تمتحن صبري فلست نبيا ولا وليا.. ما انا الا شاب عاثر الحظ.. غاية ما تمناه نيل حبيبته. انا اعرف يا الهي بأنك لا تعاقبني على ما اخذت من غنم الشيوخ.. وعلى مساعدتي لأبي.. فلقد بدأتها بنفسك وأنتقمت منهم بأنتزاع الارض.. واذا كنت يا الهي مطلعا على جميع افعالهم الشريرة- فلا بد ان وجهك يتهلل فرحا وانت ترى عبدا من عبيدك يسرق اموال الشيوخ الطغاة الاشرار! انا على ثقة بأنك موافق تمام الثقة على ما فعلت ضد الشيوخ.. ولكن لا بد من سر وراء تعذيبي لا يدركه سواك.. فأسألك بحق الانبياء والاولياء لا تدخلني في متاهات اسرارك ولا تعرضني لتجربة لا قبل لي بها.. يا الهي انت تعرف (عبيد المنتاز) اكثر مني!! ومن الغباء ان اخادع نفسي واتطامن الى ضميره.. انه لا يتعفف عن عرضها للبيع.. ويعقد صفقة مع أي ثري يدفع له الثمن.. فأي شيء يبقى لي بعدئذ في هذه الدنيا؟

صرخ ابو البينه في وجه زوجته:

- امشوا عني.. ما محتاز احد منكم.. آنه موش دجاجة وياكلها الواوي.. انه زلمه وتفكتي بيدي..

ثم لطم رأسه ووجهه واضاف:

- احوه.. احوه.. اروح لأهل البترا واسمع ضحچهم عليّ..؟

يا احميد يا بويه.. "كلها اتهون الا الشاوردي!" تحملت مصيبة افلوسك يا احميد يبويه.. مصيبة الالاف. "عشم وزرگ". وتحملت خسارة الموامنه-

اللي بعد ما اصدگ بحچيهم.. وتحملت نص من اعيال بيتي بالهور..
واتحمل اتعوفوني كلكم.. بس الشماته.. وضحچة الشامت ما اتحملها!

الفصل الأخير

انتهى الجزء الرابع من الرواية

رواية جديدة

مسودات رواية جديدة تقدم الى رقيب المطبوعات في وزارة الاعلام، وحالما يضع "طمغة!" الموافقة عليها، تدفع الى المطبعة "فورا!"

شيء عن الرواية

قدمت مسودات الرواية الى لجنة تعضيد النشر، بوزارة الاعلام على امل نشرها في سلسلة مطبوعات الوزارة، اوتعضيدها. وانتظرت حوالي خمسة شهور، بأيامها ولياليها، ولم تظهر النتيجة. وعندها نشرت في جريدة التاخي (العدد ١٠٩٧- ٣٠ تموز ١٩٧٢) الكلمة التالية:

السؤال لك يا سيادة وزير الاعلام

منذ زمن ضاع تاريخه لم تبق منه إلا معالم جزئية، عالقة بالذاكرة، أمكنني الرجوع إليها، والاستفادة من معرفة الفصل. كان الصباح شتويا، أتذكر ذلك جيدا، لارتباطه بحادث بهيج..!: ارتدائي للبدلة -الكحلية- الأنيقة لأول مرة.. خطوت على مهل، مع شيء من الزهو! صعدت بالاسانسير. قرعت الباب. صبحت بالخير. قوبلت بترحاب منعش. ومع ذلك لم تشغلني بدلتي ولا الترحاب عما بين يدي. إنني احمل أصدقائي بين يدي. أصدقائي الذين عايشتهم، ليالي الشتاء الطويلة.. أحاورهم، أتخيلهم.. أبدل بعض ملامحهم.. أضيف عبارة.. او احذف لفظة.. وفي نهاية المسيرة مع -الدفترين- توطدت صداقتي مع حسين، على نحو عجيب.. أناجيه وأناغيه.. أحياناً أصغي إلى أشعاره، وكأنني اسمع صوته، برغم مسافة السنين.

اوضح لي السيد مسؤول لجنة تعضيد النشر: ان هذين الدفترين لابد لهما من المرور بلجنة وخبير..ثم العودة من الخبير إلى اللجنة.. وقيل لي فيما بعد، ان الخبير يحيي ويميت.. فأصبت بالوسواس، ورحت أسائل الناس، من آن لآخر ألا تعرفون شيئا عن الخبير؟ من هو الخبير فتلقيت إجابات مختلفة مؤداها ان محاولة معرفة الخبير تورث الصداع في الأقل. ويوما بعد يوم أصبت بعقدة الخبير.

مرة دعوت له بطول البقاء وموفور العافية –دون تعارف بيننا.. حتى دون معرفة اسمه–. ومرة سألت نفسي ماذا لو مرض الخبير؟! فأجبت: سيطول انتظاري لمعرفة النتيجة.

ويوم بدأت مفاوضات النفط.. تضاعفت وساوسي.. وهمست لنفسي: ليتها تخرج من يد الخبير، فتنطلق أحلام –حسين– ..وتسمع الناس آهاته الحزينة، التي طالما قطعت سكون الليل حزنا على ولده البكر الذي استشهد في مذبحة كاورباغي:

–آخ! الانگريز.. آخ النفط!

وتمنى لو تمثلت شركة النفط بشخص.. لأنقض عليه كالصقر ونام، بعدئذ في لحده قرير العين.

وصرت أتعجل رأي الخبير وأسائل كل صديق، صاعد او نازل في سلم او اسانسر وزارة الأعلام.

وجاءت الضربة الحاسمة، في الأول من حزيران.. وفي لحظات الانفعال، تذكرت حسين.. لقد تحققت أحلامه، وثأر لولده من –الانكريز– ومن شركة النفط..

لكن أحلام الرجل المكتوبة لما تزل حبيسة في أدراج مكتب الخبير.

ثم استدراك له ضرورة: لم استهدف من كل هذا، ان الرواية صالحة للتعضيد او النشر. لكن المؤكد -جدا- والذي لا جدال فيه، ان أمنيات حسين، التي تحققت تصلح لان يراها الناس.

وثمة حقيقة بالتواريخ، ان مسودات الرواية قدمت قبل مفاوضات النفط. التي مرت بآلاف التعقيدات، وملايين المناورات من جانب الاحتكارات النفطية، ومع ذلك حسمت المعركة، وأممت عمليات شركة نفط العراق.. وتحققت أحلام حسين، وما تزال مسودات -الزناد- بين أوراق الخبير، او أية أوراق أخرى، المهم أنها حبيسة..

أليس من حقي ان أتعجل إطلاق سراحها؟

شمران الياسري

وبعد أسبوع نشرت مديرية الثقافة العامة بوزارة الأعلام (في جريدة التآخي) الإيضاح التالي:

إيضـــاح

نشرت جريدة -التآخي- في عددها الصادر يوم الأحد ٣٠ تموز ١٩٧٢ خاطرة صغيرة بقلم شمران الياسري موجهة إلى السيد وزير الاعلام تتضمن استفساراً حول -روايته- التي قدمها الى لجنة تعضيد النشر قبل اشهر بغية تعضيدها على غرار ما يجري لغيرها من المؤلفات وتنويراً للحقيقة نود ان نذكر الإيضاح التالي:

قدم السيد شمران الياسري مخطوطة -روايته- (الزناد) وتقع في جزئين الى لجنة تعضيد النشر. والعادة المتبعة في اللجنة ان تحال مسودة الكتاب

الى –خبير– يبدي ملاحظاته ويبين رأيه ان كان يرشحها للطبع او التعضيد.. وقد أحيلت الرواية المذكورة وقدم تقرير بشأن صلاحيتها للنشر او عدمه.. ملخصه ان مستوى الرواية بشكل إجمالي لم يكن مما يرشحها للتعضيد بسبب من اعتمادها طريقة سردية بطيئة الحركة على نحو مضجر. ورغم التزامها قانون التسلسل الزمني فأنها تقفز فوق بعض الأحداث المهمة والأساسية قفزا، هذا وقد فشلت الرواية في ان تربط ربطاً حيا النضال الطبقي في الريف العراقي بمجمل النضال الوطني اذ جعلت من الأحداث الوطنية التي وقعت في عموم القطر مجرد حوادث هامشية وخارجية وجردتها من آثارها العميقة في واقع المجتمع وعدا ما تقدم فأن المؤلف اعتمد –اللهجة– العامية في الحوار مما لا ينسجم مع خطة الوزارة التي تلتزم –الفصحى– في نشر الأعمال الأدبية وأما لغة الرواية بشكل عام فكانت اقرب الى اللغة الصحفية منها إلى اللغة الأدبية.. لذلك كان طبيعياً ان تعتذر اللجنة للسيد المؤلف عن تقديم المساعدة المالية لاسيما وان كتابه لم يحقق المستوى الفني واللغوي المطلوب. ولم يكن الوحيد الذي اعتذر له فقد بلغ عدد الكتب المعتذر عنها في المحضر السابق للجنة ٤٥ كتابا لمؤلفين عراقيين و٧ كتب لمؤلفين عرب وكان حرياً بالسيد المؤلف ان يتسلم مخطوطة كتابيه من اللجنة غب الاعتذار الا انه آثر ان يبقيها لدى اللجنة معتقداً إنها ما تزال –حبيسة– للأسف الشديد.

مدير الثقافة العامة

فاغتنمتها فرصة -ليس لتوضيح بعض الحقائق وحسب- بل من اجل "الدعاية!" لروايتي. فنشرت (في جريدة التآخي- ٢٢-٨-١٩٧٢) الرد التالي:

شكرا لوزارة الإعلام على هذا التثمين الذي لا تستحقه الرواية!!.

لابد لي ان اشكر لجنة تعضيد النشر، لإيضاح موقفها من رواية -الزناد-. وقد تضمن إيضاحها ما سمي بملاحظات -الخبير- وتقييمه السلبي لمستوى الرواية وما قيل عن -فشلها- في ان تربط ربطا حيا النضال الطبقي في الريف بمجمل النضال الوطني واعتراض اللجنة على استعمال اللهجة العامية في الحوار باعتباره لا ينسجم مع خطة الوزارة التي تلتزم الفصحى في نشر الأعمال الأدبية.

كما تضمن الإيضاح واقعة، هي ان اللجنة اعتذرت للمؤلف عن تقديم المساعدة المالية وعتب على المؤلف حيث كان حريا به ان يتسلم مخطوطة كتابه -غب- الاعتذار.

فما الذي أريد قوله، بعد ان أخذت الرواية طريقها الى المطبعة، وستكون بين ايدي القراء عما قريب حيث تولت طبعها مجلة -الثقافة الجديدة- كجزء من سلسلة منشوراتها. داعية قراءها وأصدقاءها الى تعضيد نشر الرواية، بشراء النسخ مقدما؟

١-ان إيداع الرواية إلى خبير -معين- لم يكن محض صدفة، بل كان أمرا قصد منه الوصول إلى النتيجة -إياها-.

وكان بوسعي أن أثبت هنا تقييم خيرة النقاد، الذين قرأوا الرواية، ولكنني تنبهت إلى ان هذا لا يغير من الموضوع بالنسبة للخبير، لان النقاد

أصدقائي، ولابد ان يتخذ من هذه الصداقة سببا للنيل من شأن أحكامهم.

أما -ضجر- الخبير من قراءتها، فتلك مسألة نسبية ولا يمكن اعتبارها سبباً من أسباب الرفض.. وانه لأمر طبيعي ان يضجر -الخبير- من قراءتها.. أما بالنسبة لعموم القراء، فبوسعي ان احكم سلفا على مدى استمتاعهم بقراءتها..

٢-ابلغني احد أعضاء لجنة تعضيد النشر قبل أيام من نشر كلمتي الموجهة للسيد وزير الإعلام: ان النية متجهة داخل اللجنة الى تكليف خبير آخر بقراءة الرواية.. وقد أورد ذلك جوابا على أسئلتي المتكررة عن مصيرها.. ولم ابلغ أطلاقا بقرار الرفض.. الا بعد نشر كلمتي بيومين.

٣- تتزاحم على الذاكرة أسماء كتب نشرتها وعضدتها الوزارة منها ما -يربط ربطا محكما- بين النضال الوطني والنضال التحرري في العالم -جدا- مثل كتاب العرب واليهود في التاريخ ومنها -ما نجح نجاحا منقطع النظير- في تحقيق المستوى الفني المطلوب.... وأسماء تلك الكتب معروفة لمن قرأوا منشورات الوزارة.

وعلى هذا الأساس رفضت لجنة تعضيد النشر ان تساعد على إخراج روايتي ووضعها بين أيدي القراء، ولا يسعني إلا أن اشكر الوزارة على هذا التثمين الذي لا تستحقه الرواية!

شمران الياسري

كلمة شكر للأصدقاء

كانت "الثقافة الجديدة" خلال فترة الإيضاحات، قد اتخذت قرارا بنشر الرواية. وطلبت من القراء تعضيدها. فتوافد الأصدقاء على إدارة المجلة، لشراء نسخ الرواية مقدما..

ولابد من الإشارة الى صديق، بعث ظرفاً مختوماً يحوي مائة دينار- مع كلمة اعتذار جاء فيها "هذا ما أستطيع المساهمة به لنشر الرواية.." ولم يكشف ذلك الصديق عن اسمه، ولم يدل على عنوانه..

فشكراً لكل الأصدقاء..

وعهدا على تنمية تلك الصداقة والحفاظ عليها.

ابو كاطع

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية
ببغداد ٩٣٣ لسنة ١٩٧٢
رواية فلوس أحميد



أدباء - كتبوا عن المؤلف وعن الرواية

مقتطفات من مقالة كتبها الاد يب (ياسين النصير) في ذكرى وفاة المؤلف بعنوان :

أدباء عراقيون (ابو كاطع : شمران الياسري)

لم تعد ذكرى شمران الياسري " أبو كاطع" مجرد ذكرى لأديب مات في الغربة، بعيدا عن أهله واصدقائه وأرضه، فالموت في الغربة هذه الأيام من أكثر الأمور عادية في حياة الأدباء والمثقفين العراقيين.

فهو موت للجسد وموت للذاكرة أيضاً.

كما هو موت لأدباء الداخل أيضا، ذلك النمط الذي لم تشهد مثله بلدان العالم ،هو أن يموت الأديب نتيجة نقص في الحرية والرأي والدواء.

وعندما يكون المثقف في مثل هذا الحال، يأتي الزمن على بقيته المتعبة فيصادرها القبر والكفن.

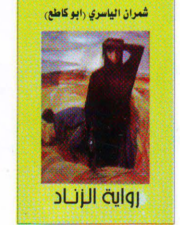
هي أذن محنة الثقافة التي أراد زبانيتها في العراق أن تتحول إلى ثروة مهملة ملغية ومتروكة على أرصفة الموانئ والطرقات.

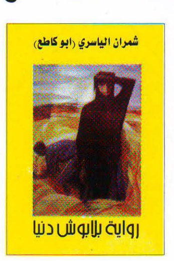
ومما يزيد الوجع ، أن المثقفين في الخارج بدأوا ينسون أمثال (أبو كاطع) الصوت الشعبي الممتلئ ثقافة بالحياة، الصوت النقي الذي امتلأ ب(لا) السياسية والثقافية، فيحول مفرداتها البسيطة إلى حكم وأمثال شعبية – سياسية ، ذلك الصوت الذي كان يهدر من إذاعة بغداد ببرنامجه المعنون " أحچيها بصراحة."

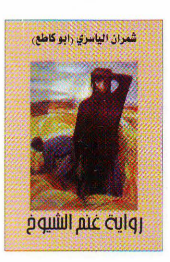
يكتب أبو كاطع احاديثه الإذاعية باللهجة الشعبية المفهومة من قبل كل العراقيين مستجلبا فيها حسجة الجنوب، وموال أواسط الفرات، وهوسات العشائر وغناء البادية، ومنابر الحسينيات، وثقافة الريف الحكائية.

من داخل هذا التركيب الثقافي العراقي الغائر في الشعبية، كتب أبو كاطع روايته المهمة "الرباعية " حيث جسد فيها تاريخ المجتمع العراقي من خلال مفردات الريف الاقتصادية والسياسية والفكرية بنماذج لا تنسى، وبشخصيات حية مكسوة بلحم العراق السياسي وبدمه الوطني وبثقافته الفطرية.

رباعية ابو كاطع







شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ - الطبعة الثانية ٢٠٠٧